دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٤

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

المراهق ١

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الرابع عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة ـ ١٨ مجلدًا
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي
الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧
الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان ـ شارع فردان ـ بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ ـ هاتف: ٣٥٢٨٣٢
الخطوط والغلاف: عماد حليم
طبعت بإشراف: نتوورك ـ ايطاليا ١٩٨٥
Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

المراهقة

١

« المراهق » ، نشرت هذه الرواية أول مرة في مجلة « حوليات الوطن » ، المجلد ٢١٨ ـ ٢٢٣ ، من شهر كانون الثاني (يناير) الى شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٧٥

الفصل الأول

١

لقد فرغ صبري ، فهأنا آخذ بكتابة قصة خطواتي الأولى في طريق الحياة . وكان يمكنني مع ذلك أن أستغني عن هذا . ان هناك شيئا محققا لا ريب فيه ، هو أنني لن أكتب سيرة حياتي عن غير هذه الفترة ، ولو قدّر لي أن أعيش مائة سنة . فلا بد أن يكون المرء حقيرا في شدة افتتانه بنفسه حتى يتحدث عنها بغير خجل ولا حياء . وشفيعي الوحيد فيما أفعله الآن هو أن الذي يحدوني الى الكتابة ليس ما يحدو اليها سائر الناس : انني لا أكتب بغية الحصول على اعجاب القارىء ومديحه . ولئن خطر ببالي فجأة أن أسجل ، كلمةً كلمة ، كل ما وقع لي منذ السنة الماضية ، فانما تدفعني الى ذلك حاجة داخلية : ان الوقائع التي تحققت قد خطف بصري وملأت عليّ نفسي . وسأقتصر على تسجيل الأحداث ، متحاشيا ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أتعرض لما هو غريب عنها ، ومتحاشيا ألاعيب الأدب وزخارف البيان . رب أديب يسلخ من عمره ثلاثين عاما في الكتابة ، ثم هو يجهل آخر الأمر لماذا كتب طوال هذه السنين . ولست بالأديب على كل حال ، ولا أنا أحب أن أكون أديبا . وعندي أن استخراج ما تنطوي عليه نفسي ومحاولة وصف عواطفي

من أجل أن أعرضها فى سوق الأدب هى فى نظرى من الأمور المعيبة التى تدل على صغار . ومع ذلك أتنبأ ، على كره منى واستياء ، أنه قد يستحيل على أن أتحاشى وصف عواطفى تحاشيا كاملا وأن أتجنب عرض تأملاتى وأفكارى ولو كانت عامية : فالى هذا الحد يسقط العمل الأدبى بصاحبه ولو كان لا يفعله الا لنفسه . وقد تكون هذه الأفكار على جانب عظيم من العامية ، ذلك أن ما تقدرونه أنتم قد لا يكون له أية قيمة فى نظر انسان غريب . على أن هذا الكلام كله استطراد . وهأنذا فرغت من التمهيد ، ولن أعود بعد الآن الى شىء من ذلك . فلأبدأ العمل ، وان لم يكن ثمة شىء أعسر من الشروع فى تأليف كتاب ، وربما لم يكن هناك شىء أعسر من الشروع فى العمل على وجه الاجمال .

٢

سوف أبدأ أو قل انني أريد أن أبدأ مذكراتي بيوم ١٩ ايلول (سبتمبر) من السنة المنصرمة ، أى على وجه الدقة باليوم الذى التقيت فيه أول مرة بـ ..

ولكن .. لأن أذكر الشخص الذى التقيت به سلفا على هذا النحو، فى حين أن أحدا لما يعرف شيئا فذلك أمر عامى ؛ بل انني لأعتقد أن هذه اللهجة نفسها عامية ، فهأنذا أقع فى الزخرفة الأدبية بعد أن آليت على نفسى أن أجتنبها . ثم انه ليس يكفى المرء أن يرغب فى الكتابة على نحو معتدل حتى يستطيع أن يفعل ذلك . وأحب أن ألفت نظركم أيضا الى أننى أعتقد أنه ليس هناك لغة أوروبية تصعب الكتابة فيها كما تصعب الكتابة فى اللغة الروسية . لقد أعدت الآن قراءة ما كتبت فى هذه اللحظات ، فلاحظت أننى أذكى كثيرا من هذا الذى كتبته . فلماذا تكون الأشياء التى يعبر عنها انسان ذكى أغبى كثيرا مما يبقى فى ذهنه ؟ لقد لاحظت هذا الأمر فى نفسى غير مرة ، ولاحظته فيما أقوله للناس طوال هذه السنة الماضية الحاسمة ، ولقيت من ذلك عذابا أليما .

ورغم أننى أبدأ باليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، فسأقول بكلمتين ؛ من أنا وأين كنت قبل ذلك التاريخ ثم ما لعله كان قائما فى ذهنى ، ولو جزئيا ، فى ذلك الصباح من اليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، بغية أن أيسر الفهم على القارىء ، وربما على نفسى أيضا .

٣

أنا طالب قديم من طلاب المدارس الثانوية ، وقد بلغت الآن السنة الواحدة والعشرين من عمرى . اسمى دولجوروكى ، واسم أبى الشرعى ماكار ايفانوف دولجوروكى ، وهو قن سابق من أقنان الأسياد آل فرسيلوف . أنا اذن ابن شرعى ، رغم أننى ولد غير شرعى الى أقصى حد ، ورغم أن نسبى أمر محقق لا يساور الشك فيه أحدا من الناس . واليكم تفصيل ذلك : منذ اثنين وعشرين عاما زار مالك الأطيان فرسيلوف (وهو أبى) أراضيه فى مقاطعة تولا . واننى لأفترض أنه كان حتى ذلك الحين انسانا تافها ، وأستغرب كيف أن هذا الانسان الذى خطف بصرى منذ طفولتى الى هذا الحد ، وأثر فى تكوين نفسى تأثيرا يبلغ هذا المبلغ من القوة ، وألقى ظله علىّ زمنا لعله طويل ، لا يزال الى اليوم لغزا فى نظرى من وجوه لا حصر لها . ولكننى سأعود الى هذا الأمر من بعد . ليس سهلا على المرء أن يأخذ بسرد قصة . ومهما يكن من أمر فان هذا الرجل سيملأ كتابى كله .

كان فرسيلوف فى ذلك الحين يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وكان قد فقد زوجته منذ زمن قصير . وكانت زوجته هذه فتاة تنتمى الى المجتمع الراقى ، ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثراء ، وكان اسمها فاناريوتوفا ، وقد أنجب منها صبيا وبنتا . ان ما أعرفه عن هذه الزوجة التى توفيت فى سن مبكرة ناقص كثيرا ، ضائع فى ثنايا الأمور التى عرفتها وجمعتها . هذا الى أن كثيرا من ظروف حياة فرسيلوف تفوتنى ، لأنه كان يعاملنى دائما فى كبر وتعال ، وكان يغلق نفسه دونى ، وكان يهملنى ، رغم ما كان يظهره تجاهى من مذلة تدعو الى الدهشة فى بعض الأحيان .

يجب أن أذكر على سبيل العلم بالشيء أنه قد بدد أثناء حياته ثلاث ثروات ، ثروات ضخمة ، يبلغ مجموعها أكثر من ٤٠٠٠٠٠ روبل أو يزيد . وهو لا يملك الآن كوبيكا واحدا بطبيعة الحال .

لقد جاء يومئذ الى أراضيه « لا يدرى لماذا الا الله » ؟ أو هذا على الأقل ما ذكره لى بعد ذلك شارحا . ولم يكن طفلاه الصغيران معه ، بل كانا عند أقارب له ، على عادته دائما ، فكذلك كان يفعل بأعقابه طوال حياته ، شرعيين كانوا أو غير شرعيين . وكان فى أملاكه عدد كبير من الخدم ، أحدهم هو البستانى ماكار ايفانوف دولجوروكى . وأضيف هنا ، حتى لا أضطر الى العودة الى هذا فيما بعد ، أنه قلّ بين الناس من كرهوا اسمهم ولعنوه كما كرهت اسمى ولعنته طوال حياتى . كنت كلما دخلت مدرسة أو التقيت بناس تضطرنى سنى الى الاجابة عن أسئلتهم ، من معلمين أو مربين أو مراقبين أو كهنة أو أى أحد من هذا القبيل ، أسأل عن اسمى ، فاذا عرفوا أن اسمى هو دولجوروكى ، شعروا بالحاجة الى أن يسألونى :

ـ الأمير دولجوروكى ؟

فأضطر فى كل مرة أن أشرح لجميع هؤلاء الخليين :

ـ بل دولجوروكى فحسب .

وانتهت هذه الـ « فحسب » الى اثارتى اثارة تبلغ حد الجنون . يجب أن أقول ، من قبيل الاطلاع على هذه الواقعة ، أننى لا أذكر أن أحدا من الناس أغفل أن يطرح على هذا السؤال : صحيح أن بعضهم كان يطرحه دون أى اهتمام (ولست أدرى فى الواقع فيم كان يمكن أن يهمهم هذا الأمر) ، ولكنهم كانوا يطرحونه جميعا ، من أولهم الى آخرهم . حتى اذا عرف السائل أن اسمى دولجوروكى فقط رمقنى فى العادة بنظرة حمقاء لا معنى لها ولا مبالاة فيها تدل على أنه كان لا يعرف

هو نفسه لماذا ألقى هذا السؤال ثم انصرف . ولكن الذين كانوا يجرحون شعورى أكثر من سائر الناس انما هم رفاق المدرسة . كيف يسأل تلميذ من التلاميذ رفيقا جديدا ؟ ان التلميذ الجديد ، التائه اللب المضطرب النفس ، فى اليوم الأول من دخوله المدرسة (أية مدرسة) هو فريسة للتلاميذ يتندرون عليه ويضطهدونه ويسومونه سوء العذاب : انهم يتحكمون فيه ، يغيظونه ، يعاملونه كما يعامَل خادم . هذا طفل قوى البنية ممتلىء صحةً وعافية يقف فجأة أمام ضحيته وجها لوجه ويتفرس فيه بضع لحظات ناظرا اليه نظرة قاسية وقحة ، فيجمد التلميذ الجديد أمامه صامتا ينظر اليه من جانب ، اذا هو لم يكن جبانا ، وينتظر ما سيقع من أحداث .

ـ ما اسمك ؟

ـ دولجوروكى

ـ الأمير دولجوروكى ؟

ـ بل دو لجوروكى فقط .

ـ ها .. فقط .. بلاهة !

وانه لعلى حق : فلا شىء أشد بلاهة من أن يكون اسم المرء دولجوروكى دون أن يكون أميرا . وهذه بلاهة أجرها ورائى دون أن يكون لى فى ذلك ذنب . وفيما بعد ، حين أصبحت أغضب من هذا الأمر غضبا شديدا ، صرت أجيب دائما عن سؤال من يسألنى « هل أنت أمير ؟ » بقولى :

ـ بل أنا ابن خادم كان قنا .

وبعد ذلك أيضا ، حين أهاجنى السؤال فى ذات يوم اهاجة عنيفة، وجدتنى أجيب عنه بقوة وحزم قائلا :

ـ بل اسمى دولجوروكى فقط ، وأنا ابن غير شرعى لمولاى السابق الأمير فرسيلوف .

لقد أحسست حين اهتديت الى هذا الجواب بأنني كنت فصيحا غاية الفصاحة ، ورغم أنني لم ألبث أن أدركت أن في هذا الجواب حماقة لا محل لها ، فانني لم أعدل عنه فورا . أذكر أن أحد أساتذتي اكتشف ـ وهو الأستاذ الوحيد الذي اكتشف ذلك ـ أنني « ممتليء النفس بمعاني الانتقام والتمرد » . ويمكن أن أقول على وجه العموم ان الناس استقبلوا غضبي هذا بجد لا يخلو من اهانة لي . وقد اتفق أن قال لي أحد رفاقي ، وهو فتى قصير القامة سليط اللسان ، لم أكن أخاطبه الا مرة في العام ، قال لي وقد لاح في وجهه تفكير عميق وأشاح بصره عني قليلا :

ـ هذه المشاعر تشرفك طبعا ، ولا شك في أن هناك ما يدعوك الى الاعتزاز والفخر ، ولكنني لو كنت في مكانك لما زهوت كثيرا بكوني ابن زنا .. لكأنك من هذا في عرس حقا !

وأصبحت منذ ذلك الحين لا أباهي بأنني ولد غير شرعي .

أعود فأقول ان الكتابة باللغة الروسية أمر شاق جدا : لقد سوّدت حتى الآن ثلاث صفحات من أجل أن أشرح كيف كان استيائي من اسمي طوال حياتي ، ولا شك في أن القاريء قد خلص من هذا الى اعتقاد صادق ساذج بأن مرد غيظي الى أنني لست أميرا ، بل دولجوروكي فقط . ولكنني لن أتدنى الى حيث أشرح الأمر وأبريء نفسي مرة أخرى .

٤

بين ذلك العدد الكبير من الخدم كان هنـالك ، عدا ماكار ايفانوف ، فتاة كانت في نحو الثامنة عشرة من عمرها حين أظهر ماكار دولجوروكي ، فجأة ، وهو في الخمسـين من عمره رغبته في تزوجهـا . وأنتم تعلمون أن الزواج بين الأقنان الخدم في عهد القنانة انما يتم بموافقة الأسـياد ، وربما تم أحيـانا بأوامر منهم . وكان يسـكن في المنطقة أيامئذ سيدة يسـميها الناس عمة ، والحق أنها لم تـكن عمة أحد . لكنني لا أدري لماذا كان جميع الناس يسـمونها عمة ، عمة على وجـه العمـوم ، حتى لدى أسرة فرسـيلوف التي لعلهـا كانت تربطها بها صـلات قرابة . ان اسـمها تاتانيا بافلوفنا بروتكوفا . وكانت تملك هي أيضـاً ، في ذلك العهد ، في تلك المنطقة نفسها ، خمسة وثلاثين « نفسا » ؛ وكانت بحكم الجوار تدير أملاك فرسيلوف (٥٠٠ نفس) أو قل تشرف عليها ؛ وكان هذا الاشراف ، فيما قيل لي ، يسـاوي اشراف أي موظف من الموظفين المتعلمين الذين يملكون خبرة خاصة . على أن معارفها هـذه لم تكن تهمني في شيء . وانما أريد أن أضيف ، متجنبا كل رغبة في المديح أو التملق ، أن تاتانيا بافلوفنا هذه كانت مخلوقة نبيلة بل وأصيلة .

لم تعارض هذه السيدة رغبة ماكار دولجوروكي القاتم المزاج (يظهر أن مزاجـه كان قاتما جدا) ، بل شجعته أكبر تشجيع . وكانت صوفيا آندريفنا (تلك الخـادم التي كانت في الثامنة عشرة من عمرها ، وهي أمي) قد تيتمت منـذ سـنين ؛ وكان أبوها الذي كان يحتـرم ماكار دولجوروكي احتراما عظيما ويضمر له امتنانا كبيرا لا أدري ما مصدره، كان أبوها هذا قنا كذلك ، فلما وافاه المرض قبل ست سنين ، ورقد على

سرير الموت ، بـل وقبـل أن يلفظ أنفاسـه الأخيرة بربع سـاعة فيما يدَّعى بعض الناس ، حتى لقد كان يمكن أن تعد وصيته نتيجة من نتائج الهذيان لولا أنه قن لا يملك أن يوصى بشيء ، دعا اليه ماكار دولجوروكى وقال له أمام الناس وبحضور الكاهن ، قال له بصوت عال وهو يومىء بيده الى ابنته : « نشِّئها واتخذها زوجة لك » . لقد سمع الناس جميعا هذا الكلام . أما ماكار ايفانوف دولجوروكى فانني لا أدرى ما هى العواطف التى حملته على الزواج : أهو تزوج راغبا فى هذا الزواج مبتهجـا به ابتهاجا كبيرا ، أم هو تزوج قياما بواجب ووفاء بعهد ؟ أغلب الظن على كل حال أنه أقبل على هذا الزواج بمظهر من لا يبالى الأمر ولا يكترث به . لقد كان رجلا يعرف منذ ذلك الحين كيف يصطنع المظهر الذى يجب أن يظهـر به . وهو على عدم درايته العميقة بالكتب المقدسة وعلى جهله القراءة والكتابة (ولكنه كان يحفظ الصلوات على ظهر القلب ، ويعرف خاصة تاريخ حياة بعض القديسين ، عن طريق السماع) ، كان ذا طبع حازم ، بل كان فى بعض الأحيان على جانب من جرأة ومجازفة . كان بطيء الكلام ، قاطع الأحكام ، وكان يعيش حياة كريمة فاضلة على حد تعبيره الغريب . كذلك كان هذا الرجل فى تلك الأيام . وكان طبيعيا أن يتمتع باحترام الناس كافة ، ولكن يقـال ان الناس كانوا فى بعض الأحيان يستثقلون ظله ولا يطيقونه . غير أن كل شيء قد تغير حين ترك المنزل : فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك الا حديثه عن قديس أو شهيد . ذلك كله أعرفه من مصدر مطلع .

أما أمى فقد احتفظت بها تاتانيـا بافلوفنا قريبةً منها حتى السـنة الثامنة عشرة من عمرها رغم ارادة الخطيب الذى كان يريد أن يعلمها بموسكو ، فثقفتها بعض الشيء ، علمتها الخياطة والتفصيل وآداب الحياة الاجتماعية بل علمتها القراءة قليلا . أما الكتابة فلم تتوصـل أمى الى اجادتها يوما . وكان هذا الزواج بماكار ايفانوف أمرا مقررا فى نظرها

منذ زمن بعيد ، وكل ما وقع لها عندئذ قد بدا لها رائعا وقيدت الى المعبد طائعة مختارة ، يبدو على وجهها أكبر هدوء يمكن أن يظهر على وجه فتاة في حالة كهذه ، حتى ان تاتانيا بافلوفنا قد وصفتها حينذاك بأنها أشبه بسمكة . ان تاتانيا بافلوفنا هذه هي التي أطلعتني على ما يتعلق بطبع أمي في ذلك العهد . وقد وصل فرسيلوف الى أراضيه بعد هذا الزواج بستة أشهر تماما .

ولا أستطيع أن أحزر على نحو يرضيني كيف بدأت الأمور بينه وبين أمي . واني لأميل الى تصديق ما أكده لي هو نفسه في العام الماضي محمر الوجه ، رغم أنه روى لي القصة كلها مسترسلا منطلقا « مرحا » ، فقال ان الأمر لم يكن حكاية طويلة ، وان كل شيء قد جرى من تلقاء نفسه « هكذا » .. أعتقد أن ذلك صحيح ، وأن كلمة « هكذا » هذه كلمة موفقة رائعة . ورغم كل شيء فقد ظللت دائما شديد الرغبة في أن أعرف كيف بدأ هذا الأمر . لقد كنت دائما وما أزال أحتقر هذه الأشياء القذرة . وطبيعي أن ما يؤجج في نفسي هذه الرغبة ليس من نوع الفضول السخيف . يجب أن أذكر لكم أنني حتى السنة الماضية لم أكن قد عرفت أمي ان صح التعبير ، فقد عهد بي الى غرباء منذ نعومة أظفاري ، من حرص فرسيلوف على تمتعه بالراحة وخلو البال (سأتكلم عن هذا فيما بعد) ، ولذلك لا أستطيع أن أتصور كيف كان وجهها أيامذاك . ترى اذا لم تكن جميلة ، فما الذي عساه أغرى بها رجلا مثل فرسيلوف ؟ تلك مسألة تهمني ، لأن الناس يرسمون لهذا الرجل هنا صورة غريبة كل الغرابة . ومن أجل هذا تراني ألقى ذلك السؤال ، فأنا لا ألقيه من قبيل فساد الخلق وفضول الطبع . لقد قال لي هو نفسه ، هذا الرجل القاتم المزاج المغلق النفس ، قال لي بتلك السذاجة المحببة التي لا أدري من أين كان يخرجها (كمن يخرج منديلا من جيبه) اذا أراد أن يخرجها ، قال لي انه كان في تلك الأيام « كلبا صغيرا أبله » ، وانه دون

أن يكون من أولئك الناس العاطفيين الحالمين كان قد قرأ منذ قليل قصة « انطوان الضحية » وقصة « بولين ساكس » ، وهما كتابان أدبيان أثرا في الجيل الجديد تأثيرا حضاريا لا يقدر مداه • وأضاف أنه لعله قد عاد الى الريف مدفوعا بتأثير « أنطوان الضحية » ، قال ذلك جادا أكبر الجد • فعلى أية صورة استطاع هذا « الكلب الصغير الأبله » أن ينشىء علاقة بينه وبين أمي ؟ يخطر ببالي في هذه اللحظة أنه لو كان هناك قارىء يقرأ هذا الكلام الذي أكتبه لانفجر يضحك على حتما ، ولعدّني مراهقا مضحكا لا يزال يحتفظ ببراءته الغبية ويطمع في فهم أمور لا يفهم منها شيئا البتة ! وهذا صحيح ، فانى مازلت لا أفهم من هذه الأمور شيئا ، وأنا أعترف بذلك بلا فخر ولا اعتزاز ، لأنني أعرف أن فقدان التجربة هذا أمر سخيف لدى شاب في الحادية والعشرين من عمره ، ولكنني سأقول لذلك السيد القارىء انه هو أيضا لا يفهم في هذه الأمور شيئا ، وسأبرهن له على ذلك • صحيح أنني لا أعرف من شئون النساء شيئاً ، ولا أريد أن أعرف شيئا أيضا ، وسأظل استخف بهذا ما حييت ، فقد آليت على نفسي أن لا أحفل به ، ولكنني أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتنك بجمالها أو بما لا أدري ، في طرفة عين ؛ و رب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر وأن ترى هذا السحر • فهذه المرأة الثانية ، اذا أردت أن تراها كاملة وأن تحبها لا يكفي أن تنظر اليها ، ولا يكفي أن تكون جريئا ، وانما ينبغي لك شيء آخر • انني من ذلك على يقين رغم أنني لا أعرف شيئاً ، والا كان يجب أن ننزل جميع النساء الى منزلة الحيوانات الداجنة وأن لا نحتفظ بهـا لدينـا الا على هذه الصورة • ولعل هذا ما يتمناه كثير من الناس •

وأنا أعلم من عدة مصادر أن أمي لم تكن على حظ كبير من الجمال، رغم أنني لم أر صورتها التي ترجع الى ذلك العهد يوما ، وهي صورة موجودة في مكان ما • فمن المستحيل اذن أن يفتن المرء بهـا من أول

نظرة • ولقد كان في وسع فرسيلوف لو أراد « التسلية » وحدها أن يختار امرأة أخرى ، وكان هنالك امرأة أخرى فعلا ، بل فتاة عـذراء هي آنفيزا كونستانتينوفا سابويكوفا ، التي كانت تعمل وصيفة في المنزل• أضف الى ذلك أن رجلا يصـل الى هنالك قارئا « أنطوان جورميكا » كان لابد أن يرى ، بحكم قوانين الأسياد ، أن محاولته اغراء امرأة هي زوج قن من أقنـانه شيء معيب • انه منذ أقل من شـهر ، أي بعد عشرين عاما انقضت على ذلك العهد ، كان لا يزال يتحدث عن أنطوان المسكين حديثا يبلغ غاية الجد ، مع أن ما سُلب من أنطوان كان حصـانه لا زوجته • فلا بد أنه قد حدث اذن يومئذ شيء جعل الآنسـة سابويكوفا تخسر القضية (وأنا أعتقد انها ربحتها) • لقد أتيح لي مرة أو مرتين ، في السنة الماضية (ولم يكن في الامكان التحدث اليه كـل يوم) أن ألقيت عليه هذه الأسئلة جميعها ، فلاحظت أنه رغم لباقته كلها ، ورغم انقضاء عشرين سنة على ذلك العهد ، لم يكن يجيب الا بعد رجاء كثير • ولكنني وصلت الى غاياتي ؟ أو قل ، على الأقل ، انه بفضل ذلك الاسترسال والانطلاق الذي كان يبيحه لنفسه في كثير من الأحيان ، قد ثرثر يوما في أمور غريبة • فقال ان أمي كانت من تلك النساء التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها ، ولا يمكن للمرء أن يحبها ، ولكنها ما تلبث على حين فجأة أن يشعر المرء نحوها بشفقة ، لا أدري لماذا ، أبسبب عذوبتها أم بسبب شيء آخـر ! لا أدري ! ولـكن الشفقة تدوم وتبقى ، وبهذه الشفقة يتحقق ارتبـاط •• « وأوجز لك الكلام يا صـغيري فأقول انه ليتفق للمرء أن يصبح عاجزا عن الانفصال • » • ذلك ما قاله لي • فاذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا ، كنت مضطرا أن أرى فيه امرءاً آخـر مختلفا كل الاختلاف عن « كلب صغير غبي » ، كما وصف نفسه بهـذا في ذلك الوقت •

وقد أكد لي بعد ذلك أن أمي أحبته عن « مذلة » حتى لقد أوشك

أن يقول انها أحبته عن « اطاعة كاطاعة العبيد » ! ولقد كذب ! كذب من قبيل التأنق ، كذب على ضـميره ، كذب على الشرف وعلى كرم النفس وسماحة الخلق .

رب قائل يقول انني أكتب هذا على سـبيل ازجاء المديح لامي ، ولكنني سبق أن أعلنت أنني أجهل جهلا مطلقا كيف كانت أمي في ذلك الوقت . وأكثر من ذلك أنني أعلم حق العلم ظـلام البيئة وسـخافة الافكار التي تعفنت فيها منذ طفولتها وعاشت وسطها طوال حياتها . وقد وقع البلاء على كل حال . يجب أن أبادر ، في هذه المناسبة ، الى بعض التصحيح : لقد تهت بين السحب ونسيت أمرا كان ينبغي في الواقع أن أبرزه قبل أي شيء آخر : وهو أن الأمور بينهما قد بدأت بوقوع البلاء راسا (أرجو أن لا يتظاهر القارىء بأنه لا يفهـم على الفور ما اريد أن أقوله) . أعني أن البداية كانت بداية سيد من الأسياد ، ولو أن الآنسة سابويكوفا قد تركت جانبا ولم تمس بسوء . ويجب أن أتدخل هنا فأعلن أن كلامي هذا لا يناقض ما سلف . في أي شيء ، يارب ، كان يمـكن أن يتحدث رجل مثل فرسيلوف الى امرأة كأمي حتى ولو كان الأمر أمر حب لا سبيل الى مقاومته ؟ لقد سمعت رجالا فاسقين يقولون انه ليتفق في كثير من الأحيـان لرجل يواجه امرأة أن يبدأ الفعل بدون أن يقول كلمة واحدة ، وواضح أن هذا منتهى الشذوذ ، وأنه يثير أقصى الاشمئزاز . وعندي مع ذلك أن فرسيلوف ما كان له أن يبدأ غير هذه البداية مـع أمي ولو أراد . أكان يستطيع أن يبدأ بأن يشرح لها « بولين ساكس » ؟ ولقد كان الأدب الروسي أيسر الأمـور شأنا عندهما ، على حد تعبيره هو (حين كشف عن نفسه أمامي ذات يوم) . لقد كانا يختبئان في الزوايا والأركان ، ويتربص أحدهما بالآخر على السلالم ، حتى اذا مر بهمـا أحد وثبـا بعيدا كوثوب كرتين ، وقد احمر خجلا ؟ وكان « الطاغي » يرتجف ويرتعش أمام أية كناسة تكنس الأرض ، رغم ما له من حقوق

الاقطاعى • واذا كانت الأمور قد بدأت على نحو ما يبدؤها الأسياد ، فقد استمرت على هذا النحو ، ولكنها لم تبق كذلك تماما ؛ والحق أنه ليس لهذا تفسيرات يجب البحث عنها ، فأمثال هذه التفسيرات لا يمكن الا أن تزيد الظلمات كثافة • ان الأبعاد التى بلغها حبهما هى فى حد ذاتها لغز ، لأن الشرط الأول لدى أناس مثل فرسيلوف هو أن يدعوا كل شىء حيث هو ، متى حققوا هدفهم وقضوا وطرهم • لكن الأمور تمت على غير هذا النحو • فلأن يزنى امرؤ بامرأة جميلة ناقصة العقل من الاقنان (ولم تكن أمى ناقصة العقل على كل حال) فذلك أمر هو فى نظر « كلب صغير » فاسق (ولقد كانوا جميعا فاسقين ، من أولهم الى آخرهم ، تقدميين ورجعيين على السواء) فذلك أمر ليس ممكنا فحسب ، بل هو لا مناص منه أيضا ؛ لاسيما اذا تذكرتم وضع أبى من حيث أنه ترمل شابا ومن حيث أنه عاطل لا يعمل شيئا • أما استمرار الحب مدى الحياة فأمر خارق • ولست أضمن أنه أحبها على كل حال ، ولكننى أعلم واقعة ثابتة هى أنه جرها وراءه طوال حياته •

لقد ألقيت أسئلة كثيرة ، الا أن بين هذه الأسئلة سؤالا هو أهمها جميعا ، لم أجرؤ أن أطرحه على أمى طرحا قاطعا ، رغم أننى تقربت اليها كثيرا فى السنة الماضية ، ورغم أننى بفظاظتى وعقوقى وشعورى بأننى مجنى علىّ لم أتحرج معها قط • ذلكم السؤال هو كيف أمكنها ، هى المتزوجة منذ ستة أشهر ، هى التى تسحقها معانى قداسة الزواج سحق ذبابة ، كيف أمكنها ، بعد مالا يزيد على خمسة عشر يوما ، أن تسقط فى خطيئة كهذه الخطيئة ؟ ثم انها لم تكن امرأة منحرفة عن الصراط ، بالعكس ، حتى ليمكننى ان أقول ، مستبقا الأمور ، ان من الصعب على المرء أن يتصور نفسا ظلت طاهرة مدى الحياة كنفسها • فليس هناك من تفسير اذن الا أن نقول انها فعلت ما فعلته على غير وعى منها ولا شعور ، لا بالمعنى الذى يستعمله المحامون فى هذه الأيام حين يصفون بذلك

موكليهم من القتلة واللصـوص ، بل بالمعنى الذى يصدق على انفعال من تلك الانفعالات العارمة التى تعصف بضحية ساذجة فتدنيها من الفاجعة • ومن يدرى مع ذلك : لعلهـا أحبت حبـا شديدا تفصيلة ملابسـه وفرقة شعره على طريقة أهل باريس ، أو نطقه الفرنسى (نعم ، الفرنسى) الذى لم تكن تفهـم منه شـــيئاً ، أو العاطفى الذى عزفه على البيـانو ! لقد احبت فيه شـيئا لم تر مثله فى حياتهـا (وكان رجلا بارع الجمال) ، ثم أحبته كله الى حد التهالك والسقوط ! •• لقد سـمعت من يقول ان هذا كان يقع أحيانا للفتيات من الاقنان فى عهد القنانة ، بل كان يقع مثله لأكثرهن تمسكا بأهداب الشرف • وانى لا أفهم ذلك • وعندى ان من الخطأ أن نرده الى العبودية و « المذلة » وحدهما •وأغلب الظن اذن أن هذا الرجل كان يملك من القوة ومن الاغراء ما يكفى لاجتذاب مخلوقة كانت حتى ذلك الحين بريئـة تلك البراءة كلهـا ، وكانت على وجـه الخصوص غريبة تلك الغرابة كلها عن طبيعته ، آتية من عالم يختلف عن عالمه كل الاختـلاف ، ومن أرض تختلف عن أرضـه كل الاختلاف ، فسارت الى هوة واضحة لا ريب فيها • أما أن السير كان الى هوة فأحسب أن أمى قد فهمت ذلك ، لكنها كانت وهى تمضى نحو الهوة لا تفكر •

ان هذه المخلوقات التى لا تملك قوة الدفاع عن نفسها متشـابهة متماثلة : تعرف أن الهوة تنتظرها هناك ، ثم هى تجرى اليها لا تلوى على شىء •

وما ان ارتكبا الخطيئة حتى استبدت بهما الندامة • وقد روى لى أبى متندرا كيف أنه أجهش يبكى على كتف ماكار ايفانوفتش حين دعاه الى غرفته خصيصا لهذا الأمر ، بينما كانت هى فى ذلك الوقت ••• راقدة فى مكان ما ، مغشيا عليها فى حجرتها الصغيرة ، حجرة الخادم القن •

٥

ولكن حسبي كلاما على هذه المسائل وعلى هذه التفاصيل الفاضحة • لقد اشترى فرسيلوف أمي من ماكار ايفانوف ، وأسرع ماضيا بهـــا ، مصطحبا اياها منذ ذلك الحين ، كما قلت من قبل ، الى كل مكان تقريبا ، الا اذا غاب غيبة طويلة ؛ فكان عندئذ يعهد بها في أكثر الأحيـــان الى عمته ، أي الى تاتيانا بافلوفنا بروتكوفا التي لا تفتقد قط في مناسبات كهذه المناسبات • لقد أقاما مددا في موسكو ، وأقاما مددا في مقاطعـــات أخرى أو في مدن أخرى ، بل أقاما مددا في خارج روسيا أيضا ، ثم أقاما أخيرا في بطرسبرج • وسأتحدث عن هذا فيما بعد ، أو قد لا أتحدث عنه البتة ، ولكنني أقول انني ولدت بعد زواج ماكار ايفانوفتش بسنة ؛ وبعد سنة أخرى ولدت أختي ؛ وبعد عشر سنين أو احدى عشرة سنة ولد أخي الأصغر وهو صبي ممراض مات بعد بضعة أشهر • وكان من شأن هذه الولادات الأليمة أن فقدت أمي جمالهـا ، أو هذا ما قيـل لي على الأقل : لقد بدأ الهرم والضعف يدبان اليها سريعين •

ولـكن العلاقات بماكار ايفانوفتش لم تنقطع يوما • فحيثما يحـل فرسيلوف ، سواء أأقام عدة سنين متتالية في مكان واحد أم سافر متنقلا من مكان الى مكان ، فان ماكار ايفانوفتش كان لا يفوته أن يـكتب الى « الأسرة » يبلغها أنباءه • وهكذا نشأت علاقات غريبة يختلط فيها شيء من التكلف بشيء من الجد • واني لأعلم أنه لو كان الامـر بين أسـيـاد لمازج ذلك حتما عنصر كوميدي • ولكن لم يحدث شيء من ذلك في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها • كانت الرسائل تصل مرتين في العام ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ؛ ومن الغريب أنها كانت متشابهة تشابها

عجيبا . لقد أتيح لى أن أرى هذه الرسائل ، فوجدت أنها لا تكـــاد تشتمل على شىء شخصى ، ولا تكاد تضم الا أخبارا عن أحداث عامة جدا وعواطف عامة جدا ، ان صح أن توصف العواطف بمثل هذا : كانت تلك الرسائل تتضمن أنباء عن صحة مرسلها وأسئلة عن صحة الأشخاص المرسلة اليهم ، وتحتوى على تمنيــــات وتحيات وتبريكات مهذبة ، ثم لا شىء عدا ذلك البتة .. وأعتقد هذا الاقتصار على الأمور العامة ، وهذا الابتعاد عن الشئون الشخصية هى فى تلك البيئة لهجتها اللبقة وآدابهـا الاجتماعية : « الى زوجتنا العزيزة المحترمة صوفيا آندريفنا ، نبعث بأخلص تحياتنا المتواضعة » ... « الى أولادنا الأعزة أعبرّ عن رضاى ومباركتى التى لن يفسدها الدهر . » . ثم يعقب ذلك ذكرُ أسماء الأولاد على ترتيب أعمارهم وأنا منهم . ويجب أن أشير هنا الى أن ماكار ايفانوفتش كان يملك من حصافة الرأى ما يكفى لأن لا ينعت « صاحب النبالة السيد المحترم آندره بتروفتش » بصفة « المحسن اليه » ، ولكنه كان لا يغفل فى أية رسالة من رسائله أن يبعث اليه بخالص تحياته المتواضـــعة وأن يسأله الرضى عنه ، وأن يطلب له من الله دوام نعمته عليه . وكانت أمى تسارع الى الرد على رسائله ، وتكتبها دائما بأسلوب واحد لا يتغير ، وكان فرسيلوف لا يشارك فى هـــذه المراسلة . وكان ماكار ايفانوفتش يبعث برسائله من جميع أركان روسيا ، من المدن التى يكون فيها ، ومن الأديرة التى يقيم بها زمنا طويلا فى بعض الأحيان . لقد أصبح ماكار ايفانوفتش جوّاباً يضرب فى الأرض ولا يستقر فى مكان . وكان لا يطلب فى يوم من الأيام شيئا البتة .لكنه كان يجىء الى البيت ثلاث مرات فى السنة بلا تخلف ، فيتلبث قليلا عند أمى التى كان لها منزل خاص بهـا دائما ، مســـتقل عن منزل فرسـيلوف . سوف أعود الى الكلام على هذا الأمر فيما بعد . وحسبى أن أذكر الآن أن ماكار ايفانوفتش لم يـكن يسترخى على مقاعد الصالون الوثيرة ، بل كان يجلس فى مكان ما وراء

حاجز من الحواجز متواضعا . وكان لا يمكث مدة طويلة : فما هي الا خمسة أيام أو أسبوع حتى يرحل .

نسيت أن أقول انه كان يحب كثيرا ويحترم كثيرا اسمه ، دولجوروكي . ومن الواضح أن هذا منه سخف مضحك . وأسخف ما في الأمر أن هذا الاسم انما يعجبه ويرضيه لأن هناك أمراء يسمون دولجوروكي . ألا ما أعجبه من تصور هو نقيض ما يوحي به الحس السليم !

قلت ان الأسرة كانت مجتمعة الشمل دائما ، ولكن بدوني طبعا . كنت كمن رمي خارج السفينة ، فما كدت أولد حتى عهد بي الى غرباء . ولم يكن ذلك مقصودا متعمدا ، فحين ولدتني أمي كانت لا تزال شابة جميلة ، وكانت اذن تنفع فرسيلوف نفعا ما ، ولا بد أن يزعجه أن يصحبهما طفل صغير كثير الصراخ ، وخاصة أثناء الأسفار . فذلكم هو السبب في أنني بلغت من عمري العام العشرين دون أن أرى أمي تقريبا ، فيما عدا مناسبتين أو ثلاث مناسبات عارضة . ولم تكن عواطف أمي هي السبب في ذلك ، وانما كان السبب في ذلك تكبر أبي على الناس .

٦

والان هنالك شيء اخر مختلف عن هذا كل الاختلاف .

منذ شهر ، أي قبل اليوم التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) ، قررت وأنا في موسكو أن أعدل عنهم جميعا وأن أنطوى على « فكرتى » انطواء نهائيا . واذا كنت أكتب هــذه العبارة « أن أنطوى على فكرتى انطواء نهائيا » فلأن هذا التعبير يمكن أن يصور كامل رأيى الأساسى تقريبا . أما ما هى هذه الفكرة فســوف أتحدث عنها فيما يلى من صــفحات هذا الكتاب ، بل سوف أسهب فى الحديث عنها . لقد تكونت فكرتى هــذه أثناء وحدتى الحالمة سنين طويلة من حيــاتى بموسكو منذ أيام الدراسة ، ثم لم تتركنى بعد ذلك لحظة واحدة ، بل ابتلعت وجودى كله ابتلاعا . ولقد كنت أعيش فى الأحلام أيضا قبل أن تنبت هذه الفكرة فى نفسى ، فاننى قد عشت فى عالم مسحــور آخــر ، منذ طفولتى الغضـــة ، غــير أن أحلامى ، حين بزغت فى نفسى هذه الفكرة الأساســية التى التهمتنى التهاما ، قد اشــتدت وترسخت واكتست على الفور صورة محددة ، فاذا هى أحلام عاقلة بعد أن كانت أحلاما سخيفة . ان المدرسة الثانوية التى تابعت فيها دراستى لم تكن تمنع أحلامى ، ولا هى منعت بعد ذلـــك فكرتى . ولكننى أحب أن أضيف الى ذلك أن السنة الأخيرة التى قضيتها فى المدرســة كانت ســنة سيئة ، على أننى كنت خـــلال سائر السنين الأولى متفوقا أحتل بين رفاقى أولى الصفوف ؛ وذلك يرجع الى فكرتى تلك نفسها ، والى النتيجة التى استخرجتها منها والتى لعلها كانت خطأ . وهكذا فان المدرسة لم تعرقل الفكرة ، غير أن الفكرة عرقلت المدرسة . وقد عرقلت الجامعة أيضا . ذلك أننى منذ أنهيت دراستى الثانوية عزمت

أمرى لا على هجر أهلى هجرا حاسما فحسب ، بل كذلك على هجر العالم كله اذا اقتضى الأمر ، رغم أننى كنت ما أزال فى العشرين من عمرى . فكتبت الى من يجب علىّ أن أكتب اليهم ، ومن يحق لى أن أكتب اليهم ببطرسبرج ، طالبا أن يدعونى وشأنى نهائيا ، وأن لايرسلوا الىّ بعد الآن مالا لمعيشتى ، وأن ينسونى نسيانا كاملا اذا أمكن الأمر (هذا اذا خطرت ببالهم طبعا) ، وقائلا اننى لن أدخل الجامعة قطعا بحال من الأحوال . ذلك أننى كنت أمام أمرين لا ثالث لهما ، ولابد أن أختار أحدهما : فاما أن أدخل الجامعة فأرجىء الشروع فى تنفيذ فكرتى أربع سنين واما أن لا أدخل الجامعة . وقد اخترت الثانية بغير تردد ، لأننى كنت مقتنعا بذلك اقتناعا رياضيا . وجاءنى ردُّ فرسيلوف ، أبى الذى رأيته طوال حياتى مرة واحدة خلال لحظة قصيرة (والذى اتسع وقته فى تلك اللحظة لأن يذهلنى) أقول جاءنى رد فرسيلوف على رسالتى التى لم أوجهها اليه على كل حال ، يدعونى ، ببطاقة كتبها بخط يده ، أن أجىء الى بطرسبرج ؛ ويعدنى بوظيفة لدى « شخص » . ان هذه الدعوة التى تصلنى من رجل جاف المزاج متكبر الطبع صلف الخلق ، من رجل أهملنى هذا الاهمال كله ، ولم يكتف ، بعد أن جاء بى الى هذه الحياة وعهد بى الى غرباء ، بأن لا يعرفنى بعد ذلك ؛ بل لم يشعر أيضا بشىء من ندامة على ما جنت يداه (ومن يدرى فلعله كان خالى البال الا من فكرة غامضة عن وجودى ، لأنه ، وقد ثبت هذا بعدئذ ، لم يكن هو الذى ينفق على معيشتى بموسكو ، بل كان يتولى ذلك آخرون) ؛ أقول ان هذه الدعوة التى تصلنى من هذا الرجل الذى تذكّرنى على حين فجأة وشرفنى بتوجيه رسالة الىّ كتبها بط يده ، قد دغدغت غرورى فحددت مصيرى . هناك شىء غريب : ان ما أعجبنى فى هذه البطاقة ، بين ما أعجبنى فيها (وكانت صفحة قصيرة على ورقة صغيرة) هو أنه لم يذكر الجامعة بكلمة واحدة ، ولم يسألنى أن أغير رأيى ، ولا أخذ علىّ أننى

لا أريد أن أتابع دراستي ، أي أنه لم يعمد الى شيء من ذلك الكلام الكثير الذي ألف الآباء أن يزجوه لأبنائهم معاداً مكروراً في مثل هذه الحالات • ومع ذلك فان هذا بعينه هو ما كان سيئاً منه ، لأنه شاهد جديد على أنه لا يحفل بي ولا يكترث بأمري • وقررت أن أسافر لسبب آخر أيضاً ، هو أن هذا السفر لن يعوق حلمي الأساسي • قلت لنفسي : «سنرى ما يحدث • ولن أرتبط بهم الا زمناً على كل حال ، زمناً قد يكون قصيراً جداً • فمتى لاحظت أن هذه الخطوة ، على تفاهتها ، ستصرفني عن الأمر الأساسي ، قطعت صلتي بهم فوراً ، وتركت كل شيء عائداً الى قوقعتي ، نعم الى قوقعتي ، ولطوت هنالك كسلحفاة • » • ووقع هذا التشبيه في نفسي موقع الاعجاب الشديد • « ولن أكون وحيداً » ، كذلك استمررت أجري حساباتي راكضاً من أقصى موسكو الى أقصاها في تلك الأيام الأخيرة • « لا لن أكون وحيداً ، كما كنت كذلك حتى الآن خلال هذه الأعوام الرهيبة كلها : بل ستصحبني فكرتي التي لن أخونها يوماً ، ولو أعجبوني جميعاً هنالك ، ولو وهبوا لي السعادة ، ولو عشت معهم عشر سنين ! » وأستبق الأمور فأقول : هذا هو الشعور الذي خالط نفسي وهذا هو ازدواج الخطط الذي نشأ في ذهني وأنا بموسكو ثم لم يبارحني لحظة واحدة ببطرسبرج (لا أدري هل مرّ بي ، وأنا في بطرسبرج ، يوم واحد لم أحدد لنفسي فيه أجل قطيعتي معهم ومغادرتي بطرسبرج) • وأعتقد أن هذا الازدواج كان هو السبب فيما اندفعت اليه من تهور أثناء تلك السنة ، وفيما قارفت من أمور بشعة ، بل فيما انحدرت اليه من صغار ، ناهيك طبعاً عما ارتكبت من حماقات •

لقد ظهر في حياتي على حين غرة أبٌ لم يكن يوجد قبل ذلك • وأسكرتني هذه الفكرة أثناء استعدادي للسفر بموسكو ، وأثناء ركوب القطار الى بطرسبرج • أن يكون لي أب فذلك لم يكن الى ذلك الحين شيئاً ، وما أنا ممن يحبون الحنان والدلال : ولكن هذا الرجل لم يشأ أن

يعرفني ، حتى لقد أذلني ؛ على حين أنني كنت طوال تلك الأعوام كلها لا تنصرف أحلامي الا اليه ، حتى لأبلغ من ذلك حد الشبع (اذا صح ان توصف الأحلام بمثل هذا) • كان كل حلم من أحلامي منذ طفولتي يتجه اليه ويحوم حوله ويرتد آخر الأمر نحوه • لا أدري أكنت أكرهه أم كنت أحبه ، ولكنه كان يملأ مستقبلي كله ، وكان يملأ جميع تنبؤاتي عن الحياة ، وقد جاءني هذا الشيء من تلقاء نفسه ، وكان يقوى مع تقدمي في السن يوماً بعد يوم •

وهناك ظرف قوي كان له أيضاً أثر كبير في سفري من موسكو • ان ثمة اغراء كان قد قام في نفسي قبل سفري بثلاثة أشهر (ومعنى هذا قبل أن ترد مسألة السفر الى بطرسبرج) ، فارتعش له قلبي وخفق ! ان ما كان يجذبني الى ذلك الخضم المجهول هو أنني كنت أستطيع أن أدخل اليه سيداً ، وأن أحكم فيه مصير غيري • وأي غير ! غير أن عواطف نبيلة لا مشاعر طاغية هي التي كانت تغلي في نفسي • وأبادر فأقول سلفاً ، حتى لا يوقع كلامي القارىء في الخطأ ، ان فرسيلوف كان يمكن أن يقدّر (اذا هو رضي أن يفكر في أمري) أن يستقبلني استقبال فتى صغير خرج أمس من المدرسة الثانوية ، استقبال مراهق غر تحملق عيناه حين يرى النور • ولكنني كنت أعلم كل ما في جوفه ، وكنت أملك في عبي وثيقة خطيرة كل الخطورة ، وثيقة لا يتردد أن يهب عدة سنين من عمره (وأنا أعلم الآن ذلك علم اليقين) في سبيل أن أطلعه على سرها • على أنني ألاحظ أنني أتكلم في ألغاز وأحجيات • ان من المستحيل على المرء أن يصف عواطف دون أن يذكر وقائع • وسوف يجري الحديث عن كل هذا تفصيلاً في حينه ، ومن أجل ذلك انما أمسكت بالقلم • لأن يكتب المرء بهذه الطريقة ، فكأنه يهذي أو كأنه يسبح في الغيوم •

٧

من أجل أن أصل أخيراً الى اليوم التاسع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) سأذكر ، موجزاً وعابراً ، أنني قد وجدتهم جميعا ، أعني فرسيلوف ، وأمي ، وأختي (التي أراها أول مرة في حياتي) على حالة أليمة من الفاقة والعوز ، فهم يعيشون فيما يشبه البؤس أو هم يوشكون أن يصبحوا على البؤس في غد قريب . كنت قد عرفت ذلك بموسكو ، ولكنني لم افترض أن يكونوا قد بلغوا من الفقر هذا المبلغ . لقد تعودت منذ طفولتي أن أتصور هذا الرجل (أعني أبي في المستقبل) عظيم المهابة كأنه هالة لألاءة ؛ ولم أكن أستطيع أن أتخيله الا محتلاً أولى المراكز بين الناس . ان فرسيلوف لم يسكن يوماً مع أمي ، فكان يستأجر لها منزلاً خاصاً : ولا ريب في أنه كان يفعل هذا ترفعاً واحتشاماً . أما الآن فهم يقيمون جميعاً في منزل واحد هو جناح خشبي في شارع صغير من حي سيمينوفسكي . وكان أثاث المنزل كله قد رُهن ، حتى لقد اضطررت أن أعطي أمي على غير علم فرسيلوف ، الروبلات الستين العجيبة التي كانت معي : أقول عجيبة لأنها حصيلة ما كنزته من مصروفي الذي كنت أُعطاه خمس روبلات في الشهر على مدى سنتين : ولقد بدأت أكنز هذا الكنز منذ بزغت « فكرتي » في رأسي . لذلك كان فرسيلوف لا يعرف شيئاً عن هذا المبلغ .

ولم تكن هذه المساعدة التي قدمتها لأمي الا قطرة في خضم . لقد كانت أمي وأختي تقومان بأعمال خياطة . أما فرسيلوف فكان يعيش عاطلاً ، كثير النزوات ، ولا يزال يحتفظ بطائفة كبيرة من عادات تقتضي نفقات باهظة . كان صعب المراس كثير المطالب ، ولاسيما على المائدة ،

وكانت جميع حركاته وسكناته تدل على أنه امرؤ طاغية • ولكن أمي وأختي وتاتيانا بافلوفنا وجميع أفراد أسرة المرحوم آندرونيكوف (وهو مدير مكتب في احدى الدوائر توفي منذ ثلاثة أشهر وكان يعالج أمور فرسيلوف) وهم عدد لا نهاية له من النساء ، كان هؤلاء جميعاً يركعون أمامه ركوعهم أمام تمثال معبود • كنت لا أستطيع أن أتصور منظراً كهذا المنظر • يجب أن أقول انه كان منذ تسع سنين أرق حاشية وأشد فتنة •

لقد سبق أن قلت انه كان يبدو لي في أحلامي هالة لألاءة ، لذلك صعب عليّ أن أعتقد أن يكون الهرم والبلى قد دبّا اليه في مدى سنين تسع لا أكثر ، فسرعان ما شعرت من ذلك بحزن وشفقة وخجل • حتى أن رؤيتي اياه أول وصولي قد احدثت في نفسي شعوراً كان من أقسى ما أحسست به من عواطف في ذلك اليوم• انه لم يكن شيخاً ، فهو لا يزال في الخامسة والأربعين لم يتجاوزها • وحين أنعمت النظر فيه اكتشفت في جماله شيئاً يخطف البصر أكثر من كل ما احتفظت به ذاكرتي من ملامح جماله • صحيح أنه أصبح أقل تألقاً ، وأبسط مظهراً ، وأدنى أناقة ، ولكن الحياة قد نقشت على وجهه ما فيها من تعقد ، فأضفت عليه معاني جديدة •

ومع ذلك كان الفقر أيسر هموم فرسيلوف قاطبة • لقد عرفت هذا حق المعرفة • كان هنالك ، عدا الفقر ، أشياء أعظم شأنا وأكثر جداً ، ناهيك عن الأمل الذي لا يزال يحتفظ به ، وهو أن يكسب الدعوى التي أقيمت منذ عام ، والتي سيفصل فيها القضاء بينه وبين الأمراء سوكولسكي بشأن ميراثه ، والتي قد تجيئه بعد زمن قصير بأملاك يقدّر ثمنها بسبعين ألف روبل ، وربما قدّر بأكثر من ذلك •

سبق أن قلت ان فرسيلوف هذا كان قد أتلف في حياته ثلاثة مواريث : فلعله سينقذ مرة أخرى بميراث جديد ! والمفروض أن يتم الفصل في القضية وصدور الحكم قريباً جداً • وقد وصلت اليهم وهم

على هذا الأمل يحيون • غير أن أحداً لا يقرض مالاً بالاستناد الى أمل ، فلم يكن هنالك من يستطيعون الاقتراض منه ، فكانوا يعانون من العذاب ما يعانون بانتظار أن يأتى الفرج •

على أن فرسيلوف لم يكن يذهب الى أحد يلتمس منه العون والوساطة ، رغم أنه كان يقضى نهاره كله خارج المنزل فى كثير من الأحيان • لقد طُرد من المجتمع الراقى منذ ما يزيد على عام • وقد ظللت عاجزاً عن تفسير هذا الأمر رغم جميع ما بذلت من جهود ، ورغم انقضاء شهر بكامله على اقامتى ببطرسبرج • أكان فرسيلوف مذنباً أم لا ؟ ذلك ما كان يهمنى أن أعرفه • وذلك ما من أجله جئت • لقد أدار الناس كافةً ظهورَهم له ـ ومنهم جميع الشخصيات التى تملك نفوذاً والتى استطاع أن يكون له بها صلات سابقة ـ وذلك بسبب اشاعات ذاعت عن سلوك شائن سلكه فى ألمانيا قبل ذلك بعام ، بل عن سلوك فاضح الى أقصى حد ، وذلك فى نظر الناس أنكى وأدهى ؛ حتى لقد قيل انه تلقى يومئذ على مشهد من الناس صفعة كالها له أمير من الأمراء سوكولكسى ، ثم لم يردّ هو عليها بأى تحد • فحتى ولداه (الشرعيان) ، ابنه وابنته ، أدارا له ظهريهما وأشاحا وجهيهما ، وعاشا منفصلين عنه • ولقد كان هذا الابن وهذه البنت يختلفان الى أرقى المجتمعات بواسطة أسرة فاناريوتوف وبواسطة الأمير العجوز سوكولسكى (صديق فرسيلوف سابقاً) • ولكننى حين أنعمت النظر فى الرجل خلال هذا الشهر ، رأيته انساناً عزيز النفس متكبر الطبع لم يبعده المجتمع بل أبعد هو المجتمع ـ فالى هذا الحد كان يظهر بمظهر الاستقلال ! ولكن هل كان يحق له أن يظهر بهذا المظهر ؟ ذلك ما كان يشغل بالى ويقلق نفسى ! وكان علىَّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملةً فى أقصر مدة ، لأننى انما جئت لأقطع برأى فى الرجل • كنت ما أزال أخفى عنه قواى ، ولكن كان علىَّ أن أتخذ أحد موقفين : فاما أن أرتضيه ، واما أن أرفضه وأنبذه نبذاً كاملاً • وكان الحل الثانى سيؤلمنى

أشد الألم ، لذلك كنت فى عذاب وقلق • وسأعترف الآن بشيء : لقد
هذا الرجل عزيزاً على نفسى •

أقمت معهـم حتى الآن فى ذلك المنزل نفسه ، وكنت أعمل ،
يصعب على أن أمنع نفسى عن بعض الفظاظات • كنت لا أمتنـع عن
الفظاظات تماماً •

وبعد انقضاء شهر أصبحت ازداد اقتناعاً ، يوماً بعد يوم ، بأن ال
النهائى يجب أن لا أنشده لديه هو • لقد كان هذا الرجل الصلف ي
أمام عينىَّ لغزاً يحير عقلى ويجـرح نفسى جرحاً عميقاً • كان هو
ملاطفاً مدارياً ، أما أنا فكنت معه أميل الى المشـاجرات منى الى الملا
والأمازيح • كانت جميع أحاديثى معه تشـتمل على شيء من الالتبا
أو تشتمل فى أقل تقدير على نوع من سخرية غريبة من جانبه • ان
البداية ، أى منذ وصولى من موسكو ، لم يأخذنى مأخذ الجد • ولم أ
أن أفهـم لـماذا كان يعاملنى على هـذا النحو • لعله كان قد اقتنع بأ
الضرورى أن يظل مستغلقاً على فهمى • ولكننى ، من جهتى ، كنت أ
أن أتنازل فأسأله أن يعاملنى بمزيد من الجد • أضف الى ذلك أنه
له أساليب عجيبة صـارمة لا أملك ازاءها أن أعرف ماذا يجب على
أعمل • وخلاصة القول انه كان يعاملنى كما يعامل فتى غر ، وذلك م
يؤلمنى احتماله ، رغم علمى بأن الأمـور لابد أن تجـرى هذا المجر
وكانت نتيجة ذلك كله أننى انقطعت عن الكلام انقطاعاً يشـبه أن يـ
تاماً • كنت أنتظر شخصاً سيصل الى بطرسبرج فى وسعه أن يكشف
عن الحقيقة نهائيـاً : فعلى ذلك كنت أعقد آخر أمل لى • ومهما يكن
أمر فقد وطنت العزم على القطيعة النهائية ، واتخذت جميع الاجر
اللازمة لذلك • كانت أمى تثير شفقتى • ولكن : « اما هو ، واما أنا
ذلك ما كنت أريد أن أقترحه عليهما ، أعنى أن أقترحه على أبى وأخ
حتى لقد حددت اليوم • وبانتظار ذلك ، كنت أذهب الى مكتبى •

الفصـــل الثـاني

١

في ذلك اليـوم التاسـع عشر من شـــهر أيلول (سبتمبر) كان على أيضاً أن أقبض راتب شهرى الأول لدى « الشـخص » المذكور • انهــم لم يسـألونى رأيى فى هذه الوظيفـة ، بل اكتفوا بأخذى اليه فى اليوم الأول من وصولى فيما أظن • هو رجل على جانب كبير من الفظاظة ، حتى لقد أوشكت أن أضـطر الى الاحتجاج • ان الوظيفة التى عُينت لها هى فى منزل الأمير العجوز سوكولسكى • ولكن الاحتجاج سيكون معناه القطيعة معهم فوراً ، وذلك أمر لم يكن يخيفنى أبداً ، غير أنه يخالف ما رسمته لنفسى من أهداف أساسية • لذلك قبلت المنصب صـابراً ، مكتفيـاً من الدفاع عن كرامتى بالصمت • ويجب أن أبادر فأذكر أن هذا الأمير سـوكولسكى ، وهو رجل غنى ومستشـار خاص ، لم يـكن يمت بقربى الى الأمراء سوكولسكى بموسكو ، الذين آلوا الى الفقر والبؤس منذ سـنين ، والذين كان بينهـم وبين فرسيلوف دعوى ينظر فيها القضاء • لم يكن بينه وبينهم الا التشابه فى الاسم • ومع ذلك كان الأمير العجوز يهتم بأمرهم كثيراً ، ويحب أكبرهم حباً خاصاً ، وهو ضـابط شـاب يُعدُّ رئيسَ الأسرة ان صـح التعبير • ولقد كان

لفرسيلوف ، في الماضى ، تأثير كبير على آمور هذا الشيخ ، وكان صديقه ، بل كان له ولياً حميماً ، لأن هذا الأمير المسكين (وقد أدركت ذلك فيما بعد) كان يخشاه خشية رهيبة ، لا حين دخلت فى خدمته فحسب ، بل فى جميع الأوقات فيما أظن ، ما ظلت صداقتهما قائمة • على أنهما كانا قد أصبحا منذ زمن لا يلقى أحدهما الآخر • فان الفعل الشائن الذى اتهم به فرسيلوف انما كان يتعلق بأسرة الأمير نفسه • ولكن الحظ شاء أن تكون تاتيانا بافلوفنا هنالك ، وبواسطتها انما تم توظيفى لدى العجوز الذى أراد أن يكون معه شاب يقيم الى جانبه فى المكتب • وقد اتفق أيضاً أنه أراد أن يسرّ فرسيلوف ، وأن يخطو هو نحوه الخطوة الأولى ، اتفق أن أراد فرسيلوف ذلك أيضاً • هذا ما قرره الأمير العجوز فى غيبة ابنته ، التى مات عنها زوجها الجنرال ، والتى كان لا يمكن حتماً أن ترضى عن خطوة كهذه • سوف أتحدث عن هذا الأمر فيما بعد ، ولكننى أريد أن أذكر فوراً ان غرابة هذه العلاقة بين العجوز وبين فرسيلوف قد لفتت نظرى كثيراً ، وجعلتنى أحسن الظن بفرسيلوف • قلت لنفسى : اذا استمر رئيس أسرة أهينت كرامتها هذا الاستمرار على احترام فرسيلوف ، فذلك دليل على أن الاشاعات التى ذاعت عن سقوط أخلاق فرسيلوف اشاعات كاذبة ، أو اشاعات تحتمل التأويل فى أقل تقدير • وهذا بعض ما منعنى من الاحتجاج : فلقد كنت آمل أن يمكننى دخولى فى خدمة الأمير من التحقق من هذه الأمور كلها •

كانت تاتيانا بافلوفنا هذه تلعب دوراً خاصاً حين وجدتها فى بطرسبرج • كنت قد نسيت وجودها أو كدت ، ولم أتوقع قط أن أرى لها من خطورة الشأن وعلو المنزلة ما رأيت • كنت قد قابلتها حتى ذلك الحين ثلاث مرات أو أربعاً بموسكو • كانت تنبجس لا أدرى من أين ولا بأمر مَنْ من الناس ، كلما كان يجب أن تسكننى منزلاً ، أو أن تدخلنى ذلك المعهد الداخلى الكالح الحزين ، معهد توشار ، أو أن تنقلنى

بعد ذلك بسنتين ونصف سنة الى المدرسة الثانوية ، أو تنزلني عند نيقولا سيمينيفتش الذى لا يمكن أن أنسى ذكراه . وكانت ، كلما ظهرت ، تبقى سحابة النهار ، تستعرض غسيلي وملابسي وتمضي معي الى كوزنتسكي أو الى السوق فتشترى لى الأمتعة اللازمة ، وتجهزنى بكل ما أنا في حاجة اليه ، من آخر علبة الى آخر موسى . وكانت وهى تفعل ذلك لا تنقطع عن تقريعى وتوبيخى واغراقى بأنواع اللوم ، ولا تكف عن امتحانى ، وعن ضرب أمثلة لى بأولاد آخرين من أصحابها أو أقاربها (هم من خلق خيالها) قائلة انهم جميعاً خير منى في رأيها ، حتى لقد كانت لا تتورع ، والله ، عن قرصى وضربى ضرباً موجعاً مرات كثيرة . حتى اذا فرغت من اسكانى وتأمين الاستقرار لى اختفت عدة سنين دون أن تترك لى أثراً من آثارها . ان هذه المرأة هى التى تولت الاهتمام بأمرى من جديد فور وصولى الى بطرسبرج ، فوظفتنى لدى الأمير العجوز . هى امرأة قصيرة القامة جافة الطبع ، ذات أنف دقيق حاد كأنف عصفور ، عينين صغيرتين ثاقبتين تشبهان أعين العصافير أيضاً . ولقد كانت ازاء فرسيلوف أشبه بعبد : تقف منه موقف العابد كأنها أمام البابا ، ولكنها تفعل ذلك عن اقتناع وايمان . على أننى سرعان ما لاحظت ، على غير قليل من الدهشة ، أن الناس جميعاً بغير استثناء ، وفى كل مكان ، يمحضونها احتراماً خالصاً ، ولاحظت خاصة أن الناس جميعاً بغير استثناء وفى كل مكان يعرفونها . وكان الأمير العجوز سوكولسكى يقدسها تقديساً . وكذلك كان شأنها بين أفراد أسرتها . وكذلك كان شأنها أيضاً مع ولدى فرسيلوف المتعجرفين ، ومع أعضاء أسرة فاناريوتوف . ومع ذلك كانت تجنى رزقها من الخياطة والغسيل والتطريز ، وتعمل لأحد المخازن فى بطرسبرج . وقد تشاجرنا منذ أول كلمة تبادلناها ، لأنها طمعت أن توبخنى كما كانت تفعل ذلك منذ ست سنين ؛ وظللنا نتشاجر كل يوم . ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من التحادث أحياناً ، وانى لأعترف بأنها أخذت

تحظى باعجابى بعد شـهر ؛ وانمـا يرجع ذلك فى رأيى الى ما كانت تتصف به من استقلال الطبع ؛ على أننى حاذرت أن أعلن لها ذلك أو أن أشير اليه •

وسرعان ما فهمت أنهم « وظفونى » لدى هـذا العجـوز المريض لا شىء الا أن « أملأ فراغه » ، وأدركت أن مهمتى كلها هى القيام بهذا العمل • وقد شعرت من ذلك بشىء من المذلة طبعاً ، وما لبثت أن اتخذت اجراءاتى ، ولكن ما كاد ينقضى وقت قصير حتى أحدث هذا الشيخ الغريب فى نفسى أثراً لم يـكن فى الحسـبان ، أثراً هو نوع من الشفقة عليه ، وأصبحت فى آخر الشهر أحس نحوه بارتباط عجيب : وأياً كان الأمر فقد تركت ما كنت قد عقدت عليه العـزم من الفظاظـه فى معاملته • ولم تكن سنه تتجاوز الستين على كل حال • وكانت قد وقعت له حادثة تشبه أن تكون قصـة كاملة • لقد أصيب قبل ثمانية عشر شهراً بنوبة عقلية ، فبينما كان مسافراً لا أدرى الى أين فقد صوابه أثناء الطريق ، فكان ذلك فضيحة تحدث الناس عنها فى بطرسـبرج • وكمـا يجدر فى مثل هذه الأحوال ، أُرسل الرجل الى الخارج ، فما هى الا خمسة أشهر حتى عاد الى روسـيا سـليماً معافى ، ولـكن متقاعداً • وقد أكد فرسيلوف جاداً (بحماسـة واضـحة) أن ما حدث لصاحبـه لم يكن جنوناً قط ، وانما كان نوبة عصبية بسـيطة • وانى لأكاد أشـاركه هذا الرأى • ان كل ما كان يبدو على العجوز هو شىء من خفة لا تليق بسـنه كثيراً ، خفة يقال انها لم تظهر فيه يوماً قبل ذلك • قالوا انه كان فى الماضى مستشاراً يبذل النصح فى مكان ما ، وانه قد عُهد اليه يوماً بالقيام بمهمة فأحسن القيـام بها على خير وجه • غير أننى ، وقد عرفته منذ شهر ، ما كان لى أن أقدّر أن له كفـاءات خاصـة تؤهله لأن يكون مستشاراً • وقد لاحظوا (رغم أننى لم ألاحظ أنا شـيئاً من ذلك) أنه أصـبح بعد إصـابته بتلك النوبة مأخوذاً برغبة قوية فى أن يتزوج سريعاً ، وأنه خلال هذه الأشهر الثمانية

عشر قد فكر في تحقيق هذه الفكرة غير مرة • يظهر أن الناس كانوا يعرفون ذلك ، ويهتمون به • ولكن لما كان هذا الميل لا يتفق كثيراً ومصالح بعض الذين حوله ، فقد كانوا يحيطون العجوز بسياج من كل جهة • لم تكن أسرته كبيرة العدد • لقد ترمل منذ عشرين عاماً ، وليس له الا ابنة وحيدة هي أرملة الجنرال التي يتوقعون وصولها من موسكو بين يوم ويوم ، وهي شابة كان واضحاً أن أباها يخشى طبعها • غير أن للشيخ طائفة من الأفراد يمتون اليه بقرابات بعيدة ، وخاصة من جهة زوجته المتوفاة ، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون في فاقة وبؤس • يضاف الى هؤلاء ذلك الجمع من الأيتام الذكور والأناث الذين كان يحسن اليهم ويتصدق عليهم ، ويتوقعون أن يجعل لهم في وصيته نصيباً ، ويشتركون لذلك في احكام الرقابة عليه • يضاف الى هذا أيضاً أنه كان منذ شبابه يتصف بخصلة لا أدري أهي مضحكة أم لا : تلك هي رغبته في تزويج الفتيات الفقيرات • انه يزوج فتيات فقيرات منذ خمسة وعشرين عاماً : بعضهن تصله بهن قرابات بعيدة ، وبعضهن أخوات لزوجات أبناء أعمام زوجته ، وبعضهن يربطه بهن أنه كان لهن عرّاباً ، حتى ان منهن واحدة كانت بنت بواب منزله • كان يكفلهن صغاراً ، فيعهد بتنشئتهن الى مربيات وخادمات فرنسيات في أول الأمر ، ثم يرسلهن الى أحسن المؤسسات التعليمية ، حتى اذا بلغن مرحلة الزواج دفع لهن مهورهن • فكان هؤلاء الناس جميعاً يحومون حوله بغير انقطاع • وطبيعي اذا تزوجت هذه اليتيمات أن يلدن بنات ، فكانت هاته البنات جميعاً تطمع في رعايته ، وكان هو عرّابهن جميعاً ، وكان هذا الجمع كله من الناس يتوافد عليه في أعياده مهنئاً مباركاً ، وكان هو يجد في ذلك متعة لا تفوقها متعة •

وحين صرت في بيته ، سرعان مالاحظت ــ وكان يستحيل على المرء أن لا يلاحظ ذلك ــ أنه قد استقر في دماغ العجوز اقتناع أليم بأن الناس أصبحوا ينظرون اليه نظرة غريبة ، وأصبحوا لا يعاملونه كما

كانوا يعاملونه فى الماضى أيامَ كان يملك صحته كاملةً ، كان هذا الشعور لايبارحه أبداً ، حتى أثناء اجتماعات بالناس يسودها أكثر الأجواء مرحاً وفرحاً .لقد أصبح الشيخ مفرط الحساسية سريع التأذى . كان يلاحظ شيئاً فى جميع الأعين . وكان يعذبه تعذيباً واضحاً أن يتصور أن الناس لا يزالون يتخيلون فيه جنونا . حتى لقد كان يتفرس فى وجهى أنا مشتبها مرتابا . وأحسب أنه لو علم يوماً أن أحد الناس آذاع أو أكد هذه الاشاعة لأضمر له عداوة قاتلة رغم أنه انسان لا يعرف قلبه الحقد أبداً . ذلك ما أريد أن يبقى ماثلاً فى ذهن القارىء . وأضيف اليه أن هذا أيضا هو ما جعلنى أعزم أمرى منذ أول يوم على أن لا أغلظ له القول. حتى لقد كنت أشعر بالسعادة يوم تتيح لى المصادفات أن أُفرحه أو أن أسلّيه : وما أعتقد أن هذا الاعتراف يمكن أن يلقى على كرامتى ظلاً .

ولقد وضع جزءاً كبيراً من ثروته فى مشروعات . وساهم بعد مرضه فى شركة كبيرة قوية جدا . ورغم أن هذا المشروع كان يديره آخرون فقد كان يهتم به اهتماماً شديداً ، فهو يحضر اجتماعات المساهمين ، وينتخب عضواً مؤسساً ، ويترأس بعض المجالس ، ويلقى خطباً مسهبة ، ويناقش ويعترض ، يفعل ذلك كله مغتبطاً به راضياً عنه . وكان يعشق القاء الخطب : فان ذلك يتيح للناس أن يلاحظوا قوة فكره على الأقل . ويمكن أن أقول على وجه العموم انه كان حتى فى حياته الخاصة الصميمية يحب كثيراً أن يُدخل فى الحديث بعض الأقوال العميقة أو بعض الكلمات الجميلة . ولست استغرب منه هذا . ولقد كان فى الطابق الأدنى من الدار نوع من مكتب منزلى ، يعمل فيه مستخدم يسيّر الأعمال ويجرى الحسابات ، ويمسك الدفاتر ، عدا قيامه بادارة شئون المنزل . ولقد كان هذا المستخدم ، الذى يشغل عدا ذلك وظيفة رسمية ، ينهض بالعمل نهوضاً كافياً ، ولكنهم أضافونى اليه تنفيذاً لرغبة الأمير ، بحجة أننى سأساعده فى عمله . ولكننى ما لبثت أن نقلت الى حجرة الأمير ، فلم يكن أمامى

هنالك ، ولو من قبيل مراعاة الشكل ، لا عمل ولا أوراق ولا كتب •

انني أكتب الآن كما يكتب انسان فقد نشوة الحماسة منذ زمن طويل ، وعدل عن كثير من الأمور • فكيف أستطيع أن أصور ذلك الحزن (الذى مازلت أذكره حياً قوياً) الذى ملأ يومئذ قلبى ، وكيف أصور خاصة ذلك الاضطراب الذى استبد يومئذ بى حتى قادنى الى حالة من القلق والهياج بلغت من القوة أننى أصبحت مسهداً لا أعرف الى النوم سبيلاً من نفاد صبرى على الألغاز التى كنت أطرحها على نفسى بنفسى •

٢

أن يطلب المرء مالاً فذلك طلب حقير جداً ، ولو كان طلباً لأجر ، اذا كان المرء يحس في ركن من أركان ضميره أنه لم يستحق هذا الأجر . وبالأمس همست أمي في أذن أختي ، على غير علم من فرسيلوف (حتى لا تسبب ألماً لأندره بتروفتش) تقول لها ان في نيتها أن ترهن لدى « بنك التسليف » « أيقونة » كانت تحرص عليها حرصاً شديداً . وكان لي أجر هو خمسون روبلاً في الشهر ، ولكنني كنت أجهل كل الجهل كيف أقبض هذا الأجر . فانهم لم يذكروا شيئاً واضحاً عن هذا الأمر حين أسندوا اليّ هذه الوظيفة . وكنت قبل ذلك بثلاثة أيام قد سألت المستخدم الذي يعمل في الطابق الأدنى : أين أقبض أجري ؟ فنظر اليّ بابتسامة انسان دهش (وكان لا يحبني) ، ثم قال :

ـ هل لك راتب تقبضه ؟

وتوقعت أن يضيف الى سؤاله بعد جوابي على الفور :

ـ وعلام يكون لك راتب ؟

ولكنه اقتصر على الاجابة في جفاف قائلاً : « لا أدري » ، ثم أكبّ على دفتره المخطط الذي كان ينقل اليه حسابات سجلت على وريقات .

وكان مع ذلك لا يجهل أنني أقوم بعمل. حتى أنني قبل ذلك بخمسة عشر يوماً قد أنفقت أربعة أيام كاملة في عمل عهد به اليّ هو نفسه : وهو نسخ مسودة . وقد أضطررت في الواقع الى صياغة النص كله صياغة جديدة . وكان الأمر أمر مجموعة من « أفكار » للأمير كان يتهيأ لتقديمها الى لجنة المساهمين . فكان عليّ أن أنشيء من شتاتها كلا منسجماً ، وأن أصلح الأسلوب . وقد قضينا بعد ذلك مع الأمير ، أنا وهو ، يوماً

بكامله ننظر فى هذه الورقة ، فناقشنى الأمير مناقشـة حارة جداً ، ولكنه رضى عنها آخـــر الأمــر • على أننى لا أدرى أقدّمت الورقة الى لجنـة المسـاهمين أم لا • هذا عدا رسـالتين أو ثلاثاً من رسائل الأعمال توليت أنا كتابتها بطلب منه •

واذا أزعجنى أن أطلب أجرى ، فذلك لأننى كنت قد قررت أن أترك العمل ، لشعورى بأننى سأكون مضطراً الى المغـادرة أيضا بسبب ظروف لا سبيل الى تحاشيها • حين استيقظت من نومى فى ذلك الصباح وأخذت أرتدى ملابسى فى غرفتى الصغيرة فوق ، شعرت بقلبى يخفق خفقاناً قوياً ، ثم حاولت أن أصطنع الهدوء وعدم الاكتراث ، غير أننى حين دخلت على الأمير عاودنى ذلك الاضطراب نفسه : ففى ذلك الصباح كان سيصل ذلك الشخص ، كانت ستصـل تلك المرأة التى أنتظر منها تفسير كل ما كان يقلق خاطرى ويعذب نفسى ! انها آخماكوفا ، بنت الأمير ، أرملة الجنرال الشابة التى سبق أن تحدثت عنها ، والتى كانت فى حرب صريحة مع فرسيلوف • أخيراً كتبت هذا الاسم ! ولم أكن رايتها قبل ذلك فى يوم من الأيام طبعاً ، ولم أكن أستطيع أن أتصور كيف تراني أكلمها اذا أنا كلمتها • ولكن كان يبدو لى (ربما لأسباب كافية) أن مجيئها سيبدد ظلمات تلف فرسيلوف فى رأيى • لم أستطع أن أظل رابط الجأش : انها لحسرة رهيبة أن يجد المرء نفســه منذ اليوم الأول جباناً كل هذا الجبن ، أخرق كل هذه الخراقة • كان ذلك أمراً عجيباً الى أقصى حد ، وكان كريهاً على وجه الخصوص : ثلاثة مشاعر فى آن واحد • اننى أذكر ذلك اليوم وأحفظه على ظهر القلب •

لم يكن الأمير يعرف ، بعد ، شيئاً عن احتمال وصول ابنته • وكان لا ينتظر وصـولها قبل أسـبوع • أما أنا فقد عرفت هذا قبل ذلك بيوم ، وعرفته بمحض مصادفة • ان تاتيانا بافلوفنا التى تلقت رسالة من أرملة الجنرال قد أفلت لسانها أمامى ففشت السر وهى تتحدث الى أمى • كانتا

تتكلمان همساً ، وتتحدثان بألفاظ معماة غامضة ، فحزرت كل شيء •
لم أكن أصغي اليهما • ولكنني لم أملك الا أن أصيخ بسمعي حين رأيت على حين فجأة أن أمي اضطربت اضطراباً شديداً لدى سماعها نبأ وصول هذه المرأة • ولم يكن فرسيلوف وقتئذ في البيت •

لم أشأ أن أنبيء الأمير الشيخ ، لأنني كنت قد لاحظت طوال هذه المدة مدى اشفاقه من وصول ابنته • حتى أنه ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، مضى الى حد القول ، على شيء من الاستحياء وفي شيء من الغموض ، انه يخشى من وصولها عليّ ، أو قل انه يتوقع قيام شجار بينه وبينها بسببي • يجب مع ذلك أن أضيف أنه كان يحتفظ ازاء أسرته باستقلاله وسلطته وتفوقه ، وخاصة في شئون المال • ولقد كان شعوري الأول تجاهه أنه لم يكن الا امرأة • ولكنني اضطررت بعد ذلك الى تصحيح هذا الشعور قائلاً لنفسي : اذا كان امرأة فانه يحتفظ بشيء من عناد بديلاً عن الرجولة • لقد مرت لحظات كان فيها ، رغم ما يبدو في طبعه من رخاوة ظاهرة ، رجلا صعب المراس عسير القياد • وقد شرح لي فرسيلوف هذا الأمر بمزيد من التفصيل فيما بعد • واني لألاحظ الآن ، على دهشة مني ، أننا لم نكد نتحدث يوماً عن أرملة الجنرال ، بل كنا نتحاشى أن نتحدث عنها ان صح التعبير : كنت أنا الذي أتحاشى الخوض في هذا الحديث خاصة ، وكان الأمير يتحاشى من جهته أن يتكلم على فرسيلوف ، حتى لقد أدركت أنه لن يجيبني اذا أنا ألقيت عليه سؤالاً من تلك الأسئلة التي كانت تقلقني ذلك الاقلاق كله وتحيرني تلك الحيرة كلها •

واذا أردتم أن تعرفوا فيم تحدثنا طوال ذلك الشهر قلت : لقد تحدثنا في كل شيء اجمالا ، ولكننا تحدثنا دائماً في أمور غريبة • وكان ما يعجبني في الرجل كثيراً هو تلك اللطافة الطيبة العظيمة التي كان يعاملني بها • حتى لقد كنت في بعض الأحيان أتأمل هذا الرجل مندهشاً أشد الاندهاش ، قائلا لنفسي : لو قد عاصرته في المدرسة لكان خير رفيق

لى • وكان وجهه يخطف بصرى فى بعض الأحيان أيضاً : انه جاد أقصى الجد (ويكاد يكون جميلاً) ، جاف أشد الجفاف ، ذو شعر مجعد أبيض كثيف ، واسع العينين ؛ وكان يشع الجفاف من شخصه كله ، وكان حسن القامة ، غير أن وجهه يمتاز بصفة أقرب الى أن تكون مزعجة ، حتى لتوشك أن تكون غير لبقة ، فهو ينتقل فجأة من أقصى درجات الجد الى أقصى درجات المرح انتقالا لا يمكن لامرىء أن يتنبأ به اذا كان يرى هذا الرجل أول مرة • ولقد قلت ذلك لفرسيلوف ، فأصغى فرسيلوف الى قولى متعجباً ، فانه ما كان يظن أن فى وسعى أن ألاحظ ملاحظات كهذه • ولكنه قال لى ، كمن يقول عابراً ، ان هذه الحالة قد ظهرت فى الأمير بعد مرضه ، لاسيما فى الآونة الأخيرة •

هناك موضوعان مجردان كان يدور عليهما حديثنا خاصة ، أولهما هو الله ووجوده (الله موجود أم لا ؟) ، وثانيهما هو النساء • لقد كان الأمير متديناً جداً ، حساساً جداً • وكانت حجرته تضم خزانة كبيرة ذات مصباح ، زاخرة بالأيقونات • غير أنه كانت تستبد به فى بعض الأحيان نزوة ، فاذا هو يأخذ يشك فجأة فى وجود الله ، ويقول أشياء عجيبة من أجل أن يحرضنى على الاجابة • وكنت من جهتى قليل الاكتراث بهذه الفكرة على وجه العموم ، ولكن هذا لا ينفى أننا كنا كلانا نتحمس تحمساً صادقاً فى جميع الأحوال • والحق أن هذه الأحاديث التى كانت تدور بيننا قد خلفت فى نفسى ذكرى ممتعة الى هذا اليوم • على أن الحديث عن النساء كان أمتع ما يحب أن يلغو فيه ؛ واذ كنت لا أعشق الحديث فى هذا الموضوع كثيراً ، فاننى لم أكن له فى هذا المجال نعم الجليس ، وكان ذلك يسوؤه فى بعض الأحيان •

وقد أثار هذا الموضوعَ عينه منذ وصلت اليه فى ذلك الصباح • وجدته يومئذ مرح المزاج مبتهج النفس ، وكنت قد تركته بالأمس مفعماً بالحزن والأسى • وكان علىّ أن أحل مسألة راتبى فى ذلك اليوم

نفسه قطعاً قبل وصول بعض الأشخاص . كنت أقدر أن خلوتنا ستقطع حتماً (لم يخفق قلبي في ذلك اليوم خفقاناً شديداً لغير سبب) ، وقد لا أجرؤ عندئذ أن أتكلم في مسألة الأجر . ولكن الحديث لم يقع يومئذ على شئون المال ، فأحنقتني حماقتي طبعاً ، فاذا أنا (وما زلت أذكر ذلك جيداً) أنزعج من سؤال طرحه عليّ ، وكان سؤالاً مرحاً كل المرح، واذا أنا أنطلق أبسط له آرائي في النساء دفعة واحدة بعنف شديد وحمياً قوية ، فما كان منه الا أن ازداد اندفاعاً وحماسة .

٣

ـ ••• لست أحب النساء لأنهن فطنات ، لأنهن خرقاوات ، لأنهن لا يملكن روح المبادءة والمبادرة ، ولأنهن يرتدين ملابس غير لائقة !

بهذه الخاتمة المضطربة المشوشة أنهيت كلامى الطويل •

ـ رفقاً بهن يا عزيزى !

كذلك صاح الأمير فرحاً مرحا الى أقصى حدود الفرح والمرح ، فما زادنى ذلك الا غيظاً وحنقاً •

انى امرؤ لين العريكة سهل المصالحة فى الأمور الصغيرة فحسب ، أما فى الأمور الكبيرة فلا أخضع ولا أرضخ قط • انك فى الشئون اليسيرة وفى المناقشات النافعة التى تدور بين الناس ، تستطيع أن تجعلنى ما تشاء ؛ وأنا ألعن هذه الصفة من صفات طبعى دائما • لقد اتفق لى فى بعض الأحيان ، بسبب هذه الطيبة الكريهة فى طبعى ، أن كنت مستعداً لتأييد دعى سخيف من أبناء المجتمع « الراقى » لا لشىء الا لأنى فتنت برقة حاشيته وحسن تهذيبه ، أو أن أدخل فى مناقشة مع رجل غبى أحمق ، وهو أمر لا يمكن أن يغتفر بحال من الأحوال • كل ذلك لأننى لم أتعلم الصمود ، ولأننى عشت وترعرعت فى ركنى المعزول • وطالما خرجت من ذلك حانقاً غاضباً ، حالفاً أن لا أعود الى مثله ، فاذا جاء الغد تكرر الأمر نفسه • من أجل هذا كنت أعد فى بعض الأحيان صبياً فى السادسة عشرة • ولكننى بدلا من أن اكتسب السيطرة على نفسى مازلت حتى اليوم أوثر أن ازداد انحباسا فى ركنى ، ولو فى أقوى صورة من صور كره الناس والبعد عن البشر : « أنا اذا شئت أحرق ، ولكن

وداعاً ! » • أقول ذلك جاداً والى الأبد • على أنني لا أكتب هذا بصدد الأمير ، ولا بصدد الحديث الذى جرى بيننا •

صحت أقول فيما يشبه المعاداة :

ـ لست أتكلم لأسرتك ، وانما أنا أعبر عن رأيى •

ـ ولكن كيف تكون النساء فطات ، وكيف تعد ملابسهن غير لائقة ؟ ألا ان هذا لأمر جديد !

ـ هن فطات • اذهب الى المسرح ، اذهب الى نزهة • ان كل رجل من الرجال يعرف يمينه ، فاذا تقابل رجلان أفسح كلا منهما الطريق لصاحبه ، هذا يتجه الى يمينه وذاك يتجه الى يمينه • أما المرأة ، أقصد السيدة ، لأننى عن السيدات انما أتكلم ، فانها تقتحمك حتى دون ان تلاحظك ، كأنك مضطر أن تخلى لها مكانك • اننى مستعد أن أتنازل عن موضعى لمخلوق ضعيف ، ولكن المسألة هنا ليست مسألة حق مفروض • لماذا هى واثقة بأننى مضطر الى اخلاء مكانى لها اضطراراً ؟ ذلك ما يغيظ ! اننى لا أملك الا أن أبصق اشمئزازا فى مثل هذه الالتقاءات • ورغم هذا كله يملأن الدنيا صراخاً بأنهن مضطهدات ، ويطالبن بالمساواة • كيف يتحدثن عن المساواة وهنّ يدسنني ويملأن فمى غباراً ؟

ـ غباراً ؟

ـ نعم • لأنهن يرتدين ملابس غير لائقة • لابد أن يكون المرء فاسقاً حتى لا يلاحظ ذلك • ان المحاكم نفسها تعقد جلسات سرية حين تشتمل القضية على أمور غير لائقة : فلماذا يسمح بمثل هذه الأمور فى الشارع ، حيث الجمهور أكبر عدداً ؟ انهن يعلقن على أردافهن ذيولا ذات حفيف ، ليبرهنوا على أنهن نساء جميلات : يفعلن ذلك صريحاً ظاهراً بغير استخفاء ولا استحياء • وليس يمكن أن لا ألاحظ ذلك ، والشبان يلاحظونه أيضا ، والطفل والصبى الصغير يلاحظانه كذلك • ألا ان هذا

لعيب وعار ! ولأن يعجب بهن رجال مسنون فاسقون ماجنون يجرون وراءهن ويخرجون ألسنتهم متلمظين ، فلا ضير ! الا أن هنالك شبيبة طاهرة يجب أن نحميها • لم يبق الا أن يبصق المرء تقززاً واشمئزازاً • ان السيدة من هؤلاء تذرع الشارع جيئة وذهابا ، ووراءها ذيل طوله متر يكنس الأرض ويثير الغبار • وعليك أنت الذى يتفق أن تكون سائراً خلفها أن تغذ الخطى راكضا حتى تتجاوزها ، أو أن تثب الى الطرف الآخر ، والا حشت أنفك وفمك برطلين من الغبار • ثم انها تجر هذا الحرير وراءها على الحصى ثلاثة كيلو مترات ، لا لشىء سوف أن تتبع « الموضة » ، ومرتب زوجها من مجلس الشيوخ خمسمائة روبل فى العام • ألا ان هذا هو مصدر جميع الرشاوى • انى لأبصق عندئذ بصوت صاخب مسموع •

لقد سجلت للقارىء هذا الحديث على نحو فيه شىء من روح السخرية ، وفيه ما كان فيه من حرارة وعنف حين جرى بينى وبين الأمير • ولكن الأفكار التى وردت فى ذلك الحديث لا تزال أفكارى الى الآن •

قال الأمير مهتماً :

ــ ولم يقع لك شىء ؟

ــ أبصق وأمضى • وطبيعى أن السيدة تفهم ما أعنى ، ولكنها لا تظهر شيئاً ، بل تظل مقتحمة طريقها على فخامة وأبهة وجلال لا تلتفت الىَّ ولا تلوى على شىء • مرة واحدة قام شجار بينى وبين امرأتين تجران كلتاهما ذيلين فى الشارع • لم أنطق بألفاظ نابية طبعاً ، ولكننى قلت بصوت عال ان هذين الذيلين يؤذيان بصرى •

ــ قلتَ ذلك هكذا ؟

ــ طبعاً • ان هذه المرأة تدوس أولا قواعد المجتمع ثم هى عدا ذلك

تثير عجاجاً فى شارع حافل بالناس : فأنا أتنزه ، وشخص آخر يتنزه ، وشخص ثالث يتنزه ... أياً كان هذا الشخص ... سواء أكان اسمه فيدور أم كان اسمه ايفان . ذلك ما قلته بصوت عال . ثم اننى على وجه العموم لا أحب مشية النساء حين تُرى من خلف . قلت ذلك أيضاً ولكننى قلته تلميحاً لا تصريحاً .

ـ ولكن كيف تفعل ذلك يا صديقى ؟ قد تسبب لنفسك أذى . ان فى امكانهن أن يشكينك الى القضاء .

ـ مستحيل . ما عسى أن تكون شكواهن ؟ رجل مر بجانبهن ، وكلم نفسه . ان من حق كل انسان أن يفصح عن رأيه فى الهواء . لقد قلت كلاماً مجرداً لم أتجه به اليهن . هن اللواتى هاجمننى . أخذن يقلن كلمات نابية ، أسوأ كثيراً من كلماتى . قلن اننى ولد قليل الأدب ، واننى يجب أن أُحرم من الحلوى ، واننى من أتباع المذهب العدمى ، وان عليهن أن يأخذننى الى الشرطة ، واننى انما تشبثت بهن لأنهن وحدهن ولأنهن ضعيفات ، واننى كنت سألوذ بالفرار لو كان معهن رجل . فما زدت على أن طبلت منهن ببرود أن يدعننى وشأنى ، فانى منتقل الى الجهة الأخرى . غير أننى أضفت الى ذلك : « ولكن من أجل أن أبرهن لكنّ على أننى لا أخشى رجالكن واننى مستعد لأن استجيب للتحدى ، فهأنذا أتبعكن لأقف على مسافة عشرين متراً من منازلكن أنتظر أن يخرج الىّ رجالكن . » .

ـ أهذا ممكن ؟

ـ طبعاً . كان ذلك حماقة منى ، ولكن دمى كان فائراً فوراناً شديداً . هكذا جررننى وراءهن مسافة تزيد على ثلاث كيلو مترات ، فى جو خانق من الحر الشديد ، حتى « معهد الأوانس » . ثم دخلن داراً من خشب بلا طوابق ، داراً لائقة والحق يقال ، تُرى من خلال نوافذها أزهار كثيرة ، وطائران من طيور الكنارى ، وثلاثة كلاب جميلة ، وطائفة

من لوحات ذات أطر • لبثت أمام البيت فى وسط الشارع نصف ساعة • فرأيتهن يطللن ثلاث مرات خفية ؟ ثم أسدلن جميع الستائر • وأخيراً خرج من باب صغير موظف طاعن فى السن ، اذا صدق ما تدل عليه سحنته، يرتدى ثوباً مما يلبس فى المنزل ، أو رداء بسيطا على كل حال ، فوقف أمام الباب ، ينظر الىّ واضعاً يديه وراء ظهره ؟ ونظرت اليه ، فحول بصره عنى ، ثم نظر مرة أخرى وابتسم لى • فأدرت ظهرى ، وانصرفت •

ـ ولكن هذا من شأن شيلر يا صديقى • هناك أمر أثار دهشتى دائماً : ان خديك لحمراوان ، وان وجهك ليفيض عافية • فهل يشمئز من النساء من كان كذلك ؟ أيعقل أن لا تثير فيك المرأة شيئاً وأنت فى هذه السن من ريعان الصبا ؟ يا عزيزى [1] ، كنت أنا فى الحادية عشرة من عمرى حين نبهنى المربى الذى كان يتولى تنشئتى أننى أسرف فى الاقتراب من تماثيل « حديقة الصيف » للنظر اليها •

ـ أتريد منى يا أمير أن أذهب الى « امرأة » ما من تلك الأماكن ، الى « جوزيفين » ما ، ثم أعود أنقل اليك أخباراً عنها ؟ ! أنا أيضاً رأيت عرى المرأة كاملاً ولما أتجاوز الثالثة عشرة •• ومنذ ذلك الحين انما شعرت منه بالاشمئزاز •

ـ أتقول هذا جاداً أم هازلاً ؟ يا بنى [2] ، ان امرأة نضرة لهى تفاحة عبقة ؟ أين فى هذا ما يثير هذا الاشمئزاز كله ؟ •

ـ حين كنت فى مدرستى الداخلية القديمة ، عند توشار ، أى قبل دخولى المدرسة الثانوية ، كان لى رفيق اسمه لامبير • كان لامبير هذا يضربنى دائماً ، لأنه كان أكبر منى بثلاث سنين ، وكنت أنا أخدمه

---

(١) بالفرنسية فى الأصل •

(٢) بالفرنسية فى الأصل •

وأخلع له حذاءيه • ففى يوم تقديسه الذى يعقب التعميد جاء القس ريجو يزوره بمناسبة تناوله الأول ، فرأيت الاثنين يرتمى كل منهما على عنق صاحبه والدموع تهطل من عينيه ، ورأيت القس يضمه الى صدره ويربت على ظهره • فبكيت أنا أيضاً ، وحسدته حسداً كبيراً • فلما توفى ابوه خرج من المدرسة الداخلية ، ثم لم أره بعد ذلك سنتين بل أكثر ، الى أن لقيته فى الشارع مصادفةً فى ذات يوم • فقال لى انه قد يجيء الىّ زائراً بعد حين • وكنت قد دخلت المدرسة الثانوية ، وكنت أقيم لدى نيقولا سيمينوفتش • فاذا هو يجيئنى فى ذات صباح ، ويرينى خمسمائة روبل ، ويسألنى أن أتبعه • لقد ظل يضربنى فى الماضى عامين كاملين ، ومع ذلك ما يزال فى حاجة الىّ ، لا لأخلع له حذاءيه فحسب • وقص عليه أموره كلها • فقال انه قد سرق هذا المال من أمه فى ذلك اليوم نفسه ، بعد أن صنع مفتاحاً مماثلاً لمفتاح صندوقها ، لأن هذا المال حق له من ارث أبيه شرعاً ، ولا يجوز لأمه أن تمنعه عنه بعد الآن • وقال ان القس ريجو قد جاءه امس مساءً يريد أن يلقى عليه درساً فى الأخلاق : دخل الى البيت ، ووقف أمامه ، وأخذ يئن ويتذمر ، مظهراً أشد الاستياء ، رافعاً ذراعيه نحو السماء • « فما كان منى الا أن استللت سكينى وقلت انى سأذبحه (قال سأذبحه) • • » • ومضينا معا الى كوزفتسكى• فأسرّ الى أثناء الطريق أن أمه قد كانت لها علاقة بالقس ريجو ، وأنه قد لاحظ هو ذلك ، وأنه أصبح لا يعبأ بشيء ، ويرى أن كل ما يقال عن التناول سخافات • وتكلم كثيراً أيضاً • وكنت أشعر أنا بخوف • واشترى فى كوزفتسكى بندقية ذات طلقتين ، وخرجاً مما يحمله الصيادون ، وخراطيش وسوطاً مجدولاً ، ورطلاً من حلوى ، ومضينا نصطاد فى الضواحى • ففيما نحن فى الطريق صادفنا رجلاً من باعة الطيور يحمل أقفاصاً ، فاشترى منه لامبير عصفوراً من عصافير الكنارى • فلما وصلنا الى غابة صغيرة أطلق لامبير العصفور الذى كان لا يستطيع أن يطير بعيداً

عقب خروجه من القفص ، فأطلق لامير عليه من بندقيته ولكنه أخطأه • كانت تلك أول مـرة يطلق فيها ، ولـكنه كان يود أن يشترى بندقية منذ زمن طويل ، منذ كنا معاً لدى توشار : كان ذلك حلماً لنا كلينا من ذلك الزمان • كان كالمختنق من فرط الانفعال • ان شعره أسود سواداً مخيفاً ، ووجهه أبيض على احمرار بلون الأرجوان فكأنه قناع ، وأنفه طويل أقنى كأنوف الفرنسيين ، وأسـنانه بيضاء وعينيه سـوداوان • شـد العصفور بخيط الى غصن من الأغصان ، وسدد اليه من مسافة أربع سنتيمترات ، ثم أطلق عليه من مدفعيه كليهما ، فبعثره ألف ريشة صـغيرة •• وقفلنا راجعين ، فدخلنا أحد الفنادق ، واستأجرنا غرفة وأكلنا وشربنا شمبانيا • ووصلت سـيدة •• أذكر أن بذخ ملابسـها قد لفت انتباهي وأن ثوبها الحريرى الأخضر قد خطف بصرى • وهناك رأيت كل شيء •• رأيت ماحدثتك عنه •• ثم عدنا نشرب •• وعاد هو يغيظها ويشـتمها • كانت خالعة ملابسـها • وأخفى هو ثوبها ، فلمـا ثار غضـبها وطالبت بثوبها لترتديه ، جلدها بسـوطه جلدة قوية على كتفيها العاريتين • فنهضتُ وأمسكت به من شعره امساكاً قوياً بلغ من الاحكام أنه سقط على الأرض فوراً • فتناول شوكة وأخذ يغرزها فى فخذى • فلما أخذت أصيح هرع الينا الناس ، واستطعت أن أهرب • ومنذ ذلك الحين أصبح العرى يثير فى نفسى التقزز • وصدقنى اذا قلت لك انها كانت آية من آيات الجمال •

كنت وأنا أقص على الأمير هذه الحكاية أرى وجهـه يتقلب بين الانشراح والحزن •

ـ مسكين أنت يابنى [١] • لقد كنتُ دائماً على اقتناع بأن طفولتك عرفتْ أياماً شقية كثيرة •

ـ لا يقلقنْك شأنى ، أرجوك •

---

(١) بالفرنسية فى الأصل •

ـ ولكنك كنت وحدك . أنت نفسك قلت لى ذلك . أما ذلك الفتى لامير [1] فقد رسمت لى صورته .. طير الكنارى ، ذلك التقديس الذى رافقته دموع على الصدر ، ثم قصة أمه مع القس بعد عام .. آه يا عزيزى [2] . مشكلة الطفولة هذه أمر رهيب فى عصرنا هذا : فما ظلت هذه الرءوس الذهبية ذات الضفائر والبراءة تتطور فى طفولتها الأولى أمامنا وتنظر الينا بضحكاتها الصافية ونظراتها المشرقة ، فاننا نحسبها ملائكة سماء أو عصافير صغيرة رائعة .. حتى اذا انقضى ذلك كله .. فقد يحدث أن يكون من المفضل أن لا يكونوا قد شبوا عن الطوق !

ـ هأنت ذا متشائم يائس أيها الأمير . حتى لكأن لك أولاداً بالفعل . ومع ذلك ليس لك أولاد ولن يكون لك أولاد فى يوم من الأيام .

ـ عجيب ! [3] .

هتف بذلك وقد تغير وجهه فجأة وأضاف :

ـ أول أمس ، هه هه ! أول أمس تماماً ، حين قلت لألكسندرا بتروفنا سينتسكالا ـ لاشك أنك صادفتها هنا منذ ثلاثة أسابيع ـ حين قلت لها على سبيل المزاح اننى اذا تزوجت الآن فاننى أكون على الأقل مطمئناً الى أننى لن أنجب .. أجابتنى فجأة ، بل أجابتنى بشىء من حنق قائلة : بالعكس ، ستنجب ؟ ان رجالاً مثلك هم الذين لابد أن ينجبوا حتماً ، وستنجب منذ السنة الأولى ، سترى . » هه هه ! ان جميع الناس يتصورون أننى سأتزوج . لا أدرى لماذا يتصورون ذلك ! يجب أن تعترف على كل حال أن كلامها فكه مضحك ، رغم انه قيل فى خبث .

ـ فكه مضحك ؟ بل انه لمثير مزعج !

(١،٢،٣) بالفرنسية فى الأصل .

ـ أوه يابنى [1] ! هنـــاك أناس لا يمـكن أن يزعل المـرء من كلامهم • وان روح المزاح التى توشك أن تزول هى ما أقدره فى الناس أكثر من أى شيء آخـر ؟ ثم هل يمـــكن أن يقيم المرء وزناً لكلام تقوله الكسندرا بتروفنا ؟ •

ـ كيف ؟ ماذا قلت ؟ هل قلت ان هناك أناساً لا يجب أن •• أهذا ما قلته ؟ صدقت •• ما من انسان يستحق أن يُلتفت اليه • تلك قاعدة رائعة ! هذه القاعدة هى بعينها ما أنا فى حاجـة اليه • لسوف أسجلهـا • انك لتنطق أحياناً بحكم رائعة أيها الأمير !

وأشرق وجهه كله !

ـ ألست ترى يا بنى العزيز أن روح الفكاهـة الحقيقيـة هى الآن بسـبيل الاختفاء ، وأنها تزول يوماً بعد يوم ؟ ولـكن •• ولكننى أعرف أنا النســاء ! [1] صـدقنى اذا قلت لك ان حياة كل امـرأة ، مهما يكن كلامها ، ليست الا بحثاً أبدياً عن سيد •• ان فيها ظمأً الى الطاعة ان صح التعبير احفظ هذا الكلام •• ولا تستثن منهن واحدة •

ـ صحيح اطلاقا ! رائع !

كذلك هتفت متحمساً • وكان يمـكن أن نندفع فوراً فى تأملات فلسفية حول هذا الموضوع ، مدة ساعة على الأقل ، لولا أن شعرت فجأة بأننى كمن لُسع ، واحمر وجهى احمراراً شديداً • لقد خيل الىّ أننى كنت بامتداح كلامه أتملقه من أجل ماله ، وأنه سيظن ذلك على كل حال حين سأطلب اليه أجرى • ومن أجلَ هذا انما أذكر هذه الواقعة هنا •

ـ أيها الأمير ، سأكون شاكرا لك أجزل الشكر اذا أمرت بأن يدفع

(١و٢) بالفرنسية فى الأصل •

لى فى هذا اليوم نفسه مبلغ الخمسين روبلاً ، وهو راتبى عن هذا الشهر •

كذلك سقت الكلام سريعاً بجملة واحدة ، مع شىء من الاهتياج يوشك أن يكون فظاظة •

وانى لأذكر (لأننى أتذكر ذلك الصباح كله بأدق تفاصيله) أنه وقع عندئذ بيننا مشهد كريه دميم • انه لم يفهم كلامى فى أول الأمر ، بل نظر الىَّ طويلاً لا يدرك أى مال أعنى • كان واضحاً أنه لم يكن يتصور أننى أتقاضى أجراً • وفيم عساى أستحق أجراً ؟ صحيح أنه أكد لى بعد ذلك أنه كان قد نسى الأمـر ، ثم لم يلبث بعد أن فهم ، أن تناول خمسين روبلا مرةً واحدة ، بسرعة شديدة ، واحمرار واضح • فلما رأيت ذلك كله ، نهضت من مكانى وأعلنت له جازماً أننى أصبحت لا أستطيع أن أقبل مالاً وأن ما ذكر لى من أننى سأتقاضى أجراً كان من قبيل الخطأ أو الخداع من غير شك ، وذلك حتى لا أرفض الوظيفة ، واننى أفهم الآن أنه لم يكن من المفروض أن أتقاضى شيئاً ، اذ لم يكن لى عمل أقوم به • فارتاع الأمير وحـاول أن يقنعنى بأننى قدمت له خدمات كبيرة ، وبأننى سأقدم له مزيداً من الخدمات ، وأن خمسـين روبلاً مبلغ زهيد جـداً ، وأنه سـيزيد لى هذا المبلغ ، فذلك واجبـه ، وأنه كان قد اتفق على هذا مع تاتيانا بافلوفنا ، لـكنه ارتكب « نسياناً لا يغتفر » • فانفجرت وأعلنت جازماً أننى ألطخ شرفى اذا أنا تقاضيت أجراً على قصص فاضحة رويتها له عن ملاحقتى امرأتين حتى « معهد الأوانس » ، وقلت اننى لم أدخل فى خدمته من أجـل أن « أسـليه » بل من أجـل أن أقوم بعمل جاد مفيد ، فاذا لم يكن هنالك عمل أقوم به ، فلابد أن أمضى ، الخ الخ •• ما كنت أتخيل أن امرأً يمكن أن يصيبه من الارتياع ما أصاب الأمير بعد سماعه هذه الكلمـات القليلة • على أن الأمـور انتهت كما يلى : كففت عن الاحتجاج ، ودس الأمير المبلغ فى يدى قسراً •

مايزال جبينى يحمر حين أتذكـر أننى قبلت هذا المـال ! ان كل

شيء في هذه الحياة الدنيا ينتهي دائماً بصغار وحقارة • والأنكى من ذلك أنه كاد يبرهن لي على أنني كسبت هذا المال حقاً لا مراء فيه ؛ وكنت من الحماقة بحيث صدقته لقد • بدا لي أنه يستحيل عليّ اطلاقاً أن لا آخذه •

ـ يابني العزيز ، يابني العزيز [1] (صاح كذلك وهو يعانقني ويغرقني بالقبل ـ ويجب أن أعترف أنني كنت أوشك أن أبكي لا أدري لماذا، ولكنني ملكت زمام نفسي وحبست دموعي ؛ وحتى الآن ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، يصعد الدم الى رأسي ويحمر وجهي ـ) يا صديقي العزيز ، أنت لي بمنزلة ابن ، وقد أصبحت خلال هذا الشهر جزءاً من قلبي ! ليس في « المجتمع » الا « ناس » ، ولا شيء غير ذلك • ان كاترين نيقولايفنا (ابنته) امرأة لامعة مرموقة ، واني لفخور بهذا ، ولكنها كثيراً ما تجرح شعوري يا عزيزي •• أما أولئك البنات (وهن في غاية الظرف واللطف [1] وأمهاتهن اللواتي يأتين مباركات مهنئات بعيدي ، فهن يحملن الى الهدايا من جميل مطرزاتهن ، ولكنهن عاجزات عن قول كلمة واحدة • انني أملك الآن من هذه المطرزات حوالي ستين مخدة كما أملك من هداياهن كلابا كثيرة ووعولاً جميلة • انني أحبهن كثيراً ، أما أنت فشأني معك شأن آخر • انني أكاد أشعر حين أجالسك بأني مع ابني ، أو قل مع أخي ، وما أكثر ما أحب أن تجاوبني وترد عليّ •• انك على حظ من المعرفة بالآداب •• لقد قرأت •• وأنت قادر على الحماسة •

ـ أنا لم أقرأ شيئاً ، وليس لي من المعرفة بالآداب أي حظ • قرأت ما اتفق أن وقع في يدي • وفي السنتين الأخيرتين لم أقرأ شيئاً البتة ، ولن أقرأ بعد اليوم شيئاً البتة أيضاً •

ـ لماذا ؟

---

(١) بالفرنسية في الأصل •

ـ لى أهداف أخرى

ـ يا عزيزى [1] ، لسوف يـكون مؤسـفاً أن تقول فى أواخر حيـاتك ما أقوله أنا الآن : أعـرف كل شىء ، ولكننى لا أعرف أى شىء نافع [1] . اننى لا أدرى حقـاً لمـاذا عشت ! غير أننى مدين لك بأمـور كثيرة .. بل لقد كنت أريد ...

وقطع الأمير حديثة فجأة ، وأظلم وجهه ، وأصبح حالماً . انه بعد كل هزة (وكانت هذه الهزات يمكن أن توافيه فى كل لحظة ، لا يعلم سبب ذلك الا الله) ، يفقد فى العـادة قدرته على التفكير والتصرف بعض الوقت ؛ الا أنه يبلغ من السرعة فى العـودة الى حاله الطبيعية أن ذلك كان لا يضـيره كثيراً . وظللنـا على هذه الحال مدة دقيقة . كانت شفته السفلى ، السميكة ، متدلية تدلياً تاماً .. والأمر الذى أثار دهشتى أكثر من أى شىء آخر هو أنه ذكر اسم ابنته ، وخاصةً بهذه الصراحة كلها . وقد عزوت ذلك الى ما انتابه من اضطراب الفكر .

قال فجأة :

ـ بنى العـزيز [3] . أنت لا تؤاخـذانى ، أليس كذلك ؟ أنت لا تؤاخذنى اذا خاطبتك بصيغة المفرد ؟

ـ أبداً . على أننى أعترف لك أن ذلك قد ساءنى فى المرات الأولى قليلاً ، حتى لقد أردت أن أبادلك ذلك فأخاطبك بصيغة المفرد . ولكنى أدركت أن ذلك يكون حماقةً منى ، لأنك لا تخاطبنى بصيغة المفرد على سبيل الاهانة والاذلال .

ولاحظت أنه كان قد كف عن الاصغاء الىَّ ونسى السؤال أساساً ، بينما كنت أتكلم .

(١،٢،٣) بالفرنسية فى الأصل .

ورفع الىّ نظرته الشاردة فجأةً وسألنى :

ــ وأبوك ؟

انتفضت . أولاً لأنه سمى فرسيلوف أبى ، وذلك ما لم يحدث لنفسه يوماً قط . وثانياً لأنه تكلم عن فرسيلوف بادئاً ، وذلك ما لم يحدث من قبل .

قلت فى جفاف ، وأنا احترق رغبةً فى الاطلاع :

ــ انه بلا مال ، يجتر أفكاراً سوداء مظلمة .

ــ نعم ، انه بلا مال . وفى هذا اليوم نفســه انما تُنظر قضيتهم فى محكمة النقض والابرام ، وأنا أنتظر الأمير سرجى لأسـمع ما سيقوله . لقد وعدنى أن يجىء من المحكمة الى هنا رأساً . ان مصيرهم كله يتقرر اليوم : والأمــر أمر ســتين ألفاً أو ثمانين . طبعاً أنا أحب الخير لآندريه بتروفتش (أى فرسيلوف) ، وأظن أنه هو الذى سيكسب القضية . ولن ينال الأمراء شيئاً . ذلك هو القانون !

صحت مبهوتاً :

ــ أليوم يُفصل فى القضية ؟

لقد امتلأت انبهاتا حين تصورت أن فرسيلوف لم يتنازل فينبئنى بهذا الخبر . وسرعان ما قلت لنفسى « لاشـك اذن أنه لم يُطلع أمى ولعله لم يطلع أحداً قط . . » .

وفجأةً وافتنى فكرة أُخرى فسألت :

ــ وهل الأمير سوكولسكى هو الآن ببطرسبرج ؟

ــ منذ أمس . جاء رأساً من برلين ، لهذا اليوم .

وهذا نبـأ آخـر بالغ الخطورة عندى . « سـيجىء اليوم الى هنا ، الرجل الذى قام هو بالصفعة . . » .

ـ أى نعم ! (أردف الأمير يقول وقد تغير وجهه فجأة) انه لا يزال يعظ ! .. ولاشك .. أنه لا يزال يجرى وراء الفتيات ، الفتيات الصغيرات اللواتى ليس لهن فى الحياة تجارب ! هه هه ! بالمناسبة ، عندى نادرة من النوادر المضحكة جداً !

ـ من الذى يعظ ؟ من الذى يجرى وراء الفتيات ؟

ـ آندره بتروفتش ! هل تصدق أنه كان لا ينفك يضايقنا جميعاً : ماذا نأكل ؟ فى أى شىء نفكر ؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل . كان يخيفنا . كان يقول لنا مثلاً : « اذا كنتم متدينين ، فلماذا لا تدخلون الدير ؟ » . هكذا ، لا أكثر ولا أقل . يا لها من فكرة ! [١] لعله كان على صواب . ولكن أليس هذا قاسياً ؟ وكان يحب أن يخيفنى أنا خاصةً ، كان يحب أن يخيفنى بالحديث عن قيام الساعة ويوم الحساب . أنا خاصةً .

ـ لم ألاحظ شيئاً من هذا وقد انقضى شهر على وجودنا معاً .

قلت ذلك نافد الصبر ، وقد ساءنى أنه لم يعد الى رشده وأنه لا يزال يتعثر فى كلامه ويسوقه فوضى بغير ترتيب ..

ـ ذلك أنه أصبح لا يقول لى هذا الكلام . ولكن صدقنى . هذا حق . انه رجل ذكى لا يُجحد ذكاؤه ، وانه عميق العلم ، ما فى ذلك شك . ولكن هل هو متزن ؟ لقد وقع له هذا كله بعد اقامته فى أوروبا ثلاث سنين . وانى لأعترف لك بأن ذلك هزنى هزاً قوياً .. كما هز سائر الناس على كل حال .. اننى أحب الله يا بنى [١] اننى مؤمن ، مؤمن بقدر ما أستطيع .. ولكنه قد أخرجنى عن طورى فى تلك اللحظة .. ولنسلم بأننى استعملت وسيلة كان فيها شىء من طيش .. لقد فعلت ذلك عامداً ، من قبيل النكاية . ثم ان اعتراضى كان فى حقيقة الأمر

(١،٢) بالفرنسية فى الأصل .

لا يقل جدية عنه منذ بدء العالم • قلت له : « اذا كان يوجد كائن أسمى ، واذا كان يوجد وجوداً شخصياً ، لا على صورة روح مبثوثة فى الخليقة ، على صورة سائل مثلاً (لأن هذا أعسر على الفهم أيضاً) ، فأين هو هذا الكائن الأسمى ، أين مكانه ؟ » يا صديقى ، لقد كن هذا الكلام هراءً سخيفاً من غير شك • ولكن ألا ترتد جميع الاعتراضات اليه ؟ وقد غضب غضباً رهيباً • ذلك أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية هنالك •

— سمعت من يقول هذا • ولا شك فى أنه كذب واختلاق •

— أؤكد لك أن هذا هو الواقع ، وأحلف عليه بأقدس ما أقدس • أنظر اليه وأنعم النظر ! ثم انك أنت نفسك تقول انه تبدل • فهل تصدقه يوم كان يرهقنا ذلك الارهاق كله ؟ كان يصطنع أوضاع قديس ، فلا يكاد ينقصه الا أن يقوم بمعجزات • كان يحاسبنا على سلوكنا حساباً عسيراً ، أقسم لك • معجزات •• واليك شيئاً آخر [١] • انه سواء أكان راهباً أم زاهداً ، فانه يتجول هنا بمسوح على كل حال •• أما الباقى •• وبعد هذا يتكلم على المعجزات ! ألا انها لرغبة غريبة لدى انسان من المجتمع الراقى ! لست أدعى طبعاً أن •• فتلك أشياء مقدسة ، وكل شيء يمكن أن يقع •• أضف الى ذلك أن هذا كله من باب المجهول [١] • لكن الأمر لا يليق بانسان من المجتمع الراقى • وانى لأقسم لك صادقاً غير حانث أن هذا الشيء لو وقع لى أو غرض علىّ لرفضته • هبنى أتناول اليوم طعام الغداء فى النادى ، ثم اذا بى أصنع معجزات [١] على حين غرة • لسوف يضحك علىّ الناس عندئذ •• وهل تعلم أنه كان يحمل سلاسل ؟

احمر وجهى غضباً فسألته :

— هل رأيت أنت هذه السلاسل ؟

---

(١) بالفرنسية فى الأصل •

ـ لم أرها ، ولكن ...

ـ اذن فتلك أكاذيب ، تلك أراجيف باطـلة ، تلك نميمـة أعداء بل قل انها نميمة عدو واحد ، لأنه ليس له الا عدو واحد ، هو ابنتك .

وانفجر الأمير هو أيضاً قائلاً :

ـ يا عزيزى [1] ، أرجوك وألح فى الرجاء أن لا يُذكر اسـم ابنتى بعد اليوم بصدد هذه الحكاية البشعة !

وهممت أن أنهض . لقد خـرج الأمير عن طوره ، وكانت ذقنـه ترتجف ارتجافاً .

ـ هذه القصـة البشعة ! [1] أنا لا أصدقها .. ولم أشأ يوماً أن أصدقها .. ولكن قيل لى .. صدق أننى .. صدق أننى ..

ودخل علينا خادم فى تلك اللحظة يبلغ عن قدوم زائرين . فقعدت.

---

(١) بالفرنسية فى الأصل .

٤

دخلت سيدتان ، بل قل فتاتان .. احداهما هي زوجة ابن أحد أبناء عمومة المرحومة زوجة الأمير ، أو هي شيء من هذا القبيل . انها واحدة ممن يرعاهن الأمير ، وكان قد وهب لها مهراً ، وهي تملك ثروة ضخمة (أذكر هذا الآن للمستقبل) . أما الثانية فهي آنا آندريفنا فرسيلوفا ، بنت فرسيلوف ، التي تكبرني بثلاث سنين وكانت تعيش مع أخيها لدى فاناريوتوفا ، والتي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك الا مرة واحدة ، مصادفةً في الشارع ، رغم أنني كنت قد تشاجرت مع أخيها ، مصادفةً كذلك ، في موسكو (قد أجيء على ذكر هذه المشاجرة التافهة فيما بعد ، اذا وجدت متسعاً لذلك ، لأنها لا تستحق في الواقع عناء الحديث عنها) . ان آنا آندريفنا هذه كانت منذ طفولتها أثيرة الأمير الكبرى (كانت علاقات الأمير بفرسيلوف قد بدأت منذ زمن بعيد جداً). كنت قد بلغت من الاضطراب بسبب ما حدث قبيل دخولهما أنني لم انهض ، رغم أن الأمير هبَّ واقفاً لاستقبالهما . ثم قدرت بعد ذلك أنه سيكون أمراً مخجلاً أن أنهض بعد فوات الأوان ، فلبثت جالساً في مكاني . وكنت على وجه الخصوص متحيراً لا أدري ماذا أفعل ، بعد أن صرخ الأمير في وجهي ثلاث مرات قبل دقائق ثلاث ؟ ولبثت لا أدري أيجب أن أنصرف أم يحسن أن أبقى . ولكن العجوز الطيب كان قد نسي كل شيء على عادته ، وارتدت اليه حرارته كاملةً جميلةً حين رأى الفتاتين . حتى لقد استطاع أن يسارع فيغير سحنته ، ويغمزني غمزةً عجيبة ، ليهمس في أذني على عجل قبيل دخولهن قائلاً :

ـ أنظر الى أولب جيداً ، أنعم النظر فيها .. وسأروى لك فيما بعد ..

وقد أنعمت النظر اليها فعلاً ، فلم أجد فيها شيئاً خاصاً يلفت البصر : هى فتاة متوسطة القامة ، بدينة الجسم ، حمراء الخدين احمراراً شديداً . وجه ممتع على كل حال ، من تلك الوجوه التى ترضى الشهوانيين . ولقد يعبرّ عن طيبة ، لكنه يعبر أيضاً عن خفايا . ليس الذكاء هو الذى يمكن أن يجعل هذه الفتاة لامعة ، وأعنى بالذكاء معناه العالى فى أقل تقدير ، لأن المكر واضح فى عينيها . انها تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها . لا شىء فيها يخطف البصر اذن . فلو كنا فى المدرسة الثانوية لوصفناها قائلين : مخدة طرية . (اذا كنت أصفها هذا الوصف المفصّل كله فما ذلك الا لأنه سيفيدنى فيما بعد)

هذا الى أنّ كل ما وصفته حتى الآن مفصلا هذا التفصيل الذى قد يبدو نافلا لا غناء فيه ولا حاجة اليه ، انما هو توطئة لازمة لما سيلى من حديث ؛ انى لم أستطع أن أتحاشى ذكر هذه التفاصيل . فان وجدتم كلامى مملا باعثاً على السأم فلا تقرءوا .

أما بنت فرسيلوف فهى شخص آخر مختلف كل اختلاف : هى فتاة فارعة القوام ، أميل الى النحافة ، ذات وجه بيضاوى واضح الشحوب، ولكن شعرها فاحم غزير ؛ عيناها قاتمتان واسعتان . نظرتها عميقة . شفتاها رقيقتان بلون الارجوان . فمها غض نضير . انها أول امرأة لم توقظ مشيتها فى نفسى شيئاً من اشمئزاز . ثم انها رقيقة الحاشية على شىء من جفاف . وجهها لا يعبر عن طيبة القلب بقدر ما يعبر عن الجد والاتزان . وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ولا يكاد مظهرها يشبه مظهر أبيها فى شىء . ومع ذلك يشعر المرء ، لا أدرى كيف ، بأن بينها وبينه شبهاً عجيباً خارقاً فى تعبير الوجه والسحنة . لا أدرى أهى

تعد جميلة أم لا ، فالأمر هنا أمر ذوق • وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ملابس بسيطة متواضعة ، ليس فيها ما يستحق أن يوصف • وكنت أتوقع أنني لن ألبث أن تجرح شعوري نظرة من فرسيلوفا أو حركة • وتهيأت للأمر • لشد ما أهانتني أخوها في موسكو منذ أول لقاء بيني وبينه في هذه الحياة ! وما كان يمكن أن تعرفني اذا رأتني ، ولكن لا شك أنها كانت قد سمعت عن وجودي لدى الأمير • فقد كان كل ما ينتويه الأمير أو يشرع فيه أو يقوم به يثير اهتماماً سريعاً ويبدو حدثاً كبيراً لدى كل هذه العصبة من الأقرباء « والأدعياء » : فكان شغفه بي على حين فجأة أحقَّ باهتمامهم • وكنت أعلم علم اليقين أن الأمير مهتم أشد الاهتمام بمصير آنا آندريفنا ، وأنه كان يبحث لها عن خطيب • ولكن العثور على خطيب لفرسيلوفا كان أعز منالا من العثور على خطيب لواحدة من أولئك اللواتي كن يطرزن له الطنافس •

وعلى خلاف كل ماكنت أتوقع رأيت فرسيلوفا ، بعد أن صافحت الأمير وبادلته بعض الملاطفات الاجتماعية ، تلقي عليَّ نظرة استطلاع قوية ، حتى اذا لاحظت أنني أرنو اليها ببصري أيضاً ، انحنت على حين فجأة متبسمة • صحيح أنها كانت قد دخلت منذ هنيهة قصيرة ، وأنها انحنت كما انحنت في المرة السابقة ، ولكن ابتسامتها قد بلغت من اللطف مبلغا يدل دلالة واضحة على أنها كانت مقصودة • وما زلت أذكر أنني شعرت من ذلك عندئذ بمتعة رائعة تبعث على الدهشة •

تمتم الأمير متلعثماً وقد لاحظ أنها حيتني وأنني لبثت قاعداً :

ـ وهنا ••• هنا ••• صديقي العزيز الشاب أركاد آندريفتش دول •••

وانقطع فجأة عن اتمام جملته • لعله خجل أن يقدمني اليها (أي أن يقدم أخاً لأخته) • وحيتني المخدة الطرية أيضاً • ولكنني ما لبثت

أن غلى الدم فى عروقى فجأة ، بحماقة شديدة ، فوثبت عن مقعدى : هى اندفاعة زهو مصطنع لا معنى لها البتة . هى أنانيتى نفسها لم تتغير !

قلت أقاطع الأمير مقاطعة عنيفة ، ناسياً أنه كان علىّ أن أرد تحية السيدتين ، كما توجب ذلك آداب اللباقة :

ـ عـذراً أيهـا الأمير ، أنا لست آركاد آندريفتش ، بـل آركاد ماركوفتش .

ـ ها ... نعم ! (١) .

كذلك هتف الأمير وهو يلطم جبينه بأصبعه .

ودوّى فوق رأسى سؤال غبى بعض الغباوة بطىء بعض البطء ، ألقته علىّ « المخدة الطرية » وهى تقترب منى اقتراباً شديداً :

ـ أين تعلمت ؟

ـ بموسكو طبعاً ، فى الليسيه .

ـ ها ... نعم . قيل لى ذلك . هل التعليم فيها جيد ؟

ـ جداً .

كنت لا أزال واقفاً أجيب كما يجيب جندى رئيسه .

لا تدل أسئلة هـذه الفتاة على كثير من الخيال طبعاً . لـكن هـذا لا ينفى أنها وجدت ما يُنسى الآخـرين اندفاعتى الحمقاء السخيفة ، وما يهدىء اضطراب الأمير ، الذى أخذ يصغى ، بابتسامة فرحة ، الى الأشياء المرحة التى كانت تهمس له بها فرسيلوفا (كان واضحا أن الحديث بينهما لم يكن عنىّ) . ولكن لماذا قدرت هذه الفتاة التى لا أعرفها البتة أن من

---

(١) بالفرنسية فى الأصل .

المفيد أن تقول ما يُنسي حماقتي الهوجاء وغير ذلك ؟ ان من المستحيل على المرء أن يصدق أنها فعلت معي ذلك لغير سبب : لا شك أن لها نية . وكانت تنظر اليّ نظرة استطلاع شديد . لكأنها كانت تريد ، هي أيضا ، أن أكثر من النظر اليها ما أمكن . قلت هذا كله لنفسي ... ، ولم يخطىء ظني .

صاح الأمير يقول فجأة وهو ينهض عن مقعده :

ـ كيف ؟ اليوم ؟

فقالت فرسيلوفا مدهوشة :

ـ اذن أنت لا تعرف ذلك . يا آلهة الأولمب (بالفرنسية) .

كان الأمير لا يعلم أن كاترين نيقولايفنا قد وصلت اليوم .

وأضافت فرسيلوفا :

ـ لقد ذهبنا اليها وكنا نظن أنها ركبت قطار الصباح ، وأنها في الدار منذ زمن طويل . ولكننا التقينا بها أمام سلم الباب ، واصلةً من المحطة رأساً ، فطلبت منا أن ندخل اليها ، وستجيء الى هنا بعد قليل .. بل هاهي ذي قد وصلت !

انفتح الباب الجانبي وضهرت تلك المرأة !

كنت أتخيل وجهها من قبل ، وذلك من صورة لها رائعة كانت معلقة في مكتب الأمير . كنت قد درست هذه الصورة طوال ذلك الشهر . وفي حضورها ، قضيت في ذلك المكتب ثلاث دقائق ، لا أحول بصري عن وجهها لحظة واحدة . فلو كنت لا أعرف الصورة ، ثم سألتني بعد تلك الدقائق الثلاث : « كيف وجدتها ؟ » ، لما أجبتك ، لأنني كنت لا أرى رؤية واضحة .

لقد بقيت لى من تلك الدقائق الثلاث ذكرى امرأة جميلة حقاً ، كان الأمير يعانقها ويباركها بيده ، ثم اذا هو ، على حين غرة ، بعد دخولها فوراً على وجه التقريب ، يلقى نظرة سريعة عليَّ • ولاحظت بوضوح كيف دمدم لها الأمير بضع كلمات ، وهو يومىء الىَّ من غير شك ، وكيف أطلق ضحكة صغيرة فى حق سكرتيره الجديد وهو يسمِّينى •

ورأيتها تبوِّز وترمقنى بنظرة سيئة وتبتسم ابتسامة بلغت من الوقاحة أننى تقدمت خطوة الى أمام ، فاقتربت من الأمير ، وتمتمت مرتعشاً ارتعاشاً جنونياً ، دون أن أستطيع انهاء كلمة واحدة ، مصطك الأسنان فيما أظن :

ـ اذن •• أنا •• أنا الآن •• مشغول •• أنا ذاهب •

وأدرت ظهرى وخرجت • لم يقل لى أحد شيئاً ، ولا الأمير • اقتصروا جميعاً على ملاحقتى بأبصارهم • وقد أسرَّ لى الأمير فيما بعد أننى بلغت من اصفرار الوجه أنه « شعر بخوف » •

وما كان الى الخوف داع •

الفصل الثالث

١

لم يكن الى الخوف داع : كان هنالك اعتبار واحد يستغرق جميع التفاصيل ، كانت هنالك عاطفة قوية تعوض عندى كل ما عدا ذلك . خرجت وأنا أشعر بنوع من الحماسة . وحين وضعت قدمى فى الشارع كنت على استعداد لأن أصدح مغنياً . وبصدفة كأنها ميعاد ، كان ذلك الصباح رائعاً : شمس ، ومارة ، وضوضاء ، وحركة ، وفرح ، وازدحام ـ كيف لم أشعر بأن هذه المرأة أهانتنى ؟ وممن كان يمكننى أن احتمل نظرة كهذه النظرة وابتسامة وقحة كهذه الابتسامة ، دون أن أردّ رداً مباشراً مهما يكن أحمق ؟ لاحظوا أنها انما جاءت خصيصاً على نية اهانتى بأسرع ما يمكن ، من قبل أن ترانى . كنت فى نظرها « سمسار » فرسيلوف ، وكانت مقتنعة منذ تلك اللحظة ـ وقد ظلت على هذه القناعة زمناً طويلاً بعد ذلك ـ أن فرسيلوف كان يقبض بيديه على مصيرها كله ، وأنه كان قادراً على تدميرها فى أية ساعة ، اذا هو أراد ذلك ، بواسطة وثيقة من الوثائق .. أو هذا ما كانت تشتبه فيه على كل حال . كانت المبارزة مبارزة موت . ومع ذلك لم أشعر باننى أُهنت . كان ثمة اهانة ، لكننى لم أحسها . بل لقد شعرت بفرح . لقد

جئت من أجل أن أكره ، فاذا أنا أحس انني بدأت أحبها • « انى لأتساءل هل يستطيع العنكبوت أن يكره الذبابة التى يتربص بها ويقبض عليها • أيتها الذبابة المسكينة ! يخيل الىّ أن المرء يحب فريسته ، أو انه يستطيع أن يحبها على الأقل • هكذا أحببت أنا عدوى • انى لسعيد سعادة رهيبة بأنها جميلة • اننى يا سيدتى لسعيد سعادة هائلة بأن تكونى متعجرفة هذه العجرفة كلها متكبرة هذا التكبر كله : لو كنت أكثر تواضعاً لكنتُ أنا أقل تلذذاً • لقد بصقت علىّ ، وأنا المنتصر فى الواقع • لو أنك بصقت فى وجهى فعلاً ، لما زعلت ، لأنك ضحيتى ، ولأنك لى أنا ، لا له هو ! ما أشد فتنة هذه الفكرة ! لا ، لا ، لأن يشعر المرء شعوراً خفياً بقدرته فذلك أمتع كثيراً من أن يكون مسيطراً سيطرةً ظاهرة • لو كنت غنياً أملك الملايين ، لطاب لى ، فيما أظن ، أن ارتدى ثياباً مرقعة ، وأن أوهم غيرى بأننى أبأس الناس طراً ، وبأننى شبه متسول ، وأن أجعلهم يزدروننى ويحتقروننى : حسبى عند ذلك شعورى بثرائى • » •

بهذا كنت أستطيع أن أفسر أفكارى وفرحى وكثيراً مما شعرت به يومذاك • لكننى أضيف الآن أن ما كتبته فى هذه اللحظات أكثر سطحية فى واقع الأمر : فالحق أننى كنت أعمق احساساً وأشد حياءً • وما زلت الى الآن أشد حياءً حقيقتى مما أقول ومما أفعل ، والحمد لله !

ولعلنى أخطأت اذ أخذت أكتب : ان ما يبقى فى أعماق نفسى من أمور أكثر كثيراً مما يظهر فى كلماتى • ما ظل تفكيرك فى داخلك ، فانه مهما يكن ضعيفاً يظل أعمق منه حين تفصح عنه • ان تفكيرك ، متى عبرت عنه ، يصبح أقرب الى الاضحاك وأبعد عن الصدق • لقد قال لى فرسيلوف ان نقيض هذا لا يصدق الا على الأشرار من الناس • ان هؤلاء لا يزيدون على أن يكذبوا ، فالكذب سهل عليهم • أما أنا فاننى أحاول أن أكتب الحقيقة كلها : وفى هذا صعوبة هائلة •

٢

في ذلك اليوم ١٩ ، قمت بعمل آخــر أيضـاً .

لأول مـرة منذ وصـولى ، كان في جيبي مال ، لأن الســتين روبلاً التى كنزتها خلال سـنتين ، كنت قد أعطيتها أمى ، كما سبق أن ذكرت ذلك . ولقد قررت منذ بضعة أيام أن أقوم ، متى قبضت راتبى ، بتجربة حلمت بها زمناً طويلاً . وكنت في اليوم السابق قد قصصت من احدى الجرائد اعلاناً صادراً عن « المأمور الوزارى لدى مجلس محاكم الصلح فى بطرسـبرج ، الخ الخ » يقول انه فى ذلك اليوم ١٩ ، عند الظهر ، فى تازان ، مديرية رقم كذا ، الخ الخ ، فى العمارة رقم كذا ، ستباع بالمزاد العلنى أثاثات السيدة لبرخت ، وأن « الجــرد » وتقدير الأسعار والأشياء المعروضة للبيع ، يمكن الاطلاع عليها يوم البيع نفسه ، الخ الخ . » .

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية ، فمضيت الى المكان المعين سيراً على الأقدام . اننى منذ ثلاث سـنين لا أتنقل بعربات (ولولا ذلك ما اسـتطعت أن أدخر ســتين روبلاً) . ولم أكن أذهب الى المزادات ، لم أكن قد أبحت لنفسى هذا بعد ؛ واذا كانت الخطوة التى أقوم بها الآن هى من قبيل التجريب ، فاننى كنت قد قررت أن لا أقوم بها الا بعد التخــرج من الليســيه ، وبعد أن أقطع صـلتى بالعالم كله ، فأعود الى قوقعتى وأملك حريتى كاملة . غير أننى كنت قد قررت أن لا أقوم بمثـل هذه الخطـوة الا على سبيل التجربة ، من أجل أن أرى ، أو من أجل أن أحلم قليلاً ، ثم قد لا أعود الى مثـل ذلك زمناً طويلاً بعدئذ ، الى أن يأتى اليوم الذى قد أعود فيه الى هذا العمل جاداً . كان ذلك المزاد ، عند غيرى ، مزاداً صغيراً لا قيمة له . أما عندى أنا فكان أول خشبة فى المركب الذى سافر

عليه كريستوف كولومب يستكشف أمريكا • تلكم هي العواطف التي كانت تملأ نفسي حينذاك •

فلما بلغت المكان نفذت في مدخل من فناء العمارة التي حددها الاعلان ، ودخلت شقة السيدة لبرخت • ان الشقة تتألف من فسحة وأربع غرف صغيرة واطئة السقف • فأما في الغرفة الأولى بعد الباب فكان يزدحم جمهور يبلغ نحواً من ثلاثين شخصاً ، نصفهم من الذين سيشتركون في المزاد ، والآخرون لا يخفى على الناظر اليهم من أول وهلة أن بعضهم "طلعة" أو هواة أو أناس يشاركون في المزاد لمصلحة أسرة لبرخت ؛ وكان هنالك تجار ، وكان هنـاك يهود يترقبون أن يقعوا على أشياء مذهبة ، وكان هنالك أشخاص « مهندمون » ، انطبعت وجوه بعضهم في ذاكرتي انطباعاً عميقاً • وعند الباب المفتوح من الغرفة الواقعة في الجهة اليمنى ، وضعت بين المصراعين منضدة تحول بين المرء وبين أن يستطيع الدخول الى تلك الغرفة : فهناك كانت توجد الأشياء التي تضمها القائمة والتي ستعرض للبيع • وعلى اليسار غرفة أخرى ، لكن بابها مغلق ينشق من حين الى حين فيرى وراءه شخص ينظر : لاشك أن هذا الشخص هو أحد أفراد أسرة لبرخت الكثيرين ، ولاشك أنه كان يشعر بغير قليل من الخجل طبعاً • ووراء المنضدة ، في مواجهة الجمهور تماماً ، كان يجلس « مأمور الوزارة » متزيناً بوسامه ، يتولى عمل البيع • وحين وصلت كان قد انتهى من المزاد نصفه تقريباً • فأسرعت أشق لنفسي طريقاً حتى بلغت المنضدة • كانت تعرض عندئذ شمعدانات من البرونز • ونظرت •

نظرت ثم ما لبثت أن قلت لنفسي : ما عساي اشتري هنا ؟ وأين أدس هذه الشمعدانات من البرونز ؟ هل يتحقق هدفي ؟ أهكذا تتم الأمور ؟ هل يصدق حسابي ؟ ترى ألم يكن حساب صبية صغار ؟ كنت أدير هذه المعاني في نفسي وأنتظر • وذلك هو على وجه التقريب الشعور الذي يحسه أمرؤ أمام مائدة مقامرة قبيل « الحظ » حينما يقترب بورقته • انه يتساءل :

« ان في وسعي أن « أحط » ، وفي وسعي أن أمضي ، وكل شيء رهن بي . » . ان قلبه لا يكون قد أخذ يدق دقاً شديداً بعد ، ولكنه يكون قد أخذ يتهالك ويخفق خفقاناً خفيفاً ـ وذلك احساس لا يخلو من لذة . ولكن التردد ما يلبث أن يثقل عليك ، فأنت كالأعمى : تمد يدك ، تتناول ورقة ، ولكن على غير ارادة منك ، وربما على رغم ارادتك ، كأن شخصاً آخر هو الذي يحرك يدك . وها أنت ذا تقرر أخيراً ، « فتحط » ان احساسك يختلف عندئذ اختلافاً كبيراً ، انه احساس آخر تماماً ، احساس كبير واسع . لست أتكلم الآن على المزاد ، وانما اتكلم عن نفسي : من ذا الذي لعله يشعر بخفقان القلب أثناء بيع بالمزاد ؟

كان هنالك من يتحمسون ، وكان هنالك من يصمتون ويترقبون . وكان هنالك من يشترون ثم يندمون . وما شعرت بشفقة قط على ذلك الرجل الذي أخطأ السمع حين المناداة على ابريق من معدن الملخور ، فحسبه من فضة فاشتراه بخمسة روبلات بدلاً من روبلين اثنين ، حتى لقد أفرحني ذلك كثيراً . وكان المنادي ينوّع الأشياء التي يعرضها للبيع . فبعد الشمعدانات ، عرض قرطين مما تزين به النساء آذانهن ، ثم مخدة من جلد مطرز ، ثم صندوقاً صغيراً . ولعله كان ينوع هذا التنويع اما للتنويع ذاته ، واما استجابةً لمطالب الجمهور . لم أستطع أن أنتظر أكثر من دقيقتين ، فاقتربت من المخدة أولاً ، ثم من الصندوق الصغير ، لكنني كنت في كل مرة أتوقف في اللحظة الحاسمة : مستحيل أن اشتري أشياء كهذه . وأخيراً ظهر بين يدي المنادي « ألبوم » .

« ألبوم ، مجلد بجلد أحمر ، مستعمل ، عليه رسوم بالتلوين المائي والحبر الصيني ، في غمد من عاج محفور ، مع مغاليق من فضة : روبلان » .

تقدمت : كان الألبوم يبدو رائعاً ، الا أن في شغل عاجه عيباً .

كنت الشخص الوحيد الذى مضى ينظر فى « الألبوم » • صمت الجميع • ما من منافس • كان فى امكانى أن أسـل الألبوم من غمده لأدقق النظر فيه ، لكننى لم أستعمل هذا الحق ، وأشرت الى المنادى بيد ترتعش :

ـ روبلان وخمسة كوبكات •

كذلك قلت وأسنانى تصطك فيما أظن •

وقع المزاد علىّ • فسرعان ما سحبت الثمن من جيبى ، فدفعته ، وأخذت الألبوم ، ومضيت الى ركن من الغـرفة ، فأخرجتـه من غمده ، وأخذت أتأمله محموماً مسرعاً : اذا صرفنا النظر عن الغمد فان « الألبوم » أبأس « ألبوم » فى الدنيا بأسرها •• هو ألبوم صغير ليس أكبر من ورقة صغيرة من أوراق الرسائل ، نحيل شديد النحول ، قد حال تذهيب غلافه أو كاد ، يشبه تماماً تلك « الألبومات » التى كنا نراها لدى الفتيات عند انتهائهن من المدرسـة الابتدائية • وقد رسمت عليه بالتلوين المائى والحبر الصينى رسوم معابد فوق جبال ، ومشاهد غرام ، وغدير تسبح فى مائه بجعات ؟ وكتبت كذلك أبيات شعر :

انا ذاهب مسافر بعيدا
أنا تارك موسكو ولن أعودا
تحية الوداع يا احبتى
ففى بلاد الكرم صارت مهنتى

لقد بقيت هذه الأبيات فى ذاكرتى) • وخلصت من ذلك الى أننى أخفقت اخفاقاً ذريعاً • اذا كان هناك شىء لا حاجة بأحد اليه فى العالم كله ، فهو هذا الشىء عينـه • قلت لنفسى : « لا ضـير •• ان أول رهان خاسر دائماً • حتى لقد يكون خسرانى هذا بشير خير » • لقد كنت فرحاً حقاً •

وبينا كنت أقول هذا الكلام لنفسى اذ دوى صوت فى أذنى قائلاً :

ـ آ ••• وصلتُ متأخراً • هو معك ؟ هل اشتريته ؟

هو صوت سيد يرتدى معطفاً أزرق ، حسن القامة ، جميل الهندام • لقد جاء متأخراً • وأضاف يقول :

ـ نعم ، وصلت متأخراً • يالها من مصيبة ! بكم اشتريته ؟

ـ بروبلين وخمسة كوبكات •

ـ خسارة ! ألا تتنازل لى عنه ؟

فهمست فى أذنه قائلاً وقد أخذ قلبى يخفق :

ـ لنخرج !

وخرجنا الى الفسحة أمام باب المنزل •

ـ اتنازل لك عنه بعشرة روبلات •

قلت له ذلك بينما كانت تسرى فى ظهرى قشعريرة برد •

ـ عشرة روبلات • اسمح لى ! ما هذا الذى تقول ؟

ـ انت حر •

نظر الىّ الرجل ملياً • كنت حسن الملبس ، فما أشبه أن أكون يهودياً أو متاجراً • قال :

ـ ولكن ، أرجوك ، هذا ألبوم عتيق لا قيمة له ! فيم عساه ينفعك ؟ ان الغمد نفسه لا يساوى شيئاً • ولن تجد من يشتريه منك •

ـ ومع ذلك فأنت تريد أن تشتريه •

ـ لسبب خاص ، عرفته أمس فقط • أنا انسان فريد فى نوعه •

ـ كان يجب أن أطلب خمسة وعشرين روبلاً ، ولكن لما كان يمكن أن تعدل عندئذ عن شرائه فقد اكتفيت بطلب عشرة روبلات ، زيادةً فى الضمان • ولن أخفض الثمن كوبكاً واحداً •

قلت ذلك ثم أدرت ظهرى وانصرفت •

فأدركني في فناء الدار ، وقال :

ـ خذ أربعة روبلات ، بل اليك خمسة ! فظللت أسير دون أن أجيب .

ـ طيب . خذ .

قال ذلك وهو يمدُّ اليّ عشرة روبلات ، فأعطيته « الألبوم » .

قال :

ـ اعترفْ أن هذا ليس من الشرف في شيء . شيء تشتريه بروبلين ثم تبيعه بعشرة !

ـ ولماذا لا يكون من الشرف في شيء ؟ هذا سوق .

ـ أي سوق ؟ (وأخذ يغضب) .

ـ حيث يكون طلب يكون سوق . لولا أنك طلبته لما قدّر لي أن أبيعه بأربعين كوبكاً .

جهدت أن لا أنفجر ضاحكاً ، وأن أحتفظ بمظهر الجد ، فضحكت في داخل نفسي ـ ضحكت لا عن حماسة ، ولكن دون أن أعرف لماذا ! وكنت كمن تختنق أنفاسه قليلاً .

جمجمت أقول له ، رغم ارادتي تماماً ، ولكن بلهجة الصديق ، وعلى شعور بالمودة له :

ـ اسمع ما سأقوله لك . ان المرحوم جيمس روتشيلد الباريسي ، الذي خلف تركة تقدر بمليار وسبعمائة مليون فرنك (هز الرجل رأسه موافقاً) ، حين علم ، في شبابه ، مصادفةً ، قبل غيره ببضع ساعات ، بمقتل دون بيري ، أسرع يبلغ من يجب ابلاغه ، فكسب بذلك عدة ملايين في طرفة عين . هكذا يُعمل !

ـ أأنت اذن روتشيلد ؟

كذلك صاح مستاءً كأنه يوجه كلامه الى غبي أبله • خرجت من البيت نشطاً • مسعى واحد بربح سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكا ! لقد كانت مجازفتي حمقاء ، كانت لعبة طفل • انني أسلم بذلك • ولكنها كانت تتفق مع فكرتي ولا يمكن الا أن تملأ نفسي انفعالاً عميقاً •• ولا داعي الى وصف عاطفتي • ان الورقة النقدية في جيب صدرتي ، وأنا أدس اصبعي في الجيب أتلمسها وأجسها ، وأسير هكذا لا أستل يدي من جيبي • حتى اذا صرت على مسافة مائة متر من الدار ، تناولت الورقة النقدية أنظر فيها ، وأتفحصها ، حتى لقد اشتهيت أن أقبلها • وفجأة توقف أمام أحد المنازل ركب • ففتح الجندي الباب ، وصعدت الى العربة سيدة باذخة المظهر ، في ريعان الصبا ، بارعة الجمال ، واسعة الثراء ، ترفلُ في حرير ومخمل ، ويبلغ ذيل ثوبها متراً ونصف متر • وفجأة افلتت من يديها محفظة جميلة صغيرة فسقطت على الأرض • واستقرت السيدة في موضعها من العربة ، فمال الخادم على الأرض يريد أن يتناول المحفظة ، ولكنني أسرعت فالتقطتها بوثبة سريعة ، ومددتها الى السيدة رافعاً قبعتي (وهي قبعة عالية • لقد كنت ارتدي ملابس شاب يعنى بهندامه) • فقالت لي السيدة في وقار وتحفظ ، مع ابتسامة لطيفة غاية اللطف : « شكرا يا سيدي » • ومضت العربة • وقبّلت ورقة العشرة روبلات •

٣

في ذلك اليوم نفسه كان عليّ أن ألقى ايفيم زفيريف ، وهو واحد من رفاقى فى الليسيه تركها ليدخل مدرسةً خاصةً ببطرسبرج . انه لا يستحق أن أصفه لك الآن ، ولم تكن لى به أية صداقة . ولكننى أخذت أبحث عنه . ان فى وسعه (وذلك بسبب ظروف لا تستحق أن تذكر أيضاً) أن يدلنى على عنوان رجل اسمه كرافت كنت فى حاجة ماسة اليه متى رجع من فلنو . وكان زفيريف ينتظر وصوله فى ذلك اليوم نفسه ، أو فى الغداة ، وأعلمنى بذلك أول أمس . كان يجب عليّ أن أذهب الى بطرسبر جسكايا ستورونا ، لكننى لم أكن أشعر بتعب .

وجدت زفيريف (وهو فى التاسعة عشرة من عمره أيضاً) ، فى فناء منزل عمته التى كان يقيم عندها مؤقتاً . كان قد تناول غداءه ، فهو يتنزه الآن فى الفناء فوق عكازين طويلين . فأسرع ينبئنى أن كرافت وصل أمس ، وأنه نزل شقته القديمة فى بطرسبرجسكايا ستورونا ، وانه يريد هو أيضاً أن يرانى فى أقرب وقت ممكن ، لأنه يحمل نبأً مستعجلاً يريد أن ينقله اليّ وختم ايفيم كلامه بقوله :

ـ وسيسافر غداً ، لا أدرى الى أين !

ولما كان لقائى كرافت على جانب عظيم من خطورة الشأن عندى ، فى الظروف الراهنة ، فقد رجوت ايفيم أن يقودنى اليه فوراً ، مادام يقيم فى شارع صغير مجاور ، على بعد خطوتين من هناك . ولكن زفيريف قال انه صادفه منذ ساعة ذاهباً عند درجاتشيف . وأردف يقول :

ـ فلنذهب الى درجاتشيف ! ما لك تتنصل دائماً ؟ أ أنت خائف ؟

لقد يتأخر كرافت عند درجاتشيف ، فأين عسى أجده بعدئذ ؟ ولم أكن أخاف درجاتشيف ، لكنني لا أحب أن أذهب اليه ، رغم أن ايفيم حاول أن يأخذني اليه غير مرة . هذه هي المرة الثالثة على الأقل . وكان يطرح عليّ دائما هذا السؤال : « أأنت خائف ؟ » ، مبتسما ابتسامة خبيثة . ولم يكن الأمر أمر خوف مع ذلك ، أقول هذا سلفاً ؛ واذا كنت أشعر بشيء من خشية ، فذلك شأن آخر . وقررت هذه المرة أن أذهب الى درجاتشيف وكان المكان على مسافة خطوتين أيضاً . سألت ايفيم أثناء الطريق أما يزال عازماً على الهروب الى أمريكا . فأجاب يقول ضاحكاً ضحكة يسيرة :

ـ قد أتريّث .

لم أكن أحبه كثيراً ، بل لم أكن أحبه البتة : ان شعره يشبه من شدة شقرته أن يكون أبيض وان وجهه مدور مسرف في بياضه الى حد غير لائق ... يكاد يكون وجه حبي صغير . ورغم أنه أطول مني ، فلقد كان من المستحيل أن يحسبه المرء فوق السابعة عشرة من العمر . أما أن يقوم بينك وبينه حديث فذلك مستحيل .

سألته لأقول شيئاً ما :

ـ وماذا يجرى هنالك ؟ أما تزال تجتمع عنده جمهرة غفيرة ؟

فقال مرة أخرى ضاحكاً :

ـ ولكن لماذا لا تزال خائفاً ؟

أجبت غاضباً

ـ كفاك سخفاً !

ـ لا جمهرة ولا شيء من ذلك . ليس يجيء الا أصحاب . ما من غريب واحد . اطمئن بالاً !

ـ وفيم يعنيني أن يكونوا غرباء أو أن لا يكونوا غرباء ؟ ثم ، ألست أنا غريباً هناك ؟ كيف تريد أن يثقوا بي ؟

ـ يكفي أنني أقودك أنا اليهم . لقد سمعوا عنك . ومن الجائز أيضاً أن يقول كرافت رأيه فيك .

ـ اسمع ، هل سيكون فاسين هناك ؟

ـ لا أدري .

ـ اذا كان هناك فالكزني بكوعك متى دخلنا ودلني عليه . متى دخلنا . سمعت ؟

كنت قد سمعت كثيراً عن فاسين ، وكنت أهتم به منذ زمن طويل .

كان درجاتشيف يسكن مع زوجته وأختها واحدى قريباتهما في جناح صغير بفناء المنزل الخشبي الذي تملكه امرأة أحد التجار . ولكنه كان يحتل الجناح كله . وكان الجناح يضم ثلاث غرف جميلة . ان ستائر النوافذ الأربع مسدلة . والرجل شبه مهندس ، له وظيفة في بطرسبرج . وقد علمت مصادفة أنهم يعرضون عليه منصباً هاماً في الريف ، وأنه كان يستعد للالتحاق بمنصبه هناك .

فما كدنا ندخل حجرة المدخل حتى سمعت أصواتاً تلعلع . لكأنهم في مناقشة حادة . وكان يصيح قائلا باللاتينية : « ما لا تشفيه الأدوية يشفيه الحديد ، وما لا يشفيه الحديد تشفيه النار » .

شعرت بقلق حقاً . لم أكن قد تعودت صحبة المجتمع ، أياً كان هذا المجتمع . صحيح أننا كنا في الليسيه نتخاطب جميعاً بصيغة المفرد ، ولكن يمكنني أن أقول انه لم يكن لي أي رفيق ، فلقد جعلت لنفسي ركناً أنزوي فيه . على أن هذا ليس هو ما أقلقني يومئذ . وكنت قد وعدت

نفسى ، على كل حال ، بأن لا أشارك فى أية مناقشة ، وأن لا أقول من الكلام الا ما لا بد من قوله ، حتى لا يستطيع أحد أن يخرج برأى عنى • كنت قد قررت خاصة أن لا أناقش ••• خاصة أن لا أناقش •

كان فى الغرفة سبعة أشخاص ، فاذا عددت النساء صاروا عشرا • ان درجاتشيف فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو متزوج ، ولزوجته أخت وقريبة أخرى كانتا تقيمان عنده كما قلت • أثاث الغرفة بسيط ، كاف ، بل ونظيف • وعلى الجدار ترى صورة مطبوعة بطريقة الليتوغرافيا ، ولكنها لا قيمة لها ؛ وفى الزاوية أيقونة لا يزينها معدن ، لكن عليها قنديلاً مشتعلاً • تقدم درجاتشيف يستقبلنى ، فصافحنى ، وقدم الىّ مقعداً •

ـ اجلس • أنت هنا فى بيتك !

وسرعان ما أضافت سيدة شابة ، لطيفة الوجه متواضعة الملبس ، تقول :

ـ تفضل !

ثم خرجت فوراً بعد أن حيتنى تحية خفيفة • انها امرأته • ويظهر أنها كانت تشارك فى المناقشة • وقد مضت الآن تطعم ابنها • ولكن بقيت سيدتان ، احداهما قصيرة القامة جداً ، فى نحو العشرين من عمرها ، ترتدى ثوباً أسود ، لا بأس به ؛ والثانية فى نحو الثلاثين ، جافة المظهر ثاقبة العينين • وكانت السيدتان جالستين ، تصغيان اصغاء شديداً ، لكنهما لا تشاركان فى الحديث •

أما الرجال فقد كانوا جميعاً واقفين ، الا كرافت وفاسين وأنا • وسرعان ما سمّاهم لى ايفيم ، لأننى أرى كرافت أول مرة أيضاً ، فنهضت مقترباً منهم للتعارف • لن أنسى أبداً وجه كرافت : ما من جمال خاص يلفت النظر ، غير أن فى وجهه رهافة خالية من أى خبث أو مكر ،

الى وقار شخص يتجلى واضحاً في كل شيء • هو في السادسة والعشرين من العمر ، نحيل بعض النحول ، أطول من متوسط طول الرجال ، أشقر ، توحي اليك سحنته بالجد على رقة وعذوبة • ان نوعاً من هدوء يشع في شخصه كله • ومع ذلك أقول لك ، اذا شئت أن تعرف هذا ، انني لا أرضى أبداً أن استبدل بوجهي الكابي وجهه ذاك الذي بدا لي على هذا الجانب العظيم من الفتنة والاغراء • لقد كان في هيئته شيء لا أتمنى أن يكون في هيئتي ، شيء لا أدري ما هو ؟ شيء من هدوء مفرط ، بالمعنى الأخلاقي لهذه الكلمة ، شيء من كبر خفي مستتر يجهل نفسه • وعلى كل حال فانني لم أكن قادراً على أن أحكم في الأمر على هذا النحو تماماً حينذاك • والآن انما يبدو لي أن حكمي قد قام على هذا الأساس حين حكمت ذلك الحكم •

قال كرافت :

ــ أنا سعيد بمعرفتك • وان معي رسالة تهمك • سنلبث هنا لحظة ، ثم نمضي الى بيتي •

كان درجاتشيف متوسط القامة ، قوي الجسم ، أسمر اللون ، عريض المنكبين ، ذا لحية كبيرة • انك ترى في نظرته الذكاء العملي ، والرزانة في كل شيء ، وشيئاً من ترو لا يخطئه قط • ومع أنه صامت أكثر الوقت ، فقد كان واضحاً أنه هو الذي يدير دفة الحديث • أما فاسين فلم يلفت وجهه نظري كثيراً ، رغم كل ما كنت قد سمعته عن ذكائه النادر : شاب أشقر اللون ، واسع العينين ، لونهما أشهب ، شديد انبساط الوجه ، ولكن على شيء من صلابة مفرطة • يشعر المرء أنه ليس بالرجل الاجتماعي كثيراً ، لكن نظرته ذكية حقاً ، أذكى من نظرة درجاتشيف ، وأعمق وأنفذ من نظرات سائر الحضور • وأما الآخرون جميعاً من هؤلاء الشباب فانني لا أتذكر من بينهم الا اثنين : واحداً طويل

القامة ، برونزى اللون ، له « شامات » سود ، كثير الكلام ، فى نحو السابعة والعشرين من العمر ، هو أستاذ أو ما يشبه ذلك ؟ وفتى فى مثل سنى ، يرتدى عباءة قصيرة واسعة مما يلبسه الفلاحون ، مخدد الوجه ، شديد الصمت لا يتكلم ، ولكنه يصغى اصغاء قوياً • وقد اتضح فعلاً أن أصله من الفلاحين •

ـ لا •• ما هكذا يجب أن تطرح المسألة ! فيما يتعلق بالبراهين الرياضية ، ليس لى ما اعترض عليه • ولكننى ، فيما يتصل بهذه الفكرة ، مستعد لقبولها بغير براهين رياضية •

كذلك بدأ يتكلم الأستاذ ذو « الشامات » السود ، يستأنف الحديث الذى كانوا آخذين فيه منذ قليل متحمساً أكثر من سائر الحضور •

فقاطعه درجاتشيف صاخباً يقول :

ـ اسمع يا تيخوميروف ، ان الحضور الجدد لا يعرفون الموضوع (وهنا التفت فجأة نحوى وحدى ـ وانى لأعتراف أنه اذا كان ينوى أن يمتحن الشخص « الجديد » ، أو كان يريد أن يجبرنى على الكلام ، فقد أحسن اختيار الوسيلة البارعة ؟ لقد شعرت بذلك رأساً وتأهبت) • الموضوع هو أن السيد كرافت ـ السيد كرافت مثلاً ـ وهو معروف لدينا جميعاً بصلابة طبعه وقوة اقتناعاته ـ قد انتهى من النظر فى أمر عادى جداً الى استخلاص نتيجة خارقة أذهلتنا جميعاً • لقد انتهى الى أن الشعب الروسى شعب من الدرجة الثانية •

صاح أحدهم :

ـ بل من الدرجة الثالثة !

ـ •• من الدرجة الثانية ، شعب خلق أداةً لعرق أسمى وأنبل ، فليس له أى دور مستقل فى مصائر الانسانية • وعلى أساس هذه

النتيجة ـ التي ربما كانت صادقة ـ وصل السيد كرافت الى أن نشاط أي روسي ، أياً كان ، لابد أن يعطّله الشعور بهذا التقصير عن غيره ، فما علينا جميعاً الا أن نسبل أذرعنا ان صح التعبير .

قال تيخوميروف نافد الصبر :

ـ اسمح لي يا درجاتشيف . ما هكذا يجب أن تطرح المسألة .

فأذعن درجاتشيف وترك له أن يتم كلامه . قال تيخوميروف :

ـ لما كان كرافت قد قام بدراسات جدية ، واستخرج من علم الفزيولوجيا استنتاجات يعدها رياضية ، ولعله وقف سنتين من وقته على فكرته (التي لا أرفض أن أقبلها هادئاً كل الهدوء) أي لما كان كرافت يعاني مخاوف كبيرة وكان كلامه يشتمل على جد خطير ، فان الأمر يبدو لي ظاهرة غريبة . ان كل شيء يدعونا الى التساؤل عما عجز كرافت عن فهمه ، وبهذا انما يجب أن نعنى الآن ، أقصد ان علينا ان نعرف السبب الذي يجعل كرافت عاجزاً عن فهم المسألة . هذه ظاهرة يجب ان ننظر فيها ، فنرى أهي حالة مفردة من اختصاص الطب ، أم هي خاصة يمكن أن تتكرر تكرراً طبيعياً في حالات أخرى . تلكم مسألة تهم القضية المشتركة . أما فيما يتعلق بروسيا فأنا أصدّق كرافت ، بل أقول ان ذلك يسرني ؛ فاذا سلّم جميع الناس بهذه الفكرة فكّت هذه الفكرة الوثاق الذي يقيد أيدينا ، وحررت كثيراً من الناس من وهم الوطنية .

قال كرافت بشيء من جهد :

ـ لا شأن لهذا بالوطنية !

وكان يبدو عليه أن هذه المناقشات كلها تضايقه وتزعجه .

قال فاسين الذي ظل صامتاً مدة طويلة :

ـ وطنية ، لا وطنية ، دعوا هذا جانباً !

صاح الأستاذ (كان وحده يصيح ، أما الآخرون فكانوا يتكلمون بصوت خافت) :

ـ ولكن قولوا لى :.هل يمكن للنتيجة التى وصل اليها كرافت أن تضعف التطلع الى العمل المشترك الذى يجب أن تحققه الانسانية ؟ لنسلم جدلاً بأن روسيا تأتى فى المرتبة الثانية ، أفلا يمكن العمل من أجل غيرها . ثم كيف يمكن أن يظل كرافت وطنياً اذا فقد الايمان بروسيا ؟

قال صوت من الأصوات :

ـ ان كرافت ليس روسياً !

ـ أنا روسى !

ـ تلك مسألة لا تتعلق بصميم المسألة .

كذلك قال درجاتشيف للذى قاطع الأستاذ .

قال تيخوميروف متابعاً كلامه كأنه لا يريد أن يسمع شيئاً :

ـ اخرجوا اخرجوا من فكرتكم الضيقة . اذا لم تكن روسيا الا أداةً لعروق أسمى وأنبل ، فلماذا لا تقبل روسيا هذا الدور ! انه دور لامع على كل حال . لماذا لا نعتمد على هذه الفكرة من أجل أن نوسِّع نظراتنا بعد ذلك . إن الانسانية على أبواب انبعاثها ، وقد بدأ هذا الانبعاث فعلاً . لابد أن يكون المرء أعمى حتى لا يرى المهمات التى سيكون علينا أن ننهض بها . دعوا روسيا وشأنها اذا كنتم قد أصبحتم لا تؤمنون بها ، واعملوا من أجل المستقبل ، مستقبل شعب لمَّا يزل مجهولاً ، ولكنه سيتألف من الانسانية كلها ، دون تفريق بين عروق . ستموت روسيا فى يوم من الأيام على كل حال . ان الشعوب ، مهما تكن موهوبة ، تعيش ألفاً وخمسمائة سنة ، تعيش ألفى سنة فى أقصى تقدير . وما من فرق تقريباً بين ألفى سنة ومائتى سنة ؟ ان الرومانيين لم يبقوا

ألفاً وخمسمائة سنة على حالة الحياة ، وانما تحولوا هم أيضاً الى أداة . انقضى زمان طويل لم يعودوا فيه شيئاً مذكوراً . لكنهم أورثوا الانسانية فكرة ، وكانت هذه الفكرة عنصر تقدم للانسانية . كيف يمكن أن نقول لانسان انه لم يبق هنالك شيء يعمل ؟ اعملوا من أجل الانسانية ، وانسوا كل ما عدا ذلك ! ثمة أعمال لا يكفيها العمر اذا أنتم أنعمتم النظر !

ـ يجب على المرء أن يعيش على ما يريده قانون الطبيعة والحقيقة .

كذلك قالت السيدة درجاتشيف من وراء الباب . كان الباب مشقوقاً ، فهي ترى واقفة أمام شق الباب ، حاضنة طفلها ، مغطاة الصدر نصف تغطية ، مصيخة بسمعها في حماسة .

أصغى اليها كرافت وهو يبتسم ابتسامة خفيفة . وأخيراً ، قال وقد بدا في وجهه الاعياء ، ولكن في صدق قوى :

ـ أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء ، اذا هو كان خاضعاً لتأثير فكرة مسيطرة يرتبط بها عقله وقلبه ارتباطاً تاماً ، أن يعيش أية حياة خارج هذه الفكرة .

ـ ولكن اذا قيل لك بالحجج المنطقية والرياضية ان النتيجة التى انتهيت اليها خطأ ، وان فكرتك ضلال ، وانه لا يحق لك البتة أن تبعد نفسك عن العمل المشترك المفيد لمجرد أن روسيا محكومة في رأيك حكماً لا راد له على أن تأتي قيمتها في المرتبة الثانية ، واذا أمكن أن نريك أفقاً لا نهاية له ولا حدود ، بدلا من الأفق الضيق الذى يحجب نظرك ، واذا أمكن بدلا من فكرتك الضيقة هذه عن الوطنية ...

قال كرافت وهو يحرك يده متململاً :

ـ سبق أن قلت لكم ان الأمر ليس أمر وطنية .

فتدخل فاسين فجأة يقول :

ـ هاهنا سوء تفاهم • الخطأ هو أننا لا نجد لدى كرافت مجرد استنتاج منطقي ، وانما نجد لديه استنتاجاً انحدر فصار الى عاطفة ان صح التعبير • طبائع البشر ليست واحدة : كثير من البشر يتحول الاستدلال المنطقي عندهم أحياناً الى عاطفة قوية تستولى على وجودهم كله ، فيصعب جداً طردها أو تعديلها • فلكي نشفي انساناً أصيب بهذا الداء يجب علينا أن نغير هذه العاطفة ، وهذا لا يكون ممكناً الا بأن تحل محل هذه العاطفة قوة أخرى تساويها • وذلك صعب دائماً ، حتى لقد يكون في بعض الأحيان مستحيلاً •

صاح المشاجر :

ـ خطأ • ان النتيجة المنطقية تبدد بذاتها الأحكام السابقة والأوهام المستقرة • والاقتناع العقلي يولد عاطفة تناسبه • ان الفكر ينبع من العاطفة، حتى اذا استقر فينا قام يولّد بدوره عاطفة جديدة !

ـ الناس متفاوتون ، فبعضهم يسهل أن تتغير عاطفته ، وبعضهم يصعب أن تتغير عاطفته •

كذلك قال فاسين وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يطيل المناقشة • أما أنا فقد راقتني فكرته وأعجبتني أيما اعجاب •

فقلت على حين بغتة أحطم الجليد وأبدأ الكلام :

ـ صحيح تماماً ما قلت • فالحق أنك لا تستطيع أن تزيل عاطفة الا باحلال عاطفة أخرى يمكن أن تقوم مقامها • أذكر أنه منذ أربع سنوات •• وكان ذلك في موسكو •• وقع لجنرال من الجنرالات •• أنا لم أكن أعرفه •• ولكن يمكن أن لا يكون ممن يوحون بالاحترام •• أضيفوا الى ذلك أن الواقعة نفسها يمكن أن تبدو غير معقولة •• المهم أن هذا الجنرال قد فقد ابنةً له •• بل فقد ابنتين ، واحدةً بعد أخرى •• بمرض واحد ••

ان هذا الرجل قد بلغ فجأة من الارهاق ما جعله لا ينسى مصيبته لحظة واحدة •• كان في حداد دائم لا يملك المرء حين يراه الا أن يتألم ••• ثم لم تمض ستة أشهر حتى مات • أما أنه مات حزنا وألما فتلك واقعة لا ريب فيها • فكيف كان يمكن أن نشفيه قبل أن يموت ؟ بعاطفة تساوى قوة عاطفته؟ كيف ؟ ينبغى عندئذ اخراج ابنته من القبر وردهما اليه ! أقصد •• شيئاً من هذا القبيل ! لقد مات الرجل ! ولكن كان يمكن أن تقدم له براهين رائعة : أن يقال له ان الحياة قصيرة ، وان كل انسان الى فناء ؛ كان يمكن أن تؤخذ له أرقام من سجلات الوفيات عن عدد الأطفال الذين ماتوا بهذا المرض •• لقد كان الجنرال محالاً على التقاعد •••

هنا توقفت عن الكلام مختنقاً ، ونظرت حولى •

قال أحدهم :

ـ الأمر مختلف !

قال فاسين ملتفتاً نحوى :

ـ ان الواقعة التى ذكرتها ، على كونها من طبيعة أخرى غير ما نحن بصدده ، تشبهه بعض الشبه وتلقى عليه ضوءا •

٤

يجب أن اعترف هنا لماذا افتتنت بالحجة التى أدلى بها فاسين عن « الفكرة العاطفة » ؟ ويجب على أن أعترف فى الوقت نفسه أننى شعرت بعارجهنمى . نعم لقد كنت أخاف أن أذهب الى منزل درجاتشيف ، ولكن لسبب آخر غير السبب الذى كان يظنه ايفيم . كنت أخاف ، لأننى كنت أخشى هؤلاء الناس منذ كنت بموسكو . كنت أعرف أنهم (هم أو أضرابهم) أناس مجادلون ، وأن من الجائز جداً أن يمزقوا « فكرتى » اربا اربا . كنت على ثقة تامة بأننى لن أبوح لهم بها . ولكن كان يمكن (هم أو اضرابهم ، أقولها مرة أخرى) أن يقولوا أشياء قد تفقدنى ثقتى بفكرتى حتى دون أن يشيروا اليها . لقد كان فى « فكرتى » مشكلات لم تحل ، ولكننى لا أريد لهذه المشكلات أن يحلها أحد عنى . حتى لقد انقطعت فى هاتين السنتين الأخيرتين عن القراءة ، مخافة أن أقع على فقرة من الفقرات لا تؤيد « فكرتى » حتى لقد تزعزعنى . وهذا فاسين يحل المسألة من أول وهلة ، ويهدىء روعى الى أقصى حد . ما الذى كان يخيفنى فعلاً ، وماذا كان فى وسعهم أن يفعلوه لى بكل ما يملكون من جدل ؟ لعلنى الشخص الوحيد الذى فهم ما أراد أن يقوله فاسين حين تحدث عن « الفكرة ــ العاطفة » . ليس يكفى أن تدحض فكرةً جميلة ، وانما ينبغى لك أن تحل محلها فكرة تضارعها جمالاً . وبدون ذلك فاننى اذ أرفض التخلى عن عاطفتى بحال من الأحوال ، أستطيع أن أدحض دحضك فى قرارة قلبى ، ولو اكراهاً واجباراً مهما يكن رأيك أنت . وما الذى كان فى وسعهم ، أن يعطونى بديلاً عن فكرتى ؟ أما كان ينبغى اذن أن أكون أكثر شجاعة . كان علىّ أن أملك مزيداً من البسالة . ولذا فاننى حين

تحمست لرأى فاسين شعرت بعار ، وأحسست أننى طفل لا يستحق الاحترام •

وثمة أمر آخر أشعرنى بالعار • ان تلك العاطفة المحتقرة التى تدفع المرء الى تغليب رأيه ليست هى التى حملتنى على تحطيم الجليد والأخذ بالكلام ؟ وانما حملتنى على ذلك رغبة فى الوثوب الى « معانقة » الناس ، من أجل أن يجدوا أننى رجل طيب ، من أجل أن يأخذوا بتقبيلى ، أو شىء من هذا القبيل (شىء دميم قبيح على كل حال) • وأعتقد أن هذه الرغبة هى أبشع الرغبات التى تثير الشعور بالعار فى نفسى • لقد لاحظت وجود هذه الرغبة فى نفسى منذ زمن طويل ؟ لاحظتها وأنا قابع فى ذلك الركن الذى قبعت فيه ذلك العدد كله من السنين ، دون أن أشعر بندامة على ذلك • كنت أعرف أن علىّ أن أكون بين الناس أشد جهامة • على أن الشىء الوحيد الذى كان يعزينى ، بعد كل مرة من مرات شعورى بالعار هذا ، هو أن « فكرتى » لا تزال رغم كل شىء ملكى ، لا تزال رغم كل شىء كامنة فى مخبئها ، وأننى ما أفضيت بها الى أحد • كان ينقبض صدرى حين أتصور أحيانا أننى فى اليوم الذى سأبوح بفكرتى لأحد فلن يبقى لى بعدئذ شىء ، وسأكون بعدئذ شبيهاً بسائر الناس ، وأننى قد أترك فكرتى نفسها حينذاك • لذلك كنت أحافظ عليها ، وأصونها ، وأخشى الثرثرات • وهأنذا فقدت تحفظى عند درجاتشيف منذ أول لقاء تقريباً : صحيح أننى لم أبح بشىء ، لكننى لغوت لغواً كثيراً لا يغتفر • شعرت بالعار • ذكرى أليمة ! لا ، لن أستطيع أن أعيش مع البشر • مازلت مقتنعاً بهذا الى اليوم • انى لأتحدث عن أربعين سنة سلفاً • ان فكرتى هى ملاذى ومأواى •

٥

ما ان أيد فاسين كلامى حتى تملكتنى رغبة فى الكلام لا سبيل الى مقاومتها •

ـ فى رأيي أن من حق كل انسان أن يكون له مشاعر وعواطف •• شريطة أن يكون ذلك عن اقتناع • وليس لأحد أن يأخذ عليه ذلك •

قلت هذا متجها بالكلام الى فاسين • وقد نطقت بالعبارة حارة سريعة ، ولكن خيّل الى أننى لم أفعل ذلك من تلقاء نفسى ، حتى لكأن انساناً آخر كان يحرك لسانى فى فمى •

ـ يا ••• سلا ••• م ••

بذلك نطق الصوت نفسه الذى قاطع درجاتشيف منذ هنيهة ، والذى صاح يصف كرافت بأنه ألمانى • نطق بذلك هازئاً ساخراً • واذ عددته انسانا تافها لا قيمة له البتة ، التفت نحو الأستاذ ، كأنه هو الذى صاح • وقلت :

ـ يقينى أنه ليس لى حق فى أن أحكم على أحد •

وكنت قد أخذت أرتجف لعلمى سلفاً بأننى لن أتوقف عن الكلام • وقلت وأنا أحدق فى الأستاذ الذى لزم الصمت وراح ينظر الىّ مبتسماً :

ـ لكل انسان فكرته !

صاح التافه يسال :

ـ وأنت ما فكرتك ؟

ـ يطول شرحها كثيراً • فاذا أردت أن أذكر لك جزءاً منها ، فاليك

هو : ليدعني الناس وشأني ! ما بقي مني روبلان ، فانني أريد أن أعيش وحيداً ، أن لا أكون رهناً بأحد (هدىء روعك ، انني أعرف الاعتراضات) ، وأن لا أعمل حتى ولا من أجل الانسانية الكبيرة المقبلة التي تريدون أن تقحموا كرافت في خدمتها • ان الحرية الفردية ، أعني حريتي أنا ، هي قبل كل شيء • ولا أريد أن أعرف شيئاً عداها •

وكان خطئي أنني غضبت •

ـ معنى ذلك أنك تدعو الى هدوء البقرة الشبعانة !

ـ أسلم بذلك • ليس في البقرة ما يؤذي • لست مديناً لأحد بشيء : انني أدفع للمجتمع ما عليّ في صورة ضرائب ، حتى لا أُسرق ، حتى لا أضايق ، حتى لا أقتل ، وليس لأحد أن يطالبني بأكثر من ذلك • قد تكون لي ، شخصياً ، أفكار أخرى ، وربما كنت أريد أن أخدم الانسانية ، ولسوف أخدمها ، ولعلني سأخدمها أكثر من جميع الواعظين عشر مرات • ولكنني لا أريد أن يفرض عليّ هذه الخدمة أحد ، لا أريد أن يكرهني عليها أحد اكراهاً ، كما تريدون اكراه كرافت • أريد لحريتي أن تبقى كاملة ، حتى ولو لم أحرك اصبعي • أما أن أركض وأمضي أتشبث بأعناق الناس حباً بالانسانية ، وأن أذرف الدموع رقة وحنانا ، فما ذلك الا « موضة » ! ثم لماذا يجب عليّ أن أحب جاري ، أو أن أحب الانسانية المقبلة التي تتحدثون عنها ، الانسانية التي لن أراها يوماً ، والتي لن تعرفني يوما ، والتي ستزول هي أيضا من غير أن تخلف لا أثراً ولا ذكرى حين تستحيل الأرض بدورها الى كتلة من ثلج وتطير في الفضاء بلا هواء مع طائفة لا حصر لها من كتل أخرى مثلها • ألا ان هذا أسخف ما يمكن أن يتخيله خيال ! هذه عقيدتكم ، فانظروا ما هي ! قل لي : لماذا يجب عليّ حتماً أن أكون كريماً ، خاصة اذا كان كل شيء لا يدوم الا لحظة !

صاح صوت :

ـ باه ... باه ...

كنت قد أطلقت هـذه العبارات القليـلة فى غضب وخبث ، محرقاً جميع سفنى . كنت أعلم أننى أطير الى الهاوية ، ولكننى كنت أسرع خشية الاعتراض . كنت أحس اننى أسـوق كلامى فوضى على غير هدى ، بـلا تسلسل ولا نظام ، ولكننى كنت أتعجل اقناعهم وسحقهم ! كان هذا على جانب عظيم من خطورة الشأن فى نظرى ! لقد تأهبت ثلاث سنين . والأمر العجيب الذى يلفت النظر أنهم صمتوا دفعـة واحدة ، كأنهم لم يقـولوا شيئاً ، واكتفوا بالاصغاء . وأردفت أقول موجهاً كلامى الى الأستاذ :

ـ تماماً . ان هناك رجلاً عظيم الذكاء قال يوماً فيما قال انه لا شيء أصـعب من الاجابة عن هذا السؤال : « لماذا يجب على المرء أن يتمسك بالفضيلة ؟ » . ان فى هذه الحياة الدنيا ثلاثة أنواع من الأرذال : أرذال سذج مقتنعين بأن رذالتهم هى الفضيلة المثلى ، وأرذال خجلين هم أولئك الذين يحمرون حياءً من رذالتهم مع اصرراهم على أن يمضوا فيها الى النهاية ، وأرذال أرذال ، أرذال محض . واسـمحوا لى أن أضرب لكم هذا المثال : لى رفيق اسمه لامبير ، كان يقول لى ، ولماّ نتجاوز السادسة عشرة من العمر ، انه حين سيصير غنياً ستكون أعظم لذة يتمتع بها هى أن يغذى كلاباً بخبز ولحم بينما يموت أولاد الفقراء جوعاً ، وانه اذا رأى هؤلاء الأطفال يرتعدون من شـدة البرد ولا يملكون ما يسـتدفئون به ، فسيشترى أكواماً كبيرة من الحطب فيمضى بها الى العـراء يحرقها هنالك ليدفىء بها الهواء دون أن يعطيهم منها عوداً واحداً . انظروا الى عواطف هذا الفتى ثم قولوا بماذا عساى أجيب هذا الوبش المحض اذا هو سألنى : « لماذا يجب علىّ قطعاً أن أتمسك بالفضـيلة » ، ولاسيما فى هذا العصر الذى جعلتموه على هذه الصـورة ! ان الأمور لم تكن فى يوم من الأيام أسوأ منها الآن أيها السادة ! ان الوضع فى مجتمعنا خال من أى وضوح . انكم تجحدون وجود الله ، وتجحدون القداسـة ، فما عسى أن تكون

القاعدة الصماء العمياء البهيمة التي يمكن أن تجبرني على أن أسلك سلوكاً ما اذا كان من الأنفع لي أن أسلك سلوكاً آخر ؟ تقولون : « ان تصرفي الحكيم تجاه الانسانية هو من مصلحتي أنا أيضاً » • ولكن اذا كنت أرى كل هذه الأشياء المجنونة ، كل هذه الثكنات ، كل هذه الكتائب ، فماذا أصنع بهذا كله ، وماذا أصنع بمستقبلكم وليس لي الا حياة واحدة أعيشها ! دعوني أعرف مصلحتي بنفسي : فسأستخرج من ذلك لذة أكبر • كيف يمكن أن أهتم بما سيجري في انسانيتكم بعد ألف عام ، اذا كان قانونكم لا يهب لي جزاء ذلك لا حباً ولا حياة آخرة ولا شهادة بأني امرؤ فاضل ؟ لا يا سادتي ، اذا كان الأمر كذلك ، فسأحيا لنفسي كأوقح ما تكون حياة امرىء لنفسه • والى الجحيم فليذهب الآخرون •

ـ ألا انك لتتمنى للناس تمنيات لطيفة كريمة !

ـ وأنا مستعد مع ذلك لأن أتبعهم •

ـ أحسن (ذلك الصوت نفسه قال هذا) •

وظل الآخرون صامتين جميعاً ، ينظرون الىّ ويلاحظونني • ولكن سرعان ما أخذت تظهر شيئاً فشيئاً في أركان شتى من الغرفة ، ضحكاتٌ بدأت متخفيةً ثم سفرت فراحوا يهزأون مني جميعاً وجهاً لوجه ، الا فاسين وكرافت • وكان ذو « الشامات » السود يبتسم أيضاً : يحدق الىّ ويصغي •

قلت وأنا أرتعش من قمة رأسي الى أخمص قدمي :

ـ أيها السادة ، لن أقول لكم فكرتي مهما كلف الأمر • ولكنني ، بالعكس ، أسألكم ، من وجهة نظركم أنتم ، لا من وجهة نظري أنا ، لأنني ربما كنت أحب الانسانية ألف مرة أكثر منكم مجتمعين ، أسألكم أن تقولوا لي ، وأنتم مضطرون أن تجيبوني فوراً ، مضطرون أن تجيبوني لأنكم تضحكون : ماذا تملكون أن تقدموا لي اذا أنا اتبعتكم ؟ كيف

تبرهنون لى على أن الأمور ستكون أفضل فى ظل نظامكم ؟ ماذا أنتم فاعلون باحتجاجى فى نكنتكم على المساكن المشتركة ، وعلى الاكتفاء بالضروى الذى لابد منه [١] ، والالحاد ، والنساء المشاع بغير أولاد ٠ ـ ذلك هو اتفافكم النهائى ، أنا أعرفه ٠ وفى وسبيل هذا الجزء اليسير الزهيد من المصلحة المتوسطة التى سيكفلها تنظيمكم العقلى ، فى سبيل قطعة خبز وقليل من دفء ، وشىء من ملبس تريدون أن تأخذوا كل شخصى فى مقابل ذلك ٠ انتظروا قليلاً ! لنفرض أن أحداً انتزع منى امرأتى ٠ فهل تقيدوننى تقييداً كافياً يمنعنى من قتل غريمى ؟ رب قائل منكم يقول لى : ولكنك ستصبح أنت نفسك أعقل من ذلك يومئذ ٠ ولكن امرأتى ، ما عساها تقول عن بعل متعقل كل هذا التعقل ، اذا كانت تحترم نفسها أقل احترام ؟ اعترفوا أن هذا مخالف للطبيعة ٠ ألا تشعرون بحياء ؟

هتف صوت الرجل التافه قائلاً فى سخرية :

ـ أأنت اختصاصى ٠٠ فى شئون المرأة ؟

فمرت بى لحظة تمنيت فيها أن أنهض له مسرعاً فاوسعه ضرباً مبرحاً ٠ انه رجل قصير أحمر مغطى الوجه ببقع حمر ٠٠ على كل حال ، ليس مظهره بالأمر الذى يهمنى ٠

ـ طمّن بالك ٠ اننى ما عرفت النساء بعد ٠

أطلقت هذه الجملة ملتفتاً اليه أول مرة ٠

ـ اعتراف غريب كان يمكن أن يقال بلغة أقرب الى التهذيب والأدب فى حضور سيدات ٠

ولكن جميع المجتمعين أخذوا يتحركون ؛ فهم يتناولون قبعاتهم

(١) بالفرنسية فى الأصل ٠

ويلوح عليهم أنهم منصرفون ـ لا بسببي ، بل لأنه آن الأوان • غير أن هذه الطريقة في معاملتي بالصمت ملأتني شعوراً بالعار • ونهضت أنا أيضاً •

ـ هل تريد أن تذكر لي اسمك رغم كل شيء ؟ انك لم تكف عن النظر الي •

كذلك سألني الأستاذ وهو يتقدم نحوى خطوة ، مبتسماً ابتسامة غير لائقة •

ـ دولجوروكي

ـ الأمير دولجوروكي

ـ بل دولجوروكي فحسب ، ابن قن قديم اسمه ماكار دولجوروكي، وابن زنا لمولاي السابق السيد فرسيلوف • طمن بالك يا سيدي ، فلست أقول هذا من أجل أن ترتمي على عنقي وأن تذرف الدمع كالعجول •

فانفجرت عاصفة من الضحك تدوي بلا تحرج حتى استيقظ من شدة أصواتها الطفل الذي كان نائماً في الجهة الأخرى وأخذ يبكي • كنت أرتعش غيظاً • وصافح الجميع درجاتشيف وانصرفوا دون أن يولوني أي التفات •

قال كرافت وهو يلكزني بكوعه :

ـ هيا بنا !

فتقدمت نحو درجاتشيف فصافحته بكل قواي وهززت يده مرات ، بكل قواي أيضاً •

قال لي كرافت :

ـ معذرة اذا كان كودريوموف قد آذاك • (ان كودريوموف هو الرجل القصير الأحمر) •

وتبعت كرافت ، لا أشعر بخجل من شيء •

٦

بديهى أن بينى اليوم وبينى يومئذ مسافةً لا نهاية لها .

ظللت أمضى « غيرَ خجل من شىء » حتى أدركت فاسين على السلم ، تاركاً كرافت ، وهو شخص من الدرجة الثانية ، فسألته بلهجة طبيعية وهيئة عادية كأن شيئاً لم يحدث :

ـ أعتقد أنك تعرف أبى ، أقصد فرسيلوف ؟

فأجاب على الفور (دون اصطناع ذرة من تلك اللباقة الرقيقة ، ولكن الجارحة ، التى يعمد اليها أولئك الأشخاص اللطاف مع أناس كانوا منذ لحظة يشعرون بعار) ، أجاب قائلاً :

ـ لا أعرفه معرفة خاصة .

قلت :

ـ اذا كنت قد سمعته فقد عرفته ، لأنك أنت ما أنت ! فما رأيك اذن فيه ؟ اغفر لى هذا السؤال المباغت ، ولكننى فى حاجة الى جوابك ؛ فى حاجة الى أن أعرف رأيك أنت فيه . فما هو رأيك أنت ؟

ـ سؤال صعب . يخيل الىّ أن هذا الانسان قادر على أن يطالب لنفسه بأشياء كثيرة ، وربما كان قادراً على أن ينفذها ، ولكنه يأبى أن يحاسبه أحد .

ـ هذا صحيح . هذا صحيح كل الصحة . انه شديد الكبرياء ؟ ولكن أهو واضح تماماً ؟ اسمع . ما رأيك فى كاثوليكيته ؟ ولكننى نسيت أنك ربما كنت لا تعلم أنه ...

لولا أنني كنت مضطرباً هذا الاضطراب كله فلا شك أنني ما كنت لألقى مثل هذه الأسئلة مباغتةً على انسان لم أكلمه قبل ذلك في حياتي قط ، ولا كنت أعرفه الا من السمعة . وأدهشني أن فاسين لم يبد عليه أنه يلاحظ جنوني هذا .

– لقد سمعت كلاماً من هذا القبيل ، ولكنني لا أدرى الى أى حد يمكن أن يكون ذلك صدقاً .

كذلك أجاب بلهجة لا تزال متساوية هادئة . قلت :

– ليس في ذلك أى صدق . ليس ذلك الا كذباً . هل تتصور أن من الممكن أن يؤمن بالله ؟

– انه انسان شديد الكبرياء والعجب بنفسه ، كما قلت أنت ذلك منذ هنيهة ، وكثير من المتكبرين جداً يحبون أن يؤمنوا بالله ، وخاصةً أولئك الذين يحتقرون الناس بعض الاحتقار . كثير من النـاس الأقوياء يشعرون بنوع من حاجة طبيعية الى أحد أو الى شيء يعبدونه . ان الانسان القوى يشق عليه كثيراً في بعض الأحيان أن يحتمل قوته .

صحت أقول :

– اسمع اذن ! ذلك ما لا بد أنه الحقيقة الصادقة صدقاً رهيباً . ولكنني أريد أن أفهم ..

– السبب في هذا واضح : انهم يختارون الله ، حتى لا يعبدوا البشر ، طبعاً دون أن يدركوا هم أنفسهم ما يجرى في قرارة أنفسهم . أولئك هم أشد المؤمنين حماسة للايمان ، أو قل أولئك هم أشد المؤمنين رغبة في الايمان ، غير أنهم يحسبون رغبتهم هذه ايماناً . وهؤلاء أنفسهم هم أيضاً أولئك الذين يفقدون آخر الأمر أوهامهم في أكثر الأحيان . أما السيد فرسيلوف ، فأحسب أن في طبعه صفات صادقة كل الصدق . وهو على كل حال انسان يلفت نظرى .

هتفت أقول :

ـ فاسين ، ان كلامك يسرنى • ليس ذكاؤك هو ما يدهشنى ، وانما يدهشنى أن انساناً له هذا الصفاء كله ، ويتفوق عليَّ هذا التفوق الذى لا حدود له ، يرضى أن يسير الى جانبى وأن يكلمنى بمثل هذه الساطة وبمثل هذا اللطف حتى لكأن شيئاً لم يحدث •

ابتسم فاسين :

ـ أنت تمتدحنى فوق ما استحق • ان ما حدث هنالك لا يدل الا على أنك مسرف فى حب المناقشات المجردة • صحيح أنك كنت قد صمتَّ حتى ذلك الحين زمناً طويلاً •

ـ صمتُّ ثلاث سنين ؟ ثلاثَ سنين تأهب للكلام •• هذا واضح • ولئن لم أظهر لك غبياً فلأنك أنت ذكى الى أقصى حدود الذكاء ، أما سلوكى أنا فكان يستحيل أن يكون أشد حماقة وأكثر غباءً مما كان • ولكننى بدوت لك امرءاً ردىء الطبع •

ـ ردىء الطبع ؟

ـ نعم ، بدون شك • قل لى بصراحة : ألا تحتقرنى فى داخل نفسك لأننى ذكرت أننى ابن زنا لفرسيلوف •• ولأننى تفاخرت بأننى ابن قن ؟

ـ أنت تسرف فى تعذيب نفسك وارهاقها • اذا كنت ترى أنه ما كان لك أن تقول ذلك ، فليس عليك الا أن تمتنع عن قوله مرة أخرى • ان أمامك خمسين سنة •

ـ أناأعلم أن عليَّ أن أكون صامتا مع الناس • أسوأ مساوىء المرء أن يرتمى على أعناق الآخرين • لقد قلت لهم ذلك منذ قليل • وهأنذا مع ذلك أرتمى على عنقك ! الا أن هناك فرقا بين الأمرين ،أليس هذا

صحيحا ؟ فاذا كنت قد أدركت هذاالفرق ، اذا كنت قد استطعت أن تدركه، فانني أبارك هذه الدقيقة •••

ابتسم فاسين مرة أخرى :

ـ زرني ان شئت • أما الآن فأنا مشغول ينتظرني عمل من الأعمال • لكنك ستسرني اذا زرتني •

ـ أستنتج من النظر في وجهك أنك امرؤ مغلق جداً ، وأنك قليل الرغبة في الافصاح عن ذات نفسك •

ـ ربما كان هذا صحيحا • لقد عرفت أختك اليزابيث ماكاروفنا ، العام الماضي ، في لوغا •• هاقد وقف كرافت ، وهو ينتظرك فيما أظن • سيكون عليه أن يرجع القهقرى •

صافحت يد فاسين مصافحة قوية ، ولحقت بكرافت الذي كان قد تقدم في الطريق أثناء حديثي مع فاسين • ومضينا صامتين الى أن بلغنا منزله • كنت لا أريد ولا أستطيع ، بعد ، أن أكلمه • ان من أبرز صفات طبع كرافت أنه رقيق الحاشية •

الفصل السابع

١

كان لكرافت فى الماضى وظيفة رسمية ، وكان عدا ذلك يساعد المرحوم آندرونيكوف (بأجر يتقاضاه منه) فى معالجة بعض الشئون الخاصة التى كان كرافت يقوم بها اضافة الى أعمال وظيفته • والأمر الذى كان يهمنى أنا أنه لما كان بينه وبين آندرونيكوف من صلة صميمية ، كان يمكن أن يعرف بعض الأمور التى تعنينى • لكننى كنت أعلم من ماريا ايفانوفنا ، زوجة نيقولا سيمينوفتش ، التى عشت لديها سنين طويلة أيام كنت فى الليسيه ــ والتى كانت بنت أخت آندرونيكوف وكانت أثيرة قلبه وبؤبؤ عينه ــ ان كرافت كان قد « كلف تكليفا » بأن يسلمنى شيئاً ما• فكنت انتظره منذ شهر كامل •

كان كرافت يسكن شقة صغيرة من غرفتين ، منعزلة كل الانعزال ؛ واذ كان عائدا منذ برهة وجيزة ، فانه لم يكن لديه خادم • كانت حقيبته مفتوحة ، غير أن أشياءه التى لم يرتبها بعد لا تزال مبعثرة على الكراسى •

وعلى منضدة أمام الكنبة كان كيس سفر ، وصندوق صغير ، ومسدس، الخ • كان كرافت غارقا فى أفكاره حين دخلنا ، كأنه نسينى نسيانا تاماً

بل لعله لم يلاحظ أنني لم أخاطبه بكلمة واحدة اثناء الطريق . ولم يلبث أن أخذ يبحث عن شيء ما ، ولكنه لمح مرآةً على حين فجأة فتوقف وراح ينظر الى وجهه فيها محدقاً خلال دقيقة بكاملها . لاحظت هذا (وما أكثر ما تذكرته بعد ذلك !) ولكنني كنت حزيناً مضطرباً . لم أكن أملك قدرةً على تركيز فكرى . حتى لقد راودتنى ، فى لحظة من اللحظات ، رغبةٌ مفاجئة فى الانصراف ، فى أن أدع كل شيء حيث هو ، الى الأبد . ما الذى كان يعنينى فى حقيقة الأمر ؟ ألست أصدع رأسى بهموم مصطنعة؟ ألم أكن ابدد ، فى ترهات سخيفة حقيرة ، بداعى الحساسية وحدها ، طاقةً كنت محتاجاً اليها لتحقيق هدف معين رسمته لنفسى . ولكن أنيَّ لى من جهة أخرى أن أصل الى تحقيق هذا الهدف أنا الذى أصبح عجزى عن القيام بأى عمل جدى واضحَ البداهة بعد الذى حدث عند درجاتشف !

سألت كرافت فجأة :

ــ كرافت ، هل ستذهب اليهم بعد الآن ؟

فالتفت نحوى ببطء ، كأنه لم يفهم سؤالى . وجلست .

قال كرافت فجأة :

ــ سامحهم !

خيِّل الى بطبيعة الحال أنه يسخر منى . ولكننى حدقت اليه فرأيت فى وجهه طيبة تبلغ من الغرابة بل تبلغ من الادهاش أننى ذهلت أنا نفسى من الجد الظاهر فى رجائه أن « أسامحهم » . وتناول كرسياً وجلس قربى .

ــ أعرف أننى قد لا أكون الا خليطاً من جميع أنواع حب الذات ، ولكننى لا أسأل أحدا أن يسامحنى .

ــ وممن عساك تطلب أن يسامحك !

قال ذلك هادئاً جادا . وكان يتكلم فى رفق لطيف وبطء شديد .

قلت :

ـ هبنى مذنباً فى حق نفسى •• اننى أحب أن أكون مذنباً فى حق نفسى ••• سامحنى ، ياكرافت ، اذا أنت سمعتنى أقول هراءً سخيفا فى هذه اللحظة • قل لى : أأنت عضو فى هذه الحلقة ، أنت أيضاً ؟ ذلك ما أردت أن أسألك عنه •

ـ ليسوا أشد حماقة ولا أرجح عقلا من الآخرين • انهم مجانين كسائر الناس •

ـ هل سائر الناس مجانين ؟

سألته هذا السؤال وأنا التفت اليه مستطلعاً على غير ارادة منى •

ـ جميع الطبيين فى هذه الأيام مجانين • الأغبياء والعجزة وحدهم مستخفون ••• ولكن فيم هذا كله؟

كان وهو يقول هذا الكلام ينظر فى الهواء ، يبدأ جملة ثم يقطعها • وقد لفت نظرى شىء من ضجر فى صوته بوجه خاص •

صحت أقول :

ـ وفاسين ، أهو منهم أيضا ؟ ان فاسين يملك الذكاء ويملك فكرةً أخلاقية •

ـ ليس هناك أفكار أخلاقية فى هذه الأيام • لقد اختفت الأفكار الأخلاقية بغتةً ، اختفت جميعها بغير استثناء • حتى كأنه لم يكن ثمة أفكار أخلاقية فى يوم من الأيام •

ـ لم يكن هناك أفكار أخلاقية فى الماضى ؟

قال بملل واضح وسأم ظاهر :

ـ دعنا من هذا الموضوع !

تأثرت من هذا الجد المر الأليم • وخجلت من نفسي فجاريته •

استأنف يقول من تلقاء نفسه بعد دقيقتين من صمت وهو لا يزال ينظر في الهواء :

ـ ان العصر الراهن هو عصر فقدان التسامي وفقدان الحساسية : هو عصر الجهل ، والكسل ، والعجز عن العمل ، والحاجة الى كل ما هو جاهز مهيأ • ما من أحد يفكر اليوم قط • قليلون أولئك الذين يقدرون أن يصنعوا لأنفسهم فكرة •

وانقطع عن الكلام مرةً أخرى وصمت لحظة • ولبثت أصغي •

ـ انهم الآن يقطعون أشجار الغابات في روسيا ، ويستنفدون أرضها ويحيلونها مراعي وسهوباً • اذا قام رجل يملأ نفسه الأمل ويعمرها الرجاء فغرس شجرة ، انفجر الناس من حوله ضاحكين : « أأنت واثق أنك ستراها تكبر وتثمر ؟ » • ومن جهة أخرى فان الذين يريدون الخير يتناقشون فيما سيحدث بعد ألف سنة • ان الفكرة التي تولد الثبات والاستقرار قد زالت • نحن جميعا كمن يقيم في فندق ، متهيئاً للرحيل عن روسيا في الغد • كل فرد يعيش كمن يريد أن يتخلص ••

ـ عفوك يا كرافت ! لقد قلت ان الناس يهتمون الآن بما سيحدث بعد ألف سنة •• ولكن أليس يأسك •• من مستقبل روسيا •• هماً من هذا النوع نفسه ؟

قال حانقاً وهو ينهض بسرعة :

ـ ذلك ••• ذلك أهم سؤال يمكن أن يخطر بالبال !

ثم قال فجأة بصوت آخر وهو ينظر اليّ مرتبكا :

ـ ها ••• كدت أنسى • لقد جئت بك لأمر من الأمور ••• فلا تؤاخذني ، أرجوك •••

لكأنه يخرج من حلم • لقد كان كالخجلان • قال ذلك ثم تناول رسالة من حقيبة موضوعة على المنضدة ومدّها اليّ •

ـ اليك ما كنت أريد أن أسلمك اياه • هي وثيقة على جانب من خطورة الشأن •

قال ذلك مهتماً وقد بدا في وجهه الاحتفال بالأمر • لشد ما تعجبت ، بعد ذلك بزمن طويل ، حين فكرت في الموضوع ، من هذه القدرة التي كان يملكها (في ساعات كهذه الساعات الخطيرة عنده) على معالجة أمور الآخرين بمثل هذا القدر من روح المودة ، وعلى الكلام فيها بمثل هذا القدر من الهدوء والحزم •

ـ هي رسالة من ذلك الرجل ستوليبيف نفسه الذي أثارت وصيته ، بعد موته ، الدعوى بين فرسيلوف والأمراء سوكولسكي • ان هذه الدعوى ينظر فيها الآن ، وأغلب الظن أن الغلبة فيها ستكون لفرسيلوف : فالقانون يؤيده • ولكن في هذه الرسالة الخاصة ، التي كتبت منذ سنتين ، يعلن الموصي نفسه ارادته الصادقة أو قل رغبته ، وهي تدعم الأمراء سوكولسكي أكثر مما تدعم فرسيلوف • ويمكن القول في أقل تقدير ان النقاط التي يستند اليها الأمراء سوكولسكي لانكار الوصية تجد في هذه الرسالة ما يأتي مصدقاً لها ومؤيداً • لاشك في أن خصوم فرسيلوف مستعدون لأن يعطوا كل شيء في سبيل الحصول على هذه الوثيقة ، رغم أن قيمتها القانونية ليست قيمة مطلقة • ان الكسي فيكانوروفتش (آندرونيكوف) الذي اهتم بقضية فرسيلوف كان يحتفظ بهذه الرسالة لديه ؛ ثم أعطانيها قبل موته وأوصاني أن « أحافظ عليها أشد المحافظة » • لعله كان يخشى على أوراقه وهو يرى دنو أجله • لا أريد أن أقطع برأي في نيات الكسي فيكانوروفتش

بصدد هذا الأمر • وأنا أعترف أنني أصبحت بعد وفاته متردداً تردداً شاقاً أليماً : ماذا أصنع بهذه الوثيقة ؟ خاصةً والحكم في القضية يوشك أن يصدر ؟ غير أن ماريا ايفانوفنا التي يظهر أن الكسى فيكانوروفتش كان يوليها في حياته ثقة كبرى قد أخرجتني من الارتباك : فكتبت الىّ منذ ثلاثة أسابيع تطلب مني جازمةً قاطعة أن أسلمك هذه الرسالة ، لأنها تعتقد (ذلك هو تعبيرها) أن ذلك يتفق ونية آندرونيكوف • فاليك الرسالة اذن ، وانه ليسعدني أن أستطيع أخيرا أن أنقلها اليك •

قلت وقد أربكني هذا النبأ الذي لم يكن في الحسبان قط :

ـ وما عساى اصنع بهذه الرسالة ؟ ما هو السلوك الذي يجب أن أسلكه ؟

ـ هذا متوقف عليك وحدك •

ـ مستحيل • لست حرا قط •• لابد أنك تقرني على ذلك • ان فرسيلوف ينتظر هذا الميراث على أحر من الجمر • وانك لتعلم أنه بدونه ضائع لا محالة ••• ثم اذا بوثيقة كهذه الوثيقة توجد على حين فجأة فتغير الموقف !

ـ انها لا توجد الا هنا ، في هذه الغرفة •

ـ فهل ••• ؟

ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أنظر اليه بانتباه شديد •

ـ اذا لم تهتد بنفسك الى السلوك الذي ينبغي لك أن تسلكه ، فبماذا عساى أنصحك ؟

ـ انني لا أستطيع أن أسلم الوثيقة الى الأمير سوكولسكي : والا قضيت على جميع آمال فرسيلوف ؟ ثم ما عسى أن يكون موقفي منه عندئذ؟ سيكون موقف الخائن ••• ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فانني اذا

سلمت الوثيقة الى فرسيلوف كنت أغرق فى البؤس والشقاء أناساً أبرياء ؟ كما أن فرسيلوف سيجد نفسه عندئذ فى مأزق لا مخرج منه : فاما أن يتنازل عن الميراث ، واما أن يصبح لصاً •

ـ انك تضخم خطورة الأمر •

ـ قل لى أيضا : هل هذه الوثيقة حاسمة قاطعة ؟

ـ لا • لست من رجال القانون • ان محامى الخصم سيجد بطبيعة الحال وسيلة لاستغلال الوثيقة وللاستفادة منها•ولكن الكسي نيكانوروفتش يقدر حقا أن هذه الرسالة لن يكون لها قيمة قانونية كبيرة ، وأن فرسيلوف يمكن أن يربح الدعوى رغم كل شيء • المسألة أقرب الى أن تكون مسألة ضمير ان صح التعبير •

فقاطعته أقول :

ـ هذا هو الأمر الهام خاصة • لهذا قلت ان فرسيلوف سيجد نفسه فى مأزق لا مخرج منه •

ـ قد يتلف فرسيلوف الوثيقة ، فيكون عندئذ فى منجى من أى خطر •

ـ أتملك من الأدلة الخاصة ما يجعلك ترى فيه هذا الرأى ، ياكرافت ؟ ذلك ما كنت أريد أن أعرفه ، ومن أجل هذا انما ترانى عندك الآن •

ـ أعتقد أن كل انسان يفعل ذلك •

ـ وأنت أيضا يمكن أن تفعله •

ـ أنا لست انتظر ميراثاً أرثه ، لهذا لا أدرى ما الذى قد أفعله •

قلت وأنا أدس الرسالة فى جيبى :

ـ طيب • انتهينا • اسمع ياكرافت ! ان ماريا ايفانوفنا التى أؤكد لك

أنها كشفت لى عن أشياء كثيرة ، قالت لى انك تستطيع ، وحدك ، أن تنبئنى بحقيقة ما حدث فى مدينة « امس » منذ ثمانية عشر شهراً بين فرسيلوف وأسرة آخماكوف . لقد كنت أنتظرك كمن ينتظر الشمس تضىء له ما حوله . انك لا تعرف وضعى يا كرافت . أتوسل اليك أن تذكر لى الحقيقة كاملة . أريد أن أعرف حقيقة هذا الانسان ؟ أريد أن أعرف ذلك الآن ؟ أنا الآن فى حاجة الى ذلك أكثر من أي وقت آخر .

ـ يدهشنى أن ماريا ايفانوفنا لم تقصص عليك كل شىء . فلابد أن المرحوم آندرونيكوف قد أظهرها على الأمر كله ، ولا شك فى أنها قد سمعت منه ما لم أسمع ، وأنها تعرف مالا أعرف .

ـ ان آندرونيكوف نفسه قد اختلط عليه الأمر : ذلك ما تقوله ماريا ايفانوفيا . تلك قضية ما أظن أن أحدا قادر على أن يفهمها . الشيطان نفسه لن يستطيع ذلك . وأنا أعلم أنك كنت يومئذ فى « امس » ..

ـ لم أشهد كل شىء ، وسأقص عليك ما أعرف . ولكن تُرى هل يكفيك ذلك ويرضيك ؟

٢

لن أعيد قصته نصاً ، بل سوف أوجز جوهرها .

منذ ثمانية عشر شهراً ، استطاع فرسيلوف ، الذى أصبح بواسطة الأمير العجوز سوكولسكى صديق أسرة أخماكوف (وكانوا أيامئذ جميعا فى الخارج ، فى مدينة « امس ») أن يؤثر تأثيراً قوياً ، أول الأمر ، فى أخماكوف الجنرال ، الذى لم يكن قد طعن فى السن كثيراً بعد ، لكنه كان قد بدد فى القمار المهرَ الكبير الذى مهرته اياه زوجته ، كاترين نيقولايفنا، بدده خلال ثلاث سنين من الزواج ، أصيب بعدها بنوبة قلبية نتيجةً لاسرافه وافراطه . وقد شفى من هذه النوبة القلبية فسافر الى الخارج يقيم فى مدينة « امس » من أجل ابنة له من زواج أول . كانت ابنته هذه فتاةً ممراضاً فى نحو السابعة عشرة من عمرها ، مصابةً بالسل ، فاتنة الجمال فيما يقال ، وكذلك جامحة الخيال . ولم تكن تملك مهراً . وكانوا يعوّلون فى هذا الأمر على الأمير العجوز ، كالعادة . ويقال ان كاترين نيقولايفنا كانت لابنة زوجها نعمَ الأم حناناً.ولكن الفتاة شغفت بفرسيلوف شغفاً خاصاً . وكان أيامئذ ينادى « بمالا أدرى من الحماسة » (على حد تعبير كرافت) ، ويدعو الى «مالا أدرى من حياة جديدة» ؛ وكان«مأخوذاً بحمية دينية قوية الى أبعد حدود القوة » ، على حدّ ذلك التعبير الغريب ، وربما الساخر ، الذى ُنقل الىّ أن آندرونيكوف وصفه به . ويجب أن نذكر أن فرسيلوف سرعان ما أصبح يكرهه جميع الناس . حتى ان الجنرال نفسه أخذ يحاذره ويخشاه . ولم يكذّب كرافت الاشاعة التى راجت تقول ان فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع زوج كاترين نيقولايفنا المريض أنها لا تخلو من عاطفة نحو الأمير سوكولسكى (الذى

كان قد ترك مدينة « امس » الى باريس) • فعل ذلك لا بكلام مباشر بل بتلميحات وايحاءات وبأنواع من اللف والدوران (وهو فى هذه الأساليب أستاذ بارع ، كما قال كرافت) • يجب أن أقول ان كرافت لم يكن يعدُّه ولا كان يريد أن يعدَّه انساناً نصاباً أو مراوغاً مخاتلا بفطرته ، بل رجلا تملكته حقا فكرة عليا أو استولت عليه فكرة شاذة لا أكثر • وكنت أعرف ، على كل حال ، من مصدر آخر غير كرافت ، أن فرسيلوف الذى أثرَّ ، أو الأمر ، تأثيراً كبيراً فى كاترين نيقولايفنا ، انتهى شيئاً فشيئاً الى قطع صلته بها ، أما حقيقة هذه اللعبة كلها ، فذلك مالم أستطع أبداً أن أحصل من كرافت على تفسير له ، غير أن جميع من كانوا على بعض العلم بالأمر أكدوا أن الكره وقع بينهما • وحدث بعد ذلك حادث غريب • ان الفتاة المراض ، ابنة زوج نيقولايفنا ، افتتنت بفرسيلوف ، أو أعجبت بصفة من صفاته ، أو ألهبت حماستها أحاديثه ، لا أدرى ••• ولكن المعروف أن فرسيلوف أصبح ، خلال فترة من الزمن ، يقضى كلَّ أيامه تقريباً حول هذه الفتاة • ثم اذا بالفتاة تصرح لأبيها ذات يوم على حين فجأة أنها تريد فرسيلوف زوجاً لها • وقع هذا فعلاً ، فقد أكده الجميع : أكده كرافت ، وآندرونيكوف ، وماريا ايفانوفنا ؛ حتى ان تاتيانا بافلونا ألمحت اليه ذات يوم بحضورى • وقيل أيضاً ان فرسيلوف لم يتمنَّ هذا الزواج فحسب ، بل أصرَّ عليه أيضاً ، وان الاتفاق بين هذين الانسانين اللذين يختلف كل منهما الآخر ، فأحدهما كهل متقدم فى السن والآخر فتاة فى ريعان الصبا ، كان اتفاقاً متبادلاً • لكن هذه الفكرة قد ذعر لها الأب ، فعلى قدر ما كان ينفر من كاترين نيقولايفنا يوماً بعد يوم (وكان يحبها قبل ذلك حباً كبيراً) أصبح يزداد ولهاً بابنته وعبادةً لها ، وخاصة بعد النوبة التى أصيب بها • غير أن الخصم الأكبر الذى كان يعارض مثل هذا الزواج معارضةً عنيفة انما هو كاترين نيقولايفنا • فقامت فى البيت صراعات

هائلة خفية لكنها مزعجة الى أبعد الحدود ، ونشبت فيه مشاجرات ومشاحنات وآلام وأحزان ، وشاعت فيه على وجه العموم أنواع لا نهاية لها من القذارات ... وأخذ الأب ينصاع آخر الأمر ، لما رأى من عناد واصرار لدى ابنته المفتونة بفرسيلوف ، « المتحمسة » له على حد تعبير كرافت . ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت ثائرة متمردة يملأ نفسها كره لا يوصف . وهنا انما بدأ ذلك الاشكال الذى لا يفهم منه أحد شيئاً . واليكم مع ذلك ، الافتراض الذى بناه كرافت على بعض الوقائع ، وما هو الا افتراض على كل حال :

الافتراض هو أن يكون فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع الفتاة ، بأسلوبه الرقيق المرهف الذى لا سبيل الى مقاومته أن كاترين نيقولايفنا انما ترفض الموافقة على هذا الزواج ، لأنها تحبه هو ، فالغيرة تعذبها منذ زمن طويل : انها تلاحقه ، وتدبر له المكائد ، حتى لقد صرحت له بحبها ، وانها الآن مستعدة لأن تحرقه حياً لأنه يحب امرأة غيرها . الخلاصة : شىء من هذا القبيل . والأنكى من ذلك أنه لعله قد «أسمع» الأب ، زوجُ المرأة « الخائنة » أن الأمير لم يكن أكثر من تسلية . وفى روايات أخرى أن كاترين نيقولايفنا كانت تحب ابنة زوجها حب العبادة ، وأنها أصبحت الآن ، بعد أن قيل لها عنها ما قيل ، فى حالة يرثى لها من الألم والعذاب ، ناهيك عن علاقاتها بزوجها المريض .

وهناك رواية أخرى أيضاً آلمنى كثيراً أن كرافت كان يصدقها تصديقاً كاملاً ، وكنت أصدقها أنا نفسى أيضاً (لأننى سمعت بها أيضاً) ، وهى أن فرسيلوف (ويقال ان آندرونيكوف قد علم هذا من كاترين نيقولايفنا نفسها) كان ، على خلاف ما تقوله الروايات السابقة ، قد عرض حبه على كاترين نيقولايفنا قبل ذلك ، أى قبل أن تنشأ هذه العواطف فى قلب الفتاة ؛ وأن كاترين نيقولايفنا التى كانت صديقته حتى لقد تحمست له زمناً ما ، ولكنها لم تكن تصدقه أبداً ، وكانت تعارضه دائما ، قد

استقبلت منه هذا التصريح ببغض شديد ، وأثقلته سخرية مريرة وهزءاً لاذعاً ؛ ثم طردته من بيتها طرداً حاسماً ، لأنه اقترح عليها صراحة أن يتزوجها متنبئاً بأن زوجها سيموت وشيكاً بنوبة جديدة . لذلك شعرت كاترين نيقولايفنا فرسيلوف بكره خاص حين رأته بعد ذلك يسعى بمثل هذا الوضوح الظاهر الى خطبة ابنة زوجها . حين قصّت عليّ ماريا ايفانوفنا هذا كله في موسكو ، كانت تصدق الروايتين كلتيهما اى كانت تصدق كل شيء ، قائلة ان ذلك كله يمكن ألا يتعارض ، وأن الأمر كان « حباً في كره » ، كان نوعاً من كبرياء غرامية جريحة لدى الطرفين، الخ الخ ، أى كان ضرباً من اشكال عاطفي يُحتقر صدوره عن رجل جاد ، ولكن له تفسيره ، عدا أنه ممتزج بنميمة معيبة . ولكن ماريا ايفانوفنا كانت ممتلئة النفس بالروايات منذ طفولتها ، فهي تقرأ القصص ليلاً ونهاراً ، رغم ما تملكه من قوة الطبع وروعة الخلق . ومهما يكن من أمر فانه يخرج من هذا كله أن فرسيلوف رجل واضح الدناءة والكذب والكيد ، أنه انسان أسود النفس يبعث على الاشمئزاز ، لاسيما وأن الخاتمة كانت مأساة أليمة : فان الفتاة المسكينة التي ألهبها الحب قد سممت نفسها ، فيما يقال ، بفوسفور أعواد ثقاب . على أنني لا أدرى حتى الآن أكانت هذه الاشاعة صادقة أم لا ، ولكن ما حدث على كل حال هو أن جميع الوسائل التي استعملت في انقاذ الفتاة لم تنفع ، فلم يدم مرضها الا خمسة عشر يوماً ، ثم لفظت أنفاسها . هكذا ظلت قصة الثقاب أمرا مشكوكاً فيه ، ولكن كرافت يعتقد بصحة الاشاعة لا يراوده في صدقها أى شك . وما لبث أن مات والد الفتاة بعد ذلك ، من فرط حزنه عليها فيما قيل ، اذ وافته نوبة قلبية جديدة ، بعد ثلاثة أشهر . غير أن الأمير الفتى سوكولسكي الذي عاد من باريس الى امس بعد دفن الفتاة صفع فرسيلوف على مرأى من الناس في حديقة عامة ، فلم يردّ فرسيلوف على الصفعة بأي تحد ، كأن شيئاً لم يحدث . وعندئذ انما أدار جميع الناس

له ظهورهم وأشاحوا عنه أبصارهم ، حتى فى بطرسبرج • ولئن احتفظ فرسيلوف بعد ذلك ببعض المعارف ، فلقد كان معارفه هؤلاء ينتمون الى بيئة أخرى غير تلك البيئة • أما أصدقاؤه من أبناء المجتمع الراقى فقد أصبحوا جميعاً يتهمونه ، مع أن قلة قليلة منهم قد اطلعت على جميع التفاصيل ، فى حين أن الآخرين لا يعرفون الا قصة موت الفتاة وحكاية الصفعة • شخصان أو ثلاثة أشخاص فقط كانوا يملكون معلومات وافية على قدر الامكان • وكان المرحوم آندرونيكوف أوسعهم علماً بالأمور ، اذ كان بينه وبين أخماكوف علاقات أعمال منذ زمن طويل، ولأنه كان على صلة بكاترين نيقولايفنا خاصة بسبب مناسبة من المناسبات • لكنه كتم السر حتى عن أسرته ، ولم يفتح نفسه قليلا الا لكرافت وماريا ايفانوفنا ، وذلك لضرورة أيضاً •

قال كرافت يختم كلامه :

ـ المهم أن ههنا الآن وثيقة تخشاها السيدة أخماكوفا خشية هائلة • واليكم ما أبلغنيه فى هذا الصدد :

ان كاترين نيقولايفنا قد ارتكبت بعض الطيش ، حينما كان أبوها الأمير العجوز يستشفى من نوبته فى الخارج ، فكتبت الى آندرونيكوف ، سراً ، (وكانت تمحضه ثقة كاملة) رسالة تسىء اليها كثيراً • وكان الأمير الذى يقضى فترة النقاهة قد أظهر ،فيما قيل ، ميلاً الى تبديد ماله، حتى لكأنه يرميه فى البحر رمياً : لقد أخذ يشترى فى الخارج أشياء لا فائدة منها البتة ، ولكنها غالية الثمن ، من لوحات وآنيات وما أشبه ذلك ؛ وأخذ يقدم الهدايا والهبات مبالغ طائلة حتى لمؤسسات شتى من تلك البلاد • وأوشك أن يشترى من نبيل روسى ذهب ماله عقاراً مهجوراً تقوم حوله دعاوى كثيرة ، وذلك بثمن باهظ ، دون أن يرى العقار • وكان فوق هذا كله يفكر فى الزواج فعلاً •

فلهذه الأسباب كلها ، عمدت كاترين نيقولايفنا التي لم تترك أباها خطوةً واحدة أثناء مرضه ، الى كتابة رسالة الى آندرونيكوف ، من حيث هو رجل من رجال القانون ، ومن حيث هو صديق قديم ، تسأله هذا السؤال : « هل يجوز ، بحكم القانون ، أن يتم الحجر على أبيها ، أو أن يعطى نصحا قانونياً ؟ فاذا كان هذا في الامكان ، فما هي الوسيلة المثلى لتحقيقه دون فضيحة ، حتى لايجد أحد مايتقوله ، وحتى تراعي عواطف أبيها في الوقت نفسه ، الخ الخ • » • يقال ان آندرونيكوف قد ردّها الى الصواب فنصحها بالعدول عن الشروع في مثل هذا الأمر • حتى اذا شفي الأمير شفاءً كاملاً ، لم يثر هذا الموضوع بعد ذلك قط ، ولكن الرسالة ظلت محفوظة لدى آندرونيكوف • وقد مات الآن آندرونيكوف • فما لبثت كاترين نيقولايفنا أن فكرت في الرسالة : فلو اتفق أن عُثر على الرسالة بين أوراق المتوفى ، فوقعت الرسالة بين يدي الأمير العجوز ، فلا شك في أنه سيطردها الى الأبد ، وسيحرمها من الميراث ، وأنه لن يعطيها قرشاً واحداً ما ظل حياً • انه اذا عرف أن ابنته كانت لا تثق بسلامة عقله ، حتى أنها أرادت في ذات يوم أن تعلن أنه مجنون ، فقد ينقلب هذا الحمل الوديع الى وحش كاسر • وهي بعد ترملها قد أصبحت بسبب زوجها المقامر لا تملك أية ثروة ، ولا تعوّل الا على أبيها ؛ وكان أملها كبيراً في أن تحصل منه على مهر جديد لا يقل عن مهرها الأول •

كان كرافت لا يعرف عن مصير هذه الرسالة شيئاً كثيراً • لكنه كان قد لاحظ أن آندرونيكوف كان « لا يمزق أبداً الأوراق التي قد تكون ذات فائدة في يوم من الأيام ، وأنه كان بالاضافة الى ذلك واسع الفكر ، لكنه واسع « الذمة » أيضاً • (لقد استغربت عندئذ هذا الاستقلال الخارق لدى كرافت الذي كان يحب آندرونيكوف ويحترمه) • ولكن كرافت كان مقتنعاً مع ذلك بأن الوثيقة التي قد تؤذي كاتبتها لابد أنها وقعت بين يدي فرسيلوف ، وذلك لما بينه وبين أرملة آندرونيكوف وبناته من صلة

حميمة : حتى لقد َعرف منذ ذلك الحين أنهن وضعن تحت تصرفه ، في كثير من المودة ، جميع أوراق المرحـوم • وكان كرافت يعلم أيضـاً أن كاترين نيقولايفنا لا تجهل أن الرسالة موجودة عند فرسيلوف ، وذلك ما كانت تخشاه ، لتقديرها أن فرسيلوف سيمضي فوراً الى الأمير العجوز ليظهره على الرسالة ، وأنها حين عادت من الخارج قد بحثت عن الرسالة في بطرســبرج ، فذهبت الى عائلة آندرونيكوف ، وأنها لا تزال تبحث عنها لأنها لا تزال تأمل رغم كل شيء ألا تكون الرســالة قد وصـلت الى فرسيلوف ؛ وأنها لم تسافر الى موسكو الا لهذا الغرض ، وأنها تضرعت هنالك الى ماريا ايفانوفنا أن تنبش الأوراق التي لا تزال عندها • أما وجود ماريا ايفانوفنا ، وما كان بينها وبين المرحومآندرونيكوف من صـلات ، فقد علمته في الآونة الأخيرة حين عادت الى بطرسبرج •

سألته وفي ذهني فكرتي :

ــ وهل تعتقد أنها لم تجد شيئاً عند ماريا ايفانوفنا ؟

ــ اذا كانت ماريا ايفانوفنا لم تكشف لك عن شيء ، فمعنى ذلك أنها لم تجد شيئاً •

ــ أنت تقدِّر اذن أن الرسالة عند فرسيلوف ؟

ــ هذا هو الأرجح • على كل حال ، لا أدري •

قال ذلك بضجر ظاهر •

فكففت عن سؤاله • وفيم السؤال ؟ ان الأمر الأساسي واضح ، رغم ذلك الاشكال الكريه • ان كل ما كنت أخشاه قد ثبت • قلت بحزن عميق وأنا أتناول قبعتي :

ــ لكأن ذلك كله حلم أو هذيان !

فسألني كرافت بعطف كبير واضح قرأته في وجهه :

ـ هل هذا الرجل عزيز جداً فى نفسك ؟

قلت :

ـ هذا ما كنت أوجسه : كنت أحس أننى لن أعرف لديك كل شيء . بقى أمل واحد هو أخماكوفا . لقد كنت أعول عليها كثيراً . قد أذهب اليها . وقد لا أذهب ...

فنظر الىّ كرافت حائراً مضطربا .

ـ وداعاً يا كرافت ! فيـم يتعلق المرء بأناس لا يريدونه ؟ أليس الأفضل أن يقطع بهم صلته ؟

فسألنى وقد أظلم وجهه وأطرق الى الأرض :

ـ وبعد ذلك ؟

ـ يعود المرء الى بيته ! يقطع كل صلة ، ويرجع الى بيته !

ـ الى أمريكا ؟

قلت مهتاجاً :

ـ الى أمريكا ؟ بل الى بيته ، الى بيته وحده . تلك هى « فكرتى » كلهـا .

فنظر الىّ كرافت نظرة استطلاع غريبة .

ـ وهل لك ملاذ كهذا الملاذ ، هل لك « هذا البيت » ؟

ـ نعم . الى اللقاء ياكرافت . أشكرك . ويؤسفنى أننى أزعجتك . لو كنت أتصور روسيا على نحو ما تتصورها أنت ، لمـا حفلت بشيء ولما همنى من الأمر شيء ولكان لسان حالى يقول : الى الشيطان فليذهب جميع الناس : امضوا فى سبيلكم ، كيدوا بعضكم لبعض ، كلوا بعضكم بعضاً ، فما عسى أن يعنينى أنا هذا كله ؟

قال كرافت فجأة بعد أن شيعنى حتى الباب :

ـ ابق قليلاً أيضاً !

فدهشت بعض الدهشة ، وعدت أدراجى فجلست وجلس كرافت أمامى • تبادلنا بضع نظرات : ما زلت أرى هذا كله كأننى مازلت فيه • وأذكر أننى كنت على شىء من دهشة •

قلت فجأة :

ـ ما يعجبنى فيك ياكرافت هو أنك انسان مهذب !

ـ غير معقول ! •••

ـ يندر أن أستطيع أن أكون مهذباً ، رغم ما أبذل فى ذلك من جهد ••• ولكن ربما كان من الأفضل للمرء أن يجرح شعور الآخرين ، فانه على الأقل يتخلص عندئذ من عذاب محبتهم •

ـ أية ساعة من ساعات اليوم تفضل ؟

واضح أنه سألنى هذا السؤال وكان قد أصبح لا يصغى الى ما أقول

ـ أية ساعة من ساعات اليوم أفضل ؟ لا أدرى ••• ولكننى لا أحب ساعة غروب الشمس •

ـ حقاً ؟

قال ذلك متعجباً تعجباً خاصاً • ثم ما لبث أن عاد الى شرود فكره •

ـ أأنت مسافر الى مكان ما ؟

ـ نعم •

ـ قريباً ؟

ـ قريباً •

ـ هل لابد للمرء من مسدس ليذهب الى « فيلنا » ؟

سألته هذا السؤال دون أن يكون فى ذهنى أية فكرة مبيتة ، بل دون

أن يكون في ذهني أية فكرة البتة ؟ وانما راودني هذا السؤال لأنني لمحت مسدساً ، وكنت لا أعرف ماذا أقول ! ••• فالتفت يحدّق الى المسدس، وقال :

ـ لا •• الأمر •• هكذا •• عادة ••

ـ لو كان عندي مسدس لدسته في مكان ما ، واقفلت عليه بمفتاح • ان منظر المسدس يغري • أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات •ولكن المرء قد يمر بلحظات يستبد به فيها الاغراء اذا هو رأى هذا الشيء أمام عينيه دائماً •

ـ لا تقل هذا الكلام !

قال ذلك وهو ينهض فجأة •

أضفت أقول وأنا أنهض أيضاً :

ـ ما حديثي عن نفسي • فلو وهبت لي ثلاثة أعمار اذا شئت ، ما اكتفيت بها •

ـ عش طويلاً !

وكأن هاتين الكلمتين قد افلتتا من لسانه افلاتاً •

وابتسم ابتسامة ذاهلة ، واتجه رأساً نحو مخرج الغرفة اتجاهاً يدعو الى الاستغراب كأنما هو يرغمني على الانصراف ، دون أن يلاحظ طبعاً ماذا كان يفعل • قلت وانا أضع قدمي على الفسحة أمام الباب :

ـ أتمنى لك كل أنواع السعادة ياكرافت •

فقال حازماً :

ـ هذا ما سوف نعرفه ••

ـ الى اللقاء •

ـ وهذا أيضاً ، سوف نعرفه •

انني أتذكر النظرة الأخيرة التي رمقني بها •

٣

ذلكم هو اذن الرجـل الذى خفق قلبى له ذلك العـــدد كله من السنين ! وماذا كنت أنتظر من كرافت ؟ أية اكتشافات ؟

حين خرجت من منزل كرافت كان بى جوع رهيب ٠ ان المسـاء يهبط ، ولم أكن قد تناولت غدائى بعد ٠

وما هى الا لحظات حتى صرت فى « شـــارع بطرسبرجسكايا » ، فدخلت مطعماً صـغيراً على نية انفاق عشرين كوبكا أو خمسة وعشرين على أكثر تقدير ، فما كان لى أن أبيح لنفسى انفاق أكثر من ذلك المبلغ فى تلك اللحظـة ٠ طلبت حســـاءً ، ومازلت أذكر أننى بعد أن احتسيت الحساء نظرت من النافذة ٠ كان المطعم فى الداخل حافلاً بجمهور من الطاعمين ٠ رائحة شحم يحترق ، ومنشفات وسخة ، ودخان تبغ ٠ جو فاســـد ٠ وفوق رأسى ، هزار لايغنى ، قاتم واجـم ، يضرب بمنقاره قاع قفصه ٠ وفى صالة البلياردو ضجة وصخب ٠ ولكننى بقيت جالساً فى مكانى أفكر ٠ ان غروب الشمس (لا أدرى لماذا أدهش كرافت أن يعرف أننى لا أحب ساعات غروب الشمس) يولدٌ فى نفسى احساسات جديدة لا أتوقعها ولا أرى لها مسوّغا ٠ لقد كنت دائماً أتمثـل النظرة الحنون التى تلقيها علىّ أمى ، وأتمثل عينيها الجميلتين ، وأتمثـــل كيف أصبحت منذ شهر كامل ترنو الىّ خجلى ٠ لقد كنت شديد الفظاظة فى المنزل ، وخاصةً معها ٠ كان حقدى منصباً على فرسيلوف ، ولكننى لجبنى عن مخاطبته بفظاظة ، على عادتى اللئيمة ، كنت أعذبهـا هى ٠ حتى لقد كانت تخافنى : وما أكثر ما كانت ترنو الىّ بنظرة متوسلة ضارعة حين كان

يدخل آندره بتروفتش ، مخافة أن تصدر عني حماقة ما ••• شيء
انني الآن ، في هذا المطعم ، انما يخطر ببالي لأول مرة أن فرسيلو
يخاطبني بصيغة المفرد ، وأنها كانت تخاطبني هي بصيغة الجمع
سبق أن أدهشني هذا قليلاً من قبل ، دون أن تشتمل هذه الده
شيء من الاكبار لها ، ولكنني أتنبه هنا للأمر تنبهاً خاصاً ، وها
خواطر غريبة تتلاحق في ذهني تلاحقاً سريعاً • لبثت ساكناً زمناً ط
الى أن انقضت فترة الغسق • وفكرت أيضاً في أختي •••

لحظة حاسمة ! يجب على أن اتخذ قراراً مهما كلف الأمر
اذن عاجز عن اتخاذ قرار ؟ أية صعوبة في القطيعة ، ولاسيما ا
الآخرون لا يريدونني ؟ أمي وأختي ؟ ولكنني لن أتركهما بأي
الأحوال مهما يحدث •

نعم ••• ان ظهور هذا الرجل في وجودي ومضةً من ال
في طفولتي الأولى ، قد كان صدمةً حاسمة هزت ضميري • فلو
التقيت به عندئذ ، لكان عقلي غير ما هو الآن ، ولكانت طريقتي في
غير ما هي الآن ، ولكان مصيري غير ما هو الآن ، رغم طبعي الذي
القدر ولم يكن في وسعي أن أتجنبه •

وهأناذا أدرك أن هذا الرجل لم يكن الا حلماً ، حلماً من
أولى سني حياتي • أنا الذي تخيلته على هذه الصورة : ولكنه في
مختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف ، انه أحطُّ كثيراً مما تص
خيالي • لقد جئت في سبيل أن أجد انساناً شريفاً ، لا هذا الانس
ولكن لماذا فتنت به الى الأبد أثناء تلك اللحظة القصيرة التي رأيته
طفلاً ؟ يجب أن تزول كلمة « الى الأبد » هذه • في يوم من الأيا
أتيحت مناسبة ما ، سأقص عليك قصة ذلك اللقاء الأول : انه حكاية
لا استخرج منها أية نتيجة • ولكنني استخرجت منها يومئذ
ضخماً • بدأت بناء ذلك الأهرام تحت غطائي الذي كنت أتدثر به ط

لحظة كنت أستطيع ، قبل أن يغمض النوم عيني ، أن أبكي وأن أحلم . بماذا كنت أحلم ؟ أنا نفسي أجهل ذلك . أكنت أفكر في تركهم اياي ؟ أكنت أفكر في ألوان العذاب التي كنت عرضة لها ؟ ولكنني لم أعذب كثيرا خلال قرابة سنتين قضيتهما في المدرسة الداخلية ، مدرسة توشار التي حشرني فيها قبل أن يذهب الى غير رجعة . وبعد ذلك لم يعذبني أحد قط . بالعكس ، كنت أنا الذي أنظر الى رفاقي نظرة استعلاء ! ثم انني لا أطيق أولئك اليتامى الذين يشكون حالهم ويصفون عذابهم . ليس في الدنيا منظر أبشع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنا وسائر أولئك الذين نبذهم المجتمع ، وجميع أولئك الأوغاد الذين لا أشعر نحوهم بأية شفقة حين يهبون فجأة أمام الناس ويأخذون يصيحون ملء أفواههم استدراراً للشفقة قائلين : « أنظروا كيف نعامل ! » . لو استطعت لجلدتهم جلداً ، هؤلاء اليتامى ! .. ما من أحد من هذه الجمهرة المنحطة يدرك أن الصمت أنبل عشر مرات من الشكوى والاستعطاف . اذا كنت تحترم نفسك ، يا من جئت الى هذه الحياة ثمرة حب ، فقد نلت ما تستحق . ذلك رأيي أنا .

غير أن الأمر المضحك ليس تلك الأحلام التي كنت استرسل فيها أيام طفولتي « تحت غطائي » ، بل مجيئي الى هنا من أجله ، من أجل ذلك الانسان الخيالي ، ناسياً جميع أهدافي الأساسية تقريبا . لقد جئت أساعده في التغلب على الأراجيف ، وأساعده في سحق أعدائه . ان الوثيقة التي كان يتكلم عنها كرافت ، أعني الرسالة التي كتبتها تلك المرأة الى آندرونيكوف ، وتخشاها تلك الخشية كلها ، لأنها قد تحطم سعادتها وتغرقها في البؤس ، والتي تظن تلك المرأة أنها بين يدي فرسيلوف ، أقول ان تلك الرسالة ليست لدى فرسيلوف ، بل هي معي أنا ، خطتها في جيبي بنفسي ، وليس في الدنيا أحد يعرف ذلك . ولئن رأت ماريا ايفانوفنا ذات الطبع الخيالي ، وهي التي كانت « تحفظ » الوثيقة ، أن تعهد بها

اليَّ أنا ، لا الى أحد آخر ، فذلك ثمرة أفكارها وارادتها ، وليس عليَّ أن أجد له تعليلاً • قد يتاح لي يوما أن أقص عليك هذا الأمر • لكنني وقد تسلحت على هذا النحو ارتجالاً ، لم يكن في وسعي الا أن أشعر بحاجة المجيء الى بطرسبرج • وكنت أعول بطبيعة الحال أن أساعد هذا الرجل سراً ، دون أن أتفاخر ودون أن أتحمس ، ودون أن أنتظر منه لا أماديح ولا قبلات • وما كان ليخطر على بالي يوما أن أوجّه اليه أي لوم ! أكان هو المذنب حين افتتنت به ، وحين صنع منه خيالي مثلاً أعلى ؟ ولعلني لم أكن أحبه • ان فكره الشاذ ، وطبعه الغريب ، ومكائده ومغامراته ، ووجود أمي بقربه ، كل ذلك أصبح فيما يبدو غير قادر على الوقوف في طريقي • يكفي أن دميتي الخيالية قد تحطمت ، ولعلني أصبحت عاجزا عن حبه بعد الآن • فما الذي لا يزال يوقفني ، ما الذي لا يزال يمسكني ؟ ذلكم هو السؤال • ومهما يكن من أمر ، فالأحمق أنا ، ولا أحد غيري •

ولكن لما كنت أحب في غيري الصراحة ، فسأكون صريحاً أنا أيضاً• يجب أن اعترف أن الوثيقة المخيطة في جيبي لا توقظ في نفسي رغبةً جامحة في أن أخفَّ الى نجدته فحسب ؟ لقد أصبح هذا واضحاً أشد الوضوح في ذهني الآن، رغم أنني أحمر خجلاً حين أتصوره • ان خيال امرأة يتخاطر الآن في رأسي ، امرأة متكبرة من المجتمع الراقي ، سأقابلها وجهاً لوجه • ان هذه المرأة ستحتقرني ، وستضحك مني ضحكها من فأر ، دون أن يدور في خلدها أنني سيد مصيرها • كانت هذه الفكرة تسكرني حين كنت في موسكو ، وكانت تسكرني مزيدا من السكر حين كنت بالقطار في طريقي الى هنا • لقد سبق أن اعترفت بهذا من قبل • نعم ، لقد كنت أكره هذه المرأة ، ولكنني أحبها منذ الآن كما يحب امرؤ ضحيته • هذا كله صحيح • هذا كله واقع • ولكن فيه صبيانية ما كنت لأتوقعها أبداً حتى من مخلوق مثلي • انني أصف عواطفي في ذلك

الوقت ، أعنى العواطف التى دارت فى رأسى حين كنت جالساً فى المطعم الصغير تحت الهزار ، فقررت أن أقطع صلتى بهم ، فى ذلك المساء نفسه ، قراراً لا رجعة عنه • ان صورة لقائى الأخير بتلك المرأة قد جعل دم الشعور بالعار يصعد الى وجهى فجأة • ياله من لقاء مخجل ! يا له من شعور مخزٍ وغبى ، يبرهن خاصةً على اننى امرؤ عاجز عن الفعل عجزاً ليس كمثله عجز ! قلت لنفسى ان هذا اللقاء يبرهن على اننى عاجز عن الصمود حتى أمام أسخف المغريات ، مع أننى كنت قد صرحت لكرافت منذ قليل أن لى مكاناً فى الشمس ، وأن لى مهمة خاصةً بى ، وأننى لو وهبت ثلاثة أعمار لكانت قليلة علىّ • قلت ذلك باعتزاز وفخار • ولأن أكون قد هجرت فكرتى لأتدخل فى شئون فرسيلوف ، فذلك ما قد يغتفر • أما أن أقفز يمنةً ويسرة كأرنب مبهور وأن أقحم نفسى فى جميع أنواع الحماقات، فذلك منى بلاهة محضة ما فى ذلك شك • هل كانت بى حاجة الى الذهاب الى درجاتشيف فأروح أطنب فى الكلام وأطنب ، بينما كنت مقتنعاً منذ زمان طويل بأننى عاجز عن أن أتحدث فى أى أمر من الأمور حديثاً متسقاً معقولاً ، وأن الخير كل الخير لى أن أصمت فما أقول شيئاً ؟ وهذا انسان مثل فاسين يلقننى درساً فيقول لى انه لا يزال أمامى « خمسون عاما من الحياة ، فما علىّ اذن أن أقلق » • اعتراض رائع ، أقر بذلك ، اعتراض يشرّف صاحبه هذا الذى يملك ذكاءً لا يمارى فيه ••• رائع لأنه بين الاعتراضات أبسطها ، ولأن الأشياء البسيطة لاتفهم أبداً الا فى النهاية ، بعد أن يكون المرء قد جرب جميع التعقيدات وجميع الحماقات • ولكننى كنت أعرف هذا الاعتراض من قبل أن يقوله لى فاسين ؛ كنت قد عانيت هذه الفكرة منذ ما يزيد على ثلاث سنين • أكثر من ذلك أنها بعض « فكرتى » أنا • ذلكم ما كنت أقوله • ذلكم ما كنت أقوله لنفسى وأنا فى المطعم الصغير •

كنت أشعر باعياء شديد حين وصلت فى المساء ، بعد الساعة السابعة،

الى سيمينوفسكي ، مكدوداً من السير والتفكير • كان الظلام كاملاً • ولقد تغير الجو ، فهو الآن جاف ، غير أن ريحاً شديدة كانت قد هبت • هي ريح بطرسبرج القاسية الثاقبة • كنت أشعر بهـا في ظهري ، وكانت تثير من حولي رملاً وغباراً • كم من وجوه متعبة بين وجوه هؤلاء الناس المساكين الذين كانوا يسارعون عائدين الى بيوتهم من العمل أو من المكتب ••• كلٌ الى ركنه ! كان كل منهم يحمل همه القاسي في وجهه ••• وما من فكرة مشتركة واحدة تجمع هذا الجمهور بعضه الى بعض • ان كرافت على حق : كل انسان يسير في جهة • والتقيت بصبي صـــغير ، هو من الصــغر بحيث يستغرب المرء أن يراه في مثـل هذه السـاعة وحيداً في الشارع • لابد أنه ضل طريقه • وهذه امرأة تقف لحظة لتسأله ، ولكنها لم تفهـم • فأومأت بيدها بما يدل على أنها لا تسـتطيع له نفعاً ، ثم تابعت طريقها تاركة اياه في الظلام • واقتربت من الصبي ، ولكنه خاف مني ، وهرب • حتى اذا وصـلت الى الدار ، قـررت ألا أذهب بعد اليوم الى فاسين قط • وشـعرت ، وأنا أصعد السلم ، برغبة محمومة في أن أجد أهلي وحدهم في البيت ، من دون فرسيلوف ، حتى يكون لي من الوقت ما يتسع لأن أقول لأمي قبـل وصـوله بضع كلمات طيبة ، أو أن أقول بضع كلمات طيبة لأختي العزيزة التي أستطيع أن أزعم أنني لم أوجه اليها كلمة واحـدة طوال هذا الشهر • وذلك ما كان : لم يكن فرسيلوف في المنزل •

٤

بالمناسبة : ان علىّ وأنا أدخل فى « مذكراتى » هذه « الشخصية الجديدة » (أعنى فرسيلوف) أن أتكلم موجزاً عن خدماته فى الدولة ، وهى خدمات تافهة على كل حال . لكننى أتكلم عنها ليفهم عنى القارىء فهماً أكمل ، ولأننى أنا نفسى لا أعرف أين يمكننى أن أتحدث عنها فى تتمة هذه القصة .

لقد كان فرسيلوف فى الجامعة ، لكنه دخل بعد ذلك سلاح «الحرس» فى فرقة من فرق الفرسان . وتزوج امرأةً اسمها فاناريوتوفا ، وأحيل على التقاعد . وقام بعدة أسفار الى الخارج . وكان فى الفترات التى تتخلل هذه الأسفار يعيش بموسكو متمتعا بمباهج الحياة فى المجتمع الراقى . حتى اذا ماتت زوجته مضى يعتزل فى الريف . وهناك انما حدثت له قصته مع أمى . ثم أقام مدةً طويلةً فى مكان ما بالجنوب . فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد الى الخدمة فى الجيش ، ولكنه لم يرسل الى القرم ولم يشارك فى أن عمل . فلما انتهت الحرب أحيل على التقاعد ، وسافر الى الخارج ، حتى لقد سافر مصطحباً أمى ثم تركها فى كونسبرج . وقد حكت لى المسكينة مراراً ، بنوع من الرعب ، وهى تهز رأسها ، كيف أنها مكثت وحيدة وحدةً تامة مدة ستة أشهر ، مع ابنتها الصغيرة ، دون أن تعرف لغة البلاد ، حتى لكأنها تعيش فى غابة ، عدا أنها كانت بغير مال . وقد جاءتها تاتيانا بافلوفنا عندئذ ، فأخذتها الى مكان فى اقليم « ينجنى ـ

نوفجورود » • ثم كان فرسيلوف فى اعداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»، فقام بالمهام الموكولة اليه خير قيام فيما قيل • ولكنه لم يلبث أن ترك هذه المهام ، وراح يتعاطى فى بطرسبرج أعمالاً مدنية شتى خاصة • وقد قدر آندرونيكوف كفاءاته قدراً عظيماً على الدوام • فكان يحترمه كثيراً، ولكنه كان يضيف الى ذلك قوله انه لا يفهم طبعه • ثم هجر فرسيلوف هذا النوع من الأعمال أيضاً ، ورجع الى الخارج ، فأقام هذه المرة مدةً طويلة استمرت عدة سنين • وبعد ذلك بدأت علاقاته الوثيقة جداً بالأمير العجوز سوكولسكى • وقد تقلبت أحواله المالية فى أثناء ذلك الوقت مرتين أو ثلاثاً : فتارةً يهبط الى الدرك الأسفل من الفقر والبؤس ، وتارةً يصعد الى ذروة الغنى والثراء •

آن الأوان ، وقد وصلت الى هذا الموضع من مذكراتى ، أن أتكلم عن « فكرتى » لأول مرة منذ أن نبتت هذه الفكرة فى نفسى • هأنا ذا أقرر أن أكشف للقارىء عن فكرتى تلك التى ستضفى على قصتى مزيداً من الوضوح • ان القارىء والكاتب كليهما يكون عرضةً للارتباك والتشوش اذا أنا حاولت أن أشرح سلوكى دون أن أبدأ بتوضيح الأسباب التى قادتنى اليه وحضتنى عليه • ولكننى بهذا « الأسلوب من الاغفال » أقع من خرافتى فى عيوب « الحيل » التى يعمد اليها الروائى ، والتى سخرت منها من قبل • اننى اذ بادرت الى سرد قصتى ببطرسبرج مع كل ما فيها من أحداث مخزية لى ، أجد أن هذه المقدمة كانت ضرورة لا غنى عنها • فليست « الحيل » هى التى جعلتنى ألتزم الصمت حتى الآن، وانما ألزمتنى به طبيعة الأشياء ، أى صعوبة القصة • اننى حتى فى هذا اليوم ، بعد كل ما جرى ، لا أزال أشعر بصعوبة لا سبيل الى تذليلها وأنا

أريد أن أحكى تلك « الفكرة » • ثم ان علىّ طبعاً أن أعرضها فى صورتها التى كانت عليها حينذاك ، أى كما نشأت فى نفسى وتصورها عقلى ، لا فى الصورة التى آلت اليها الآن ، وهذه صعوبة جـديدة • هناك أمور يكاد يستحيل على المرء أن يرويها • وان أبسط الأفكار وأوضح الأفكار هى بعينها أعسرها على الفهم • لو أن كريستوف كولومب أراد قبل اكتشاف أمريكا أن يروى فكرته للآخرين لظلوا مدةً طويلة لا يفهمونه فيمـــا أعتقد • وهم لم يفهموه فعـــلاً • اننى اذ أقول هـــذا الكلام لا أدعى مقارنة نفسى بكريستوف كولومب • وما على الذى يستخلص هذه النتيجة الا أن يشعر بخزى وعار ، لا أكثر !

الفصل الخامس

١

إنّ فكرتى هى أن أكون مثل روتشيلد • واننى أدعو القارىء الى الهدوء والجد •

أكرر : ان فكرتى هى أن أكون مثل روتشيلد ، هى أن أكون فى مثل غنى روتشيلد • لا أن أكون غنياً فحسب ؛ وانما أن أكون مثل روتشيلد • أما غرضى من ذلك ودافعى اليه والأهداف التى أسعى اليها ، فذلك كله ما سأعالجه فيما بعد • وحسبى أن أبرهن الآن على أن تحقيق هدفى هذا مضمون ضمانةً رياضية •

المسألة بسيطة غاية البساطة ، يكمن سرها كله فى كلمتين :«العناد»، و « المثابرة » •

قد يقال لى : « نحن نعرف هذا ، فما هو علينا بجديد • ففى ألمانيا يردده كل « أب » على مسامع أبنائه • ومع ذلك بقى صاحبك روتشيلد (المرحوم جيمس روتشيلد ، الباريسى ، الذى أتكلم عنه) فرداً واحداً ، مع أن هناك ملايين من « الآباء » •

فاجيب :

ـ تزعمون أنكم تعرفون هذا . والحق أنكم لا تعرفون شيئاً البتة . ثمة نقطة أنتم فيها على صواب مع ذلك : لئن قلت ان الأمر « بسيط غاية البساطة » ، فقد نسيت أن أضيف الى ذلك أنه أيضاً أصعب أمر . ان جميع الأديان وجميع المذاهب الاخلاقية فى العالم ترتد الى ما يلى : « على المرء أن يحب الفضيلة وأن يتجنب الرذيلة » . هل هناك ما هو أبسط من هذا ؟ ألا فحاولوا اذن أن تحققوا فضيلة من الفضائل ، وأن تجتنبوا رذيلة واحدة من رذائلكم ! هيا حاولوا قليلاً ! ان الأمر كله يكمن هنا!

لذلك كان أولئك « الآباء » الذين لا حصر لهم ، والذين تعاقبوا دهوراً لا نهاية لها، يمكنهم أن يرددوا على مسامع أولادهم هاتين الكلمتين اللتين يكمن فيهما السر كله ، ثم يبقى روتشيلد فرداً واحداً لا ثانى له . اذن : ليس الأمر كذلك تماماً ، و « الآباء » لا يرددون الفكرة اللازمة بعينها .

أما العناد والمثابرة فلا شك أبداً فى أنهم سمعوا عنها أيضاً . ولكن ما أنا فى حاجة اليه ليس هو العناد الذى يتكلم عنه « الآباء » ولا هو المثابرة التى يتكلم عنها « الآباء » .

ان كلمة « الأب » هذه وحدها ـ ولست أتكلم عن الألمان وحدهم ـ أعنى أن يكون للفرد أسرة ، وأن ينفق كما ينفق الآخرون ، وأن تكون عليه التزامات كالتزاماتهم ، فذلك كله يحول بينك وبين أن تصبح روتشيلد، ويضطرك أن تبقى انساناً معتدلا . أما أنا فأفهم أننى متى أصبحت روتشيلد أو متى رغبت فى أن أصبح روتشيلد ، لا بطريقة « الآباء » الألمان ، بل على نحو جاد ، فاننى بذلك أخرج من المجتمع فوراً .

منذ بضع سنين قرأت فى الجرائد أنه مات على ظهر مركب بخارى فى نهر الفولجا شحاذ يرتدى أسمالا بالية وخرقاً ممزقة كان يطلب

الصدقات من الناس وكانت المنطقة كلها تعرفه • فبعد موته و جدت ثلاثة آلاف روبل مخيطةً في أطماره القذرة • وفي هذه الأيام الأخيرة قرأت قصةً جديدة عن شحاذ هو رجل من طبقة النبلاء كان يمضي من نزل الى نزل يمد يده مستعطياً • وقد اعتقل الرجل فوجد حاملاً قرابة خمسة آلاف روبل • من هنا نخرج بنتيجتين : الأولى هي أن « العناد » في الكنز، ولو كان كنز قروش ، يؤدي في النهاية الى ثمرات ضخمة (ولا شأن للزمن في هذا) • والثانية هي أن أبسط شكل من أشكال تحصيل الغنى مضمون النجاح بالبرهان الرياضي متى توفر شرط « المثابرة» •

ربما كان هناك رجال محترمون أذكياء متواضعون ثم هم لا يملكون ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف روبل (مهما يبذلوا من جهد ويتحملوا من عناء) ، رغم حرصهم الشديد على أن يملكوا مبلغاً كهذا المبلغ • فلماذا ؟ الجواب واضح : هو أنه لا أحد من هؤلاء يقبل أن يصبح شحاذاً اذا كان ذلك هو السبيل الوحيد الى الاثراء ، مهما تكن رغبته في الاثراء قوية • ولا أحد منهم يبلغ من العناد أنه اذا أصبح شحاذاً لا ينفق القروش الأولى التي يستعطيها للحصول على لقمة زائدة له أو لأسرته • في حين أن على المرء اذا هو استعمل هذا الأسلوب في جمع المال ، أعني الاستجداء ، أن يتغذى بخبز وملح لا أكثر • أو هذا ما أتصوره أنا على الأقل • ولا شك في أن هذا ما فعله ذانك الشحاذان اللذان ذكرتهما منذ قليل • فقد كانا يأكلان خبزاً يابساً وينامان في العراء ومن المؤكد جداً انهما كانا لا ينويان أن يصبحا مثل روتشيلد : فانهما لم يكونا الا بخيلين من نوع هرباجون أو بليوشكين لا أكثر • ولا كذلك الادخار الواعي أو الكنز المقصود الذي يتخذ صورة أخرى هي أن يصبح صاحبه مثل روتشيلد • انهذا الادخار لا يقتضي رغبة أقل أو ارادة أضعف مما يملكه ذانك الشحاذان من رغبة عنيفة وارادة قوية • بل ما من « أب» يملك مثل تلك القوة • ان القوى متنوعة تنوعاً كبيراً في هذا العالم ، ولاسيما قوى الارادة والرغبة •

شتان بين درجة الحرارة اللازمة لغليان الماء ، وبين درجة الحرارة اللازمة لاحمرار الحديد •

هذا منسك حقاً • هذه مآثر قديسين فعلاً • هذه عاطفة لا فكرة • لماذا ؟ في سبيل ماذا ؟ أهو عمل أخلاقي أم هو شذوذ عجيب أن يرتدى المرء خرقاً ممزقة وأطمارا بالية ، وأن يظل حياته كلها يأكل خبزاً أسود ، بينما هو يحمل ثروة طائلة ؟ هذه مسائل سترد فيما بعد ، أما الآن فانما المهم أنه يمكن الوصول الى **الهدف** •

حين تخيلت « فكرتى » (وقوامها حرارة احمرار الحديد) أردت أن أمتحن نفسى : أأنا خلقت للدير وللقداسة ؟ ومن أجل هذا الامتحان لبثت شهراً بكامله لا أطعم الا خبزاً مع ماء • كنت لا أحتاج الى أكثر من رطلين ونصف رطل من الخبز الأســـود كل يوم • ولكى أستطيع تحقيق هذا التقشف اضــطررت أن أخدع نيقــولا سيميونوفتش الماكر وماريا ايفانوفنا التى كانت تريد لى الخير • ما كان أبلغ حزن ماريا ايفانوفنا وما كان أشـــد حيرة نيقولا سيميونوفتش المرهف حين أصررت على أن يحمل طعامى الى غرفتى فآكل هنــاك ! لقد صــعق نيقولا ســيميونوفتش حينذاك صعقا فكنت أصب الحساء من النافذة على نباتات القراص أو أرميها فى المراحيض ؛ وكنت أبعث اللحم الى الكلب من النافذة أو أصره بورقة فأضعها فى جيبى وأمضى بها الى خارج المنزل وأتخلص منها فى الشارع • واذ كانوا يعطوننى أقــل من رطلين ونصف رطل من الخبز ، فقد كنت أشترى خبزاً فى السر • وصمدت على ذلك الشهر كله ، وان أكن قد أفسدت معدتى قليلاً فى أغلب الظن ، لكننى أخذت فى الشهر التالى أضيف الى الخبز حســاءً ، وأشرب فى الصباح والمساء كأساً من الشاى • وأؤكد لكم أننى قضيت على هذا سنةً بأسرها فى صحة تامة واكتفاء كامل ، وكنت من الناحية النفسية فى أثناء ذلك مفتتناً أشد الافتتان ، وكنت فى حماسة مستمرة • فلمــا انقضت الســـنة وصرت على يقين من أننى أســـتطيع

احتمال أي صيام ، عدت آكل كما يأكل سائر الناس ، وأمضي أتعشى معهم . ثم لم تكفني تلك التجربة فكررتها مرة أخرى : كان يحق لي أن أتقاضى مصروفاً قدره خمسة روبلات في الشهر ، عدا نفقات الاقامة الداخلية في المدرسة ، وهي النفقات التي كان يدفعها نيقولا سيميونوفتش . فقررت ألا أنفق من هذا المبلغ الا نصفه . ان هذا امتحان صعب جداً . ولكنني بعد سنتين أو أكثر قليلاً كان في جيبي حين وصلت الى بطرسبرج سبعون روبلاً عدا غيرها من المال ، ادخرتها من تلك التقتيرات . ان النتيجة التي خرجت بها من هذين الامتحانين تجربة فخمة هائلة : لقد علمت علم اليقين أنني أملك « الارادة » اللازمة للوصول الى هدفي . تلكم هي « فكرتي » كلها . أما كل ما عدا ذلك فأمور تافهة .

٢

مع ذلك فلننظر أيضاً فى هذه الأمور التافهة !

لقد وصفت التجربتين اللتين قمت بهما • وأنتم تعلمون أننى فى بطرسبرج قد قمت بتجربة ثالثة : مضيت الى بيع بالمزاد العلنى ، فربحت سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً دفعة واحدة • ولم تكن هذه تجربة بمعنى التجربة طبعا ، وانما كانت نوعاً من اللعب وضرباً من الرياضة والتسلية والراحة : لقد خطر ببالى أن أختلس من المستقبل دقيقة قصيرة لأرى كيف عسانى أتصرف • والحق أننى منذ البداية بموسكو ، كنت قد أرجأت الشروع الحق فى تنفيذ فكرتى الى اللحظة التى أصبح فيها حراً حرية تامة • كنت أدرك ادراكاً واضحاً أن علىّ قبل كل شىء ، مثلاً ، أن أفرغ من الليسيه (أما الجامعة فكنت قد ضحيت بها كما تعلمون) • ومما لا شك فيه أننى سافرت الى بطرسبرج شاعراً بغضب خفى شديد : فاننى ما ان خرجت من الليسيه وغدوت حراً أول مرة حتى رأيت فجأةً أن أمور فرسيلوف ستلهينى عن مشروعى الى أجل غير معلوم ! ولكننى رغم الغضب سافرت مطمئناً الى هدفى أكبر الاطمئنان •

ولا شك أننى كنت أجهل الحياة العملية ، لكننى كنت قد فكرت فى المسألة ثلاث سنين متتالية ، فلم يساورنى أى ريب • قلبت الأمور على ألف وجه وأنا أتصور كيف أتصرف • تصورتنى فى احدى عاصمتينا على حين غرة كأننى هابط من السحب (لقد اخترت العواصم بدايةً لمشروعى ، ولا سيما بطرسبرج التى آثرتها بعد حساب) ، ورأيتنى ـ رغم هبوطى من السحب ـ حراً حريةً كاملة ، فما أنا رهن بأحد ، ورأيتنى موفور الصحة ، مع مائة روبل دسستها فى جيبى زاداً

أول ، اذ يستحيل على المرء أن يبدأ بأقل من مائة روبل ، والا كان يرجيء مرحلة النجاح الاولى مدةً طويلة جداً • وأنا كما تعلمون أملك ، عدا المائة روبل ، الشجاعة والعناد والمثابرة ، والعزلة التامة ، والسر المكتوم• ولا سيما العزلة : لشدّما كرهت العلاقات بالناس والارتباط بهم والاشتراك معهم كرهاً فظيعاً الى آخر لحظة •

لقد عزمت أمري على أن أنفذ فكرتي وحيداً ، والا فلا ! ان الناس عبء ثقيل عليَّ ، فلو أشركتهم في فكرتي لاضطرب ذهني ولأضر ذلك بهدفي • ثم انني حتى هذا اليوم ، خلال حياتي كلها ، في جميع أحلامي عن علاقاتي بالناس كنت أدبر أموري تدبيراً ذكياً • ولكنني لا أكاد أنزك أفق الحلم وأشرع في العمل حتى أتصرف تصرفاً أحمق • انني أعترف بهذا مستاءً صادقاً • لطالما فضحت نفسي بأقوالي ، ولطالما أسرفت في التسرع • ومن أجل ذلك قررت أن ألغي البشر من مشروعي • الفائدة التي أجنيها من ذلك : الاستقلال ، هدوء البال ، وضوح الهدف •

رغم أن الأسعار ببطرسبرج فاحشة فقد اتخذت قراراً حاسماً بألا أنفق أكثر من خمسة عشر روبلاً لطعامي ، وكنت أعلم أنني سأنفذ قراري لا أحيد عنه • لقد درست مسألة الطعام هذه دراسة طويلة مفصلة • قررت مثلاً أن آكل خبزاً وملحاً في يومين متتالين ثم أنفق في اليوم الثالث ما أكون قد حققته من وفر • كان يبدو لي أن هذا أنفع لصحتي من صيام متساو متصل لا أنفق خلاله الا خمسة عشر كوبكاً في اليوم • أما عن المسكن فقد كنت في حاجة الى ركن ، الى ركن لا أكثر ، ركن أبيت فيه ليلاً ، أو آوي اليه أيام يكون الجو رديئاً • وقد قررت أن أعيش في الشارع ، وكنت مستعداً اذا اقتضى الأمر ذلك أن أبيت في ملاجيء الليل التي يعطى النائم فيها ، عدا الغطاء ، قطعة خبز وكأس شاي • آ••• لسوف أعرف كيف أخبيء مالي في ركني أو في الملجأ فلا يسرقه أحد • حتى انهم لن يحزروا شيئاً ، أنا أضمن لكم ذلك ! « أُأسرق أنا ، أنا الذي

أمسك عن سرقة الآخرين ؟ » : لقد سمعت هذه الكلمة الظريفة مرةً في الشـــارع من فم مكار مرح • وأنا لا أحتفظ منها طبعاً الا بروح الحذر والمكر ، فليس في نيتي أن أسرق أبداً • بل أكثر من ذلك أنني منـذ كنت بموسكو ، وربما منذ اليوم الذي شهد ولادة « فكرتي » قد قررت أنني لن أكون دائنـاً برهون ، ولا مرابياً : فذلك له اليهود وله الروس الذين لا يملكون ذكاء ولا أوتوا خلقاً • ان الاقراض والربا حطة •

وأما الملابس فقد قررت أن يكون لي رداءان ، واحد لكل الأوقات ، وواحد لائق • وكنت واثقا أنني متى ملكت هذا الرداء فسيدوم زمنـــاً طويلاً • لقد قضيت سنتين ونصف سنة أتعلم كيف ألبس ثيابي ، حتى لقد كشفت عن هذا السر : من أجل أن يبقى رداؤك جديداً على الدوام، وألا يبلى ، فعليك أن تنظفه بالفرشـاة كلما استطعت الى ذلك سـبيلاً ، خمس مرات أو ستاً في اليوم • فلا خوف على الصوف من الفرشــاة ، أقول لك هذا عن علم مؤكد محقق • اذا نظرت الى ذرات الغبار بالمجهر وجدتها حصى صغيرة ، أما الفرشاة فمهما تكن قاسية ليست تختلف كثيراً عن الصوف • وقد تعلمت كذلك انتعال الحذاءين • اليك السر : يجب عليك أن تضع قدمك في حذر ، وأن تضع النعل كله دفعةً واحــدة ، وألا تضغط على احــدى الجهتين الا أقل ضغط ممكن • ذلك علم يمكن تحصيله في خمسة عشر يوماً ، ثم يجري كل شيء من تلقاء نفسه • بهذه الوسيلة تستطيع أن تطيل عمر الحذاءين ما يسـاوي ثلثه في الوســط • تلك تجربتي خلال سنتين •

بعد ذلك يأتي العمل نفسه •

اليك وسيلتي : انني أملك مائة روبل • وفي بطرسبرج مزادات كثيرة ، وتصفيات ، وحوانيت ، ومعوزون ، فيســتحيل ألا يقع المرء على شيء من الأشياء يشتريه بثمن بخس ثم يستطيع أن يبيعه بسعر أعلى • لقد ربحت من بيع « ألبوم » سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً ، وكان

رأس المال الذى دفعته روبلين وخمسة كوبكات • وقد حققت هذا الربح الضخم بدون مجازفة : قرأت فى عينى المشترى أنه لن يتراجع • صحيح أن هذه كانت مصادفة • لكننى انما أبحث عن مصادفات ، ومن أجل ذلك انما قررت أن أعيش فى الشارع • قد تكون هذه المصادفات نادرة جداً ، اننى أسلم بذلك • لكن هذا لا يغير قاعدتى الأساسية وهى ألا أجازف • وأما قاعدتى الثانية فهى أن أربح كل يوم أكثر من الحد الأدنى الذى أنفقه على تأمين معيشتى ، حتى لا ينقطع الادخار يوماً واحداً •

رب قائل يقول : لكن هذه أحلام • فأنت لا تعرف الشارع ، وقد تسرق منذ اليوم الأول • لقد فات القائل أننى أملك الارادة وقوة العزيمة، وأن علم الشارع علم كسائر العلوم ، وأن تحصيل هذا العلم يكون بالاصرار والعناد ، والانتباه واليقظة ، والمقدرة والكفاءة • لقد كنت فى الليسيه بين الأوائل دائماً حتى فى الفلسفة ، وكنت قديراً فى الرياضيات • هل يجوز أن تظنوا علم الشارع تميمة من التمائم ، فتتنبأوا لى بالاخفاق حتماً ؟ ان الذين يقولون هذا الكلام هم دائماً أولئك الذين لم يعانوا تجربة ولا قاموا بعمل ولا شرعوا فى حياة ، وانما هم عاشوا فى عفونة الكسل • لسان حالهم يقول : « ان فلانا قد كسر أنفه ، فلابد ان يكسر فلان الآخر أنفه حتماً » • لا لن أكسر أنفى • ان لى عزيمة قوية ، ولأتعلمنّ بقليل من الانتباه أي شيء • هل يمكنكم أن تتخيلوا أن المرء يعجز بالاصرار المستمر والعناد المتصل والتفكير الدائب والتأمل الصبور والحساب الدقيق عن أن يحصّل العلم اللازم لكسب عشرين كوبكاً زيادةً فى كل يوم ؟ لاسيما وأننى قررت ألا أسعى أبداً الى الحد الأقصى من الربح ، وأن أحتفظ دائما بهدوء أعصابى وبرودة دمى • وفى المستقبل ، حين أملك ألف روبل أو ألفين سأترك السمسرة والبيع بطبيعة الحال • ولئن كنت لا أزال قليل العلم بأمور البورصة والأسهم والبنوك ، فاننى فى مقابل ذلك كنت أعلم ، كعلمى بأن ٢ + ٢ = ٤ ،

أنني سأعرف جميع هذه البورصات وهذه البنوك وسأدرسها في حينها كأي انسان آخر ، وأن هذا العلم سيسعى اليّ سعياً متى آن الأوان • هل يحتاج المرء من أجل هذا الى كثير من الذكاء ؟ هل عليه أن يكون في ذكاء سليمان الحكيم ؟ يكفي المرء أن يكون قوي العزيمة • أما العلم والحذق والمعرفة فذلك كله يأتي من تلقاء نفسه • وانما المهم ألا يكف المرء عن « أن يريد » •

ويجب خاصةً ألا يجازف ، وذلك لا يتيسر الا بقوة العزيمة • منذ مدة قصيرة ، بعد وصولي بقليل ، كان في بطرسبرج اكتتاب بأسهم سكة حديدية • فالذين أمكنهم أن يكتتبوا جنوا ربحاً كبيراً ، اذ ارتفعت أسعار الأسهم في وقت من الأوقات •

وهذا شخص متأخر أو بخيل يرى أسهماً بين يديّ على حين فجأة، فيعرض عليّ أن أبيعه اياها بربح يساوي نسبةً مئوية من ثمنها • لسوف أبيعه الأسهم ، بل سوف أبيعه اياها حالاً • ولسوف يتهكم الناس عليّ طبعاً ، اذ لو تريثت لنلت ربحاً يقدر بعشرة أضعاف هذا الربح ! صحيح! ولكن ربحي الآن أضمن ، لأنني أملكه في جيبي ، أما ربحكم أنتم فانه لا يزال في علم الغيب ! فان قلتم ان هذا ليس هو السبيل الى جني ربح كبير قلت : عفوكم ، ذلكم هو خطؤكم ، ذلكم هو خطأ جميع أمثال كوكوريف و بولياكوف و جوبونين • تعلموا هذه الحقيقة : ان الاستمرار والعناد في الربح، ولاسيما في الجمع والكنز ، أقوى من أرباح مباغتة ولو بلغت مائة ضعف !

قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بباريس رجل اسمه « لاو » تخيل مشروعاً يستحق أن يعد عبقريا من ناحية المبدأ حقاً ، لكنه انتهى في التطبيق الى فشل ذريع • لقد اهتزت باريس كلها حينذاك ، فكان الناس يتنافسون على شراء الأسهم متشاجرين بل متقاتلين • كان الفندق الذي يجري فيه بيع الأسهم يبتلع أموال باريس كلها • ثم ضاق الفندق عن

استيعاب الوافدين للاكتتاب ، فكان الناس يحتشدون فى الشارع من جميع المهن وجميع الطبقات وجميع الأعمار،من البورجوازيين والنبلاء وأولادهم، ومن كونتيسات ومركيزات وموسات • فكان هؤلاء جميعاً كتلة واحـدة حانقة تشبه أن تكون مجنونة كأنما عضها كلب مسعور • ان جميع المشاعر التى يحملها كثير من الناس عن نبالة دمائهم وعلو مراكزهم وسمو ألقابهم وحتى رفعة الشرف وحسن السمعة ، ان ذلك كله قد ديس بالأقدام • كان الناس يضحون بكل شيء (وحتى النساء) فى سبيل الحصول على عدد من الأسهم • وانتقل الاكتتاب أخيراً الى الشارع ، ولكن لم يكن ثمة مائدة يكتب عليها • وعندئذ انما عرضوا على رجل أحدب أن تتخذ حدبته طاولة للكتابة برهة • فقبل الأحدب العرض ، وفى وسعكم أن تتخيلوا الأجـر الذى طلبه ! وبعد قليل (بل بعد قليل جـداً) أفلس المشروع : تهدم كل شيء ، ارسلت الفكرة كلها الى الجحيم ، وفقدت الأسهم كل قيمة ! فمن ذا الذى جنى ربحاً فى هذه القضية كلها ؟ الأحدب ، الأحدب وحده ، لأنه لم يؤجـر حدبته بأسهم بل بدنانير ذهبية ! أنا ذلك الأحدب ! أملك القدرة على ألا آكل ، وأن أجمع من توفير الكوبكات اثنين وسبعين روبلاً • وعلى أيضاً أن أصمد حين تعصف حمى بسائر الناس ، وأن أوثر مبلغاً مضموناً على مبلغ آخر أضخم منه لكنه غير مضمون ! أنا لست ضعيفاً الا فى الأشياء الصغيرة ، أما الأمور الكبيرة فلا ! كثيراً ما فاتتنى قوة العزيمة فى الشئون الصغيرة ، حتى بعد ولادة « فكرتى » ، بسبب نفاد الصبر • أما اذا كان الأمر خطيراً فلا تعوزنى قوة العزيمة أبداً • حين كانت أمى تقدم لى قبل الذهاب الى العمل قهوة فترت سخونتها ، فقد كنت أغضب ، وأقول لها كلاماً فظاً ، ومع ذلك فاننى ذلك الشخص نفسه الذى عاش شهراً كاملاً لا يأكل الا خبزاً ولا يشرب الا ماء •

الخلاصـــة أنه ليس طبيعياً ألا يعرف المرء كيف يربح ، وألا يفلح فى تعلم الربح • لا وليس طبيعياً ألا يصـبح المرء مليونيراً اذا هو واظب

على الادخار والجمع والكنز بغير انقطاع ، واذا ملك انتباهاً مستمراً وهدوءاً متصلاً ، واذا بذل جهدا دائما للتوفير ، وطاقةً ما تنفك تزداد وتتسع . كيف ربح الشحاذ ثروته ان لم يكن قد ربحها بقوة العزيمة ، وشدة الحماسة ، واستمرار المثابرة . أأنا لا أساويه ؟ « على كل حال ، قد لا أجني شيئاً ، وقد لا يكون حسابي صحيحا ، وقد أفلس وأنهار ... فلا ضير .. سأظل أسير الى أمام . أسير لأنني أريد أن أسير » . كذلك كنت أقول لنفسي بموسكو .

فان قلتم ان هذا ليس فيه شيء من فكرة ، وليس فيه شيء جديد ، قلت لكم آخر مرة : بل ان فيه أفكاراً لا نهاية لها ، وان فيه جـدة لا نهاية لها .

آ ... لقد أوجست جميع هذه الاعتراضات المبتذلة ، ولشد ما أكون انا نفسي مبتذلا اذا أنا عرضت فكرتي ! ما الذي قلته أنا في حقيقة الأمر ؟ انني لم أشرح عشر معشار فكرتي . انني أشعر أن كل ما قلته تافه ، فظ ، سطحي ، وربما كان أصغر من سني ، ولكن هل يفسد عجز الكاتب قيمة الفكرة التي يعرضها ؟

٣

بقى أن أجيب عن الأسئلة التالية : « لماذا ؟ ما الهدف ؟ أهذا أمر طبيعى سليم أم لا ؟ » ، الخ الخ • وهى أسئلة وعدت بالاجابة عنها •

وهأناذا أبدد أوهام القارىء دفعة واحدة فأقول :

ان نفسى لا تضم أية رغبة فى الانتقام ، وأنا معافى من كل نزعة بيرونيه ، وليس لحقد اليتيم ولا لشعور ابن الزنا أى شأن فى هذا • ان السيدة الرومانطيقية التى قد يخطر ببالها أن تتصفح مذكراتى هذه سوف تخفض أنفها خائبة الأمل • ان الهدف الذى أسعى اليه بفكرتى انما هو : العزلة •

ـ ولكن ما حاجتك الى أن تكون صاحب مليارات حتى تعيش حياة عزلة ••• ما شأن روتشيلد فى هذه القصة ؟

ـ ان له مكانه فيها • لأننى ، عدا العزلة ، فى حاجة الى القدرة •

اسمحوا لى بتمهيد : قد يدهش القارىء حتى من صراحتى فى الاعتراف ، فيتساءل بغير قليل من السذاجة كيف لم يحمرّ كاتب هذا الكلام خجلاً ؟ فأجيب بأننى لا أكتب للنشر ، وأننى قد لا أُقرأ الا بعد عشر سنين ، وذلك حين تكون الأمور قد تمت على الوجه الأكمل ، فلا يكون علىّ أن أحمر خجلاً من شىء • فاذا كنت فى هذه المذكرات أخاطب قارئاً ، فواضح أن ذلك ليس الا أسلوباً فى الكتابة لا أكثر • ان قارئى شخص من صنع خيالى •

لا ، لا ولادتى غير الشرعية التى كانوا يغيظوننى بها كثيراً فى مدرسة

توشار ، ولا الحزن الذى عشته فى سنى طفولتى ، ولا أية رغبة فى الانتقام أو الاحتجاج ، لا شىء من ذلك كله كان له شأن فى ولادة فكرتى : لقد ولدت فكرتى من طبعى ولادة عادية . لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمرى حين كان حضور الناس بل وجودهم يثقل على صدرى وتضيق به نفسى . وقد شق علىّ أحياناً فى لحظات صفائى ، أن لا أستطيع البوح للقريبين منى بما يزخر به قلبى ، بل قل اننى كنت أستطيع ذلك ولكن لا أريده . كان شىء ما يصدنى . كنت شكاكاً ، نافراً من صحبة الناس ، متجهم النفس . ذلك ما كنت . وكنت عدا ذلك شديد الميل الى اتهام الآخرين . ولكننى سرعان ما أرتد الى نفسى أسائلها : « ألست أنا المخطىء ؟ » . وكثيراً ما كنت أدين نفسى ظلما . فمن أجل أن أتقى أزمات الضمير هذه ، كنت أجهد أن اعتزل الناس . ثم ما الذى كان يمكن أن أجنيه من صحبة رفاقى ؟ لقد كانوا جميعاً أقل ذكاءً منى ، لا أستثنى منهم أحداً .

نعم ، كنت قاتم المزاج ، فلا أكف عن الانغلاق على نفسى ، ولا أكف عن الرغبة فى الانسحاب من المجتمع . ولعلنى كنت أستطيع أن أنفع الناس ، ولكننى كنت فى كثير من الأحيان لا أرى ما يدعونى الى أن أصنع لهم خيراً . ليس الناس أخياراً فأهتم بهم . لماذا لا يأتون هم الىّ ؟ لماذا يكون علىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى ؟ ذلك ما كنت أقوله لنفسى . اننى قادر على الاعتراف بالجميل ، وقد برهنت على ذلك بألف حماقة ارتكبتها . اننى أرد على البادرة الحسنة ببادرة أحسن . الصراحة أقابلها بالمودة . وقد سبب لى ذلك مذلات كثيرة . الشخص الوحيد الذى كان يفتح لى نفسه هو لامبير الذى طالما ضربنى ضرباً مبرحاً فى سنى طفولتى الأولى . ولكن الفضل فى صراحته انما كان يرجع الى غبائه .

هأنتم ترون تقريباً كيف كانت حالتى النفسية حين وصلت الى بطرسبرج .

حين خرجت من عند درجاتشيف (أى شيطان دفعنى الى بيته ؟)» ذهبت الى فاسين • وباندفاعة مودة ، آزجيت له المديح • ولكن تلك المودة قد نقصت منذ ذلك المساء نفسه • لماذا ؟ لا شيء الا لأنى مدحته • فبدا لى اننى بذلك قد خفضت قدرى • مع ذلك ألا يرتفع قدر المرء حين يطرى من تلقاء نفسه أحد يستحق هذا الاطراء ؟ ذلك كان رأيى ومع ذلك نقص حبى لفاسين • هذا مثال تعمدت أن أسوقه والقارىء يعرفه • وأصبحت لا أفكر فى كرافت أيضاً الا وأشعر بمرارة • أما ذنبه فهو أنه شيّعنى متلطفاً حتى الباب • وهـذا الشعور بالمرارة لم يتبدد حتى فى الغـد حين اتضح كل شىء ولم يبق هنـاك ما يمكن أن أؤاخـذه عليه • اننى منذ أيام دراسـتى فى الليسيه كنت غضوباً • اذا تفوق علىّ أحد رفاقى فى امتحان ، أو بزّنى فى تمارين الرياضة البدنية ، قاطعته فأصبحت لا أكلمه• لا لأننى أكرهه أو أغار من نجاحه ، بل لأن هذا طبعى •

نعم ، لقد استولى علىّ حلم القوة والعزلة طوال حياتى ، حتى فى سن لو أتيح لأحد أثناءها أن يرى ما كان يدور فى رأسى من خواطر لضحك ضحكاً شديداً • لذلك أحب السرّ كثيراً • وكنت استرسل فى الأحلام استرسالاً لا يُبقى لى وقتاً للحديث مع الناس • وقد استنتج الناس من ذلك أننى متوحش ، وكان ذهولى يبعثهم على تأويلات أشد ايغالاً فى الخطأ أيضاً • ولكن خدىّ المتوردين كانتا تبرهنان على نقيض ذلك •

وما كان أشد فرحى حين كنت أطمر نفسى تحت أغطيتى فى المساء، فتهدأ من حولى ضجة الحياة المشتركة ، وتأخذ أحلامى فى بناء العالم على ما يشاء لى هواى فى وحدة الليل ! ان حالة الاسترسال فى الحلم هذه قد لازمتنى الى أن اكتشفت « فكرتى » : فاذا بأحلامى تصبح معقولة بعد أن كانت فى صورة خيالية روائية •

انصهر كل شىء فى هدف واحد • الواقع أن تلك الأحلام لم تكن

حمقاء حتى قبل ذلك ، وان كانت كثيرة لا حصر لها ! ••• وكان بينهـــا أحلام أفضّلها على ما عداها • ولكن لا داعي الى الكلام عنها هنا •

القدرة ! قد يضحك بعض الناس حين يرون شخصاً مثلي « لاقيمة له » يتطلع الى القدرة ، الى القوة • ولسوف يدهشون أكثر من ذلك أيضاً اذا أنا قلت لهم انني منذ طفولتي ـ أو نحو ذلك ـ لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل نفسي الا في المنزلة الأولى في كل مكان وفي كل ظرف • هذه سمة أخرى : ما زلت أتصف بهذه الصفة ، ولا أستغفر عنها أحداً •

هذه « فكرتي » ـ وهذه قوتها ـ : ان المال وحده يستطيع أن يقود امرءاً الى المنزلة « الأولى » ، ولو كان تافهاً « لا قيمة له » • قد لا أكون تافهاً • لكنني أعلم مثلاً ، من النظر في المرآة ، أن مظهري الخارجي يضر بي ، لأن وجهي عادي لا يتميز بشيء • أما لو كنت غنيا مثل روتشيلد ، فمن ذا الذي كان يمكن أن يهتم بوجهي ؟ لو كنت غنياً مثل روتشيلد لكان يكفي أن أصفر صفرة واحدة حتى تهرع اليَّ ألوف النســاء تعرض على محاسنها • بل اني لمقتنع بأنها ستظنني في النهاية جميلاً ، صـادقات كل الصدق • وقد أكون ذكياً • ولكن يكفي أن يكون جبيني سبع بوصـات حتى يغلبني جاري اذا كان له من البوصات ثمانيا • أما اذا كنت غنياً مثل روتشيلد ، فان ذلك الحكيم الذي يبلغ جبينه ثماني بوصات سيكون شخصاً هزيلاً جداً ، حتى لقد لا يتيحون له أن يفتح فمه ! ••• وقد أكون فكهاً خفيف الظل • ولكن هذا تاليران ، وهذا بيرون ••• فاذا أنا أمحي أمامهما فلا يبقى لي وجود • أما اذا كنت غنياً مثل روتشيلد ، فأين يكون بيرون ؟ بل أين يـكون تاليران ؟ يختفيان • ان المال قوة طاغية ، ولكنها بمعنى من المعاني تحقق نوعاً من المســاواة : فهي تشــوش السيطرة المتغطرسة التي للذكاء والجمال • ذلك ما خلصت اليه وقررته وأنا بموسكو •

قد لا يبدو لك هذا كله الا وقاحة واستهتاراً ، وقد تظن أنه يهدف الى تغليب التفاهة على الموهبة • صحيح • ولكن هذه الفكرة جسورة (وهي

بهذا نفســه لذيذة) • أما اذا اعتقدتَ انني أرغب في القوة بهـدف الانتقام أو الاضطهاد ، كنت تنسب اليّ ـ بغير حق ـ أن نفسي هي نفس أن انسـان من الناس • انني لمقتنع بأن أبرز الأفـراد شـأناً في جميع فئات النشـاط الانسـاني لابد أن يتصرفوا هذا التصرف الذي تنسبه اليّ ظلماً اذا هم أوتوا ما أوتي روتشيلد من ثراء • أما أنا ففكرتي مختلفة عن هذا كل الاختـلاف • انني لا أخشى المال : ان المال لن يضطهدني ولن يحملني على اضطهاد أحد •

ما أنا في حاجة الى مال ، أو قل ليس المال هو ما أنا في حاجة اليه ـ حتى ولا القدرة • وانما أنا في حاجة الى ما تتيح القوة للمرء أن يحصـل عليه ، ولا يمكنه أن يحصل عليه الا بها : أعني الشعور المعتزل الهادىء بالقوة ! ها قد تم اكتشاف التعبير عن الحرية التي يبحث عنها المفكرون • الحرية ! أخيراً كتبت هذه الكلمة الكبيرة ••• نعم ، ان الشعـور المعتزل بالقوة جميل " في ذاته ومسـكر • انني أملك القوة ، وانني هادىء البال • أن الرعود بين يدى جوبيتر ، ولكن جوبيتر هادىء • هل تسمع جوبيتر يرعد أحيانا كثيرة ؟ رب أحمق يظن أن جوبيتر نائم • أحلّ محل جوبيتر رجلا من هؤلاء الأدباء أو امرأة من تلك القرويات ! لتسمعنّ الرعد عندئذ لا ينقطع قصفه ، ولتسدن أذنيك من هول الصواعق !

انني أفكر فأقول لنفسي : متى ملكت القوة فلن أحتاج اليها • وانني لعلى ثقة بانني ، من تلقاء نفسي ، وبكامل رضاى ، سأحتل المنزلة الأخيرة عندئذ في كل مكان • لو كنت روتشيلد ، لتجولت مرتدياً معطفاً مرقعاً ، حاملاً بيدى مظلة • ولن يؤذيني عندئذ أن يصدمني أحد في الشارع أو أن أركض في الوحل حتى لا تدوسني العربات • حسبي شعوري بأنني أنا روتشيلد حتى أكون فرحا في تلك اللحظة • أعرف أن في امكاني أن أصيب وجبة من طعام لا يصيب أحد مثلها ، وجبة يهيئها لي أحسن طباخ في العالم : يكفيني أن أعرف هذا • وسوف آكل قطعة من خبز وشريحة

من الجمبون ، فأكون راضياً كل الرضى • وما زال هذا هو تفكيري الى الآن •

لست أنا من يسعى عندئذ الى معاشرة الارستقراطية ، بل الارستقراطيون هم الذين سيسعون عندئذ اليّ ينشدون صحبتي • لست أنا من سيجري وراء النساء ، بل النساء هن اللواتي سيتهافتن عليّ تهافت الذباب ، ويقدمن اليّ كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه • فأما « العاميات » منهن فسيجذبهن المال ، وأما من كان لهن فكر فسيجذبهن اليّ حب التعرف الى انسان غريب الأطوار متكبر مغلق على نفسه غير مكترث بشيء • وسوف ألاطف هؤلاء وأولئك على السواء • ولقد أعطيهن مالاً ، لكني لن أقبل منهن شيئاً • وحب الاطلاع يولد الهوى : فلقد أوقظ في نفوسهن الهوى أيضاً • وأؤكد لكم أنهن لن يظفرن مني بشيء اللهم الا بعض الهدايا • ولن يورثني هذا الا مزيداً من الدهشة والاستغراب :

« حسبي هذا الشعور •• »

ان الشيء الغريب هو أن هذه الصورة (وهي صحيحة على كل حال) قد أغرتني وفتنتني منذ كنت في السابعة عشرة من عمري •

لا أنتوي أن أضطهد أحداً ولا أن أعذب أحداً • ولكنني أعلم أنني اذا أردت أن أضيع أحدا من الناس فلن يستطيع شيء أن يمنعني من ذلك ، وأن الجميع سوف يعاونونني في هذا جاهدين • وهنا أيضاً حسبي ذلك • بل انني لن أنتقم من أحد • لطالما أدهشني أن جيمس روتشيلد قد قبل أن يحمل لقب « بارون » ! علام ؟ لماذا ؟ ما حاجته الى اللقب وهو بدونه تفوق على جميع الناس في هذه الحياة الدنيا ؟ «أوه ! في وسع ذلك الجنرال الوقح أن يهينني في محطة تبديل الأحصنة التي كنا فيها معاً ننتظر الخيول • فلو عرف من أنا لركض يتولى بنفسه قرن خيول عربتي ، ولساعدني على الصعود الى مركبتي المتواضعة ! لقد كتب أحدهم يقول ان رجلاً أجنبياً يحمل لقب كونت أو بارون كان في قطار فيينا مع رجل من أصحاب البنوك في تلك

المدينة فألبس قدميه بابوجيهما، وكان صاحب البنك من العامية بحيث ارتضى منه ذلك ! أوه ! وفي وسع تلك الحسناء الرهيبة (اقول الرهيبة لأن بين الحسناوات من هنّ رهيبات !) في وسع تلك الفتاة التي تنتمي الى الارستقراطية الفخمة الجليلة وتحمل لقباً من ألقاب الشرف ، اذا هي لقيتني عرضاً في سفينة أو غير ذلك ، أن تنظر اليّ شزرا وأن تشمخ بأنفها وأن تدهش باحتقار من هذا الرجل الصغير الوضيع الهزيل الذي يحمل بيده كتاباً ويتجرأ أن يجلس بجانبها في الدرجة الأولى ! ولكنها لو علمت من ذاك الذي كانت تجلس الى جانبه ! ولسوف تعلم ذلك ، سوف تعلمه فتأتي تجلس الى جانبي من تلقاء نفسها ، خاضعة خجلى ملاطفة ، ساعية الى نظرة ألقيها اليها ، فرحة بابتسامة أنعم بها عليها . » . انني أتعمد ادخال هذه المشاهد قبل الأوان ، لأعبر عن فكرتي تعبيراً أوضح . ولكنها مشاهد شاحبة ، ولعلها مبتذلة . ان الواقع وحده يبرر كل شيء .

رب قائل يقول ان حياة المرء على هذا النحو سخيفة : فلماذا لا يكون له قصر ، لماذا لا يكون له منزل مفتوح للناس ، لماذا لا يضم مجتمعات عدة ، ويكون له تأثير ونفوذ ، ولماذا لا يتزوج ؟ ولكن ما الذي سيصير اليه روتشيلد عندئذ ؟ سوف يكون كسائر الناس . سوف يزول كل ما في « الفكرة » من فتنة وسحر . وسوف يزول كل ما تشمل عليه من قوة روحية أخلاقية . لقد حفظت على ظهر القلب في طفولتي ، الحوار الداخلي الذي دار بين « الفارس البخيل » الذي صوره بوشكين وبين نفسه . ان بوشكين لم ينتج ما هو أعلى من هذا الكلام بمقياس « الفكرة » . وأنا مازلت أحرص على هذه المعاني الى اليوم .

وقد يقال لي باحتقار :

ـ ولكن مثلك الأعلى منحط جداً : المال ! الثراء ! فأين مصلحة المجتمع ، وأين الأعمال الانسانية ؟

ولكن هل تعرفون في أي وجه من الوجوه سأستعمل ثرائي ؟ أين النأي عن الأخلاق وأين الحطة في أن تنزل هذه الملايين من براثن يهودية

قدرة ضارة الى يدى انسان معتزل ثابت عاقل يلقى على العالم نظرة ثاقبة ؟ على أن أحلام المستقبل هذه ليست بوجه الاجمال الا نوعاً من حكاية ، ولعلنى أخطأت اذ دونتها ، ولعله كان يجدر أن تبقى فى رأسى لا تخرج منه • وأنا أعلم أيضاً أن أحداً قد لا يقرأ هذه الأسطر • ولكن اذا قرأها أحد ، فهل يقدّر أننى قد لا أحتمل ملايين روتشيلد ؟ نعم ، قد لا أستطيع أن أحتملها ، لا لأنها يمكن أن تسحقنى ، بل بمعنى آخر هو نقيض هذا المعنى تماماً • لطالما عانقت مراراً ، فى أحلامى ، اللحظة المستقبلة التى سيكون فيها شعورى قد ارتوى ارتواءً تاماً ، وأصبحت أرى أن القوة لا تكفينى • لسوف أرد جميع تلك الملايين الى الناس حينذاك ، لا عن ضجر ولا عن سأم بغير هدف ، بل لأن مطالبى تفوق هذا كثيراً : ألا فلتقتسم الانسانية ثروتى عندئذ كما تشاء ، ثم أرتد أنا الى العدم ! لقد أستحيل يومذاك الى ذلك الشحاذ الذى مات فى السفينة ، مع فارق واحد هو أنهم لن يجدوا شيئاً من مال خيط فى أسمالى البالية • شعورى وحده بأننى كان بين يدى ملايين فرميتها فى الوحل ، سيكفينى غذاءً فى صحرائى • اننى ما زلت مستعداً لأن أفكر هذا التفكير نفسه حتى اليوم • نعم ، ان « فكرتى » هى « القلعة » التى يمكننى فى كل وقت وفى كل ظرف أن أهرب اليها من جميع الناس ، ولو كذلك الشحاذ الذى مات فى المركب • تلكم هى قصيدتى ! واعلموا اننى فى حاجة الى ارادتى السيئة « كاملةً » ، لا لشىء الا أن أبرهن « لنفسى » أننى أملك القدرة على العدول عنها •

ولابد من معترض يقول ان هذا الكلام شعر ، واننى لن أتخلى عن ملايينى أبداً متى ملكتها ، واننى لن أستحيل يوماً الى الشحاذ ساراتوف • والحق أننى قد لا أتخلى عن ملايينى فعلاً • وأنا لم أزد هنا على أن رسمت لكم الخطوط العريضة من المثل الأعلى الذى يتصوره فكرى • ولكننى أضيف الآن الى كلامى جاداً أننى اذا بلغت من كنز المال الى الرقم الذى بلغته ثروة روتشيلد ، فلقد أستطيع فعلاً أن أرمى هذه الثروة فى وجه

المجتمع (أما قبل الوصول الى هذا الرقم فقد يكون من الصعب أن أفعل). وليس نصف الثروة هو ما سأهبه ، والا كان عملي عملاً مبتذلاً ، وكنت أفقر نفسي الى النصف لا أكثر . وانما سأهب ثروتي كلها ، الى آخر كوبك منها ، فبذلك أعني نفسي الى الضعف ، أي أصبح أغنى من روتشيلد ضعفين ! اذا لم تفهموني فليس الذنب ذنبي . ولن أدخل هنا في شروح .

سوف يقول الناس جازمين : « هذا من الدروشة ، هذا شعر التفاهة والعجز ، هذا انتصار الضعف والحطة ! » نعم ، أعترف لكم بأن هذا انتصار الضعف والحطة ، ولكنه ليس انتصار العجز . لقد شعرت بفرح جنوني حين تصورت نفسي ضعيفاً وتافهاً ، أقف أمام الناس فأقول لهم مبتسماً : أنتم أمثال جاليلو وكوبرنيك ، وشارلمان ونابوليون ، وبوشكين وشكسبير ، ومارشالات القتال والبلاط ، أما أنا فرجل بلا موهبة ولا نسب كما ترون ، ولكنني مع هذا فوقكم ، لأنكم خاضعون لهذه الحقيقة من تلقاء أنفسكم . انني أعترف بأنني مضيت في هذا التخيل الى أقصاه ، حتى تصورتني بغير تعليم . فبدا لي أن الأمر يكون أجمل اذا كان هذا الرجل جاهلاً جهلا بشعاً . وقد كان لهذا الحلم الذي يشتمل على مبالغة وغلو أثر في نفسي منذ سنتي الأخيرة في الليسيه . فانقطعت عن الدرس تعصباً فكان المثل الأعلى يزداد جماله بانتقادي الثقافة . وقد تغير رأيي الآن في هذه النقطة . فصرت أعتقد أن التعليم لن يكون فيه ضرر .

يا سادتي ، هل يعقل أن يكون استقلال الفكر ، مهما يكن استقلالاً محدوداً ، شاقاً على أنفسكم الى هذا الحد ؟ سعيدٌ مَنْ كان له مثل أعلى للجمال ولو على خطأ . ولكنني مؤمن بصحة مثلي الأعلى . كل ما هنالك أنني عرضته عرضاً أخرق ، ولم أحسن الافصاح عنه . ولاشك في أنني سأستطيع بعد عشر سنين أن أعرضه عرضاً أفضل . وبانتظار ذلك سأحتفظ بهذا كله المذكرى .

٤

ها قد انتهيت من « فكرتى » • واذا كنت قد وضعتها وضعاً عامياً سطحياً فهذا ذنبى أنا لا ذنبها هى • ولقد سبق أن نبّهت الى أن أبسط الأفكار هى أعسرها فهماً • وأضيف الآن الى ذلك أنها أعسرها عرضاً • لاسيما وأننى حكيت « فكرتى » فى صورتها الأولى •

وعكس هذا صحيح أيضاً : ان الأفكار المسطحة السريعة يفهمها الناس بسرعة خارقة ، ولا سيما الجمهور ، الشارع • وأكثر من ذلك أنها تعد أعظم الأفكار وأكثرها عبقرية ، ولكنها لا تعد كذلك الا فى يوم ظهورها • فالبضاعة الرخيصة الثمن لا تدوم طويلاً • ان الفهم السريع دليل على عامية الشىء الذى فهم • ان فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور ، وبسمارك نفسه رجل عبقرى ، ولكنْ هذه سرعة تدعو الى الاشتباه : اننى انتظر بسمارك عشر سنين ، فأرى عندئذ ماذا يبقى من فكرته ، بل ربما ماذا يبقى من السيد المستشار نفسه أيضاً • هذه ملاحظة عرضية تماماً ، ولا شأن لها بالموضوع ، ومن الواضح أننى لم أدخلها على سبيل المقارنة ، وانما للذكرى أيضاً (هذا شرح أخص به القارىء الكثيف ذهنه) •

والآن سأقص حكايتين لأنتهى من فكرتى كيفما اتفق ، حتى لاتربكنا بعد الآن فى المستقبل •

فى الصيف ، فى شهر تموز (يوليه) ، قبل سفرى الى بطرسبرج بشهرين ، وكنت خاليا خلواً تاماً ، طلبت منى ماريا ايفانوفنا أن أذهب الى بلدة ترويتسكى بوساد لأقوم بمهمة لها لدى عانس كانت تقيم هناك ، والمهمة أتفه من أن أعرض لها هنا بالتفصيل • فأثناء عودتى فى ذلك اليوم نفسه

لاحظت في حافلة القطار شاباً نحيفاً ، في وجهه بثور ، يلبس ثياباً حسنة ، لكنه غير نظيف ، هو واحد من أولئك السمر الذي يضرب لونهم الى البرونز المتسخ . وكان الشاب يلفت النظر بأنه في كل محطة أو موقف كان ينزل من القطار حتماً ليشرب شيئاً من الفودكا . وفي خاتمة المسير كانت قد تحلقت حوله عصبة فرحة وان تكن عامية جداً . وكان أكثر أفراد هذه العصبة حماسةً رجلٌ من التجار كان هو أيضاً ثملاً بعض الشيء ، وقد أعجب بما يملكه الشاب من قدرة على أن يشرب بغير انقطاع دون أن يسكر . وكان لا يقل عنه رضاً وارتياحا فتى غبيٌ غباء رهيباً ، كثير الكلام ، يرتدي ثيابا على الزي الأوروبي ، وتفوح منه رائحة كريهة فظيعة : انه خادم كما عرفت ذلك فيما بعد .

وقد انعقدت بينه وبين عاشق الفودكا الشاب صداقة ، فكان هو الذي يدعوه الى النزول عند كل موقف قائلاً : « آن الأوان ، هيا بنا ! » ، ثم ينزلان متماسكين متعانقين . وقد أصبح الشاب بعد الشراب صامتاً لا يكاد يقول كلمة واحدة ، ولكن عدد المتحادثين الذين يتحلقون حوله ما ينفك يزداد . فكان يكتفي بالاصغاء اليهم ، ولكنه لا يني يقهقه ويريل ، ويرسل من حين الى حين أصواتاً من هذا النوع : « تور ــ لور ــ لو ! » ، يرسلها فجأة بغير توقع ، ويجري حركة كاريكاتورية فيحمل اصبعه الى أنفه . وكان ذلك هو ما يبهج البائع والخادم وسائر الناس بهجة كبيرة ، فكانوا يضحكون ضحكاً مجلجلا جلجلة خارقة بغير تحرج . انه ليستحيل عليك أحياناً أن تدرك لماذا يضحك الناس . واقتربت أنا أيضاً . فلا أدري لماذا أعجبني هذا الشاب . لعل ما أعجبني فيه هو هذا الخروج الواضح على المواضعات الرسمية المألوفة المقبولة . والمهم على كل حال انني لم ألاحظ حماقته . لذلك سرعان ما أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد من غير كلفة . فلما غادرت القطار علمت منه أنه سيأتي في المساء

بعد الساعة الثامنة الى شارع تفرسكوى • ان الشاب طالب ترك الجامعة • وذهبت الى الموعد المضروب ، فاليكم اللعبة التى علمنى اياها :

نتجول معاً فى الشوارع ، وبعد قليل ، متى رأينا امرأة حسنة ليس حولها أحد ، أسرعنا نلتصق بها ؛ وبدون أن تقول لها كلمة واحدة ، نحدق بها أنا من طرف وهو من طرف آخر ، ونأخذ نجرى بيننا حديثاً بذيئاً الى أبعد حدود البذاءة ، محتفظين بمظهر هادىء كل الهدوء ، كأننا لا نراها البتة • نسمى الأشياء بأسمائها ، جادين جدا لا يعكره معكر ، كأن الأمر طبيعى الى أقصى درجة ؛ ومن أجل أن نأتى على أبشع الحقارات والدناءات ندخل فى تفاصيل لا يستطيع أقدر خيال فاسق أن يتخيلها (وكنت قد تعلمت هذه التفاصيل كلها فى المدارس طبعا ، حتى قبل الليسيه ، ولكننى تعلمتها قولا لا فعلا) • فكانت المرأة تخاف ، وتغذ الخطى ، ولكننا نغذ الخطى مثلها ونستمر فى الحديث موغلين فيه مزيداً من الايغال • ولم يكن فى وسع ضحيتنا أن تفعل شيئاً بطبيعة الحال ، ولا يمكنها حتى أن تصرخ ، ولا شهود علينا ، ثم انها لو شكتنا لكان ذلك منها امراً مستهجناً غريباً • سلخنا فى هذه التسلية ثمانية أيام • ولست أفهم كيف أمكننى أن أستطيبها • وما كنت أستطيبها فى الواقع •• وانما حدث هذا •• هكذا ! •• بدا لى الأمر فى البداية طريفاً خارجاً على المألوف وعلى المواضعات المقررة المقبولة • وكنت عدا ذلك لا أطيق النساء • وقد أسررت فى ذات مرة الى الطالب أن جان جاك روسو ، فى كتابه « الاعترافات » ، قد روى أنه فى شبابه كان يحب أن يكشف عوراته عارية كل العرى ويلبث على هذا الوضع الى أن تمر نساء فتراها • فلم يجبنى الطالب الا بأصواته « تور ـ لور ـ لو » • فلاحظت أنه جاهل جهلاً مطبقاً رهيباً ، وأنه لا يهتم بشىء ذى بال • ولم أكتشف عنده فكرة واحدة من تلك الفكر الأصيلة التى كنت أتوقع ان أجدها عنده • لم أقع لديه على أصالة بل على تكرر رتيب مرهق • فاصبح تعلقى به يقل • ثم

انتهى كل شيء على نحو لم يكن في الحسبان : ففي ليلة تكاثفت فيها الظلمات لاصقنا فتاة في ريعان الصبا كانت تسير في الشارع مسرعة وجلة . لعل عمرها ستة عشر عاماً أو يقل . ثيابها نظيفة جدا على بساطة . أغلب الظن أنها تعيش من عملها ، وربما كانت في تلك الساعة عائدة الى البيت حيث تنتظرها أم عجوز هي أرملة فقيرة مثقلة بأعباء أسرة . ولكن لا داعي الى الانقياد للعواطف . ظلت الفتاة تسمع حديثنا بعض الوقت ، ثم غذت الخطى ، ثم مالت برأسها وغطت وجهها بحجابها خائفة مرتعشة . ثم اذا بها تتوقف على حين فجأة ، فتكشف عن وجهها الذي كان حلواً اذا صدقت ذاكرتي ، لكنه كان نحيلاً هزيلاً ، وصرخت تقول لنا وقد قدحت عيناها شرراً :

ــ حقيران !

ولعلها كانت تهم أن تبكي ، ولكن حدث شيء آخر . فهاهي ذي ترفع يدها الصغيرة الهزيلة مهتاجة ، وتهوى على وجه الطالب بصفعة سمع صوتها ، ولعلها لا تضارعها في احكامها صفعة ! فقذفها الطالب بشتيمة وهمّ أن يهجم عليها ، لكنني أمسكته فاستطاعت الفتاة أن تهرب ! فلما صرنا وحيدين تشاجرنا ، ونددت به مخرجاً كل ما كان قد تراكم في نفسي أثناء ذلك الوقت ، وقلت له انه ليس الا امرءاً عاجزاً تافهاً ، وانه لم تساور ذهنه في يوم من الأيام فكرة . فأجابني بشتائم .. (وكنت قد ذكرت له مرةً انني ابن زنا) ، ثم افترقنا وقد بصق كل منا احتقاراً ، ولم أره بعد ذلك قط . وقد شعرت في تلك الليلة بغضب شديد . وكان غضبي في الغد أقل . أما في غداة غد فكنت قد نسيت كل شيء . وبعد ذلك كنت أتذكر تلك الفتاة من حين الى حين ، ولكنني أتذكرها مصادفةً ، وأتذكرها عرضاً . حتى اذا وصلت الى بطرسبرج بعد خمسة عشر يوماً تذكرت المشهد على حين بغتة . تذكرته فسرعان ما استولى عليّ شعور بالعار بلغ من الشدة أن الدموع سالت على خديّ فعلاً .

وظللت أعانى عذاباً شديداً طوال المساء ، وطوال الليل ، ومازلت أعانى شيئاً من هذا العذاب الى الآن • ولقد عجزت فى أول الأمر أن أفهم كيف أمكنني أن أسقط الى ذلك الدرك الأسفل ، وأن أنسى الحادث خاصة ، وأن لا أحمر منه خجلا ، وأن لا تلتهمنى الندامة التهاماً • والآن فقط انما أدرك حقيقة الأمر • لقد كان الذنب ذنب « الفكرة » • ان النتيجة التى أخلص اليها هى أنه متى استقر فى ذهن المرء شيء ثابت ، دائم ، مستمر ، قوى ، يملأ عليه نفسه ، فان هذا المرء ينفصل فى الوقت ذاته عن العالم معتصماً بالعزلة ، وكل ما يحدث لا يزيد على أن ينزلق بعدئذ على صفحة نفسه انزلاقاً فلا يحدث فيها أثراً • حتى ادراكاته الحسية قد تصبح غير صحيحة • وهو عدا ذلك ، وخاصة ، لا يعدم أن يجد لنفسه عذراً فى كل وقت • لشد ما عذبت أمى فى ذلك الأوان ! ما أكثر ما كنت أهجر أختى هجراً مخجلا ! « ولكن لا ! ان لى « فكرتى » ، وكل ما عداها لا قيمة له ! » ذلك ما كنت أقوله لنفسى • وكان يحدث أن أهان ، بل أن أهان بقسوة : فكنت أمضى لا ألوى على شيء ، قائلا لنفسى بعد ذلك : « هه ! ان لى « فكرتى » وهم لا يعرفون عنها شيئاً » • كانت « الفكرة » تعزينى عن العار وعن التفاهة • ولكن جميع دناءاتى كانت كأنها تحتمى تحت « الفكرة » أيضاً • كانت « الفكرة » تسهل على كل شيء ، ولكنها كانت تحجب عنى كل شيء كذلك • على أن فهم الظروف والأشياء فهماً يبلغ هذا المبلغ من الاضطراب والابهام لا يمكن الا أن يضر بالفكرة نفسها ، ناهيك عما عدا ذلك •

والآن ، اليكم القصة الثانية :

فى أول نيسان (أبريل) من السنة الماضية كانت ماريا ايفانوفنا تحتفل بعيدها • وجاء فى المساء عدد من المدعوين ، عدد ليس بالكبير • وهذه آجرافينا تدخل على حين فجأة لاهثة لهاثاً شديداً ، فتعلن أن فى الدهليز أمام المطبخ وليداً متروكاً يصيح •• وأنها لا تدرى ماذا تفعل •

فأهاج هذا النبأ جميع الحضور ، وهرعنا الى هناك فرأينا قفةً من قش ، ورأينا في القفة بنتاً عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة كانت تبكي معولة . فتناولت القفة وحملتها الى المطبخ ، ورأيت فيها ورقةً مطوية نصفين قد كتب عليها ما يلي : « أيها المحسنون الأعزاء ، أنعموا بعطفكم الجميل على هذه البنت التي عمدت باسم آرينا . اننا ، نحن وهي ، سوف نظل نرفع دموعنا الى السماء أبد الآبدين ، داعين لكم بالخير . وتتمنى لكم عيداً سعيداً : أناس لا تعرفونهم » . وعندئذ انما أحزنني نيقولا سيمينوفتش أشد الحزن ، وكنت أحترمه كثيراً . فلقد تجهم وجهه ، وقرر ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » فوراً . فتألمت أشد الألم . لقد كانت الأسرة تعيش عيشة ضيقة . ولكن لم يكن لها أولاد ، وكان نيقولا سيمينوفتش يغبط نفسه على هذا دائماً . أخرجت الصغيرة آرينا من القفة بحذر ، وأنهضتها من كتفيها . ففاحت منها رائحة حامضة قوية كالتي تفوح من مواليد أهملوا مدةً طويلة . وبعد أن ناقشت نيقولا سيمينوفتش برهةً ، أعلنت له على حين فجأة أنني سوف أتكفل بالطفلة . فأخذ يعترض اعتراضات كثيرة ، بل أخذ يعترض اعتراضات فيها شيء من القسوة ، رغم رقة طبعه ، ثم ختم كلامه بمزاحة ، ولكنه أصر على رأيه بضرورة ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » . ومع ذلك جرى كل شيء كما أردت . كان يسكن في العمارة نفسها ، ولكن في جناح آخر ، نجار فقير جداً ، مسنٌ وسكّير . وكانت زوجته ، وهي امرأة شابة قوية ، قد فقدت منذ مدة قصيرة ولداً لها رضيعاً ، وكان الولد وحيدها الذي لم تنجب غيره بعد ثماني سنين من زواج عقيم ، وكان الولد بنتاً كذلك ، بل كان من المصادفات الغريبة ومن حسن الحظ أن اسم البنت المتوفاة كان آرينا أيضاً . أقول من حسن الحظ ، لأن هذه المرأة وقد عرفت بالنبأ بينما كنا نتناقش في المطبخ ، أسرعت تجيء الينا لترى ، فما ان عرفت أن الصغيرة اسمها آرينا حتى رق لها قلبها . وكان ثدياها لا يزالان يدران ،

فكشفت عن صدرها وأخذت ترضع الطفلة • فجثوت عند قدميها وابتهلت اليها أن تأخـذ البنت متعهداً بأن أدفع نفقات معيشتها كل شهر • فتساءلت هل يسمح لها زوجها بذلك • ولكنها أخذتها لتؤويها هذه الليلة على كل حال • حتى اذا كان الصبح سمح زوجها بحضانة الطفلة على أن يتقاضى ثمانية روبلات في الشهر • فنقدته على الفوز نفقات شهر سلفاً • فمضى يشرب بهـا خمـراً • وقد رضي نيقولا سيمينوفتش الذي كان لا يزال يبتسم ابتسـامة غريبـة ، أن يكفلني لدى الرجل متعهداً بأن لا أتخلف عن دفع المبلغ ـ وهو ثمانية روبلات ـ كل شهر • حتى لقد رفض أن أرهن لديه الستين روبلاً التي كانت معي • وكان يعرف على كل حال أن معي مالاً وكان يثق بي • فكان من شأن هذه البادرة اللطيفة منه أن محت ما حدث بيننا من فتور لحظة • ولم تقل ماريا ايفانوفنا شيئاً ، لكنها استغربت مني أن ارضى تحمل هذا الهم • واني لأشكر لهما كثيراً ما أظهراه كلاهما من رقة الذوق اذ لم يسمح أحد منهما لنفسه بأية مزحة في حقي ، حتى لقد نظـرا الى الأمـر نظرة فيها كل ما يليق ويحسن من جد • وأصبحت أثب الى عند داريا روديفونوفنا كل يوم ثلاث مرات ؛ وبعد أسـبوع نفحتها ثلاثة روبلات زيادة ، على أن يكون هذا المبلغ لها هي ، بغير علم زوجهـا • وبثلاثة روبلات أخرى اشتريت للطفلة غطاء وأقمطـة • ولـكن لم تمض عشرة أيام حتى مرضت الصـغيرة آرينـا • فاستدعيت لها الطبيب فوراً ، فوصف لها لا أدري أي دواء ، وقضينا الليلة كلها نعذب الطفلة المسـكينة بهذا الدواء اللعين • وجاء الطبيب في الغد فقال ان الأوان قد فات ، فلما أخذت أتضرع اليه ، وربما أخذت ألومه أيضـاً قال مترفعاً : « أنا لست الرب » • كان اللسـان الصغير والشفتان الصغيرتان والفم كله قد غطاها طفح أبيض دقيق • وما أن جاء المساء حتى ماتت آرينا وهي تحدق الي بعينيها الواسعتين السوداوين كأنما كانت تدرك وهي في تلك السن • لا أدري لمـاذا لم يخطـر ببـالي أن التقط للميتة

الصغيرة صورة فوتوغرافية • على كل حال •• هل تصدقون أنني ما بكيت في ذلك المساء بكاءً ، وانما طفقت أعول عويلاً ، وذلك أمر لم أسمح به لنفسي من قبل في يوم من الأيام قط ! حتى لقد اضطرت ماريا ايفانوفنا أن تعزيني • ومرةً أخرى لم يشتمل موقفها ولا موقف زوجها على أي شيء من سخرية • وقد تولى النجار بنفسه صنع التابوت الصغير • وزينته ماريا ايفانوفنا ببعض الدانتيل ، ووضعت فيه وسادة صغيرة لطيفة • واشتريت أنا أزهاراً فنثرتها على الطفلة • وهكذا أُخذت زهرتي الصغيرة المسكينة ، زهرة الحقول ، التي لا أستطيع الى اليوم أن أنساها ، أصدقتم هذا أم لم تصدقوه • ولكن هذا الحادث الذي يكاد يكون مفاجئاً قد حملني بعد مدة قصيرة على التفكير ، بل حملني على التفكير جاداً كل الجد • صحيح أن آرينا لم تكلفني مالاً كثيراً : فنفقات التابوت ، والدفن ، والطبيب ، والأزهار ، وأجر داريا روديفونوفنا ، لم تزد على ثلاثين روبلا • وحين سافرت الى بطرسبرج استعدت هذا المبلغ توفيراً من الأربعين روبلاً التي أرسلها الىَّ فرسيلوف للرحلة ، وربحاً من بيع عدد من الأشياء الصغيرة ، فبقي « رأسمالي » سليماً كأنه لم يمس • ولكنني قلت لنفسي : « اذا انحرفت انحرافات أخرى من هذا النوع ، فلن أمضي الى بعيد » • ان حكاية الطالب قد برهنت على أن « الفكرة » يمكن أن تشوش الادراكات الحسية وأن تذهل المرء عن النشاط الواقعي • أما حكاية آرينا فانها تبرهن على نقيض ذلك : تبرهن على أنه ما من « فكرة » تستطيع أن تبلغ من فتن المرء (من فتني أنا على الأقل) حدّ منعه من التوقف فجأة أمام حادث محزن ، والتضحية بكل ما قام به خلال سنين من عمل في سبيل « الفكرة » • ان النتيجتين كلتيهما صحيحة •

الفصل السادس

١

لم تتحقق آمالى تحققاً كاملاً • كان فرسيلوف غائباً • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت عند أمى ، وهى رغم كل شيء غريبة • فسرعان ما تبدد نصف ما كان يملأ نفسى من استعدادات حسنة كريمة • غريب أمرى : ما أسرعنى الى التغير والتبدل فى مثل هذه الظروف : تكفى ذرة غبار أو شعرة حتى يزول صفاء مزاجى ويحل محله الكدر • ومن سوء الحظ أن مشاعرى السيئة أقل سرعة الى التبدد ، رغم أننى لست بالحقود • حين دخلت لاحظت أن أمى كانت قد أسرعت تقطع الحديث الذى يجرى بينها وبين تاتيانا بافلوفنا والذى كان واضحاً أنه حديث حام • وكانت أختى قد رجعت من عملها قبل وصولى بدقيقة واحدة ، ولما تعد الى الخروج من غرفتها بعد •

ان الشقة تضم ثلاث حجرات : الحجرة التى يلتئم فيها شمل الجميع كما جرت العادة ؛ والحجرة الوسطى أو الصالون وهى حجرة واسعة سعة كافية وتكاد تكون لائقة ، ففيها دواوين حمراء طرية ـ لكنها مهترئة بعض الاهتراء ـ (كان فرسيلوف لا يطيق الأغطية الواقية) ، وفيها بضع سجادات وعدة طاولات واسكملات لا فائدة منها ؛ ثم غرفة

فرسيلوف التى تقع على اليمين ، وهى غرفة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة ، فيها مكتب حقير ألقيت عليه عدة كتب مهجورة وأوراق منسية ، وأمام الطاولة مقعد رخو لا يقل عنها حقارة قد نفذ نابضه المكسور فانتصب في الهواء ، وذلك ما كان يحمل فرسيلوف على التشكى والأنين والتجديف • وفى تلك الغرفة نفسها انما جعل له سرير على ديوان رخو مهترئ أيضاً • ولقد كان فرسيلوف يكره هذا المكتب ، وأظن أنه كان لا يستعمله أبدا ، وانما يؤثر أن يبقى فى الصالون ساعات كاملة بغير عمل • وعلى يسار الصالون توجد غرفة صغيرة مماثلة تماماً كانت تنام فيها أمي وأختى • وسبيل الوصول الى الصالون دهليز يؤدى الى المطبخ الذى تسكن فيه الطباخة لوكيريا • فاذا كانت لوكيريا تعمل انتشرت رائحة فضلات طعام فى الشقة كلها • فكان يتفق لفرسيلوف فى بعض اللحظات أن يلعن حظه وحياته كلها بصوت عال بسبب روائح المطبخ هذه ، وكنت أنا من هذه الناحية على الأقل أوافقه كل الموافقة • اننى أكره هذه الروائح أنا أيضاً ، رغم أنها كانت لا تصل الىّ حينذاك ، فلقد كنت أسكن فى أعلى ، فى حجرة تحت السقف أصعد اليها على سلم شديد الصرير ، وعر وعورة فظيعة • وكان من طرائف هذه الحجرة التى أسكنها أن لها كوة صغيرة بيضوية الشكل ، وسقفاً واطئا الى حد رهيب ، وأن فيها ديواناً مغطى بقماش مشمع كانت لوكيريا تغطيه فى المساء بشرشف وتضع عليه مخدة • أما باقى الأثاث فهو شيئان : طاولة من ألواح خشبية لا أكثر ، وكرسى خاسف من خيزران •

الحق أن الشقة كانت لا تزال تضم رغم ذلك بقايا شيء من رخاء زال الآن : ففى الصالون مثلاً يوجد مصباح جميل من الخزف ، وقد علقت بالحائط صورة رائعة لـ « مادونا » درسدن ؟ وأمام الصورة ، على الحائط الآخر ، صورة فوتوغرافية كبيرة جداً ، تمثل الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسة • وفى هذه الغرفة نفسها علقت فى ركن من

الأركان خزانة أرفف عليها أيقونات قديمة تملكها الأسرة : فاحدى هذه الأيقونات (وهى أيقونة جميع القديسين) كانت مكسوة بفضة مذهبة ـ وهذه هى الأيقونة التى كان يراد رهنها ـ والأيقونة الثانية (أيقونة العذراء) كانت مكسوة بمخمل مطرز بلآلىء . وأمام هذه الصور كان يوجد مصباح يشعل فى عشيات الأعياد . ولقد كان واضحاً أن فرسيلوف لا يحفل بهذه الأيقونات من حيث دلالتها : فهو يكتفى بتقطيب حاجبيه محاولاً ضبط نفسه حين يرى نور المصباح تعكسه الزخرفات المذهبة ، متشكياً فى رفق من أن ذلك يضر بنظره ، لكنه كان لا يمنع أمى من اشعال المصباح .

ولقد كنت أدخل فى العادة متجهم الوجه ، موجهاً بصرى الى ركن من الأركان ، حتى دون أن أحيّى . وكنت أعود الى البيت دائماً قبل هذه الساعة وكانوا يأتوننى بطعامى الى فوق . أما هذه المرة فاننى حين دخلت قلت لأمى فجأة : « يومك سعيد يا ماما ! » ، وذلك ما لم يكن يحدث أبداً من قبل . ولكننى بنوع من الخجل الزائف لم أستطع حتى فى هذه المرة أن أنظر اليها ، وجلست فى الزاوية المقابلة من الغرفة . كنت متعباً جداً ، ولكننى كنت لا أفكر فى ذلك .

قالت تاتيانا بافلوفنا هامسةً :

ـ هذا القليل الأدب لا يزال يدخل عليك دخولاً وقحاً كما كان يفعل من قبل .

وكانت تاتيانا بافلوفنا تبيح لنفسها أن تقول كلمات جارحة من هذا القبيل ، حتى لقد أصبح ذلك نوعاً من العادة بينى وبينها .

أجابت أمى تقول وكأنها قد طاش صوابها من تحيتى لها :

ـ يومك سعيد ! ...

وأضافت بما يشبه اضطراب الخجل :

ـ العشاء مهيأ منذ مدة طويلة • آمل أن لا يكون الحساء قد برد • أما الكستليتات فسآمر بها فوراً •

وهمت أن تنهض مسرعة لتذهب الى المطبخ • فشعرت ـ ربما لأول مرة منذ شهر ـ بخجل مفاجيء من رؤيتها تسارع الى خدمتي هذه المسارعة كلها ، على حين أنني كنت الى ذلك اليوم أطالبها بذلك بنفسي مطالبة •

قلت لها :

ـ أشكرك يا ماما ، لقد تعشيت • فلا تزعجي نفسك • وسأبقى هنا •

ـ آ •• طبعاً •• ابق !

ـ ولا تقلقي يا ماما ، فلن أقول لآندره بتروفتش بعد الآن كلمات فظة •

كذلك أعلنت لها فجأة •

فهتفت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ الله الله ••• يالنبل والشهامة ! عزيزتي صونيا ، هل يعقل أن تظلي تخاطبينه بصيغة الجمع ؟ من هو حتى يستحق هذا التكريم ••• من أمه ؟ ثم ما هذا ؟ ما لي أراك مضطربة أمامه ؟ هذا مخجل !

قلت :

ـ سيسرني أنا نفسي أن تخاطبيني بصيغة المفرد يا ماما !

فأسرعت أمي تقول :

ـ آ •• طيب •• اتفقنا •• ذلك أن • ولكن لا في جميع المرات • ابتداءً من اليوم ، اتفقنا •

واحمرت احمراراً شديداً • ان وجهها في بعض الأحيان

فتان •• وجه طيب •• لكنه ليس ساذجاً البتة •• وجه شاحب قليلا • هو وجه انسان مصاب بفقر الدم • خداها نحيلتان جداً ، بل خاسفتان ؛ وقد أخذت تتراكم على وجهها غضون كثيرة ، ولكن الغضون لم تظهر حول عينيها بعد • وهاتان العينان ، الواسعتان المنفتحتان ، تلتمعان دائما ببريق ناعم هادىء جذبني منذ أول يوم • والشيء الذي كنت أحبه أيضاً هو أن وجهها ليس فيه شيء من حزن أو مذلة • بالعكس : كان تعبير وجهها يمكن أن يعد جذلاً لولا أنه متخوف غالباً بدون أي سبب على الاطلاق في بعض الأحيان • انها ترتاع حتى لقد ترتجف أحياناً لأمر تافه كل التفاهة ، واذا أصغت الى حديث جديد كانت تصغي مذعورة ، الى أن تقتنع اقتناعاً تاماً بأن الأمور لا تزال تجري مجرى حسناً كالعادة • وكانت جملة « كل شيء يجري مجرى حسنا » ترادف في ذهنها أن « كل شيء لا يزال يجري كما كان » • كل ما يهمها هو أن لا يحدث تغير ، كل ما يهمها هو أن لا يقع جديد ، وان يكن هذا الجديد سعيداً ! ••• في وسع المرء أن يتصور أنها قد خوفت في طفولتها تخويفاً رهيباً • وعدا العينين كنت أحب فيها بيضوية وجهها أيضاً ، حتى لأظن أنها لو كانت وجنتاها أقل عرضاً بقليل ، لكان يمكن أن تعد جميلة ، لا في شبابها فقط ، بل اليوم أيضاً • ان عمرها لا يزيد على تسعة وثلاثين عاماً ، ولكن شعرها الكستناوي قد خالطه بياض كثير منذ الآن •

نظرت الى تاتيانا بافلوفنا باستياء قاطع وقالت لأمي :

ـ أترتعدين هذا الارتعاد أمام ولد تافه من هذا النوع ؟ انك مضحكة يا صوفيا ! لسوف تثيرين غضبي وحنقي !

ـ آه ••• تاتيانا بافلوفنا ، لماذا تقسين عليه هذه القسوة ؟ ولكنك تمزحين ، أليس كذلك ؟

أضافت أمي هذا السؤال الأخير اذ لاحظت في وجه تاتيانا بافلوفنا نوعاً من التبسم • صحيح أن تقريعات تاتيانا لا يمكن أن يعبأ بها كثيراً ،

ولكنها كانت تبتسم هذه المرة لأمي وحدها (ان كانت قد تبسمت) ، لأنها كانت تحب طيبة أمي حباً شديداً ، ولأنها لاحظت حتما ما بعثه خضوعي في نفس أمي من سعادة كبيرة في تلك اللحظة .

قلت مخاطباً تاتيانا بافلوفنا :

ـ انك تهجمين على الناس هجوما فيه شيء من الخشـونة ، وكان هجومك عليّ أنا اليوم في غير محله يا تاتيانا بافلوفنا . هجمت على وأنا أقول حين دخولي : « يومك سعيد يا ماما ! » . حظي سيء حقاً .

فسرعان ما انفجرت تقول :

ـ اسمعوا هذا الكلام ! انه يعد ذلك مأثرة منه ! هل يجب علينـا اذن أن نركع أمامك لأنك كنت مهذباً مرة في حياتك ؟ بل هل كنت مهذباً بالفعل ؟ لماذا تنظر الى ركن الغرفة حين تدخل ؟ أتظن أنني لا أعـرف مدى ما تشعر به من غيظ تجاهها ؟ وكان في وسعك أن تحييني أنا أيضاً . لقد كنت أتولى تقميطك ، وأنا عرابتك !

ولم أتنازل فأرد عليها طبعاً . ودخلت أختي في تلك اللحظة ،فقلت لها فوراً :

ـ رأيت اليوم فاسين يا ليزا . وقد سألني عنك ؟ هل تعرفينه ؟

فأجابتني ببسـاطة كبيرة وهي تجلس الى جانبي وتلقي عليّ نظـرة لطيفة :

ـ نعم ، منذ لوغا ، في السنة الماضية .

لا أدري لماذا كان يبدو لي أنها ستنفجر حين أكلمها عن فاسين .

ان أختي شـقراء ، شقراء شقرةً زاهية . شعرها ليس كشعر أبي ولا كشعر أمي . ولكن عينيها تكادان تكونان عيني أمي ، وكذلك وجهها

البيضوى . أنفها مستقيم صغير متسق . وهناك خاصة أخـرى : ان فى وجهها بقع حمرة ، وذلك ما لا تجده في وجه أمي . من فرسيلوف ليس فيها شيء ، ربما باستثناء القامة الممشوقة الحلوة ، وشيء من فتنة في المشية لا أدرى ما هى ! أما أنا فليس بينى وبينها أى شبه : بل نحن نقيضان .

أضافت ليزا تقول :

ـ عرفتهم ثلاثة أشهر .

ـ هل عن فاسين تقولين عرفتهم ؟ يجب أن تقولى عرفته لا عرفتهم؟ اغفرى لى أننى أصحح لك خطأك ، ولكن يؤلمنى أن يكون أمر تعليمك قد أهمل كل هذا الاهمال .

فانفجرت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

ـ عيب عليك أن تبدى هذه الملاحظة بحضور أمك . ثم ان هـذا غير صحيح . ان ليزا لم يهمَل أمر تعليمها أبداً .

فقلت بلهجة جازمة :

ـ أنا ما عنيت بهذا أمي . اعلمى يا ماما أن رأيى فى ليزا كرأيى فيك . لقد جعلت منها رائعة من روائع الطيبة والنبل ، فهى تذكّر حتما بما كنت عليه أنت في الماضى ، وبما لا تزالين عليه ، وبما ستظلين عليه الى الأبد ... وانما أنا عنيت بكلامى ذلك الطلاء الخارجى الاجتماعى الذى أعرف أنه تافه ولكنه ضرورى .

وتابعت كلامى مخاطباً أختى :

ـ اننى ليسوءنى أن يسـمعك فرسيلوف قائلة عن فاسين « هم » بدلاً من « هو » ، ثم لا يصحح لك خطأك من شـدة تعاليه علينا وقلة اكتراثه بنا . ذلك هو ما يحنقنى .

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول وهى ترشقنى بنظرة صاعقة :

ـ انظروا الى هذا الدب يتصدى لتعليم غيره الآداب ! حذار ياسيد أن تقول بعد اليوم « فرسيلوف » بحضورى أنا . فلن أطيق ذلك !

ـ ماما ، قبضت اليوم أجرى خمسين روبلاً . فخذيها ، أرجوك . هى ذى !

قلت هذا لأمى وتقدمت منها ماداً اليها المال ، فسرعان ما ظهر عليها الارتياع ، ثم قالت وكأنها تخشى حتى أن تمسه بيدها :

ـ ولكن ... ولكننى لا أدرى كيف آخذ هذا المال !

فلم أفهم . وقلت :

ـ ولكن يا ماما اذا كنتما تعدانى ابناً وأخاً ، فعندئذ ...

ـ آه ... اننى مذنبة فى حقك يا آركادى . هناك أشياء يجب أن أعترف لك بها ، ولكننى شديدة الخوف منك ...

قالت ذلك وهى تبتسم ابتسامة خجلى ضارعة . فلم أفهم أيضاً وقاطعتها قائلاً :

ـ بالمناسبة ، هل تعلمين يا أمى أن القضاء قد فصل اليوم فى قضية آندره بتروفتش وآل سوكولسكي ؟

فهتفت من الذعر تقول وهى تعقد ذراعيها على صدرها ، وتلك حركة مألوفة فيها :

ـ نعم أعلم .

وارتعشت تاتيانا بافلوفنا ارتعاشاً شديداً ، وقلت تسأل :

ـ اليوم ؟ مستحيل . لو أن الحكم قد صدر لأعلمنى بذلك .

ثم أضافت وهى تلتفت الى أمى :

ـ هل أبلغك أنت ؟

ـ لا ، لم يكلمنى اليوم • ولكننى خائفة خوفاً شديداً منذ أسبوع كامل ••• ألا فليخسر القضية على شرط أن تتخلص من هـذا الأمر ويجرى كل شيء كما كان يجرى •

فهتفت أسأل أمي :

ـ اذن لم يبلغك أنت أيضاً ؟ يا له من رجل عجيب ! هذا مثال على شدة تعاليه وقلة اكتراثه • ألم أقل لكم ذلك منذ قليل ؟

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تسأل :

ـ ولكن ماذا كان الحكم ؟ ماذا كان الحكم ؟ هلا قلت أخيراً !

ـ ولكن ها هو ذا بنفسه قد وصل ، فلعله يطلعنا على ما حدث •

كذلك أعلنتُ اذ سمعت وقع خطاه فى الدهليز ، وأسرعت أجلس بقرب ليزا من جديد ، فقالت لى ليزا هامسة :

ـ أخى ، ناشدتك الله •• ارحم ماما ••• اصبر على آندره بتروفتش •

ـ سأصبر • على هذه النية انما عدت •

وشددت على يدها • فرشقتنى ليزا بنظرة ليس فيها اطمئنان •وكانت على حق •

٢

دخل فرسيلوف راضياً عن نفسه مسروراً بها ، حتى انه لم يجد أن من الضرورى أن يخفى ذلك • وقد اعتاد فى الآونه الأخيرة على كل حال أن يكشف عن نفسه وأن يظهر على حقيقته بدون أى كلفة أو تحرج لا فى لحظات اعتكار مزاجه فحسب ، بل فى نوبات مرحه أيضاً ، وذلك أمر يتهيبه كل انسان أكثر ما يتهيب • وكان يعلم مع ذلك حق العلم أننا نستطيع فى مثل هذه الحالات أن نفهم كل شىء حتى أدق التفاصيل • لقد أصبح يهمل هندامه اهمالاً شديداً فى هذه السنة الأخيرة ، كما لاحظت ذلك تاتيانا بافلوفنا : صحيح أنه يرتدى دائماً ملابس لائقة،ولكنها ملابس عتيقة بغير أناقة • أصبح مستعداً لأن يلبس قميصاً واحداً مدة عشرة أيام ، وكان هذا يحزن أمى حزناً شديداً ، ولكنه يُعدُّ فى المنزل تضحية منه وبطولة ، وكانت تلك الجمهرة كلها من النساء المخلصات يرين فيه مأثرة ومكرمة • ان قبعاته رخوة سوداء عريضة الحافات دائماً • وكان اذا خلع قبعته نزلت على جبينه خصلة من شعره الذى كان شديد الكثافة والغزارة وانما يخالطه بياض كثير • وكنت أنا أحب أن أنظر الى شعره حين يخلع قبعته •

ـ يومكم سعيد • أرى الشمل ملتئما فليس أحد غائباً • وحتى هذا أراه معكم • لقد سمعت صوته وأنا فى المدخل • لا شك أنه كان يقول فىّ سوءاً ، أليس كذلك ؟

كان اذا مزح فى حقى يدل بذلك على أنه رائق المزاج • ولم أجب طبعاً • وعادت لوكيريا وهى تحمل كيساً ممتلئاً بمشتروات ووضعته على الطاولة •

ـ انتصرت يا تاتيانا بافلوفنا ! ربحت الدعوى ولن يجرؤ الأمراء سوكولسكي أن يلجئوا الى محكمة النقض والابرام • أصبحت القضية في الجيب ! ولقد وجدت من يقرضني ألف روبل حالاً • صوفيا ، اتركي شغلك هذا ، لا تتعبي عينيك • ليزا ، أأنت عائدة من العمل ؟

فأجابت ليزا وقد لاح في وجهها الحنان :

ـ نعم يابابا •

لقد كانت ليزا تسميه بابا • أما أنا فلم أستطع أن أذعن لهذا في يوم من الأيام •

ـ أأنت تعبانة ؟

ـ نعم •

ـ اتركي هذا العمل ، لا تذهبي اليه غداً، اهجريه هجراً تاماً •

ـ ولكن ترك العمل سيضايقني مضايقة أكبر •

ـ أرجوك ••• انني أكره النساء اللواتي يعملن يا تاتيانا بافلوفنا •

ـ وكيف تعيش بغير عمل ؟ امرأة لا تعمل ! •••

ـ أعرف ، أعرف ••• هذا الكلام كله حسن ، وأنا موافق عليه سلفاً • ولكن ما أعنيه انما ينصرف خاصةً الى أشغال الخياطة والتطريز وما الى ذلك مما تقوم به السيدات ••• وهذا يرجع الى احساس من أحاسيس الطفولة هو من آلمها في نفسي ، بل قولوا هو من أكثرها ايغالا في الخطأ • ففي ذكرياتي الغامضة عن العهد الذي كانت سني فيه خمسة أعوام أو ستة ما أزال أرى في أكثر الأحيان ، بشيء من الاشمئزاز طبعاً ، مجمعاً من النساء أشبه بمجمع كرادكة قد جلسن الى مائدة مستديرة عابسات الوجه متجهمات الهيئة ، وأرى مقصات وأقمشة و « بترونات » وصور موضة ، وأرى هذه النساء كلها تناقش وتجادل ، هازةً رءوسها بوقار وبطء وهي تقيس وتحسب وتتهيأ للقص • ان جميع تلك الوجوه الأنيسة

التي تجنى كثيرا قد أصبحت لا أستطيع الاقتراب منها على حين فجأة • واذا ارتكبت أى عمل من أعمال العفرتة التي يقوم بها الأطفال ، طردت على الفور • حتى أمى المسكينة تمسكنى من يدى وتكف عن الاســـتجابة لصراخي وتبرمى لكنها كلها أعين وآذان أمام الشغل الذى هى منصرفة اليه ، فكأنها تتأمـل طائراً من الجنة • فتلك القســوة فى الوجوه الذكية ، وتلك الرصانة فى الهيئة قبل القص ، لا تزال تؤلمنى الى الآن حين أفكر فيها • تاتيانا بافلوفنا ، انك تحبين الخياطة حباً شديداً ! أما أنا فأننى أوثر للمرأة أن لا تعمل شــيئاً البتة ، مهما يكن هذا ارســتقراطياً • لا يذهبن بك الظن الى أننى أعنيك أنت يا صوفيا ••• ولكن علام العمل ؟ ليست المرأة فى حاجة الى العمل من أجل أن تكون قوة كبرى • ثم انك يا صوفيا تعرفين هذا أيضاً • ما رأيك يا آركادى ماكاروفتش ؟ لا شك فى أنك ستعترض ، أليس كذلك ؟

أجبت قائلاً :

ـ لا ، أبداً • هذا تعبير رائع : المرأة قوة كبرى • ولكننى لا أرى لماذا تربط بين هذا الأمر وبين الأشــغال التي تقوم بها السيدات ! ثم انك تعرف بنفسك أنه يستحيل على المرء أن يعيش بدون عمل اذا كان لا يملك مــالاً •

ـ كفى الآن !

قال هذا والتفت الى أمى التى كانت مشرقة الوجه أيما اشراق ، على حين أنها ارتعدت حين اتجه الىَّ بالكلام •

واصل كلامه فقال :

ـ فى الآونة الأولى على الأقل ، لا أريد أن أرى شغلاً هنا ! لنفسى انما أطلب منكم هذا • أما أنت يا آركادى ، فلا بد أن تكون اشتراكيــاً بعض الشىء ، من حيث أنك شاب من هذا العصر • ولكن هل تصــدق

يا صديقي أن الذين يحبون الفراغ أكثر من سائر الناس انما هم أبناء الشعب هؤلاء ، أبناء هذا الشعب الذي لا يكف عن العمل ٠

ـ لعلهم يحبون الراحة ، لا الفراغ

ـ بل الفراغ ، الكسل المطلق ، ذلك هو مثلهم الأعلى ! لقد عرفت واحداً من هؤلاء الذين لا يكفون عن العمل ، ولم يكن من أبناء الشعب على كل حال ، وكان رجلاً مثقفاً يحسن التفكير ٠ فصدقني اذا قلت لك انه كان يحلم بالفراغ الكامل والبطالة التامة كل يوم تقريباً ، ويجد فى هذا الحلم لذة عظيمة ومتعة كبيرة ٠ حتى لقد كان يمضي بهذا المثل الأعلى الى تخوم المطلق ان صح التعبير ، الى الاستقلال الذي لا حدود له ، الى الحرية المستمرة في الانقياد للحلم والتأمل خالياً من كل عمل ٠ وقد لازمه هذا الى اليوم الذي تحطم فيه تحطماً من العمل ، حتى صار يستحيل على أحد أن يقفه ثانية على قدميه ، ومات فى المستشفى ٠ فاستخلصت من ذلك جاداً كل الجد أن فكرة مباهج العمل انما اخترعها أناس عاطلون عن العمل ، أناس فضلاء طبعاً ٠ هذه فكرة من « افكار جنيف » فى نهاية القرن الماضي ٠ آ ٠٠٠ تاتيانا ايفانوفنا ، لقد قصصت من الجريدة أمس الأول اعلاناً ٠ اليك الاعلان ٠٠

قال ذلك مخاطباً تاتيانا بافلوفنا وأخرج من جيب صديرته قطعة من ورق ٠ وتابع كلامه فقال :

ـ هذا واحد من أولئك « الطلبة » الأبديين الذين يعرفون اللغات القديمة والرياضيات ويعلنون عن استعدادهم للسفر الى الأرياف ، للذهاب الى شونة ، للرحيل الى أي مكان ٠ اسمعوا هذا الكلام : « معلمة تحضر التلاميذ لدخول جميع مؤسسات التعليم (هل تسمعون ؟ جميع مؤسسات التعليم) ، وتعطي دروساً فى الحساب » ٠ هو سطر واحد ، لكنه كلاسيكي ٠ انها تحضر لجميع مؤسسات التعليم : يبدو للمرء أن الحساب داخل في هذا ٠ ولكن لا ٠ انها تذكر الحساب على حدة ٠ ذلك هو الجوع

حقاً ، تلك هي آخر درجة من درجات البؤس • ان هذه الخرافة هي التي تؤثر في نفسي : طبعاً ، هي لم تكن معلمة في يوم من الأيام ، وهي عاجزة عن تعليم أي شيء • ولكن لا سبيل : يجب أن تحمل الى الجريدة آخر روبل تملكه ، وأن تعلن أنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم ، وأنها عدا ذلك تعطي دروساً في الحساب • « في العالم كله وفي أماكن أخرى » (بالايطالية) •

هتفت تاتيانا يافلوفنا تقول :

ـ آندره بتروفتش ، يجب أن نساعدها • أين تقيم ؟

ـ هوه ! ما أكثرهم !

ودس العنوان ثانية في جيبه • ثم استأنف كلامه فقال :

ـ في هذه الصرة هدايا لك يا ليزا ، ولك أنت يا تاتيانا يافلوفنا • أنا وصوفيا لا نحب الحلويات • ولك أنت أيضاً يا فتى ! اخترت كل شيء بنفسي من عند ايلسياف و باليه • لقد طالما «متنا جوعاً » ، كما تقول لوكيريا (ملاحظة : لم يمت أحد من الجوع عندنا في يوم من الأيام) • ههنا عنب وسكاكر و تفاح وفطيرة بالفراولة • بل لقد اشتريت خمرة رائعة • واشتريت بندقاً كذلك • غريب بقاء ولعي بالبندق من الطفولة حتى الآن يا تاتيانا يافلوفنا • وليزا مثلي • هي أيضاً تحب قضم البندق حباً شديداً كسنجاب صغير • ذكريات لذيذة يا تاتيانا يافلوفنا : انني أرى نفسي في بعض الأحيان طفلاً أتجول في الغابة وأقطف بندقاً • الفصل يوشك أن يكون خريفاً ، ولكن الأيام مضيئة ، والجو بارد أحياناً ، وأوغل في أعماق الغابة ، وأطوف في أبعد أرجائها ، وأتنسم رائحة أوراق الشجر العطرة • انني أرى في نظرتك شيئاً لطيفاً محبباً يا آركادي ماكاروفتش !

ـ أنا أيضاً قضيت في الريف أولى سني طفولتي •

ـ كيف ؟ يخيل الى عكس ذلك••• يخيل الى أنك عشت بموسكو، اللهم الا أن أكون مخطئاً •

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة :

ـ عند آل آندرونيكوف ، كان يعيش بموسكو ، حين وصلت أنت اليها • لكنه قبل ذلك كان عند المرحومة عمتك بربارا ستيبانوفنا فى الريف •

ـ خذى يا صوفيا ، اليك هذا المال ، أمسكيه ! لقد ُوعدت بخمسة آلاف فى غضون بضعة أيام •

ـ ألم يبق للأمراء أى أمل ؟

ـ اطلاقاً يا تاتيانا بافلوفنا •

ـ لقد أحببتك دائماً يا آندره بتروفتش ، وأحببت جميع ذويك ؛ كنت صديقة الأسرة دائماً • ولكننى مهما أكن غريبة عن الأمراء ومهما يكونوا غرباء عنى ، أظل أشفق عليهم • أحلف لك • لا تزعل يا آندره بتروفتش !

ـ لا أنتوى أن أقاسمهم يا تاتيانا بافلوفنا •

ـ أنت تعرف رأيى يا آندره بتروفتش • لقد كان يمكن أن يتنازلوا عن الدعوى لو أنك عرضت عليك الاقتسام منذ البداية • أما الآن فقد فات الأوان طبعاً • وما أقوله أنا انما أبنيه على اعتقادى بأن المتوفى ما كان يمكن أن ينساهم فى وصيته •

ـ ما كان يمكن أن ينساهم طبعاً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول ما كان يمكن الا أن يورثهم كل شىء • ما كان يمكن أن ينسى أحداً الا أنا لو أنه طبق القواعد وحرر الوصية كما يجب • ولكن القانون معى الآن • انتهى الأمر • فلا أستطيع أن أقاسم ، ولا أريد أن أقاسم يا تاتيانا بافلوفنا • لقد ُبتَّ فى القضية •

قال هذه الكلمات فى غضب وضيق ، وذلك شيء كان يندر أن يبيحه لنفسه . فصمتت تاتيانا بافلوفنا . وخفضت أمى عينيها على شيء من الحزن: كان فرسيلوف يعلم أنها تؤيد كلام تاتيانا بافلوفنا .

حدثت نفسى قائلاً لها : « هذه صفعة مدنية امس » . وفكرت أيضاً فى الوثيقة التى أسلمنى اياها كرافت والتى كانت معى فى جيبى ، وفكرت فى المصير القاسى الذى ستئول اليه لو وقعت فى يديه . وأحسست فجأة بأننى ما زلت أحمل هذه القضية كلها على ظهرى . فكان من شأن هذا الاحساس ، بالاضافة الى سائر ما عداه ، أن أشعل نيران غضبى .

ـ آركادى ، أريد أن تكون ملابسك أحسن مما هى الآن ياصديقى. ما هى الآن رديئة طبعاً . ولكن لعلك ستسمح لى فى المستقبل أن أوصى بك خياطاً فرنسياً حاذقاً صاحب ذوق رفيع .

فانبريت أقول بخشونة :

ـ أطلب منك أن لا تعرض علىّ عرضاً كهذا فى يوم من الأيام .

ـ لماذا ؟

ـ لست أرى فى هذا شيئاً من المذلة طبعاً ، ولكننا لسنا على وفاق تام ، بل لعلنا على خلاف شديد . وفى الأيام القريبة ... بل غداً ... سأنقطع عن الذهاب الى الأمير ، لأننى لا أرى أن لى عنده عملاً أقوم به.

ـ ولكن ... أليس عملاً أن ترافقه فى نزهة أو أن تمكث الى جانبه ؟

ـ هذه أفكار فيها اذلال .

ـ لست أفهم . ثم ، اذا كنت حساساً الى هذا الحد ، فما عليك الا أن لا تأخذ منه مالاً ، مع استمرارك فى البقاء معه . لسوف تحزنه حزناً شديداً اذا انقطعت عنه . انه متعلق بك تعلقاً قويا منذ الآن . صدقنى!.. على كل حال ، لك ما تشاء ...

كان واضحاً أنه مستاء .

تقول ان في امكاني أن لا آخذ منه مالاً . ولكنني في هذا اليوم ارتكبت بسببك عملاً دنيئاً : لم تكن قد نبهتني فطالبته اليوم بمرتب الشهر .

ـ معنى هذا أنك أردت ذلك . أعترف لك بأنني لم أكن أظن أنك ستفعل . آ ... ما أحذقكم جميعاً في هذا الزمان رغم كل شيء . لم يبق شباب يا تاتيانا بافلوفنا .

كان شديد المرارة ، وكنت أنا كذلك . قلت :

ـ كان عليّ أن أصفيّ حسابي معك ... أنت الذي اضطررتني . والآن لا أدري ماذا أعمل .

ـ بالمناسبة يا صوفيا : ردي الستين روبلاً الى آركادي على الفور . وأنت يا صديقي لا تغضب من هذا السداد السريع . انني أحزر من النظر في وجهك أن في رأسك مشروعاً ما ، وأنك في حاجة الى رأس مال .. أو شيء من هذا القبيل .

ـ لا أدري عمّ يعبر وجهي ، ولكنني لم أكن أتوقع أن تحدثك أمي عن ذلك المبلغ بعد أن رجوتها أن لا تفعل .

ونظرت الى أمي ، وكانت عيناي تقدحان شرراً . لا أستطيع أن أصف مدى ما كان يضطرم في نفسي من غضب .

ـ آركاشا ، بنيّ ، سامحني ، ناشدتك الله . لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أحكي له ..

وقال فرسيلوف متجهاً اليّ :

ـ لا تؤاخذها يا صديقي على أنها كشفت لي عن أسرارك . ثم ان نيتها كانت حسنة : لقد أرادت الأم أن تتباهى بعواطف ابنها . ولكن

صدقني اذا قلت لك انني كنت أستطيع أن أحزر أنك رأسمالي بدون أن تحكي لي أمك شيئاً . ان جميع أسرارك مكتوبة على وجهك النزيه . ان له « فكرته » يا تاتيانا بافلوفنا ، كما سبق أن قلت لك ذلك .

أتممت كلامي ساخطاً أقول :

ـ دع وجهي النزيه . انني أعرف أنك تقرأ أفكار الناس في كثير من الأحيان ، رغم أنك في حالات أخرى لاترى ما هو أبعد من طرف أنفك . لقد أدهشني نفاذ بصيرتك دائماً . طيب ، ليكن . ان لي « فكرتي ». واضح أنك انما استعملت هذا التعبير مصادفة ، ولكنني لا أخشى من الاعتراف بأن لي « فكرتي » . نعم ، لي « فكرتي » . لست أشعر من ذلك لا بخوف ولا بخجل .

ـ لا تشعر بخجل خاصة !

ـ ومع ذلك لن أكشف لك عن « فكرتي » هذه في يوم من الأيام .

ـ معنى هذا أنك لا تعدني جديراً بأن تكشف لي عنها . ولكن لا جدوى يا صديقي ! انني أعرف جوهر فكرتك منذ الآن . هي على كل حال :

« أنسحب الى الصحراء »

يا تاتيانا بافلوفنا ، ان رأيي أنا هو أنه يريد أن يصبح روتشيلد ، أو شيئاً من هذا القبيل ، وأن يمضي معتصماً بعظمته . ولسوف يمن علينا أنا وأنت بمرتب يكفل لنا معيشتنا . قد لا يهب لي أنا شيئاً ، ولكن من المحقق أنه سيمر بنا كما يمر شهاب . سيكون كالقمر الطالع : ما ان يظهر حتى يختفي .

ارتعشت في قرارة نفسي . لاشك أن هذا مصادفة . انه لا يعرف شيئاً ، وهو يتكلم عن شيء آخر تماماً ، رغم أنه ذكر اسم روتشيلد .

ولكن كيف استطاع أن يحدد عواطفي هذا التحديد الدقيق كله : أنفصل عنهم ، وأنزوى ؟ لقد حزر كل شيء . وهو يريد أن يلطخ بسخريته ما في الأمر من عنصر المأساة . لقد كان غاضباً غضباً شديداً . ليس في ذلك شك .

قلت وأنا أحاول أن أضحك وأن أقلب كل شيء الى مزاح :

ـ اغفرى لى ما أظهرت من اندفاع وغضب منذ قليل يا ماما . واضح أن آندره بتروفتش قد أوتي موهبة النفاذ الى أسرار الناس ، فلا حيلة لنا في الأمر ، ولا نستطيع أن نخفي عنه أنفسنا .

ـ أحسن شيء يا عزيزى أنك ضحكت . لا تستطيع أن تتصور مدى ما تسبغه ضحكة جميلة على المرء من سحر وفتنة ، حتى من الناحية الجسمية . أقول هذا جاداً كل الجد يا تاتيانا بافلوفنا ، ان هيئته تنم دائماً عن أن في رأسه أمراً يبلغ من الخطورة أنه يشعر هو نفسه بخجل منه .

ـ أرجوك جاداً يا آندره بتروفتش أن تكون أكثر تحفظاً .

ـ انك على حق يا صديقي . ولكن كان لابد لى أن أقول هذا مرةً حتى انتهى منه ولا أعود اليه . انك لم ترجع من موسكو الا لتثور . ذلك ما نعلمه حتى الآن عن سبب مجيئك . وأما أنك جئت منتوياً أن تدهشنا بعمل يبهر الأبصار ، فذلك أمتنع حتى عن الاشارة اليه ، لأنه أمر طبيعي جداً . ثم انك منذ أن وصلت قبل شهر لا تكف عن الاستهزاء بنا والسخرية منا . وأنت مع ذلك رجل ذكى ، ففى وسعك أن تدع هذا الضحك وهذا التهكم لأولئك الذين لا يملكون الا هذه الوسيلة انتقاماً لتفاهتهم . انك مغلق دائماً ، مع أن مظهرك لائق وخدّيك المتوردتين تشهدان بأن في وسعك أن تنظر الى جميع الناس وجهاً لوجه ببراءة تامة . انه سوداوى يا تاتيانا بافلوفنا . لا أستطيع أن أفهم لماذا هم جميعاً سوداويون في هذا الزمان !

ـ اذا كنت تجهل حتى أين نشـــأت وربيت ، فأنّى لك أن تعرف لماذا أنا سوداوي ؟

ـ ذلك هو السر كله : أنت غاضـب لأنني نسيت أين نشـــأت وربيت !

ـ لا ، أبداً • لا تنسب الىّ حمـاقة كهذه الحمـاقة • يا ماما ، ان آندره بتروفتش قد هنـأني منذ لحظة بأنني ضحكت • فلنضحك اذن • علام نبقى متجهمين هذا التجهم ؟ هـل تحبون أن أقص عليكم حـكايات مضحكة عني ؟ لاسـيما وأن آندره بتروفتش لا يعرف شـيئاً عن مغامرات حياتي ؟

كنت أغلي وأفور • كنت أعلم أننـا لن نلتقي بعد الآن جميعاً كما نلتقي اليوم ، وأنني متى خرجت من هذا المنـزل فلن أعـود اليه أبداً • لذلك لم أسـتطع في عشـية ذلك كله أن أضبط نفسي • وقد حرص هو نفسه على الوصول الى هذه النتيجة • قال وهو يلقي عليّ نظرة ثاقبة :

ـ هذا لطيف ممتع ، بشرط أن يـكون مضحكاً حقاً ! لقد توحشت قليلاً يا صـديقي في ذلك المكان الذي نشـــأت وربيت فيه • على أنك ما تزال لائقاً رغم كل شيء • انه اليوم فاتن يا تاتيانا بافلوفنا ، ولقد أحسنت جداً اذ فضضت هذه الصرة •

ولكن تاتيانا بافلوفنا قطبت حاجبيها ، حتى انها لم تلتفت واستمرت تفض الصرة وترتب الهدايا في أطباق • وبقيت أمي حائرة مضطربة ، وكانت تدرك وتوجس أن الأمـور تجري مجرى سـيئاً • ومرةً أخرى لكزتني أختي بكوعها •

٣

بدأت أتكلم بهيئة طلقة فقلت :

ـ أريد أن أحكى لكم ببساطة كيف لقى أب ابنه العزيز أول مرة • وقد حدث هذا فى ذلك المكان نفسه « الذى نشأت وربيت فيه » •

ـ ولكن ألا ترى يا صاحبى أن هذا سيكون مملاً باعثاً على الضجر ؟ أنت تعلم أن « جميع فنون القصص ••» (بالفرنسية) •

فقاطعته قائلاً :

ـ لاتقطب حاجبيك يا آندره بتروفتش • ليس ما سأحكيه هو ما تظن •• أبداً ! ان غايتى هى أن أضحككم جميعا •

فقال بصوت اصطنع له طلاقة كاذبة :

ـ سمع الله منك يا عزيزى • أنا أعرف أنك تحبنا جميعاً ، وأنك •• لا تريد أن تعكر علينا صفو سهرتنا •

ـ لاشك أنك من وجهى انما حزرت أننى أحبكم ؟

ـ نعم ، من وجهك قليلاً ••

ـ وأنا حزرت من وجه تاتيانا بافلوفنا ، منذ مدة طويلة ، أنها مغرمة بى • لاترشقينى بنظرات قاسية هذه القسوة كلها يا تاتيانا بافلوفنا ! الضحك أفضل ! الضحك أفضل !

فالتفتت تاتيانا بافلوفنا الىّ بحركة مباغتة ، وتأملتنى ببصر نافذ مدة نصف دقيقة ، ثم قالت وهى تهددنى باصبعها :

ـ حذار !

وكانت تبلغ من الجد فى تهديدها أن ذلك لا يمكن أن يكون مرده الى مزحتى الحمقاء ، وانما هو نوع من الانذار فكأنها تقول : « أتراك تريد أن تبدأ ؟ » .

ـ آندره بتروفتش ، أأنت لا تتذكر اذن كيف التقينا فى الحياة أول مرة ؟

ـ أحلف لك اننى نسيت ، واستغفرك عن هذا صادقاً . كل ما أتذكره أن ذلك حدث فى زمان بعيد جداً .. ولست أدرى الآن أين تم اللقاء ..

ـ وأنت يا ماما ، هل تتذكرين متى كنت فى الريف ، فى القرية التى ربيت فيها حتى السنة السادسة أو السابعة من عمرى ؟ أأقمت فى تلك القرية فعلاً ، أم أننى فى الحلم انما بدا لى أننى رأيتك هناك أول مرة ؟ اننى منذ مدة طويلة أحب أن ألقى عليك هذا السؤال ، ولكننى كنت أتراجع دائماً . وقد حان الوقت الآن .

ـ كيف لا أتذكر يا صغيرى آركادى ! طبعاً أتذكر ! لقد جئت أزور بربارا ستيبانوفنا ثلاث مرات ؛ مرةً حين كانت سنك لا تكاد تبلغ عاماً واحداً ؛ ومرة حين كنت فى نحو السنة الرابعة من العمر ؛ ومرةً حين كنت قد تجاوزت العاشرة .

ـ ها .. نعم ! لقد ظللت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال طول هذه المدة !

احمرت أمى احمراراً شديداً من سيل الذكريات المباغت هذا ، وسألتنى بعاطفة حنون :

ـ هل يمكن حقاً يا صغيرى آركادى أن تتذكر زيارات أمك بعد انقضاء هذه المدة كلها ؟

ـ لا أتذكر شيئاً ، ولا أعرف شيئاً ، غير أنني قد بقي لي من وجهك شيء في قرارة قلبي طول حياتي ، وبقي لي عدا ذلك أنني عرفت أنك أمي . تلك القرية كلهـــا انما أراها اليوم كحلم من الأحـــلام . بربارا ستيبانوفنـا ، أتذكرها قليــلاً لأن خدّيها كانتا دائماً معصوبتين . وحول المنزل مازلت أرى أشجاراً كبيرة أظن أنها كانت أشجار زيزفون ، وأرى في بعض الأيام شمساً قوية تدخل من النوافذ المفتوحة ، وأرى مساكب أزهار وممر أشجار ، وأراك أنت يا ماما ، لكنني لا أراك رؤية واضحة الا في لحظة واحدة هي لحظة تناولي في كنيسة القرية التي حملتني فيها بين ذراعيك لأتنـاول القربان وأقبـل الكأس . كان ذلك في الصيف ، واجتازت القبةَ حمامه من نافذة الى أخرى ..

قالت أمي :

ـ رباه ! ما أصـدق هذه الذكريات ! وعقدت أمي ذراعيهـا على صدرها . وتابعت تقول :

ـ انني أتذكرها ، تلك الحمـامة . وقد تحـركت أنت في لحظـة التناول نفسها وصحت تقول : « الحمامة ، الحمامة ! » .

ـ ان وجهك ، أو شيئاً منه هو تعبير فيه ، قد بلغ من عمق الرسوخ في ذاكرتي أنني منــذ خمس سـنين عرفتك بموسكو فوراً وعرفت أنك أمي ، رغم أن أحـــداً لم يذكر لي ذلك . ثم سـُحبت من منـــزل آل آندرونيكوف بعد لقـائي الأول بآندره بتروفتش . كنت قـد مكثت عندهم زمنـاً طويـلاً في هدوء ومـرح ، خمسَ سـنين . انني أتـذكر أدق التفاصيل من بيتهم الذي يقع في أحد مباني الدولة ، وأتذكر جميع تلك السـيدات والآنســـات اللواتي هرمن اليوم هرماً شديداً ، أتذكر البيت زاخراً ، وأتذكر آندرونيكوف نفسه الذي كان يتولى بنفسه شراء المئونة من المدينـة ، وجلب الدواجن والأسـماك والخنازير الرضيعة ، وكان ينوب على المائدة مناب زوجته التي تصطنع الكبرياء فيسكب لنا الحساء

بنفسه • وكنا نتندر على هذا دائماً ، وكان هو بيننا أول المتندرين • هنـاك انما علمتني الفتيات اللغة الفرنسية ، ولكنني كنت أحب حكايات كريلوف خاصـة ، فحفظت منها عـدداً كبيراً على ظهـر القلب ، وكنت أنشـد آندرونيكوف واحدة في كل يوم : كنت أدخل مكتبه الصغير رأساً ، سواء أكان منهمكاً في عمل أم لا • وبسبب حـكاية من تلك الحـكايات انمـا تعارفنا يا آندره بتروفتش •• أرى أنك بدأت تتذكر •

ـ حقـاً •• أتذكر بعض التذكر يا عزيزي •• ماذا أنشـدتني حينذاك ؟ أحـكايةً من حـكايات كريلوف أم جزءاً من مسرحية « كثير من الفكر ضرر » ؟ ما أقوى ذاكرتك على كل حال ! ••

ـ لا فضل لي في تذكر هذه الأشياء : لقد ظلت ماثلةً في فكري على الدوام •

ـ عظيم ، عظيم ، يا صديقي ! حديثك يشوقني •

حتى لقد ابتسـم • وبعده ابتسـمت أمي وأختي • لقد عادت الطمأنينة ، الا الى تاتيانا بافلوفنـا التي كانت جالسـةً في ركن بعد أن رتبت الهدايا على الطاولة ، فقد ظلت ترشقني بنظـرة شـزراء • وتابعت كلامي فقلت :

ـ فاليكم القصـة : في ذات صـباح ، جاءت صديقة طفولتي ، تاتيانا بافلوفنا ، التي كانت تنبجس في حياتي على حين غرة دائماً ، جاءت تأخـذني من عند آل آندرونيـكوف • أركبوني عربة ، وأودعوني في منزل فخم من منازل الأسياد • كنت قد نزلت عند فاناريوتوفا يا آندره بتروفتش ، في المنزل الذي كان خالياً حينذاك ، وكانت قد اشترته منك في الماضي • كانت هي مسـافرة في الخـارج • وكنت ما أزال ألبس بلوزات • فألبسـوني هنـاك رداء لطيفاً أزرق وملابس داخلية ناعمة رقيقة ، دفعة واحـدة • وقضت تاتيانا بافلوفنـا النهار كله محتفيةً بي ،

واشترت لى أشياء كثيرة جداً • وأخذت أطوف فى الغرف الخالية ، وأنظر الى نفسى فى جميع المرايا • حتى اذا كان صباح الغد ، فى نحو الساعة العاشرة ، بينما كنت أتجول فى أرجاء البيت ، رأيتنى - لا أدرى كيف - أدخل مكتبك مصادفة • وكنت قد رأيتك بالأمس ، لحظة وصولى الى هذا المنزل ، ولكننى لم أرك الا عابراً ، وذلك على السلم • كنت أنت نازلاً لتركب العربة ذاهباً لا أدرى الى أين • كنت فى ذلك الوقت وحيداً بموسكو ، بعد غياب طويل جداً ، وكنت لا تريد أن تمكث الا وقتاً قصيراً ، فكنت تُطلب فى كل مكان ، فلا تكاد تبقى فى البيت أبداً • فلما صادفتنا أنا و تاتيانا بافلوفنا ، لم تزد على أن قلت : « ها ! » ، حتى دون أن تتوقف •

قال فرسيلوف مخاطباً تاتيانا بافلوفنا :

- انه يصف الواقعة بحب •

فأشاحت تاتيانا بافلوفنا وجهها دون أن تجيب •

- انى لأتصورك الآن كما كنت فى ذلك الحين جميلاً مزدهراً • ما أكثر ما دب اليك الهرم وما نالك من دمامة أثناء هذه السنين التسع ، اغفر لى صراحتى • ولقد كنت آنذاك فى السابعة والثلاثين على كل حال ، ولكننى كنت لا أتعب من النظر اليك • ما كان أجمل شعرك ! كان غزيراً ، أسود ، لامعاً ، لاتخالطه شعرة واحدة بيضاء • أما شارباك وعارضاك فكأنها من حسن الاتقان قد صنعها صائغ جواهر • لا أجد تعبيراً أفضل من هذا التعبير • وكان وجهك شاحباً كابياً ، لا شحوب المرض كشحوبه الآن ، بل •• بل كشحوب وجه ابنتك آنا أندريفنا التى شرفت برؤيتها منذ قليل • وكان فى عينيك حدة وحرارة وحلكة • وكانت أسنانك لامعة ، خاصةً حين تضحك • ذلك أنك انفجرت تضحك حين نظرت الىّ عند دخولى مكتبك • لم أكن أحسن تمييز الأشياء فى ذلك الأوان • فأبهجت ابتسامتك قلبى • كنت ترتدى فى ذلك الصباح سترة

من مخمل كحلى وتتدثر بوشاح أخضر ، وتلبس قميصاً مزداناً بتخاريم من آلانسون • وكنت واقفاً أمام المرآة ، ممسكاً بكتاب فى يدك ، منهمكاً فى استظهار وانشاد أقوال تشاتسكى ، ولاسيما صيحته الأخيرة :

عربتى ، عربتى

هتف فرسيلوف يقول :

ـ آ •• ما أصدق ما يذكر ! كنت قد رضيت ، رغم قصر اقامتى بموسكو ، أن أمثل دور تشاتسكى عند ألكسندرا بتروفنا فيتوفتوفا ، على مسرحها الخاص ، بسبب مرض يلايكو •

هتف تاتيانا بافلوفنا تسأله :

ـ ماذا ؟ أنسيت اذن ؟

ـ لقد ذكّرتنى • الواقع أن تلك الاقامة القصيرة بموسكو لعلها كانت أجمل أيام حياتى ! كنا جميعاً فى عز الشباب آنذاك •• كنا ننتظر كل شىء بحرارة شديدة • وقد التقيت فى موسكو عندئذ بعدد كبير من •• ولكن أكمل يا عزيزى ، أكمل ، لقد أحسنت ايما احسان هذه المرة اذ دخلت فى التفاصيل ••

ـ وكنت واقفاً أنظر اليك • فاذا أنا أصبح فجأة : « آ ••• رائع ! هذا هو تشاتسكى الحقيقى » ، فسرعان ما التفتّ وسألتنى : « أأنت تعرف تشاتسكى ؟ » ثم جلست على الديوان ، وأقبلت على قهوتك رائق المزاج جذلاً أشد الجذل • فذكرت لك حينذاك أن الجميع فى منزل آل آندرونيكوف يقرأون كثيراً ، وأن الآنسات يحفظن شعراً كثيراً على ظهر القلب ، وأنهن يمثلن فيما بينهن مشاهد من مسرحيات جريبويدوف ، وأننا طوال الأسبوع الماضى كنا نقرأ معاً فى المساء بصوت عال « أقاصيص صياد » ، وأننى أحب خاصة حكايات كريلوف وأحفظها على ظهر القلب ، فدعوتنى أن أنشدك شيئاً ، فأنشدتك على حكايته « الخطيبة الصعبة » :

فهتفت فرسيلوف من جديد :

ـ نعم ، نعم ، الآن تذكرت كل شيء ! ولكنني أتذكرك أنت أيضاً يا صاحبى . كنت فى ذلك الحين فتى لطيفاً ظريفاً ، كنت فتى صغيراً لذيذاً . يميناً لقد فقدت كثيراً أثناء هذه السنين التسع .

عندئذ ضحكت تاتيانا بافلوفنا نفسها . لقد كان واضحاً أن آندره بتروفتش كان يمزح ويثأر لنفسه مما قلته له أنا . وابتهج الجميع . لقد أحسن الرد على الغمز بمثله . وتابعت أنا سرد ذكرياتى فقلت :

ـ وفيما كنت أنا أنشد كنت أنت تبتسم . ولكن ان أنشدت نصف الحكاية حتى استوقفتنى وقرعت الجرس وأمرت الخادم الذى دخل فى تلك اللحظة بأن يدعو تاتيانا بافلوفنا . فسرعان ما جاءت تاتيانا بافلوفنا وقد بلغت هيئتها من التعبير عن شدة الفرح أننى بعد أن كنت رأيتها بالأمس لم أكد أتعرفها اليوم . وبحضور تاتيانا بافلوفنا أعدت انشاد «الخطيبة الصعبة» ، ونجحت فى انشادها نجاحاً باهراً . فابتسمت لى تاتيانا بافلوفنا ، حتى انك انت يا آندره بتروفتش قد هتفت تقول لى : « مرحى ! » . وأضفت تقول بحرارة : « ان انشاد حكاية « الزيز والنملة » انشاداً حسناً أمر يستطيعه كل فتى ذكى فى سنى . فلا يستغرب المرء حسن انشاده ، أما انشاد حكاية « الخطيبة الصعبة » فشأنه شأن آخر : خطيبة تحلم فى خطيبها ... لا اثم فى هذا ولا تثريب ... اسمعى كيف ينشد هذا الشطر : « لا اثم فى هذا ولا تثريب ! » . الخلاصة أنك تحمست كثيراً. وقد أخذت تكلم تاتيانا بافلوفنا عندئذ باللغة الفرنسية . فسرعان ما قطبت حاجبيها وأخذت تواجهك باعتراضات ، حتى لقد كانت تبدى اعتراضاتها بحرارة شديدة . ولكن لما كان يستحيل على أحد أن يعارض آندره بروفتش اذا هو أراد شيئاً ، فقد أسرعت تاتيانا بافلوفنا تقتادنى الى بيتها . وهناك غُسل وجهى ويداى مرة أخرى ، وغُيرت ملابسى الداخلية

ودُهنت بالعطر ، حتى لقد ُجعِّد لى شعرى • حتى اذا جاء المساء ارتدت تاتيانا بافلوفنا هى نفسها ثياباً فخمة ، ثياباً أفحم مما كان يمكن أن أظن ، وركبنا عربة ، وأُخذت لأول مرة فى حياتى الى المسرح ، فشهدت عرضاً قام به هواة عند فيتوفتوفا : شموع ، تماثيل ، سيدات ، عسكريون ، جنرالات ، آنسات ، الستارة ، صفوف الكراسى ، الخ ••• تلك كلها أشياء لم يسبق أن رأيت مثلها فى حياتى • وقد اختارت تاتيانا بافلوفنا مكاناً متواضعاً فى صف من الصفوف الأخيرة وأجلستنى بقربها • وكان هناك أطفال غيرى طبعاً ، ولكننى كنت لا أنظر الى شيء ، وانما انتظر بدء التمثيل خافق القلب • حتى اذا ظهرت انت على المسرح يا آندره بتروفتش ، بلغت أنا من الحماسة حدا سالت معه دموعى • لا أدرى لماذا يا آندره بتروفتش • لماذا دموع الحماسة تلك ؟ ذلك أمر ظل يبدو لى غريباً كلما تذكرته خلال هذه السنين التسع ! وأخذت أتابع المسرحية منهار القلب • كل ما فهمته طبعاً هو « أنها » خانته ، وأن أناساً أغبياء لا يستحقون حتى أن يلمسوا أصبعاً فى قدمها كانوا يسخرون منه • وحين كان يخطب فى حفلة الرقص كنت ادرك أنه رجل ُأذل وأهين ، وأنه يقرِّع جميع أولئك الأفراد ، ولكنه رجل كبير ، كبير جداً•لا شك أن ما كنت قد تعلمته عند آل آندرونيكوف ساعدنى على الفهم ، ولكن تمثيلك ساعدنى أيضاً يا آندره بتروفتش • كنت أرى مسرحاً لأول مرة ! وفى لحظة الانصراف ، حين صرخ تشاتسكى منادياً : « عربتى ، عربتى ! » (ولقد صرخت صرخة مدهشة !) وثبت عن كرسيى وطفقت أصفق مع كل من كانوا فى الصالة ، وصحت أقول بكل ما أملك من قوة : مرحى !

أتذكر أيضاً أننى أحسست فى تلك اللحظة نفسها بما يشبه أن يكون وخزة دبوس « تحت الظهر قليلاً » • ان تاتيانا بافلوفنا هى التى قرصتنى غاضبة غضباً شديداً ، ولكننى لم أول ذلك انتباهاً ! حتى اذا انتهى التمثيل قادتنى تاتيانا بافلوفنا الى البيت ، قائلة لى :« لا يمكن أن تبقى

فتحضر حفلة الرقص ، رغم اننى سأحرم بسببك من حضورها » ، وقد ظللت تؤنبيننى طول الطريق يا تاتيانا بافلوفنا ونحن فى العربة • وهذيت أنا الى آخر الليل • وفى الساعة العاشرة من الغد وجدتنى أقف أمام مكتبك • ولكن الباب كان مغلقا : كنت تستقبل بعض الناس ، و تعالج بعض الأعمال • ثم غبت فجأة طول النهار ولم تعد الا فى الليل ، فلم أرك بعد ذلك أبداً ! أما ما الذى كنت أريد أن أقوله لك ، فقد نسيته ، بل كنت لا أعرفه حتى فى ذلك الوقت ، ولكننى كنت احترق شوقاً الى رؤيتك فى اسرع وقت • لقد سافرت فى صباح غد منذ الساعة الثامنة الى سربوخوف : كنت قد بعت أرضك فى تولا منذ مدة قصيرة لترد الى دائنيك ديونهم ، أو لترضيهم بدفع جزء منها على الأقل ، ولكن كانت قد بقيت لك من أرضك قطعة لا بأس بها ، ومن أجل ذلك انما جئت عندئذ الى موسكو التى كنت لا تستطيع أن تظهر فيها حتى ذلك الحين خوفاً من أولئك الدائنين وكان ذلك الرجل الفظ الغليظ سربو خوف هو الوحيد بين سائر الدائنين الذى لم يرض أن يقبض نصف الدين بديلاً عن تمامه • ولم ترض تاتيانا بافلوفنا حتى أن تجيب عن أسئلتى ، وكانت لا تزيد على أن تقول لى : « اطمئن • سأذهب بك بعد غد الى مدرسة داخلية • حضّر نفسك • خذ دفاترك • رتب كتبك • وتعلم كيف ترتب حقيبتك بنفسك• انك لم تخلق لتعيش عيشة أمير يا سيد » ، الخ الخ • أكثر ما صدّعت أذنى بهذا الكلام فى تلك الأيام الثلاثة يا تاتيانا بافلوفنا ! واقتدتنى فعلاً الى مدرسة توشار الداخلية ، أنا الغر البرىء ، أنا المغرم بك يا آندره بتروفتش • صحيح أن ذلك اللقاء لم يكن الا مصادفة شاذة ، ولكن صدقنى اذا قلت لك اننى بعد ستة أشهر كنت ما أزال أريد أن أهرب من عند توشار وأن أذهب اليك •

قال فرسيلوف موقعاً كلامه :

ـ لقد قصصت فأبدعت ، فأيقظت جميع ذكرياتى ! غير أن مايخطف

انتباهي خاصة فيما قصصته انما هو غناه ببعض التفاصيل الغريبة ، فيما يتعلق بديوني مثلاً . فمن أين عرفت هذه التفاصيل ، ناهيك عن انها غير لائقة ؟

ــ هذه التفاصيل ؟ من أين عرفتها ؟ انني أعود فأكرر لك انني خلال هذه السنين التسع لم يشغلني شيء كما شغلني الاهتمام بجمع تفاصيل عنك .

ــ اعتراف عجيب ، وشاغل عجيب !

وأدار لي ظهره ، مضطجعاً على مقعده نصف اضطجاع ، وفتح فمه بتثاؤب خفيف لا أدري أهو تعمده تعمداً أم لا .

ــ هل تريد أن أحكي لكم كيف أردت أن أهرب من عند توشار ؟

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ــ امنعه يا آندره بتروفتش ! اردعه ! اطرده من هنا !

فأجابها فرسيلوف بجد :

ــ لا يا تاتيانا بافلوفنا ! لا شك أن في ذهن آركادي مشروعاً . فيجب أن نتيح له اكمال كلامه قطعاً . فليستمر ! ليقصص ما يريد أن يقصه فنتخلص ! وذلك هو كل ما يرغب فيه على كل حال ... أن يتخلص الى الأبد . هيا يا عزيزي ، ابدأ قصتك الجديدة . وأنا انما أصفها بأنها جديدة من باب التجوز ، لأنني أعرف نهايتها منذ الآن ، ثق بهذا .

٤

ـ أردت أن أفر من المدرسة هارباً اليكم ، الأمر بسيط . تاتيانا بافلوفنا ،تذكرين أن توشار ، بعد دخولى المدرسة بخمسة عشر يوماً ، بعث اليك برسالة . لا ؟ لقد أطلعتنى ماريا ايفانوفنا على هذه الرسالة فيما بعد ، وكانت بين أوراق آندرونيكوف أيضاً . لقد ارتأى توشار فجأة أن المبلغ الذى كان قد طلبه ضئيل جداً ، فكتب يقول لك « بوقار » انه يربى فى مدرسته الداخلية أمراء وأولاد أعضاء فى مجلس الشيوخ، ويرى أنه لا يليق بمؤسسته أن تحتفظ بتلميذ أصله كأصلى ، اللهم الا أن يُدفع له أجر اضافى .

ـ « يا عزيزى » ، فى وسعك أن ...

فقاطعها قائلاً :

ـ ليس هذا بشىء ذى بال : لكننى أريد أن أقول كلمة عن توشار . لقد أجبته من الريف يا تاتيانا بافلوفنا ، بعد خمسة عشر يوماً ، بأنك ترفضين طلبه رفضاً قاطعاً . اننى ما زلت أراه فى خيالى داخلاً على الصف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً . انه فرنسى قصير القامة مدور الجسم ، فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، جاء من باريس رأساً فى الواقع ، وكان من قبل اسكافياً ، ولكنه استقر بموسكو منذ زمن بعيد مدرِّساً للغة الفرنسية يحمل لقب أستاذ ، بل يحمل كذلك رتباً كان يعتز بها أعظم الاعتزاز . هو رجل جاهل فظ حقاً . ولقد كنا فى مدرسته الداخلية ستة لا أكثر . وكان بين هؤلاءالتلاميذ واحد هو ابن اخت عضو فى مجلس الشيوخ من موسكو . وكنا نعيش فى مدرسته عيشة أسرة ، تحت اشراف زوجته فى أكثر الأحيان ، وهى امرأة متكلفة متصنعة كانت

ابنة موظف روسي لا 'يعرف من هو • وكنت في خلال تلك الأيام الخمس عشرة أتكبر على رفاقي تكبراً شديداً ، واتباهى بسترتي الزرقاء وأعتز بأبي آندره بتروفتش ، فاذا سألوني لماذا أسمي دولجوروكي ولا أسمي فرسيلوف ، لم اضطرب من السؤال البتة ، لأنني كنت أجهل أنا نفسي سبب ذلك •

صرخت تاتيانا بافلوفنا تقول بلهجة فيها ما يشبه التهديد :

ـ آندره بتروفتش !

ولا كذلك أمي ، فكانت تصغي الى كلامي لا تغيب عنها منه كلمة واحدة ، وترغب رغبة واضحة في اتمامه •

قال فرسيلوف من بين أسنانه :

ـ انني ••• أتذكر توشار « هذا » فعلاً • وكان قد 'زكّى لي كثيراً •••

واصلت حديثي قائلاً :

ـ دخل توشار « هذا » حاملاً الرسالة بيده ، وتقدم من الطاولة المصنوعة من خشب السنديان ، التي كنا نحن الستة جالسين اليها منهمكين في تعلم درس نسيت الآن ما هو ، فأمسك كتفي امساكاً قوياً ، وأنهضني ، وأمرني بأن آخذ دفاتري ، قائلاً لي « مكانك ليس هنا » • ودلني على غريفة صغيرة تقع على يسار حجرة المدخل ، وتوجد فيها طاولة حقيرة مع كرسي من خيزران وديوان مغطى بقماش مشمع ، تماماً كالغريفة التي أعيش فيها الآن تحت السقف•فذهبت الى هناك مدهوشاً ومحمراً احمراراً شديداً • انني لم أعامل قبل اليوم بمثل هذه الغلظة والفظاظة • وبعد نصف ساعة ، حين غادر توشار الصف ، مضيت أبادل رفاقي النظرات والضحك • وكانوا هم يضحكون عليّ ساخرين ، ولكني أنا لم يخطر

ببالي شيء من ذلك ، وظنت أننا نضحك معاً لما يمـــلأ نفوسنا من فرح وجذل . وفي تلك اللحظة انبجس توشار . فأمسك خصلة من شعري، وجرني الى خارج الصف قائلاً لي : « اياك أن تخالط بعد اليوم هـؤلاء الأولاد الذين ينتمون الى أسر كريمة . انك أنت حقير المنبت . ما أنت الا نوع من خادم ! » . ولطم خدي المدورة الحمراء لطمة آلمتني ايلاماً شديداً . وأعجبته اللطمة فكررها ثانية فثالثة . فلبثت ساعة كاملة أبكي بكاء شديداً وقد دفنت رأسي في يدي . لا بد أن شيئاً لا أتوصل الى ادراكه قد حدث . لم أفهم كيف يستطيع انسان غير شرير مثل توشار ، وهو رجل أجنبي ، حتى انه كان يبتهج أعظم الابتهاج لتحرير الفلاحين الروس ، كيف يستطيع أن يضرب طفلاً ساذجاً مثلي . الحق انني في قرارة نفسي كنت مندهشاً لا أكثر . لم أشعر بأنني أُهنت . كنت لا أحس بعد بأنني أهان . خيل الى أنني قد ارتكبت غلطة من الغلطات ، وأنني بعد هذا القصاص سيُغفر لي كل شيء ، فنغدو جميعاً مرحين من جديد ، ونمضي نلعب في فناء المدرسة ، ونستأنف حياة حلوة .

قال فرسيلوف وهو يبتسم ابتسامة فيها اهمال انسان اعتراه السأم :

ــ ليتني عرفت هذه الأمور يا صاحبي ... ان توشار هذا رجل وغد حقاً ! على كل حال ، أنا لم أفقد أملي في أن تسترد شجاعتك ، فتغفر لنا أخيراً جميع هذه الأشياء ونستأنف حياة سليمة .

وأتبع ذلك بتثاؤب قوي . فهتفت أقول محتاراً :

ــ ولكنني لا أتهم أحداً ، لا أتهم أحداً قط ، بل لا اشتكي حتى من توشار . ثم انه لم يضربني الا مدة شهرين . أذكر أنني كنت أريد دائماً أن أهدىء غضبه ، فكنت ارتمي على يديه لأقبّلهما ، وكنت أقبلهما ذارفاً كل ما في عيني من دموع . وكان رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني لأن توشار كان يستعملني في بعض الأحيان خادماً ، فيأمرني أن أجيئه

بملابسه حين كان يرتدي ثيابه . وهنا شُحذت صفات الخادم في نفسي بالغريزة ، فكنت أبذل كل ما أملك من طاقة لارضائه ، دون أن أشعر بأي شيء من المهانة ، لأنني كنت لا أزال عاجزاً عن فهم الأمر ، بل انني ليدهشني حتى هذا اليوم كيف لم أدرك أنني كنت دون كافة رفاقي كثيراً ، فلا شك أن رفاقي قد شرحوا لي بعض الأمور ، لأننا في مدرسة راقية . على أن توشار قد أصبح في النهاية لا يلطم خدي بل يضرب اليتيّ . حتى انه بعد ستة أشهر أخذ يلاطفني من حين الى حين . ولكنني كنت واثقاً بأنه لا بد أن يضربني مرةً في الشهر ، ليذكّرني بأن عليّ أن أبقى في مكاني لا أتجاوزه . ولم ألبث أن أُرجعت الى سائر الأولاد ، وسُمح لي بأن ألعب معهم ، ولكن توشار لم يستطع مرةً واحدة خلال هذه المدة كلها — وهي سنتان ونصف سنة — أن ينسى ما بيني وبينهم من فرق في الظروف الاجتماعية . ويغلب على ظني أنه ان كان لم يفتئه أن يستعملني خادماً له على الدوام ، ولو بغير مبالغة ، فانما كان يفعل ذلك ليذكرني بما بيني وبين رفاقي من فرق في الظروف الاجتماعية . ثم هربت . أقصد فكرت في الهروب بعد انقضاء خمسة أشهر على ذينك الشهرين الأولين . لقد كنت بطيئاً في عزم أمري على اتخاذ قرار دائماً . وكنت حين أرقد في فراشي وأخفي نفسي تحت غطائي ، لا ألبث أن أحلم بك فوراً يا آندره بتروفتش ، بك وحدك . لا أدري لماذا كان يحدث ذلك . حتى لقد كنت أراك في المنام . وكنت أحلم خاصةً بأنك ستجيء فجأة ذات يوم ، فاذا أنا ارتمي بين ذراعيك ، فتنتشلني من هذا المكان ، وتأخذني الى عندك ، الى مكتبك . وأحلم بأننا لا نزال نضحك في المسرح ، الخ ، وأننا — وهذا هو الشيء الأساسي — لن نفترق بعدئذ أبداً . فكانت هذه الأحلام تلهب نفسي . وفي الغداة ، حين أستيقظ من النوم ، يستأنف الصبية سخرياتهم ويعودون الى احتقارهم . وقد بدا لأحدهم يوماً أن يضربني وأن يجبرني على الباسه حذاءيه ، ووصفني بكل النعوت ،

وحرص حرصاً خاصاً على افهامي أصلي ، فأفرح ذلك السامعين فرحا عظيما . حتى اذا وصل توشار أحسست في داخل نفسي بشيء لا يطاق . أدركت أنني هنا لن يُغفر لي أبداً في يوم من الأيام . آه ... بدأت شيئاً فشيئاً أفهم الأمر الذي لن يغفر لي ، وأعرف ما هي جريمتي ! وهكذا قررت أن أهرب . حلمت بالهرب مدة شهرين ، واتخذت قراري أخيراً .

كان ذلك في شهر أيلول (سبتمبر) . ان يوم السبت يناسبني : فرفاقي ينصرفون لقضاء عطلة الأحد ولا يعودون الا في صباح يوم الاثنين. حزمت من أمتعتي ما لا غنى لي عنه في صرة . وكان كل ما معي من مال روبلين . كنت أريد أن أنتظر حلول الغسق . قلت لنفسي : « متى حل الغسق هبطت على السلم ، وخرجت ثم انصرفت قدماً . » . الى أين ؟ كنت أعرف أن آندرونيكوف قد سافر الى بطرسبرج ، فقررت أن أعرف منزل فاناريوتوفا في شارع آربات . وحدثت نفسي قائلاً : «سوف أقضي الليل في أي مكان ، متجولاً أو جالساً على دكة ، حتى اذا طلع الصبح سألت أحداً في فناء الدار : أين هو آندره بتروفتش الآن ، واذا لم يكن بموسكو ففي أية مدينة هو أو في أي بلد من البلاد ؟ وسيرضون أن يذكروا لي المكان فأمشي . ومن حين الى حين أسأل أحداً عن الاتجاه الذي يجب أن أسير فيه . فأمشي ، وأمشي . وأظل أمشي . وأقضي الليل في أي مكان تحت الأدغال ، ولا آكل الا خبزاً ، فيكفيني الروبلان مدة طويلة » . ولكن استحال عليّ في يوم السبت أن أهرب . فكان يجب أن أنتظر الى يوم الأحد . وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يغيب توشار وامرأته . ولم يبق في البيت الا آجاتي وأنا . فانتظرت حلول الليل مضطرباً اضطراباً رهيباً . كنت جالساً ـ ما زلت أتذكر ذلك ـ أمام نافذة صفّنا ، انظر الى الشارع الأغبر ، وبيوته الخشبية الصغيرة، والمارة القلائل . كان توشار يقيم في آخر العالم . ومن نوافذنا كان يُرى

باب المدينة . قلت لنفسي : « ليته هو الباب الذي يجب أن أخرج منه » وكانت الشمس تغرب محمرة احمراراً رائعاً ، وكان الهواء بارداً ، وكانت تهب ريح قارصة تثير الغبار ؛ كهذا اليوم تماماً . وعمّ الظلام أخيرا؛ فوقفت أمام الأيقونة ، وصليت ، لكنني صليت مسرعاً ، مسرعاً كل الاسراع ، لأنني كنت استعجل الهرب حالاً . وتناولت صرتي ، ونزلت سائراً على رءوس الأصابع ، فكانت درجاته تصر ، وكنت أشعر بخوف رهيب من أن تسمعني آجاتي في المطبخ . وكان المفتاح على الباب ، ففتحت ، فسرعان ما أحدق بي الظلام الدامس كشيء مجهول خطر لا حدود له ، وأطارت الريح طاقيتي . أصبحت في خارج الدار . ودوى على الرصيف الآخر صراخ أجش أبح هو صراخ سكير كان يطلق الشتائم تلو الشتائم . فتوقفت ، ونظرت ، ثم اذا بي أعود أدراجي على مهل ، ثم أصعد السلم في رفق ؛ وفي رفق أخذت أخلع ملابسي بعد أن وضعت صرتي على الأرض ، ثم رقدت على بطني بدون دموع أذرفها وبغير فكرة واحدة تخطر ببالي . ومنذ تلك اللحظة أنما أخذت أفكر يا آندره بتروفتش ! نعم ، منذ اللحظة التي أدركت فيها أنني لست خادماً فحسب ، بل جباناً رعديداً أيضا ! عندئذ انما بدأ تطوري الحقيقي المطرد .

هنا صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول وهي تثب عن مكهأ فجأة وثوباً لم يكن في حسباني قط :

ـ وعندئذ انما بدأت أنا أعرف ما أنت في واقع الأمر ! انك لم تكن خادما في ذلك الأوان فحسب ، بل مازلت خادماً الى الآن : ان نفسك نفس خادم ! ما الذي كان يمكن أن يمنع آندره بتروفتش من أن يعهد بك الى اسكافي يعلمك حرفة الاحذية ؟ كان سيُحسن اليك لو علمك حرفة ! من ذا الذي يمكن أن يطالبه بأكثر من هذا ؟ ان أباك ، ماكار ايفانوفتش كان يرجو ان لا تخرجك من ظرفك الاجتماعي حتى لقد كان

يطالب بهذا مطالبة ويكاد يصر عليه اصراراً • لا ، لا ، انك لا تحسن تقدير صنيع آندره بتروفتش اذ أوصلك الى الجامعة • انك بفضله انما تتمتع الآن بحقوق الطبقات العليا • انظروا : كان الصبيان يسخرون منه ويناكدونه ، فحلف لينتقمنّ من الانسانية بأسرها ••• ما أنت الا نذل ! •••

يجب أن أعترف أن غضبة تاتيانا بافلوفنا قد سحقتني • فنهضت عن مكاني ونظرت لحظةً وأنا لا أجد ما أجيبها به •

وقلت أخيراً وأنا التفت الى فرسيلوف عامداً بعد تفكير :

ــ ان ما قالته تاتيانا بافلوفنا الآن شيء جديد حقاً • ان فرسيلوف قد تفضل فلم يجعلني اسكافيا • فيا لي من خادم حقاً ، لأن هذا لم يرضني، وانما طالبت ، فوق آلائه ونعمه ، طالبت به هو ، طالبت بفرسيلوف نفسه ، طالبت به كله كاملاً غير منقوص ! حتى حقوق الطبقات العليا لم ترقق قلبي • ذلك أنني أردت أباً • فهل يمكن أن يكون امرؤ خادماً أكثر من هذا ؟ يا أمي ، ما تزال ماثلةً في ضميري ، منذ ثمانية أعوام حتى الآن ، تلك اللحظة التي جئتني فيها وحيدةً الى عند توشار ، وتلك الطريقة التي استقبلتك بها • ولكن ليس هذا أوان الحديث عن هذا الأمر • ان تاتيانا بافلوفنا لا تسمح به • فالى الغد يا أمي ، فلعلنا سنلتقي مرة أخرى• ويا تاتيانا بافلوفنا ، وما عساك قائلة لك انني مازلت خادماً فلا أستطيع أن أقبل أن يكون لرجل امرأة ، فاذا هو يتزوج امرأة أخرى ؟ تلك مغامرة كادت تقع لآندره بتروفتش في « امس » • يا أمي ، اذا كنت لا تريدين البقاء مع زوج قد يتزوج امرأة أخرى في الغد ، فاذكري أن لك ابناً يعد بأن يكون ابناً يحترم أمه الى الأبد ، اذكري هذا ثم ننصرف، ولكن يجب الاختيار « فاما أنا واما هو » فمن تختارين ؟ انني لا أطلب جواباً على الفور • فأنا أعرف أن هذه أسئلة لا يستطيع المرء أن يجيب عنها حالاً ••

لم أستطع أن أكمل كلامي ، لأنني اندفعت اندفاعاً شديداً وطاش صوابي . اصفرت أمي اصفراراً قوياً ، وخانها صوتها فلم تستطع أن تنطق : عجزت عن أن تقول كلمة واحدة . وانبرت تاتيانا تلفظ صاخبة ، حتى انني لم أستطع أن أميز ما كانت تقوله ، بل لقد لطمتني على كتفي بقبضة يدها مرتين . لكنني أتذكر أنها أعولت تقول « ان أقوالى مدروسة محسوبة ، قد هيأتها نفس وضيعة معقدة » . وكان فرسيلوف جالساً لا يتحرك ، وكان جاداً لا يبتسم . وصعدت الى حجرتي تحت السقف . وكانت النظرة الوحيدة التي شيعتني هي نظرة الاستنكار من أختي التي كانت تهز رأسها وقد لاحت في وجهها القسوة .

الفصل السابع

١

انني أصف جميع هذه المشاهد دون مراعاة أو مداراة لنفسي ، وذلك حتى يكون كل شيء واضحاً ، ذكريات كان أو انطباعات • حين صعدت الى حجرتي كنت أجهل جهلاً مطلقاً هل يجب عليَّ أن أحمر خجلاً أو أن أشمخ انتظارا لأنني قمت بواجبي • ولو كنت ذا تجربة أوسع لأدركت أن أي شك حول مثل هذا الأمر يجب أن يفسر تفسيراً سيئاً • على أن هناك ظرفاً آخر حيرّني : انني لا أعرف ما الذي كان يمكن أن يبهجني ، ولكن واقع الحال هو أنني كنت أحس بفرح جنوني ، رغم شكوكي ورغم شعوري بأنني قد أخفقت منذ قليل اخفاقاً ذريعاً حين كنت تحت • حتى الشتائم المقذعة التي رمتني بها تاتيانا بافلوفنا كانت تبدو لي باعثة على الضحك ، وكانت لا تحنقني البتة • أغلب الظن أن مرد ذلك الى أنني قد حطمت أغلالي على كل حال ، وشعرت بحريتي أول مرة •

وكنت أحس أيضاً أنني أفسدت مصالحي : ما عساي أفعل الآن بالوثيقة التي تتعلق بالميراث ؟ وكان في هذا السؤال مزيد من الاضطراب •

لسوف يظنون حتماً أنني أردت الانتقام من فرسيلوف • ولكنني منذ أن كنت تحت ، كنت قررت ـ أثنـاء المناقشـات ـ أن أرجع في هذه المسألة حكَمٍ يفصل فيها ، وأن أختار فاسين حكماً ، أو أن أختار أحداً غيره اذا لم يمكن أن اختاره هو ، وكنت منذ ذلك الوقت أعرف من ذا الذى سأختاره • لقد حدثت نفسي قائلاً : سأذهب يوماً الى فاسين ، أذهب اليه الوحيدة ؛ ثم ، ثم أغيب عن أبصار الناس قاطبةً ، زمناً طويلاً ، أشهراً عدة ، أغيب حتى عن فاسين ، بل أغيب خاصـةً عن فاسـين ، وقد أرى أمي وأختي وحدهما من حين الى حين • ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً • وكنت أحس أن شيئاً ما قد عمل ، ولكنه لم يعمل كما ينبغي أن يعمل •• وكنت مغتبطاً • أكرر : كنت رغم كل شيء سعيداً •

وقررت عندئذ أن أنام قبل أوان نومي في العادة ، متوقعاً أن يكون عليّ أن أسير في الغد مسافات طويلة • لقد اتخذت قرارات عقدت النية على تنفيذها بطريقة أو بأخرى ، عدا استئجار مسـكن والانتقال اليـه • ولكن السهرة لم تختتم دون أن يحدث شيء لم يكن في الحسبان ، فهذا هو فرسـيلوف يفلح في أن يدهشني الى أبعد حدود الدهشـة • كان لا يجيء الى حجرتي أبداً ، أبداً • ولكن ما ان انقضت ساعة واحدة حتى سمعت وقع خطاه على السلم ، وسمعته يناديني طالباً أن أنير له الطريق • فتناولت شـمعة ، ومددت اليه احـدى يدي فأمسـكها ، وساعدته على التسلق اليّ •

ـ « شكراً » (بالفرنسية) يا صديقي • انني لم أصعد الى هنا مرةً واحدة ، حتى يوم اسـتأجرت البيت • كنت أقدّر ما عسى يـكون هذا المكان • ومـع ذلك لم أتوقع أبداً أن يـكون حجـرة كلب كهذه التي أرى •

ووقف فرسيلوف في وسـط حجرتي ينظر فيما حوله مستطلعاً مستغرباً ، وقال :

ـ هذا تابوت ، تابوت حقيقي !

والحق أن حجرتي كان بينها وبين جوف التابوت شبه ، حتى لقد أعجبت بدقة تشبيهه اياها بالتابوت • انها غريفة ضيقة طويلة • وفي مستوى كتفي ، لا أعلى منه ، تبدأ الزاوية التي تتشكل من التقاء جدارها بسقفها الذي كنت أستطيع أن ألمسه براحة كفي • وقد وقف فرسيلوف في أول الأمر منحنياً خشية أن يصطدم رأسه بالسقف • ولكن رأسه لم يصطدم بالسقف ؛ فجلس بهدوء على ديواني الذي كان قد أمسى سريراً • أما أنا فلم أجلس ، وانما كنت أنظر اليه مندهشاً أعمق الاندهاش • قال :

ـ ان أمك لا تدري هل يجب عليها أن تأخذ المال الذي عرضته عليها نفقات لاقامتك عندنا هذا الشهر • والحق أن هذا التابوت الذي تقيم فيه لا يستحق أن تدفع عنه أجراً ، بل لعلنا أن نكون نحن المدينين لك ! انني لم أجيء الى هنا مرةً واحدة •• وانه ليصعب عليَّ أن أتخيل أن يعيش انسان في هذا المكان •

ـ لقد تعودت هذه السكنى • ولكن الشيء الذي لا يمكنني أن أتعوده هو أن أراك عندي بعد الذي حدث تحت ••

ـ حقاً لقد كنتَ شديد الفظاظة تحت ! •• ولكن لي ، أنا أيضاً ، غايات خاصة سأشرحها لك ، وان يكن وجودي هنا ، في حقيقة الأمر ، ليس بالشيء الخارق • وحتى ما حدث تحت ليس شاذاً في الواقع ، وانما هو من طبيعة الأشياء • ولكن هناك نقطة تفصيلية أرجوك أن توضحها لي: هل ما رويته تحت ، وما ألقيته على مسامعنا بذلك الاحتفال والاهتمام هو كل ما كان في نيتك أن تكشف لنا عنه أو أن تفضي الينا به ؟ أليس عندك شيء آخر ؟

ـ ذلك كل شيء • أو فلنفرض أنه كل شيء •

ـ هو اذن قليل يا صديقي • ان دخولك في الموضوع ، وأسلوبك في دعوتنا الى الضحك ، ورغبتك الشديدة في الكلام ، كل ذلك جعلني أتوقع أن يتمخض عن أكثر مما تمخض عنه •

ـ ولكن فيم يهمك هذا ؟

ـ يهمني لأنه يفتقد الاحساس بالاعتدال • علام كل هذا اللغط والصخب ؟ أتقضي شهراً كاملاً في صمت وتحضير من أجل أن تتمخض فجأة عن •• لا شيء ؟! ••

ـ كان في نيتي أن أحكي أكثر مما حكيت ، ولكنني خجلت حتى مما قلته • ما كل شيء يمكن أن يحكى بكلام • هناك أمور يحسن بالمرء أن يسكت عنها فلا يجيء على ذكرها أبداً • لقد قلت ما فيه الكفاية • ثم انك قد فهمت •

ـ ويعذبك في بعض الأحيان أن فكرك لا تسعه قوالب الألفاظ ؟ يا صديقي ، هذا العذاب لم يوهب الا لصفوة مختارة من الناس • أما الغبي الأحمق فهو راض دائما عما يقول ؛ وهو عدا ذلك يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول • أولئك أشخاص يحبون الزيادة •

ـ مثلما كنت أنا تحت ، أليس كذلك ؟ أنا أيضاً قلت أكثر مما كان يجب أن أقول • طالبت « بفرسيلوف كله » • هذا كثير جداً • لست في حاجة الى فرسيلوف •

ـ أرى يا صديقي أنك تريد أن تتدارك ما فاتك من وقت • انك نادم • ولما كان الندم يعني عندنا أن يتهجم المرء فوراً على أحد ، فقد عزمت أمرك على أن لا تخطئني مرة أخرى • لقد جئت اليك قبل الأوان ، فما تزال نارك مستعرة لم تنطفىء • ثم انك لا تتحمل النقد • ولكن اجلس ، أرجوك • أريد أن أبلغك شيئاً • شكراً ، أحسنت ! ان ما قلته لأمك لحظة انصرافك يدل دلالة واضحة على أن من الأفضل أن نفترق على كل

حال . وقد جئت لأنصحك بأن تفارقنا في هدوء كامل وبغير فضيحة ، حتى لا تُحزن أمك مزيداً من الحزن وحتى لا تروّعها مزيداً من الترويع . ان مجرد صعودى اليك الآن قد خفف عنها وأحسن اليها : انها مقتنعة بأننا سنستطيع أن نتصالح ، وبأن كل شيء سيظل يجرى كما كان يجرى . وأعتقد أننا اذا استطعنا ، أنا وأنت ، أن نضحك ضحكاً صاخباً ، مرةً أو مرتين ، سوف نزرع الفرح في قلبيهما الوجلين ، كلتيهما . ان قلبيهما بسيطان ، ولكنهما زاخران بالحب والصدق والبراءة . فلماذا لا نفرحهما قليلاً اذا استطعنا الى ذلك سبيلاً ؟ هذه هي النقطة الأولى . واليك النقطة الثانية : هل من المحتم أن نفترق ونحن نكز أسناننا ، ونحترق ظمأً الى الانتقام ، ونصب اللعنات ، وما الى ذلك ! صحيح أننا لن نتعانق ، ولكن من الممكن أن نفترق ونحن نتبادل الاحترام ان صح التعبير ، أليس كذلك ؟

ـ هذا كله سخافات ! أعدك بأن أنصرف دونما فضيحة ؛ ويكفى ذلك ! أيقلقك أمر أمي ؟ يخيل اليّ مع ذلك أن طمأنينة أمي لا تهمك كثيراً . هذا منك كلام لا أكثر !

ـ ألا تصدقني ؟

ـ انك تكلمني كما يكلّم طفل حقاً .

ـ يا صديقي ، أنا مستعد لأن استغفرك عن هذا ألف مرة ، وأن استغفرك أيضاً عن كل ما تنسبه اليّ ، عن سني طفولتك ، وهلم جراً . ولكن ما عسى ينتج عن ذلك « يا ولدى العزيز » ؟ أظن أنك أذكى من أن تضع نفسك في مثل هذا الوضع الغبي ؟ دعك من أنني لا أفهم في الواقع طبيعة المآخذ التي تأخذها عليّ فهماً واضحاً ، ولكنني أسألك : ما الذي تتهمني به ؟ بأنك لم تُسَمّ عند ولادتك باسم فرسيلوف ؟ ليس هذا ما تتهمني به ؟ انك تضحك وقد لاح في وجهك احتقار ، ولوحت بيدك تحمي بها نفسك . أليس ذلك هو ما تتهمني به ؟

ـ لا ، صدقني • صدق أنني لا أرى أي شرف في أن يكون اسمي فرسيلوف •

ـ دعنا من الشرف • ثم ، ألا يجب أن يكون جوابك ديموقراطياً ؟ ما الذي تتهمني به اذن ؟

ـ لقد نطقت تاتيانا بافلوفنا منذ ساعة بكل ما كنت أريد أن أعرفه ولم أتوصل الى فهمه حتى ذلك الحين : أنك لم تشأ أن تجعلني اسكافياً ، وأن عليّ اذن أن أشكر لك جميلك • انني لا أدرك أين هو عقوقي ونكراني الجميل ، حتى بعد أن ألقي على هذا الدرس • ألا يمكن أن يكون دمك المتغطرس هو الذي يتحدث فيّ الآن يا آندره بتروفتش ؟

ـ لا أظن ذلك • يجب عليك أن تسلم ، عدا هذا ، أن جميع هجماتك التي أردت لها أن تسقط عليّ أنا منذ قليل ، لم تزد على أن آلمتها وعذبتها ، هي • ويخيل الي مع ذلك أنك لست أنت من يحق له أن يدينها • وما هو ذنبها في حقك ؟ بالمناسبة : اشرح لي هذه النقطة أيضاً يا صديقي : لأي سبب وعلى أية نية أذعت في المدرسة وفي الليسيه وطوال حياتك وحتى لأي انسان تلقاه (لقد ذُكر لي هذا) أنك ابن زنا؟ لقد علمت أنك تتلذذ باذاعة هذا • وما ذلك منك في الواقع الا غباوة ونميمة دنيئة : أنت دولجوروكي ، الابن الشرعي لماكار ايفانتش دولجوروكي ، الشخص المحترم ، المتميز ذكاءً وخلقاً • واذا كنت قد أصبت حظاً من تعليم عال ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى فرسيلوف ، مولاك سابقاً • ولكن ما الذي نتج عن تصرفك ؟ انك بما أذعته من أنك ابن زنا ـ وتلك نميمة ـ انما فضحت أمك ، ولطختها بالوحل في نظر كل انسان • وذلك يا صديقي ليس من النبل في شيء ، لاسيما وأن أمك ليست هي الآثمة : ان لأمك خلقاً هو الصفاء الكامل والطهارة التامة • واذا لم تُسَمَّ باسم فرسيلوف ، فلسبب وحيد هو أن زوجها ما يزال موجوداً •

ــ كفى ! اننى أوافقك كل الموافقة ، وأثق بذكائك ثقة تبلغ من القوة أننى آمل أن تكف عن هذه التقريعات التى ما أظن الا أنها طالت كثيراً • أنت رجل تهوى الاعتدال •• وهناك اعتدال فى كل شىء ، حتى فى هذا الحب المفاجىء لأمى • فدعنا من هذا وقل لى : اذا كنت قد قررت أن تجىء الىّ وأن تقضى عندى ربع ساعة أو نصف ساعة (وأنا مازلت لا أعرف لماذا جئت ، ولكن لنسلم بانك جئت لادخال الطمأنينة والسكينة الى قلب أمى » ، واذا كنت عدا ذلك تجد لذة كبيرة فى الحديث معى رغم كل ما جرى تحت ، فحدثنى اذن عن أبى ، عن ماكار ايفانوف ، حدثنى عن هذا الجوّاب • منك أنت انما أريد أن أسمع شيئاً عنه • اننى انتوى منذ مدة طويلة أن أطلب منك هذا • وأحب كذلك ، ونحن نفترق ــ ربما الى أمد طويل ــ أن أحصل منك على جواب عن هذا السؤال الآخر : هل يعقل أن لا تكون قد استطعت خلال هذه السنين العشرين أن تؤثر فى أوهام أمى ، وكذلك الآن فى أوهام أختى ، فتبدد الظلمات الأولى التى تخيم على بيئتهن القديمة ؟ لست أتكلم عن طهارتها طبعاً ، فانها كانت دائماً أسمى منك كثيراً فى مجال الأخلاق ، معذرة •• ولكن ما هى الا جثة سامية • أما الحياة فهى لفرسيلوف وحده • وكل ما عداه ممن حوله ، كل ما له ارتباط به ، انما هو أشبه بنبات •• نبات يشرفه أن يغذيه بطاقاته وبما فيه من عصارة الحياة • غير أنها كانت هى أيضاً حيةً فى الماضى ، أليس كذلك ؟ فقل لى : هل وجدت فيها ما تحبه ؟ هل كانت امرأة ؟

ــ يا صديقى ، اذا أردتَ أن تعرف ذلك ، فاعلم أنها لم تكن امرأة فى يوم من الأيام ••

قال ذلك وهو يجعد وجهه ذلك التجعيد القديم الذى احفظ ذكراه والذى كان يحنقنى أشد الحنق ، أقصد ذلك التجعيد الذى يوهم المرء أنه ازاء انسان يملك طيبة صادقة أشد الصدق ، مع أن نفسه لا تشتمل

في الواقع الا على سخرية واستهزاء ، حتى لقد كان يتفق لى فى بعض الأحيان أن لا أفهم من هيئته شيئاً • وعاد يقول :

ـ لا ، لم تكن امرأة فى يوم من الأيام • ما من امرأة روسية بامرأة •

ـ هل البولندية أو الفرنسية هى المرأة ؟ أم أن الايطالية ، الايطالية المشبوبة ، هى التى تأسر لب روسى متحضر من الطبقة العليا مثل فرسيلوف ؟

ـ هذا ما كان ينقصنى ! كان ينقصنى أن ألقى هنا واحداً من المتعصبين للسلافية !

وانفجر فرسيلوف ضاحكاً •

اننى أتذكر ما رواه كلمة كلمة • حتى لقد كان يتحدث راضياً مسروراً • وكان واضحاً لى أنه لم يجىء الىَّ ليثرثر معى أو ليطمئن أمى، وانما جاء مبيتاً نيات أخرى •

٢

بدأ فرسيلوف ثرثرته المصطنعة فقال :

ـ لقد عشنا أنا وأمك هذه السنين العشرين كلها فى صمت • وكل ما جرى بيننا انما جرى فى صمت أيضاً • فالسمة الرئيسية التى تتسم بها هذه العلاقة التى دامت عشرين عاماً هى الصمت • حتى أننى أظن أننا لم نتشاجر مرةً واحدة • صحيح أننى تغيبت كثيراً ، فكنت أتركها وحيدة ، لكننى كنت أعود فى النهاية دائماً • « اننا نعود دائماً » ، هذه أبرز صفة يتصف بها الرجال ، وهى من عظمتهم • فلو كان الزواج رهناً بالنساء وحدهن لما استمر زواج • والسمة التى تتميز بها أمك انما هى الطواعية والمذلة ، الخضوع والاذعان ، التسليم والرضى ، ولكنها تتصف أيضاً بالصلابة والثبات والقوة ، القوة الحقيقية • أحب أن تلاحظ أنها بين النساء اللواتى لقيتهن خيرهن جميعاً • ان لها قوة ، أشهد بذلك : لقد رأيت كيف دعمتها هذه القوة • فمتى كان الأمر قناعات (لا قناعات حقيقية فهذه ليس محل بحث ، بل ما يمكن أن يسمى عندها قناعات) ومتى كان الأمر تبعاً لذلك أمر شيء تعده مقداساً ، كانت مستعدة لأن تواجه جميع الصعاب وأن تتحمل جميع أنواع العذاب كما يتحملها شهداء • فانظر بنفسك : أأنا أشبه جلاداً يعذب الناس ؟ ذلك هو السبب الذى حملنى على الصمت فى جميع الأحيان تقريباً ، وليس السبب هو أن الصمت أسهل • ولست نادماً على ذلك ، أعترف لك • فبهذه الطريقة جرى كل شيء بيننا من تلقاء نفسه على نحو انسانى رحب • حتى اننى لا أنسب لنفسى فى هذا أى فضل • يجب أن أقول لك فى هذه المناسبة اننى أميل قليلاً الى أن أظن أنها لم تؤمن بعواطفى الانسانية فى يوم من الأيام ، وأنها لذلك ارتعشت من الخوف دائماً • ولكنها رغم ارتعاشها من

الخوف لم تلزم نفسها بتحصيل أية ثقافة . هؤلاء أناس يحسنون تصريف أمورهم أكثر منا . انهم على وجه الاجمال يعرفون كيف يدبرون شئونهم الصغيرة خيراً مما نعرف ذلك نحن . انهم يستطيعون أن يواصلوا الحياة على ما يشاءون في أكثر الظروف مناقضة لطبيعتهم ، وأن يبقوا في تلك الظروف ما هم فلا يتغيروا . أما نحن فلا نملك هذه البراعة التي يملكون .

ـ من هؤلاء الذين تعنيهم ؟ انني لا أفهم عنك فهماً واضحاً .

ـ الشعب يا صديقي . الذين أعنيهم هم الشعب . لقد برهن الشعب على قوته الحية الكبيرة خلال التاريخ ، لا جسمياً فحسب ، بل سياسياً كذلك . ولكن لنرجع الينا : أستطيع أن أقول ان أمك لم تكن دائمة الصمت . انها تتكلم أحياناً ، ولكنها تتكلم بطريقة تجعلك تدرك ادراكاً واضحاً أنك قد أضعت وقتك سدى فيما سقته اليها من أحاديث ولو كنت قد سلخت من عمرك خمس سنين في اعداد هذه الأحاديث شيئاً بعد شيء. وما أعجب الاعتراضات التي تواجهك بها ولم تخطر لك ببال ! لاحظ مرة أخرى أنني لا أصفها بالغباء البتة . بالعكس : ان في هذا نوعاً من ذكاء ، بل ان فيه ذكاء فذاً . ولكن لعلك لن تعترف لها بهذا الذكاء !

ـ لم لا ؟ ان ما لا أصدقه هو أن تؤمن أنت حقاً بأنها ذكية ، وأن لا تكون في ذلك مرائيا .

ـ صحيح ؟ أأنت تعدني حرباء ؟ يا صديقي ، انني أسرف في مداراتك ، كولدي المدلل . ولكن لنقف عند هذا الحد في هذه المرة !

ـ حدثني عن أبي . قل لي الحقيقة ان استطعت .

ـ ماكار ايفانوفتش ؟ نعم ، ان ماكار ايفانوفتش هو كما تعلم قن خادم أحب فيما يقال أن يصبح ذا شهرة ..

ـ أراهن على أنك في هذه اللحظة تغار منه !

ـ بالعكس يا صديقي ، بالعكس • واذا شئت أن تعرف الحقيقة فاعلم انني مرتاح أشد الارتياح الى أن لك مزاجاً معقداً هذا التعقيد كله • أحلف لك انني أعاني الآن ندامة قوية عميقة ، وأنني في هذا اليوم نفسه ، بل في هذه اللحظة التي تمر ، أحس ـ ربما للمرة الألف ـ بالأسف في غير طائل لما حدث منذ عشرين سنة • شهد الله أن كل ما حدث قد حدث حدوثاً انسانياً فيما يخصني أنا ، على الأقل بحسب الفكرة التي كانت قائمة في ذهني عن فضيلة الاتصاف بالروح الانسانية • آه •• لشد ما كنا نحترق في ذلك الحين شوقاً الى فعل الخير وخدمة المجتمع والفكرة ، ولشد ما كنا نُدين الألقاب والرتب ، وامتيازاتنا الموروثة ، وتملك الأطيان ، وحتى بنك تسليف الفقراء ، في رأي بعضنا على الأقل • أحلف لك • كان عددنا قليلاً ، ولكننا كنا نحسن الكلام ، بل كنا في بعض الأحيان نحسن العمل أيضاً ، أؤكد لك •

ـ أيامَ كنت تنتحب على الكتف مثلا ؟

ـ يا صديقي ، انني أوافقك سلفاً على كل شيء • بالمناسبة : حكاية الكتف هذه ، أنا الذي رويتها لك ، فأنت اذن في هذه اللحظة تسيء استغلال صدقي وثقتي • لاحظ أن الانتحاب على الكتف لا يضعني في وضع سيء الى الحد الذي يبدو لأول وهلة ، ولاسيما اذا رددته الى زمانه • لقد كنا عندئذ مبتدئين في نزعتنا الانسانية • صحيح أن ذلك كان مني تصنعاً وتكلفاً • ولكنني كنت أجهل حينذاك أنني لم أكن صادقا • انظر الى نفسك مثلاً : أأنت طبيعي دائما في الحياة العملية ؟

ـ حين كنا تحت ، منذ قليل ، أسرفت في العاطفية بعض الاسراف، وما ان رجعت الى هنا حتى احمر وجهي خجلاً اذ تصورت أنك قد تظن أنني فعلت ذلك عامداً • صحيح أن المرء يمثل في بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً • ولكنني أحلف لك أنني كنت اليوم ، تحت ، طبيعياً بغير تصنع البتة •

ـ حسن ما تقوله • لقد أجدت التعبير : « ان المرء يمثل في بعض الأحيـان ، مهما يكن صـادقاً » • فذلك بعينه هو ما جـرى لى أنا : لقد انتحبت صادقاً رغم أنني كنت أمثل تمثيلاً • أوافقك : كان في امكان ماكار ايفانوفتش أن يعد الانتحاب على كتفه زيادة في السخرية ، لو كان أذكى قليلاً • ولكن استقامته أساءت عندئذ إلى نفـاذ بصره • والشيء الذى أجهله هو : أأخذته بى شفقة حينئـذ أم لا • أذكر انني كنت أحترق شوقاً الى أن يرثى لحالى •••

قاطعته قائلاً :

ـ والآن اذ تقول هذا الكلام انما أنت تسخر • انك على وجـه الاجمال ، في جميع ما قلته لى خـلال هذه المدة كلها ، طوال هذا الشهر كله انما كنت تسخر • لماذا كنت تتصرف معى دائماً هذا التصرف حين تكلمنى ؟

أجاب يقول بهدوء ورفق :

ـ أتظن ذلك ؟ انك شديد الحسـاسية سريع التأذى • اذا كنت أضحك فلست أضحك منك أو على الأقل لست أضحك منك وحدك ، فاطمئن • لكننى في هذه اللحظة لا أضحك • لنعد الى ما كنا فيه • لقد عملت حينذاك كل ما كان في وسعى أن أعمله ، وصدقنى اذا قلت لك اننى لم أعمل ما عملت في سبيل مصلحتى • لقد كنا نحن ، أعنى معشر الممتازين في ذلك الزمان ، عاجزين عن العمل لمنفعتنا بالقياس الى أبنـاء الشعب • بالعكس : كنا نسيء الى أنفسنا أكبر الاساءة ، وأظن أن هـذا بعينه هو ما كنا نعده « المصلحة العليا التى هى مصلحتنا » بأسمى معانى هذه الكلمة طبعاً • ان المثقف في هذا الزمان أشد تعلقاً بالمنفعة وسـعيا اليهـا من جيلنا • لنعد الى حديثنا : شرحت لماكار ايفانوفتش كل شيء ، بصراحة خارقة ، حتى قبل ارتكاب الخطيئة • اننى أسلم اليوم بأن كثيراً من تلك

الأشياء لم يكن في حاجة الى شرح ، ولا سيما بمثل تلك الصراحة . فلو أقصرت في الشرح لكان ذلك أقرب الى الأدب والتهذيب ، ناهيك عن العاطفة الانسانية . ولكن أين للمرء أن يكبح جماح نفسه حين يريد أن يغامر فيقوم أثناء الرقص بخطوة جميلة بعد أن يكون سكرُ الرقص قد أخذ منه كل مأخذ ! لعل هذا ما كانت تقتضيه ضرورات الجمال والخير : انني لم أجد جواباً عن هذا السؤال بعد . على كل حال ، هذه مشكلة أعمق من أن يتناولها حديث سطحي كالحديث الذي يدور بيننا الآن . لكنني أحلف لك انني ما زلت أموت خجلاً من هذه الذكرى في بعض الاحين. عرضت عليه ثلاثة آلاف روبل . كان صامتاً . وكنت وحدي أتكلم . تصورت أنه خائف مني ، أي خائف مما للسيد من حقوق على العبد ، فبذلت أقصى جهدي لأشجعه . انني أتذكر هذا . حضضته على أن يفصح عن جميع رغباته دون أن يخشى شيئا ، بل حضضته على أن ينتقد ما شاء أن ينتقد . وعلى سبيل الضمان قطعت له عهداً على نفسي أنه اذا رفض شروطي ، أي الثلاثة آلاف روبل واعتاقه (هو وامرأته طبعاً) ورحيله (بدون امرأته طبعاً) ما عليه الا أن يعلن ذلك صراحةً حتى أعتقه فوراً ، وأرد اليه امرأته ، وأهديهما كليهما هذه الثلاثة آلاف روبل نفسها ، فلا يكون عليهما هما أن يرحلا عندئذ ، وانما أرحل أنا الى ايطاليا لوحدث هذا فانني ما كنت سأصطحب « الآنسة »سابويكوفا الى ايطاليا، ثق بهذا . كنت في ذلك الحين أطهر من أن أفعل ذلك . وقد أدرك ماكار هذا حق الادراك أنني سأفعل ما أقول . ولكنه بقي صامتاً لا يتكلم ، ثم لم يتحرك الا حين أردت أن أرتمي على كتفه مرة ثالثة ، فاذا هو يتقهقر ، ويُجري يده بشارة تنم عن قلة الاكتراث ، ويخرج حتى بغير تحرج ، فأدهشني منه ذلك ، أؤكد لك . ونظرت الى نفسي عندئذ في مرآة عرضاً ، وهذه ذكرى لن أنساها في يوم من الأيام . نستطيع أن

نقول عامةً انهم حين يصمتون فلا ينطقون ، يكون الأمر أرهب ما يكون. ولقد كان ماكار قاتم المزاج ، فكان لا يوحى الىَّ بالثقة ، حتى اننى كنت اذا دخل علىَّ أشعر بذعر هائل : ان فى هذه البيئة أفراداً ، أفراداً كثيرين، تتجسد فيهم الوقاحة انصح التعبير . وهذا أحق أن يُخشى من الطعنات. فما أكثر ما جازفت وعرضت نفسى للخطر ! فلو أن « أوريا » القروى هذا قد أخذ يزعق ويقذف الشتائم ، فما عسى كان يحدث لى أنا «داود » الصغير ، وما عسى كنت أستطيع أن أفعل ؟ ذلك هو السبب فى اننى عرضت الثلاثة آلاف روبل منذ البداية مدفوعاً الى ذلك بغريزتى . ولكننى أخطأت الظن لحسن الحظ : فلقد كان ماكار ايفانوفتش هذا شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف ...

ـ قل لى : هل كانت الخطيئة قد وقعت ؟ لكأنك قلت منذ لحظة انك استدعيت الزوج قبل حدوث الخطيئة .

ـ أعنى ... أقصد ...

ـ اذن كانت الخطيئة قد وقعت . وقلت منذ لحظة انك أخطأت الظن فيه ، وانه كان مختلفاً كل الاختلاف عما صوَّر لك خيالك ... فماذا كان ؟

ـ ماذا كان ؟ آه ... اننى لا أزال أجهل ما هو . لكنه انسان مختلف كل الاختلاف ، بل انسان لائق جداً ، هل تتصور ؟ اننى أخلص الى هذه النتيجة لان احساسى بارتكاب ذنب فى حقه قد تضاعف مثنى وثلاث . لقد قبل الرحيل منذ الغداة ، بدون كلام طبعاً ، وبدون أن يغفل شيئاً من التعويضات التى عرضتها عليه .

ـ أخذ المال ؟

ـ كيف لا ؟ حتى لقد أدهشنى فى هذه الناحية يا صديقى . لم أكن أحمل ثلاثة آلاف روبل طبعاً . فأخرجت من جيبى سبعمائة وقدمتها اليه دفعةً أولى . فهل تعرف ماذا فعل ؟ طلب منى سنداً قيمته ألفان

وثلاثمائة روبل ، واشترط أن يحرر السند لأمر تاجر . وبعد ذلك بسنتين تسلح بهذا السند وطالبني بالمال مع فوائده عن طريق المحاكم ، فأدهشني مرةً أخرى ، لا سيما وأنه كان يجول جامعاً صدقات لبناء كنيسة ، وما يزال يجول منذ عشرين سنة الى الآن . انني لا أفهم : ما حاجة جوال مثله الى ذلك المبلغ كله لنفسه ؟ ... ان المال شيء يرغب فيه من يعيش في المجتمع ... وأنا كنت قد عرضت عليه ذلك المبلغ صادقاً ، أو قل في ابان الحرارة الأولى والاندفاع الملتهب ، أما بعد ذلك، بعد تراكم جميع تلك الدقائق ، فقد كان طبيعياً أن أثوب الى رشدي ... وكنت أظن أنه سيعفيني ... أو قل سيعفينا أنا وهي ، أو أنه سيمهلنا بعض الوقت على الأقل . ولكنه لم يقبل حتى أن يمهلنا ...

(يجب أن أسوق هنا ملاحظة لا غنى عنها : كان يكفي أن يموت فرسيلوف حتى تبقى أمي في أواخر أيامها بغير قرش واحد . ولكن الثلاثة آلاف روبل التي بقيت كاملة غير منقوصة حتى لقد ضاعفتها الفوائد المتراكمة قد أوصى بها ماكار ايفانوف لأمي في السنة الماضية . كان قد حقيقة فرسيلوف منذ ذلك الحين) .

ـ قلت يوماً ان ماكار ايفانوفتش أقام عندكم عدة مرات ، وانه كان ينزل دائماً الى شقة أمي ...

ـ نعم يا صديقي ، وأعترف لك أنني كنت في البداية أخشى تلك الزيارات كثيراً . ولقد جاء طوال هذه المدة ، أي خلال هذه العشرين سنة ، ست مرات أو سبعاً لا أكثر . فكنت في الزيارات الأولى أختبيء اذا اتفق أن كنت بالمنزل . حتى انني في أول الأمر كنت لا أفهم : مامعنى هذا ؟ لماذا يجيء ؟ ولكنني بعدئذ ، بدا لي من بعض العلائم أن ذلك لم يكن منه غباءً الى الحد الذي صوّره لي خيالي . ثم ثار حب الاطلاع في نفسي عرضاً ، فمضيت أراه ، فخرجت من ذلك بانطباع طريف ، أؤكد لك . كانت تلك زيارته الثالثة أو الرابعة ، وكنت قد عينت منذ برهة

وجيزة وسيط صلح ، وصرفت همى ، كما ينبغى أن أفعل ، الى دراسة روسيا • فعرفت منه أشياء لا حصر لها • وعدا ذلك وجدت فيه ما لم أكن أتوقع أن أجده البتة : وجدت نفساً طيبة ومزاجاً متساوياً ، حتى لقد وجدت فيه ما يشبه أن يكون جذلاً ، فكان هذا أدعى الى دهشتى من كل ما عداه • لم يشر الى « الأمر » أيسر اشارة (« هل تفهم » ؟) • ورأيته يتقن فن الكلام بلغة واضحة وعبارات رائعة ، أى لم أقع فى أحاديثه على تلك الجمل المزوقة المشوشة التى يلاحظها المرء فى حديث الأفنان الخدم والتى أعترف لك بأننى لا أطيقها ولا أتحملها رغم جميع آرائى الديمقراطية ، ولم أقع فى أحاديثه على تلك الألفاظ التى يتعمد بعض كتاب المسرح الرواية أن يستعملوها فيما يكتبون بدعوى أنها « روسية صميمة » ، وبدعوى أنهم « روس صادقون » • لا ولا رأيته يتكلم فى الدين الا قليلاً جدا ، ما لم تسأله ، حتى لقد رأيته يروى أقاصيص فكهة ظريفة عن الأديرة وحياة الرهبان اذا كنت تهتم بسماعها • ولكننى وجدت فيه خاصة ، ذلك الاحترام ، احترام المرء لنفسه على تواضع وبغير تبجح ، ذلك الاحترام الذى أرى أنه الشرط الذى لابد منه للمساواة القصوى ، بل أرى أنه يستحيل على المرء بدونه أن يبلغ التفوق • فبهذه القدرة على عدم التأذى انما يستطيع المرء أن يتحكم بنفسه فيملك حسن اللهجة ، وبها انما يتجلى الانسان الذى يحترم نفسه حقاً أية كانت حاله ، وأياً كان قدره • ولسوف ترى اذا عشت أن ملكة احترام النفس هذه ، مهما تكن الظروف ، ملكة نادرة كندرة الكرامة الصادقة والوقار الحق • غير أن الشىء الذى خطف بصرى وأثار انتباهى أكثر من كل ما عداه بعد ذلك ، بعد ذلك لا فى البداية ، هو أن ماكار هذا على جانب عظيم جداً من المهابة ، وأؤكد أيضاً أنه على جانب عظيم جداً من الوسامة والجمال • صحيح أنه شيخ ، ولكنه •

« ملوح الوجه ، فارع الطول ، ممشوق القوام »

بسيط المظهر ، جليل الطلعة • حتى لقد ادهشنى أن صوفيا المسكينة فضلتنى عليه • كان عندئذ فى الخمسين من عمره ، ولكن هذا لا ينفى أنه كان رجلاً قوياً جسورا ، واننى كنت بالقياس اليه شاباً قميئا متحذلقا • على اننى أتذكر أن شيب شعره كان شديداً ، فلابد أنه كان شائباً حين تزوجها فلعل هذا ان يكون قد أثر فيها •

ان هذا الرجل فرسيلوف يتصف بما يتصف به أبناء المجتمع الراقى من تلك العادة الكريهة الباعثة على الاشمئزاز • فبعد أن قال أشياء فيهـا كثير من الذكاء وكثير من الانصاف (حين لم يستطع أن يفعل غير ذلك)، اذا هو يسف هذا الاسـفاف عامداً فيسوق ملاحظة حمقاء غبية من نوع هذه الملاحظة عن بياض شعر ماكار ايفانوفتش وعن أثر ذلك فى أمى • لقد فعل ذلك عامداً ، ربما دون أن يدرك هو نفسه لماذا فعله • انها عادة من عادات أبناء المجتمع الراقى • ولو سمعته لاعتقدت أنه يتكلم جـاداً كل الجد ، ولكنه فى قرارة نفسه انما كان يسخر أو يضحك •

٣

لا أدرى لماذا اعترانى حنق شديد رهيب على حين فجأة•اننى أمتعض الآن امتعاضاً كبيراً كلما تذكرت بعض ثورات غضبى أثناء ذلك الحديث • نهضت عن كرسيى بغتةً وقلت له :

ـ اسمع • لقد زعمت أنك انما جئت الىَّ خاصة من أجل أن تظن أمى أننا تصالحنا • وقد انقضى من الوقت ما يكفى لايهامها بذلك • فهلا تركتنى وحيداً ؟

فاحمر قليلاً ونهض قائلاً :

ـ يا عزيزى ، انك تتصرف معى بغير كلفة ولا حرج • الى اللقاء• لا تُفرض الصداقة فرضـاً • لكننى أبيح لنفسى أن ألقى عليك هـذا السؤال : هل تريد أن تترك الأمير فعلاً ؟

ـ آه •• آه ••• كنت أعلم أنك تبيت نيات معينة •••

ـ أى تظن أننى جئت لأحضك على البقاء مع الأمير لأن لى فى ذلك منفعة • ولكن ألا تعتقد أيضاً يا صديقى أننى استدعيتك من موسكو لأننى أجنى من ذلك فائدة ما ؟ ألا ما أشد حسـاسيتك وما أسرع تأذيك ! بالعكس : هذا كله لخيرك أنت • اننى أتمنى ، حتى اليوم وقد تحسنت أحوالى المالية ، أن تتيح لنا ، أنا وأمك ، أن نمد اليك يد المعونة •••

ـ أنا لا أحبك يا فرسيلوف •••

ـ تنادينى باسم « فرسيلوف » أيضاً ؟ ••• بالمناسبة : يؤسفنى أشد الأسف أننى لم أستطع أن أترك لك هذا الاسم • وذلك هو كل ذنبى اجمالاً ، اذا كان ثمة ذنب ، أليس كذلك ؟ ولكننى أكرر لك اننى لم يكن فى وسعى أن أتزوج امرأة متزوجة ، فكر فى الأمر بنفسك !

ـ لعل هذا هو السبب فى أنك أردت أن تتزوج امرأة لا زوج لها ،

هـــه ؟

فطاف بوجهه تقبض خفيف قصير وقال :

ـ تقصد مدينة « امس » • اسمع يا آركادى ! لقد أبحت لنفسك غضباً من هذا النوع منذ ساعة مشيراً الىّ باصبعك أمام أمك • فاعلم أن هذا هو الأمر الذى تخطىء فيه أكبر الخطأ ؛ انك عن هذه الحكاية مع المرحومة ليديا آخماكوفا لا تعرف شيئاًالبتة • لا ولا تعرف أن أمك قد ساهمت فيها مساهمة كبيرة ، رغم أنها لم تكن معى هناك • اذا كنت قد رأيت فى حياتى امرأة تتحلى بالفضيلة ، فانما وقع لى هذا فى ذلك الوقت حين نظرت الى وجه أمك • ولكن كفى • هذا كله لا يزال سراً ، وأنت تتكلم عما تجهل ، وتعتمد فى كلامك على اقاويل •••

ـ لقد قال الأمير ، فى هذا اليوم ، انك من عشاق الفتيات الصغار اللواتى لا خبرة لهن •

ـ الأمير قال هذا ؟

ـ نعم • اسمع : هل تريد أن أقول لك ، على وجه الدقة ، السبب الذى حضك على المجىء الى ؟ لقد ظللت أتساءل طول الوقت عن سر هذه الزيارة ، وهأنذا أكتشفه أخيراً •

كان فرسيلوف قد همّ أن ينصرف ، ولكنه وقف فجأة والتفت الى منتبهاً • قلت :

ـ لقد أفلت من لسانى منذ ساعة أن الرسالة التى بعثها توشـار الى تاتيانا بافلوفنا ، والتى وقعت بين أوراق آندرونيكوف ، صارت بعد موته الى يدى ماريا ايفانوفنا بموسكو • وقد رأيت حين قلت هذا الكلام ، رأيت فى وجهك نوعاً من التقبض • فلما رأيت الآن ذلك التقبض نفسه يلم بوجهك مرةً أخرى أدركت حقيقة الأمر : لقد راودتك هذه الفكرة حين كنا تحت : اذا عثر عنـد ماريا ايفانوفنا على رســالة كانت بين أوراق آندرونيكوف ، أفلا يمكن أن يعثر عندها على الرسالة الأخـرى أيضاً ؟

لا شك أن آندرونيكوف قد ترك رسائل تبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة الشأن وشدة الحاجة اليها ، أليس كذلك ؟

ـ ففي رأيك اذن أنني انما جئتك لاستدراجك الى الكلام ؟

ـ نعم •

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً •

هذه الفكرة ليست من عندك • انني أشم رائحة المرأة وراء أقوالك الزاخرة بالكراهية وظنونك الملأى بالشر •

ـ المرأة ؟ هذه المرأة قد رأيتها أنا في هذا اليوم نفسه • ولعلك من أجل أن تتجسس عليها انما تريد أن تبقيني عند الأمير ؟

ـ أرى أنك ستوغل في طريقك الجديد ايغالا بعيداً جداً • أتكون هذه هي « فكرتك » ؟ أكمل يا صديقي أكمل ، انك تملك من مواهب التجسس ما لا سبيل الى جحوده ! حين يؤتى المرء موهبة من المواهب فيجب عليه أن ينميها •

وتوقف فرسيلوف عن الكلام ليسترد أنفاسه •

ـ حذار يا فرسيلوف ! لا تجعلني عدوك !

ـ يا صديقي ، لا أحد في مثل هذه الحالة يفصح عن كل أفكاره ، وانما هو يحتفظ بها لنفسه • والآن هات ضوءاً ، أرجوك • مهما تكن عدوي ، فما أظن أنك تتمنى لي أن تقطع رقبتي على سلّمك •

ثم أضاف يقول وهو ينزل :

ـ هه ! ما رأيك يا صديقي في أنني ، طوال هذا الشهر ، كنت أحسبك فتى طيباً ؟ ألا انك تبلغ من شدة الرغبة في الحياة ، والظمأ الى الحياة أنك لو وهبت ثلاثة أعمار لما اكتفيت بها ! هذا مكتوب على وجهك• وأمثالك أكثرهم طيبون • لقد أخطأ ظني فيك •

٤

ليس في طاقتي أن أصف شدة انقباض صدري حين خلوت الى نفسي : لكأنني قد قطعت قطعة من لحمي . أما لماذا ثارت ثائرتي فجأة ، ولماذا أغلظت له الاهانة والايذاء الى هذا الحد عامداً ، فذلك سؤال لا أعرف له الآن جواباً ، ولا عرفت له جواباً في ذلك الحين . ولشدما اصفر وجهه! ألم يكن ذلك الاصفرار تعبيراً عن العاطفة أصفاها وأصدقها ، وعن الحزن أعمقه وأقواه ، لا تعبيراً عن الغضب والاساءة ؟ لقد بدا لي دائماً أنه في كثير من اللحظات كان يحبني ، فلماذا ، لماذا لا أصدّق اليوم هذا ، لاسيما وأن أموراً كثيرة قد اتضحت بعد ذلك ؟

ولكنني قد ثارت ثائرتي فجأة ، فطردته ، ربما لانني افترضت ذلك الافتراض الذي ساورني بغتة وهو أنه جاء اليّ آملاً أن يعرف ألا يزال عند ماريا ايفانوفنا رسائل أخرى من أوراق آندرونيكوف ؟ أما أنه كان مضطراً أن يبحث عن تلك الرسائل وأنه بحث عنها فعلاً ، فذلك ما كنت أعرفه . ولكن لعلني في تلك الدقيقة بعينها قد أخطأت الظن كثيراً . ومن يدري ؟ لعلني أنا الذي جعلته ، بخطأ ظني ، يفطن الى ماريا ايفانوفنا بعد ذلك ، وأوحيت اليه أنها قد يكون عندها رسائل !

واليكم في النهاية هذا الشيء الغريب الآخر : مرةً أخرى ردد ما يجول في خاطري كلمةً كلمةً (عن الاعمار الثلاثة) ، وذلك ما كنت قد عبرت عنه لكرافت بهذه الألفاظ نفسها . صحيح أن توارد الخواطر بالفاظها مصادفة . ولكن كيف عرف جوهر طبيعتي ؟ ما هذه البصيرة النافذة ؟ ما هذا الحدس الصدق ؟ ولكن اذا فهم شيئاً من الأشياء فهما يبلغ هذا المبلغ من القوة ، فلماذا لا يفهم الشيء الآخر ؟ هل يستطيع المرء أن

يصدق أنه كان لا يتظاهر تظاهراً ، بل كان عاجزاً بالفعل عن أن يدرك أن ما كنت في حاجة اليه ليس هو نبالة محتد فرسيلوف ، وأن ما كنت لا أستطيع أن أغفره له ليس هو مولدى من زنا ، وأننى على مدى حياتى كلها انما كنت في حاجة الى فرسيلوف ، فرسيلوف نفسه ، فرسيلوف كله ، فرسيلوف الأب ، وأن هذه الفكرة قد خالطت دمى ؟ هل يمكن لرجل أوتى هذا الفكر المرهف أن يكون ضيق النظرة فاسد الرأى الى هذا الحد ؟ واذا لم يكن كذلك ، فعلا يغيظنى ، وعلام يتظاهر ؟

الفصل الثامن

١

حاولت في الصباح التـالى أن استيقظ في أبكر وقت ممكن • وكانت العادة في بيتنا أن ننهض في نحو الساعة الثامنة ، أقصد أمي وأختي ؛ أما فرسيلوف فقد كان نئوم الضحى فلا ينهض الا في التاسعة والنصف • وكانت أمي تأتيني بالقهوة في الثامنة والنصف تماماً • لـكنني في هذه المرة لم أنتظر القهـوة ، واختفيت من البيت في الساعة الثامنة • وكنت منذ العشية قد وضعت لنهاري خطة عمل عامة • ولكني رغم عزمي المشبوب على وضع هذه الخطة موضع التنفيذ فوراً ، كنت أحس أن نفسي زاخرة بأنواع من التردد ازاء نقاط هامة من هذه الخطة• لذلك قضيت الليل كله نصف نائم ، حتى لأكاد أهذي ، ووافتني أحلام كثيرة ، فلا أستطيع أن أقول انى نمت حقاً • ومع ذلك نهضت منتعشـاً مرتاحاً كما لم أكن منتعشاً ولا مرتاحاً في أى وقت مضى • وكانت أمي هي التي أحب أن أتحاشى لقاءها خاصة • فانني معها لا أستطيع أن أتكلم الا في موضوع معين ، فكنت أخشى أن أتحول عن أهدافي بتأثير شـعور جديد لا يكون في حسباني •

كان الصباح بارداً ، وكان يتموج على الطبيعة كلهـــا ضباب رطب أبيض . لا أدرى لمـــاذا تعجبنى دائمـــاً أصــــباح بطرســـبرج التى تضج بالحركة رغم مظهرها الدميم ، ولماذا يفتننى كثيراً منظر هذه الجمهرة من الناس الأنانيين المهمومين المنصرفين الى أعمالهم مسرعين فى الساعة السابعة من البكور . وانى لأحب خاصــــةً أن أتجه الى أحد فى الطريق فأسأله عن شىء متعجلاً ، أو أن يتجه الىّ أحد بسؤال : ان الســـؤال والجواب مقتضبان دائماً ، واضــــحان ، جليـــان ، ينطق بهما الســـائل والمجيب دون أن يقفا ، ويتبادلانهما بما يشبه الصداقة فى جميع الأحيان . هـــذه لحظة من النهار يكون المرء فيها مستعداً للاجابة أحسن استعداد . ان ساكن بطرسبرج يكون فى الظهر وفى المســاء أقل اســتعداداً لتبــادل الكلام . حتى انه يكون متأهباً للتأنيب والتقريع ، أو للسخرية والاستهزاء ، لأيسر الأسباب . ولا كذلك فى البكور قبل العمل ، فهذا وقت الرصانة والجد. لاحظت ذلك .

اتجهت الى بطرسبرجسكايا ستورونا من جديد . واذ كان علىّ أن أعود حتماً الى فونتاكا ظهراً للقــاء فى بيته (لأن فاسين انما يكون بالبيت ظهرا فى أغلب الأحيان) ، فقد حثثت الخطى دون أن أتوقف فى أى مكان، رغم ما كنت أشــعر به من رغبة قوية شديدة فى ابتلاع فنجان من القهوة هنا أو هناك . ذلك أننى كان يجب علىّ أن أفاجىء ايفيم زفياريف فى بيته قطعاً قبل أن يخرج ؛ فاتجهت اليه ، وكدت أن أصل بعد فوات الأوان ، اذ كان قد فرغ من احتساء قهوته وتأهب للخروج .

ـ ما الذى يجىء بك الىّ كثيراً ؟

بهذا استقبلنى دون أن يتحرك من مكانه . قلت له :

ـ سأشرح لك .

ان بدايات النهار ، ومنها بدايات النهار فى بطرسبرج ، تحدث فى

الطبيعة الانسانية أثراً يشبه تبدد السكر . هناك أحلام ملتهبة تراود المرء في الليل ، حتى اذا طلع النور وهبَّ البرد ، وتبخرت تبخراً كاملاً . وقد اتفق لى أن تذكرت فى الصباح بعض أحلام الليل التى لم أكد أفرغ منها أو حتى بعض أفعاله ، فاذا أنا أنظر اليها نظرةً فيها لوم واشمئزاز . ولكن يجب أن أذكر مع ذلك ، عابراً ، أن أصباح بطرسبرج ، حتى أكثرها خلواً من الشعر ، هى عندى بين أصباح سائر الكرة الأرضية ، أروعها وأشدها اثارةً للخيال . هذا رأيى أنا أو قل هو شعورى أنا ، ولكننى أصر عليه . وفى نظرى أن الحلم الوحشى الذى يراه هرمان فى قصة « البنت البستونية » (وهو شخصية رائعة ، غير عادية ، تمثل نموذج الشخص البطرسبرجى ، ونموذج العهد البطرسبرجى !) ينبغى له ، فى صباح من أصباح بطرسبرج هذه ، المتعفنة الرطبة المضبة ، أن يقوى مزيداً من القوة . مائة مرة تراءت لى من خلال الضباب هذه الرؤيا العجيبة ، ولكن الثابتة : « حين سينقشع هذا الضباب ويرتفع ، ألن يحمل معه كل هذه المدينة المتعفنة الدبقة ؟ وهذه المدينة ، ألن تصعد مع هذا الضباب وتزول كالدخان ، ولا يبقى في مكانها الا المستنقع الفنلندى القديم ، ويبقى فى وسط المستنقع ـ من أجل الجمال ان شئتم ـ هذا التمثال البرونزى ، تمثال الفارس المتطى صهوة حصانه المنهوك ؟ لست أستطيع على كل حال أن أعبر عن جميع مشاعرى ، ما دام هذا كله خيالاً ، وما دام كله شعراً فى آخر الأمر ، أى سخافات ! ومع ذلك فاننى كثيراً ما ألقيت على نفسى ولا أزال ألقى على نفسى سؤالاً هو فى هذه المرة سؤال جنون مطبق : « ها هم أولاء جميعاً يركضون ويسرعون . فمن يدرى ؟ ألا يمكن أن لا يكون هذا كله الا حلماً . أن يمكن أن لا يكون ههنا انسان واحد حقيقى ، وفعل واحد واقعى ، فيكفى أن يستيقظ شخص فجأة ، أعنى الشخص الذى يرى هذا الحلم ، حتى يتبدد كل شىء ؟ » . ولكن هأنذا نأيت عن موضوعى .

أقولها سلفاً : ان فى حياة كل نسان مشاريع وأحلاماً تبلغ من الشذوذ والغرابة ، فيما يبدو ، أن المرء يستطيع من أول نظرة ودون تعرض للخطأ أن يعدها جنوناً • وان جنوناً من هذا النوع هو ما كنت أحمله فى ذلك الصباح الى زفاريف ، الى زفاريف لأننى ليس لى أحد غيره ببطرسبرج يمكن أن أتجه اليه فى هذه المرة • والحق أننى لو كنت أملك حرية الاختيار لكان ايفيم آخر من أستطيع أن أعرض له اقتراحى • وحين جلست أمامه أحسست أن الهذيان والحمى مجسدين قد جلسا أمام الاعتدال والاسفاف مشخصين • ولكن بينما كنت أنا مؤيداً بالفكرة والعاطفة الصحيحة ، كان هو لا يؤيده شيء الا هذه النتيجة العملية : ذلك لا يُعمل ! الخلاصة : أوضحت له أننى ليس لى ببطرسبرج أحد أستطيع أن اتخذه شاهداً غيره ، فى قضية شرف تبلغ مبلغاً كبيراً من الخطورة ، وأنه رفيق قديم وأنه ليس له حق فى أن يرفض ، وأننى أريد أن أدعو الى المبارزة ضابطاً من الحرس برتبة ليوتنان هو الأمير سوكولسكى ، لأنه منذ أكثر من سنة قد صفع أبى فرسيلوف بمدينة « امس » • يجب أن أذكر أن ايفيم كان على علم بجميع تفاصيل حياتى العائلية ، وعلاقاتى بفرسيلوف ، وكان يعرف كل ما أعرفه أنا نفسى عن حياة فرسيلوف • كنت قد أفضيت اليه بهذا كله مراراً ، باستثناء بعض الأسرار طبعاً • وقد أصغى الى كلامى جالساً على عادته ، مشعثاً كعصفور فى قفص ، صامتاً رصينا متعاظماً مع شعره الأشقر المنفوش • وكانت ابتسامة جامدة ساخرة قد ارتسمت على شفتيه لا تبارحهما • وكانت هذه الابتسامة مؤذية ، لا سيما وأنها ليست مقصودة ، وانما هى مرتسمة على شفتيه بغير ارادة منه • كان واضحاً أنه فى تلك اللحظة كان يحس بأنه يتفوق علىّ تفوقاً كبيراً فى الذكاء والارادة على السواء ، تفوقاً حقيقياً واقعيا • حتى لقد تراءى لى أنه يحتقرنى بسبب ما حدث أمس عند درجاتشيف • فلا بد أن يكون الأمر كذلك : ان ايفيم هو الجمهور ، ان

ايفيم هو الشارع ، والشارع لا ينحنى الا للنجاح دائماً .

قال يسألنى :

ـ وفرسيلوف ، ألا يعرف عن الأمر شيئاً ؟

ـ طبعاً لا يعرف .

ـ فبأى حق تتدخل فى شئونه ؟ ثم ... ما الذى تريد أن تبرهن عليه بهذا العمل ؟

كنت أعرف هذه الاعتراضات ، فأوضحت له فوراً أن الأمر ليس سخيفاً الى الحد الذى يتصوره . فأولاً : سأبرهن لذلك الوقح الذى هو أمير أنه لا يزال يوجد رجال يفهمون الشرف حتى بين أبناء طبقتنا . وثانياً : سأخزى فرسيلوف وألقنه درساً . وثالثاً ـ وذلك هو الشىء الأساسى : سوف يرى فرسيلوف ، ولو كان على حق فى أنه ـ لاقتناعات قائمة فى نفسه ـ لم يدعُ الأمير الى المبارزة بل تحمّل الصفعة ، سوف يرى على الأقل أن هناك مخلوقاً قادراً على أن يشعر بالاهانة التى ألحقت بفرسيولف كشعوره باهانة أُلحقت به هو ، ومستعداً لأن يضحى بحياته فى سبيله ... مع أنه ينفصل عنه الى الأبد .

ـ على مهلك .. لا تصرخ .. ان عمتى لا تحب هذا . قل لى من فضلك : أليس بين فرسيلوف وبين هذا الأمير سوكولسكى نفسه دعوى ينظر فيها القضاء بشأن ميراث ؟ انها اذن لوسيلة طريفة جديدة من أجل كسب الدعوى بقتل الخصم فى مبارزة .

فأوضحت له أنه ليس الا غبياً ووقحاً وأنه اذا كانت ابتسامته الساخرة تتسع لحظة بعد لحظة ، فما هذا الا دليل على صلف نفسه وقلة عقله ، وانه لا يستطيع أن يفترض أن هذه الاعتبارات الخاصة بالدعوى التى ينظر فيها القضاء لم تخطر ببالى منذ البداية ، وان هذه الاعتبارات لا يمكن أن تشرف بوجودها الا رأسه الخاوى . ثم عرضت له أن القضاء قد فصل فى الدعوى ، وأن فرسلوف قد كسبها ، وأن

الدعوى لا تستهدف الأمير سوكولسكى بل الأمراء سوكولسكى ، فاذا مات منهم واحد بقى الآخرون ، ولكن يحسن طبعاً تأجيل التحدى الى ما بعد انقضاء المهلة القانونية لرفع الدعوى الى محكمة النقض (رغم أن الأمراء سوكولسكى لا ينتوون رفعها الى محكمة النقض) ، وانما يحسن ذلك من باب التقيد بالمواضعات المألوفة ، حتى اذا انقضت المهلة القانونية قامت المبارزة ، ولقد جئت وأنا أعلم أن المبارزة لن تتم اليوم ، ولكننى فى حاجة الى اتخاذ احتياطاتى ، لأننى ليس لى أحد أتخذه شاهداً لى ولا أعرف احداً ، فاذا رفض ايفيم أن يكون ذلك الشاهد ، كان لى من الوقت ما يتسع للبحث عن شخص غيره على الأقل • فلهذا السبب انما جئت •

ـ ما كان عليك الا أن تجيء بعد انقضاء المهلة القانونية ، بدلاً من أن تقطع عشرة فراسخ بدون طائل •

قال ذلك ونهض وتناول كسكيته • فسألته :

ـ أتكون شاهدى اذن ؟

ـ لا ، طبعاً لا •••

ـ لماذا ؟

ـ أولاً للسبب التالى : اذا وافقت الآن على أن أكون شاهداً لك فى المستقبل ، فسوف تجيء الى هنا كل يوم طوال مدة المهلة القضائية • وثانياً لأن هذا كله سخافات لا أكثر • أتظن أننى أرضى أن أدمر مستقبلى من أجلك ؟ وماذا لو سألنى الأمير : « من أرسلك ؟ » فقلت له : ـ « دولجوروكى » ، فقال لى : ـ « وما شأن دولجوروكى بفرسيلوف ؟ » • قد يكون علىّ عندئذ أن أشرح له أصلك ، أليس كذلك ؟ لسوف يفطس اذن من فرط الضحك !

ـ فما عليك عندئذ الا أن تلطمه على خطمه !

ـ سخف !

ـ أتخاف وأنت القوى ؟ لقد كنت أقوانا جميعاً فى الليسيه •

ـ أخاف • طبعاً أخاف • ثم ان الأمير سيرفض أن يبارزك • ان المرء يبارز نداً له •

ـ أنا أيضاً بثقافتى سيد • ان لى امتيازات • اننى ند له • واذا كان أحدنا لا يرقى الى مستوى الآخر فهو الذى ليس لا يرقى الى مستواى •

ـ لا ، لا ، أنت صغير جداً !

ـ صغير ؟ كيف ؟

ـ هكذا ! نحن كلانا صغير ، وهو كبير •

ـ غبى ! اننى بحكم القانون أستطيع أن أتزوج منذ سنة •

ـ تزوج ما شئت أن تتزوج • ولكن هذا لا ينفى أنك فتى غـر لم يشب عن الطوق بعد •

أدركت أنه يريد أن يسخر منى • ولقد كان فى وسعى طبعاً أن أستغنى عن رواية هذا الجزء الغبى من قصتى ، بل لعله كان يستحسن أن يغيب هذا الجزء فى المجهول • أضف الى ذلك أنه منفر بما يتصف به من تفاهة وقلة فائدة ، رغم أنه كانت له نتائج خطيرة •

ولكن من أجل أن أعاقب نفسى مزيداً من العقـاب ، ســأروى الخاتمة • فبعد أن أدركت أن ايفيم يسخر منى ، أبحت لنفسى أن أضربه على عظم كتفه الأيمن بقبضـة يدى اليمنى • فأمســكنى عنـدئذ مـن المنكبين ، وأدارنى الى جهـة الشـارع ، وبرهن لى فعــلاً على أنه كان أقوانا جميعاً فى الليسيه •

٢

لا شك أن القارىء سيتخيل أنني حين تركت ايفيم كنت معتكر المزاج غاضباً ، ولكن القارىء سيخطىء اذا هو تخيل ذلك . فلقد كنت أدرك أن الحادث هو مما يقع بين تلاميذ مدرسة ، بين تلاميذ ليسيه ، وأنه لا يمس جوهر القضية . وقد شربت قهوة فى جزيرة فاسيلى متعمداً أن أتجنب مطعم الأمس فى بطرسبرجسكايا ستورونا : فان هذا المطعم وهزاره يثيران الآن فى نفسى كرهاً مضاعفاً . ان بى صفة غريبة : هى أننى يمكن أن أكره الأماكن والأشياء ككرهى للأشخاص تماماً . كذلك أحب فى بطرسبرج أماكن معينة سعيدة ، أعنى أماكن سعدت فيها يوماً . ومن أعجب الأمور أننى أدخر تلك الأماكن السعيدة ، أى أتعمد أن أغيب عنها زمناً طويلاً ، لأذهب اليها فيما بعد ، حين أكون وحيداً وحدة تامة ، وحين أكون شقياً شقاء شديداً ، فأمضى الى هناك نشداناً للعزاء واحياءً للذكرى . وفيما كنت أشرب القهوة ، أثنيت بينى وبين نفسى على ايفيم وقدرت فيه ما يتصف به من حسن الادراك . نعم ، انه يملك من الحسّ العملى أكثر مما أملك ، ولكن هل هو فى قلب الواقع أكثر منى ؟ ان الواقعية التى لا ترى ما هو أبعد من الأنف أشد خطراً من الخيال الجامح المجنون ، لأنها عمياء . ولكنى مع ثنائى على ايفيم (الذى لا شك أنه كان فى تلك اللحظة مقتنعاً بأننى أغمره بالشتائم مطوفاً فى الشوارع) ، لم أتخل عن شىء من اقتناعاتى كما لم أتخل عن شىء منها الى هذا اليوم . لقد رأيت أناساً ما ان ينصب عليهم سطل من ماء بارد حتى يجحدوا لا أعمالهم فحسب ، بل أفكارهم أيضاً ، وحتى يضحكوا مما كانوا منذ ساعة واحدة يعدونه مقدساً ! ما أسهل ذلك عليهم ! لعلّ ايفيم كان على حق أكثر منى حتى فى جوهر الأمر ، ولعلنى أشد الأغبياء غباءً ، ولعلنى كنت غير صادق ، ولكن

هذا لا ينفى أن فى قرارة المسألة نقطة كنت فيها أنا أيضاً على حق ، وأن عندى أنا أيضاً شيئا صحيحا عجز الناس عن فهمه خاصة فلم يدركوه فى يوم من الأيام •

وصلت الى بيت فاسين فى الزاوية التى يلتقى فيها فونتاكا وجسر سان سيمون عند تمام الظهر تقريباً ، ولكنه لم يكن فى البيت • انه يعمل فى جزيرة فاسيلى ، ولا يعود الا فى مواقيت معينة ، ومن هذه المواقيت ساعة الظهر فى جميع الأيام تقريباً • واذ كان ذلك اليوم عيداً نسيت الآن ما هو ، فقد كنت أقدر أن أجده حتماً • فلما لم أجده وطنت نفسى على انتظاره رغم أننى أجيئه أول مرة •

اليكم كيف فكرت فى الأمر : ان الرسالة التى أملكها والتى تتعلق بالميراث تثير مسألة ضمير • فاذا احتكمت الى فاسين كنت أعلن له بذلك أننى أحترمه احتراماً عميقاً فلابد أن يرضيه هذا ارضاء كبيراً • صحيح أن أمر هذه الرسالة كان يشغل بالى حقاً وأننى كنت مقتنعاً اقتناعاً شديداً بضرورة الاحتكام الى أحد • ولكن أظن أننى كنت أستطيع ، حتى منذ تلك اللحظة ، أن أخرج من هذه الصعوبة دون الاستعانة بشخص غريب • وكنت أعرف خاصة ، أنا نفسى ، أنه يكفى أن أسلم الرسالة الى فرسيلوف ، يداً بيد ، ثم فليفعل بها ما يشاء ! ذلك كان الحل • أما أن أنصب نفسى قاضياً أعلى فى قضية من هذا النوع ،فذلك أمر غير لائق البتة • وحين أسلم الرسالة ، يداً بيد ، دون أن أقول شيئاً ، فأضع نفسى فى خارج القضية ، فان كل ما يحدث عندئذ يكون لى كسباً وربحاً ، هذا عدا اننى اذ أفعل ذلك أعلو على فرسيلوف علواً واضحاً ، لأن تنازلى وحده ، من جهتى ، عن منافع الميراث (لأن جزءاً من الميراث كان سيئول الىّ ، بصفتى ابن فرسيلوف ، فى الحال أو فى المستقبل ، يهب لى حقاً معنويا فى الحكم على سلوك فرسيلوف فى المستقبل • وما من أحد كان يستطيع أن يأخذ علىّ أننى دمرت الأمراء ، لأن

الوثيقة التي أملكها ليس لهـا أي قيمة قضائية حاسمة . هذا كله فكرت فيه وقلته لنفسي بوضـــوح في غرفة فاســين الحالية ، حتى لقد خطـر ببالي فجأة انني انما جئت الى فاسين راغباً في أن أعرف منه السلوك الذي يجب عليّ أن أسـلكه ، لشيء الا أن أبرهن له في هذه المناسبة على أنني أنبل الناس وأزهدهم بالمنفعة ، فبذلك أنتقم لنفسي من مذلة الأمس .

وشعرت باشمئزاز كبير . ولكنني لم أنصرف بل بقيت ، رغم علمي بأن هذا الاشمئزاز سيزداد دقيقة بعد دقيقة .

يجب أن أذكر أولاً أنني كرهت غرفة فاسين كرهاً شديداً . من حقهم أن يقولوا : « أرني غرفتك فأقول لك من أنت ! » كان فاسين يستأجر غرفة مفروشة عند مستأجرين فقراء يتخذون من التأجير مهنة ، وكان في البيت مســتأجرون آخـرون . انني أعرفها ... هذه الحجرات الضيقة التي لا تـكاد تـكون مفروشـــة ، والتي تطمع مـع ذلك في أن تبدو مريحــة مترفة . ان فيهـا ـ بالضرورة ـ ديواناً رخواً مشترى من «سوق العتيق » ، ديواناً يخشى المرء تحريكه ، وحوضاً ، وسريراً من حديد وراء حاجز . لابد أن فاسين كان أحسن المستأجرين وأكثرهم ضمانة : ان لكل مؤجرة مستأجراً مفضلاً تحمل له الامتنان والشـكر حتماً . فغرفته ترتب ترتيباً أفضل ، وتكنس كنساً أحسن ، وفوق ديوانه توضع صــورة من الصور ، وتحت طاولته تفرش سجادة نحيلة . والناس الذين يحبون هذا النوع من النظافة التي تفوح منها رائحة العفن ويحبون ـ خاصة ـ هذا النوع من العناية والاحترام من جانب المؤجرين ، يكونون هم أنفسهم محل شبهة . ولقد كنت مقتنعاً بأن لقب « أحسن المستأجرين» كان يتملق فاسين . ولا أدري لماذا أخـذ الحنق يجتـاح نفسي شيئاً فشيئاً من رؤية هاتين الطاولتين المزدحمتين بالكتب . كانت الكتب والأوراق والمحبرة ، كان ذلك كله مرتباً يبعث على أشـد الاشـمئزاز والنفور . انه ذلك الترتيب الذي يوافق المثل الأعلى لفلسفة الجمال عند مؤجـــرة

ألمانية وخادمتها • ان الكتب كثيرة • وهى كتب حقاً ، لا جـرائد ولا مجلات ، ولا بد أنه كان يقرؤها • وأغلب الظن أنه حين يقرأ أو يكتب، يصطنع هيئة تعبر عن أشـد الوقار والجد ، وأعظم الاهتمام والانشغال • أما أنا فلا أدرى لماذا أفضل أن تكون الكتب فوضى ، فهذا على الأقل ينبىء بأن المرء يعمل بدون اغترار وتبجح • صحيح أن فاسين هذا مهذب مع الزائرين الى أقصى حد ، ولكن كل حركة من حركاته كأنها تقول : « يسرنى أن أقضى معك ساعة من الزمن ، ولكننى ، متى انصرفت أنت ، سأعود أنا الى ما كنت فيه من أمور ذات شأن • » • وصحيح أن المـرء يستطيع أن يجرى معه حديثاً شائقا جداً ، وأن يتعلم منه جديداً ، ولكن كل اشارة من اشاراته تكاد تنطق عنه قائلة : « سنتحدث معاً ، وسأشوقك كثيراً ، حتى اذا انصرفت أنت عدت أنا الى ما هو شـائق حقـاً ••• » • ومع ذلك لم أنصرف بل بقيت • وقد أصبحت الآن على يقين كامل من أننى لست فى حاجة الى نصائحه •

مكثت سـاعة بل تزيد ، جالسـا أمام النافذة ، على أحد الكرسيين المصنوعين من خيزران ، اللذين كانا هنـاك • وكان مما يزيد حنقى أن الوقت يمضى ، وأن علىّ أن أجد مسـكناً قبل المساء • وتمنيت أن أتناول كتاباً عسى أن أبدد الضجر ، ولكننى لم أفعل : فلقد كانت فكرة التسلى وحدها تضاعف اشمئزازى • ان صمتاً مطبقاً يخيم منذ أكثر من ساعة • ولكن هأنذا أميز فجأة ، على مقربة منى ، وراء الباب الذى يسده ديوان، بدون أن أريد ذلك ، وعلى نحو تدريجى ، همساً ما ينفك يقوى شيئاً بعد شيء • هما صـــوتا امرأتين ، يسمعها المرء واضحين ، ولكن يستحيل عليه أن يميز الكلام • ولكننى من فرط ضجرى حاولت أن أميز ما تقوله المرأتان • كان واضـــحاً أنهما تتكلمان بحرارة ، واندفاع ، وأن حديثهما لا يدور على ترهات • ان أحد الصوتين يتضرع ويتوسل ، وان الصوت الثانى يجيب نافد الصبر رافضاً معارضـاً • لا شك أن المرأتين مستأجرتان

أخريان • وسرعان ما تسرب الىّ الملل ، وألفت أذناى هذه الأصوات ، فكنت أصغى ، ولكننى أصغى كالآلة بلا ارادة ، حتى لقد كنت فى بعض الأحيان أنسى نسياناً تاماً أننى أصغى ، ثم اذا بحادث خارق يقع على حين بغتة : لكأن أحداً قد نط من على كرسيه بكلتا ساقيه ، أو اندفع فجأة وأخذ يقرع الأرض بقدميه • ثم سُمع أنين ، ثم سُمعت صرخة ، بل قل سمع زئير كزئير وحش غاضب لا يهمه أن يسمعه غرباء أو أن لا يسمعوه • فوثبت الى الباب ففتحته ، وفتح فى الوقت نفسه باب آخر فى نهاية الممر (وقد علمت فيما بعد أنه باب المؤجرة) ، وخرج من الباب رأسان غريبان مستطلعان • فسرعان ما انقطع الصراخ ، ولكن الباب الذى يجاور بابى فتح فجأة ، وخرجت منه ــ فيما بدا لى ــ امرأة شابة وّلت هاربة ونزلت السلم مسرعة • وقد أرادت امرأة أخرى مسنة أن تصدها عن الهرب ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فلم تزد على أن أخذت تناديها فى أنين وشكاة :

ــ أوليا ! أوليا ! الى أين تركضين ؟ آه ! •••

لكنها وقد أبصرت بابينا المفتوحين اسرعت ترد بابها دون أن تغلقه، وانما تركته مشقوقاً لتسمع ما يحدث على السلم ، الى أن غاب وقع خطى أوليا الهاربة غياباً تاماً •

رجعت الى نافذتى • وعاد الهدوء يخيم • حادث لا قيمة له ، بل لعله سخيف ! وكففت عن التفكير فيه •

بعد ذلك بربع ساعة دّوى فى الدهليز ، أمام باب فاسين ، صوت رنان طلق هو صوت رجل • وأمسكت يدٌ بقبضة الباب وشقته ، فاستطعت أن أبصر فى الدهليز رجلاً طويل القامة لابد أنه لمحنى أيضاً ، بل لابد أنه كان يتفرس فىّ ، ولكنه لم يدخل بعد ، وظل يكلم المؤجرة من آخر الدهليز ويده على قبضة الباب • فكانت المؤجرة ترد عليه بصوت نحيل منغم جذل ، وكان فى وسع المرء أن يدرك من هذا الصوت وحده أن

المرأة تعرف هذا الزائر معرفة قوية وأنها تحترمه وتقدره قدراً كبيراً ، سواء من حيث هو زائر يحظى بثقتها ، ومن حيث هو انسان مرح لطيف . وكان الرجل المرح يصيح ويمزح ، ولكن الكلام كله يدور على أن فاسين ليس في غرفته ، وأنه لن يعثر عليه أبداً ، وأن هذا لا يحدث لغيره قط ، وأنه سينتظر كما انتظر في المرة السابقة ، وكان هذا كله يبدو للمؤجرة أمراً يبلغ غاية الفكاهة . وأخيراً دخل الزائر فاتحاً الباب على سعته كلها .

انه رجل حسن الهندام ، يرتدي ثياب « سيد » كما يقال ، ولكن ليس في هيئته ما ينم عن أنه « سيد » ، رغم رغبته الواضحة في الظهور بهذا المظهر . وكان طلقاً غير متحرج ، بل قل كان وقحاً على السجية ، وهذا أقل كراهية الى النفس من رجل وقح درس نفسه مدة طويلة أمام مرآة . وكان شعره الكستناوي الذي وخطه الشيب قليلاً ، وحاجباه الأسودان ، ولحيته الكبيرة ، وعيناه الواسعتان ، كان ذلك كله لا يهب له طابعاً خاصاً ، بل يسبغ عليه لا أدري أي نوع من الشبه بجميع الناس . ان رجلاً مثله يضحك ، ويهم أن يضحك في كل لحظة ، ولكنك لاتشعر في صحبته بشيء من المرح أبداً . ومن الهزل ينتقل بسرعة الى الوقار ، ومن الوقار الى المرح ، أو الى غمزات بالأعين ، ولكن هذا كله يتعاقب فوضى وبغير علة ظاهرة . على كل حال ، لا داعي الى وصفه منذ الآن . لقد عرفت هذا السيد مزيداً من المعرفة فيما بعد ، لذلك رسمت له هنا ملامح أدق كثيراً من الملامح التي كان يمكنني أن أرسمها له لحظة فتح الباب ودخل الغرفة . فعلت ذلك على غير ارادة مني . ومع هذا يصعب عليّ حتى هذا اليوم أن أقول عنه أي شيء محدد دقيق معين ، لأن الطابع الرئيسي الذي يطبع أمثاله هو أنهم أناس غير مكتملين ، أناس مبعثرون ، أناس غير محددين .

ما ان جلس حتى خطر ببالي فجأة أنه لابد أن يكون زوج أم

فاسين ، وهو رجل يقال له السيد ستيبلكوف ، سبق أن سمعت عنه شيئاً ، ولكنني سمعت ما سمعته عرضاً فيستحيل عليّ أن أتذكر ما هو : كل ما أتذكره هو أن ما سمعته لم يكن خيراً . كنت أعلم أن فاسين اليتيم قد لبث مدة طويلة في كنفه ، ولكنه تحرر من سلطانه منذ سنين كثيرة ، وأن أهدافهما ومصالحهما متعارضة ، وأنهما يعيشان الآن منفصلين في كل أمر من الأمور . وقد تذكرت أيضاً أن ستيبلكوف هذا يملك بعض الثراء ، بل أنه رجل نصاب ، أي انني لعلني كنت قد عرفت عنه أشياء فيها مزيد من التفاصيل ، لكنني نسيتها .

شملني بنظره دون أن يحييني . ووضع قبعته العالية على الطاولة أمام الديوان ، وأبعد الطاولة بقدمه بدفعة قوية ، وجلس على الديوان الذى لم أجرؤ أنا أن أجلس عليه ، بل قل تهاوى عليه تهاوياً بلغ من الثقل أنني سمعت الديوان يقرقع تحته ، وترك ساقيه تتدليان ، ثم رفع طرف قدمه اليمنى التى تنتعل حذاء لماعاً وأخذ يتأمل الحذاء . ولكنه لم يلبث أن التفت اليّ وقاسني بعينيه الواسعتين الجامدتين قليلاً . وقال وهو يهز لى رأسه هزاً خفيفاً :

ــ لن أراه اذن قط !

فلم أجب بكلمة .

ــ ليس سليماً . له آراء في كل أمر . قادم من بطرسبرجسكايا ستورونا !

سألته :

ــ أأنت قادم من بطرسبرجسكايا ستورونا ؟

ــ بل أنا الذى أسألك هذا السؤال .

ــ أنا ... أنا قادم من هناك فعلاً ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟ .

ــ كيف ؟ هم ...

وغمز بعينه . ولكنه لم يتنازل فيتفضل بالاجابة .

قلت :

ـ أنا لا أقيم فى بطرسبرجسكايا ستورونا ، ولكننى قادم منها ، فمنها انما جئت الى هنا .

وظل يبتسم صامتاً ، وكانت ابتسامته تصطنع طابع الخطورة ، فكرهتها كرهاً شديداً : ان فيه شيئاً مما فى البلهاء .

وقال أخيراً :

ـ عند السيد درجاتشيف ؟

ـ ماذا عند السيد درجاتشيف ؟

وحملقت .

فنظر الىّ وقد لاح فى هيئته معنى الانتصار . قلت :

ـ أنا لا أعرف درجاتشيف !

ـ همْ ...

قلت :

ـ كما تشاء .

وأصبح الآن كريهاً الى نفسى مقيتاً .

ـ همْ .. نعم .. لا ! .. اسمح لى . هب أنك تشترى شيئاً من دكان وأن مشترياً ثانياً يشترى شيئاً آخر من دكان آخر مجاور ، فما هو هذا الشىء الآخر فى رأيك ؟ هو مال عند بائع يسمونه مرابياً .. ذلك أن المال هو أيضاً شىء ، وأن المرابى هو أيضاً تاجر .. هل تتابع كلامى ؟

ـ أظن .

ـ ويمر مشتر ثالث فيقول مشيراً الى أحد الدكانين « هذا حسن »

ويقول مشيراً الى الدكان الآخر « هذا غير حسن » ، فما عسى يكون رأيي في هذا المشترى ؟

ـ ما يدريني أنا !

ـ لا ، اسمح لى ٠ لقد ضربت مثلاً ٠ لابد للانسان من أن يضرب أمثلة ٠ هب أنني أتجول في شارع نفسكي، فلاحظت على الرصيف المقابل في الجهة الأخرى من الشارع رجلاً آخر أحب أن أعرف طبعه ٠ ثم وصلنا كلانا الى شارع مورسكايا حيث « المخزن الانجليزى » ، فلاحظنا متجولاً ثالثاً داسته عربة ٠ انتبه الآن انتباهاً قوياً : ان شخصاً رابعاً يمر فيريد أن يعرف طباعنا نحن الثلاثة جميعاً ومنا الرجل الذى داسته العربة ، أقصد يريد أن يعرف طباعنا من حيث الروح العملية والميل الى الأمور الجدية ٠٠ هل تتابع كلامى ؟

ـ معذرة ٠ انني أتابع ، ولكن بصعوبة شديدة ٠

ـ نعم ، هذا ما قدرته ٠ فسأغير الموضوع ٠ هب أنني فى مدينة من مدن المياه المعدنية بألمانيا ، كما سبق أن ذهبت الى هناك مراراً كثيرة ٠ ليس مهماً أن أعين اسم المدينة ٠ وأتجول فأرى انجليزاً ٠ ولكن ها نحن أولاء جميعاً ، بعد شهرين ، وقد انتهى الموسم ، نلتقى فى الجبال ، ونمضى نتسلق معاً ، متوكئين على عصى مدببة الأطراف ، فنصعد تارةً فى جبل وتارةً فى جبل آخر ٠ لا قيمة لسؤالك عن الجبل أى جبل هو ؟ يستوى أن يكون هو هذا الجبل وأن يكون ذاك ٠ ولكن هب أنني عند المنعطف ، أى فى خاتمة الشوط ، هناك حيث يقطر الرهبان خمرتهم ، التقيت بواحد من سكان الجبل وقف جامداً معتزلاً ينظر فى صمت ، فأردت أن أعرف مدى ما يتصف به من روح الجد : فما رأيك ؟ هل أستطيع أن أتجه بالكلام الى الانجليز الذين أسير معهم بعد أن لم أستطع فى مدينة المياه أن أجرى أى حديث بينى وبينهم ؟

ـ ما يدريني ! معذرة • انني أجد في متابعة كلامك عناءً كبيراً •

ـ كبيراً ؟

ـ نعم ، انك تتعبني •

ـ همْ ••

وطرف بعينه وحرك يده باشارة لا شك أنها كانت تعبر عن معنى الانتصار والظفر • ثم استل من جيبه بوقار كبير وهدوء شديد ، جريدة لابد أنه اشتراها منذ برهة قصيرة ، ففضها وأخذ يقرأ في الصفحة الأخيرة منها ، كأنه يريد أن يدعني في راحة تامة • ولبث خمس دقائق لا يرفع اليَّ بصره •

ـ لم تنزل أسعار أسهم « برست جريف » ، هه ؟ انها لا تزال في ارتفاع ! ما أكثر الأسهم التي تدهورت أسعارها •

قال ذلك وهو ينظر اليَّ مهتماً أبلغ الاهتمام • قلت :

ـ مازلت لا أعرف عن شئون البورصة كثيراً •

ـ أأنت تستنكر ؟

ـ أستنكر ماذا ؟

ـ المال •

ـ لا أستنكر المال •• ولكنني أرى أن منزلة الفكرة قبل منزلة المال •

ـ أي •• معذرة •• هب أن رجلاً هو رأسمالي كما يقال ••

ـ الفكرة أولاً ، والمال بعد ذلك • فبدون فكرة عليا ينهار المجتمع رغم كل ما يملكه من مال •

لا أدري حقاً لماذا تحمست • ونظر اليَّ بشيء من الغباء ، كرجل

أصبح لا يعرف كيف يخرج من المأزق ، ثم تهللت أساريره فجأة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ماكرة وقال :

ـ وفرسيلوف ، هه ؟ حظى بالغنيمة ، هـه ؟ خكموا له أمس ، هه ؟

فرأيت فجأة ، وعلى دهشة كبيرة منى ، أنه يعرف مَنْ أنا منذ مدة طويلة ، وأنه ربما كان يعرف أشياء كثيرة أيضاً . ولكننى لا أفهم لماذا احمر وجهى فوراً ، وشخصت ببصرى اليه شخوصاً غبياً أبله فلا أشيح عنه لحظة . فكان واضحاً أنه انتصر ، وكان ينظر الىّ فرحاً كأنه قبض علىّ بحيلة ماكرة ، وأمسكنى متلبساً بالجرم . ثم رفع حاجبيه وقال :

ـ لا ! اسألنى أنا عن السيد فرسيلوف ! ماذا قلت لك منذ هنيهة عن الحد فى الأمور ؟ منذ سنة ونصف كان فى وسعه أن يتم صفقةً كبيرة بواسطة ذلك الطفل ، ولكن ضربته لم تصب هدفها ، ودق عنقه ..

ـ بواسطة أى طفل ؟

ـ بواسطة طفل لا يزال رضيعاً ، وهو ينفق على حضانته سراً . ولكنه لن يجنى من ذلك شيئاً ، لأن ..

ـ أى طفل رضيع ؟ ما هو الموضوع ؟

ـ هو ولده طبعاً ، هو ولد له من « الآنسة » ليديا آخماكوفا .. « فتاة فتانة كانت تلاطفنى » ، فوسفور أعود الثقاب ، هه ؟

ـ ما هذه السخافات ؟ انه لم يولد له ولد من آخماكوفا أبداً !

ـ غريب أمرك ! أين كنت أنا اذن ؟ يخيل الىّ مع ذلك أننى طبيب ومولد . ان اسمى ستيبلكوف . ألا تعرفنى ؟ صحيح أننى فى ذلك الحين كنت قد انقطعت عن ممارسة مهنة التوليد منذ مدة طويلة . ولكننى كنت أستطيع أن أسدى بنصيحة عملية فى حالة عملية .

ـ أنت مولد .. هل ولدت آخماكوفا ؟

ـ لا ، لم أولدها أبداً . وانما كان هناك ، فى الضاحية ، طبيب اسمه جرانتس ، مثقل بأعباء أسرة ، أعطى نصف دينار ، وهو المبلغ الذى يدفع هناك للأطباء ، ثم انه عدا ذلك لم يكن قد استدعاه أحد . المهم أنه ذهب وناب منابى . فأنا الذى أوصيت به لتزداد الظلمات كثافة . هل تتابع كلامى ؟ أنا من جهتى لم أزد على أن أسديت بنصيحة جواباً عن سؤال من فرسيلوف ، من آندره يتروفتش فرسيلوف ، سؤال التمس فرسيلوف جوابه منى سراً ، ولكن فرسيلوف فضّل أن يطارد أرنبين فى آن واحد .

كنت أصغى الى كلامه مندهشاً أعمق الاندهاش .

ـ والمثل يقول عندنا ، بل عند الشعب : « من طارد أرنبين لم يستطع أن يصطاد أياً منهما » . وأنا أقول : ان الاستثناءات اذا تكررت أصبحت هى القاعدة العامة . لقد طارد أرنباً ثانياً ، أو قل بالروسية الفصيحة طارد سيدة ثانية ، فلم يظفر بأية نتيجة ! طير فى اليد خير من عشرة طيور على الشجرة . انه يتردد حيث يجب الاسراع . فرسيلوف ! ألا انه « نبى للنساء » ، كما وصفه أمامى الأمير الشاب سوكولسكى فأحسن الوصف أيما احسان . لا ، انك لتعجبنى حقاً ! اذا أردت أن تعرف أشياء كثيرة عن فرسيلوف ، فتعال اسألنى أنا !

كان واضحاً أنه معجب بفمى الذى تدور من فرط الدهشة ! اننى لم أسمع عن هذا الطفل الرضيع قبل ذلك أبداً . وفى تلك اللحظة قرقع باب غرفة الجارتين ، ودخل الى غرفتهما شخص مسرع .

ـ فرسيلوف يسكن فى سيمينوفسكى بولك ، شارع موجايسك ، عمارة لتفينوفا ، رقم ١٧ ؛ أنا قادمة من مكتب العناوين !

بذلك صاح صوت امرأة غاضبة . وكانت كل كلمة من كلماتها

مسموعة . فقطب ستيلكوف حاجبيه ، ورفع أصبعه أعلى من رأسه وقال :

ـ نحن نتكلم عنه هنا ، وها هو ذا يظهر .. تلك هي الاستثناءات التي تتكرر ! صدق المثل : أذكر الديب وحضر القضيب ..

ونهض عن مكانه بوثبة فجلس على الديوان ووضع أذنه على الباب الذي كان يسده هذا الديوان .

دهشت دهشة شديدة . لقد أدركت أن تلك الصرخة لابد أنها صادرة عن المرأة الشابة التي هربت منذ قليل مهتاجة اهتياجاً كبيراً . ولكن ما شأن فرسيلوف هنا ؟ وعاد الصراخ الذي سمعته منذ قليل يدوي مسعوراً . انه صراخ انسان قد جن غضباً لأنه يمنع عنه شيء ما ، أو يصد عن فعل شيء ما . وكان الفرق الوحيد هو أن الصرخات أو الاعوالات قد دامت الآن مدة أطول . كان ثمة صراع ، وكلمات عجلى سريعة : « لا أريد ، لا أريد » ، « ردوه هذا ، ردوه هذا ، حالاً » ، أو شيئاً من هذا القبيل لا أستطيع أن أتذكره تذكراً دقيقاً . وكما حدث من قبل ، وثب أحد الى الباب فجأة ففتحه ، واندفعت المرأتان في الدهليز تحاول احداهما أن تصد الأخرى عن الهروب ، كما وقع منذ قليل . فاذا بصاحبنا ستيلكوف الذي كان قد نزل الى أسفل الديوان وراح يصغي متلذذاً ، اذا به يثب الى الباب دفعة واحدة ويخرج الى الدهليز متجهاً الى المرأتين . واقتربت أنا أيضاً من الباب بطبيعة الحال . ولكن ظهور ستيلكوف في الدهليز كان له أثر كأثر سطل من ماء بارد : فما ان رأته الجارتان حتى أسرعتا تغيبان في غرفتهما ، وتغلقان بابهما فيقرقع . وقد هم ستيلكوف أن يركض وراءهما ، لكنه توقف رافعاً اصبعه مبتسماً مفكراً . فرأيت في ابتسامته هذه المرة شيئاً فيه أقصى الخبث والشر واللؤم . حتى اذا أبصر المؤجرة واقفة أمام بابها من جديد ، أسرع اليها سائراً على رءوس الأصابع ، ولبث يهامسها مدة دقيقتين ، فكان واضحاً أنه حصل منها على

بعض المعلومات ، ثم قفل راجعاً الى الغرفة بخطى فيها اختيال وثبات ، وتناول من على الطاولة قبعته العالية ونظر الى وجهه في المرآة ، ورتب شعره ، ومضى الى باب الجارتين حتى دون أن ينظر الىَّ ، فظل يتنصت عليهما دقيقة ، وقد ألصق بالباب أذنه وراح يرسل الى المؤجرة عند الطرف الآخر من الدهليز غمزات تحمل معنى الانتصار ، فكانت المؤجرة تهدده باصبعها وتهز رأسها كأنها تقول : « آ .. يا للعفريت .. يا للعفريت ! » . ثم هاهو ذا ينقر على بابهما بسلاميات يده وقد لاح في وجهه عزم يخالطه ترفق وتلطف . وها هو ذا صوت من الداخل يسأل :

ــ من ؟

ــ هل يؤذن لى بالدخول ، لأمر بالغ الخطورة ؟

كذلك أجاب ستيبلكوف بصوت عال فيه وقار ورصانة . فلم يفتح الباب بسرعة ، ولكنه فتح مع ذلك ، فتح في أول الأمر قليلاً أو قل شق شقاً ، غير أن ستيبلكوف أمسك قبضته امساكاً قوياً ، فلا يستطيع أحد أن يعيد اغلاقه . وبدأت المحادثة ، فكان ستيبلكوف يتكلم بصوت عال ، وما ينفك يحاول أن يدخل الغرفة . لا أتذكر الكلمات التى قالها ، ولكن حديثه كان يدور على فرسيلوف ، وكان يذكر أنه يستطيع أن يجىء بأخبار ، وأن يزود بايضاحات ، وكان يردد : « لا ، اسألانى أنا ، اسألانى أنا » وهلم جراً . ولم يلبث أن أُدخل بسرعة . فرجعت الى ديوانى ، وأخذت أنصت ، لكننى لم أستطع أن أميز كل شىء ، وانما كنت أسمع اسم فرسيلوف يتردد كثيراً . وحزرت من نبرة الصوت أن ستيبلكوف قد سيطر على الحديث ، فهو الآن لا يتكلم مخاتلاً بلف ودوران ، بل يجرى كلامه طلقاً حاسم اللهجة ، كحديثه معى منذ قليل ، فتارة يسأل قائلاً : « هل تتابعان ما أقول ؟ » ، وتارة يقول آمراً : « دعانى أوغل مزيداً من الايغال الآن ! » وما الى ذلك . ولكن لابد أنه كان لطيفاً غاية اللطافة مع

المرأتين . وقد جلجلت ضـــحكة منذ الآن مرتين ، وأغلب الظن أنه كان ضـحكا في غير محله ، لأنني كنت أسـمع ، عدا صوته وأعلى من صوته أحيـاناً ، صـــوتي المرأتين اللذين لا يعبران عن أي ابتهاج ، ولاسـيما صوت المرأة الشابة الذي أطلق الصرخات قبل ذلك . كانت هذه المرأة الشابة تتكلم كثيراً ، بلهجة عصبية ، وسرعة ظاهرة ، من أجل أن تتهم وتتشكى وتطالب بالعدل حتماً . ولكن ستيبلكوف لا يبقى هادئاً : فها هو ذا يرفع صـــوته أكثر فأكثر ، ويزداد ضـــحكه لحظة بعد لحظة . ان أشخاصاً من نوعه لا يحسنون الاصغاء الى الآخرين . ولم ألبث أن نزلت عن الديوان ، اذ بدا لي أن من العيب أن أتنصت ، ورجعت الى مـكاني السـابق أمام النافذة على كرسي الخيزران . وكنت مقتنعاً بأن فاســين لا يضمر لهذا السيد أي اعتبار ، ولكن لو أفصحت له عن رأيي ، لهبَّ يدافع عنه برصـانة ووقار ، ولأخذ يلقنني درسـاً فيقول : « هذا رجل عملي ، انه واحد من رجال الأعمال هؤلاء المحدثين الذين يستحيـل أن نحكم عليهم من وجهة نظرنا العامة المجردة » . واني لأتذكر من جهـة أخرى أنني كنت في تلك اللحظة محطم النفس وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً وكنت أنتظر أن يقع حادث ما . وانقضت عشر دقائق ، فاذا أنا أسمع فجأة ، في وسط ضـحكة فظيعة ، وثوبَ أحدٍ عن كرسيه ، كما حدث منذ برهة ، وأسمع المرأتين تصرخان ، وأسمع وثوب ستيبلكوف أيضاً ، وألاحظ أنه أصبح يتكلم بلهجة أخرى ، كأنه يحاول أن يبرر نفسه ، كأنه يضرع الى المرأتين أن تتكرما فتسمعا كلامه الى نهايته ... ولكنهما لم تصـغيا اليه . ودوت صرخات : « أخـرج من هنا ! ما أنت الا وغد ! ما أنت الا وقح ! » . كان واضحاً اذن أنه يُطرد . وقد فتحت باب غرفتي في اللحظة التي خرج فيها ستيبلكوف الى الدهليز من عند الجارتين مدفوعاً بأيديهما دفعاً . فلما رآني يصرخ مشيراً اليَّ قائلاً لهما :

ــ هذا ابن فرسيلوف !

وأضاف :

ـ لم تريدا أن تصدقاني ••• فانظرا اذن ! هذا هو ابنه بنفسه ، هذا هو بعينه !

وقبض على يدى قبضاً قوياً ، دون أن يضيف الى ما قاله شيئاً •

كانت المرأة الشابة في الدهليز • وكانت المرأة المسنة فى شق الباب على مسافة خطوة منها • أتذكر أن الفتاة المسكينة لم تكن دميمة : انها فى نحو العشرين من العمر ، ولكنهـا نحيلة هزيلة مريضـة الهيئة ، يضرب لونها الى الحمرة ، وتشـبه أختى بعض الشبه وجهـاً ، وتلك سمة خطفت بصرى ، ونقشت فى ذاكرتى • ولكن ليزا ما اجتاحتها فى يوم من الأيام ـ ولا أمكن أن تجتاحها فى يوم من الأم ـ نوبة غضب شبيهة بنوبة الغضب التى تهز الانســانة التى تقف أمامى الآن • كانت شـفتاها بيضـاوين ، وكانت عيناها الشهباوان تقدحان شرراً ، وكانت ترتعش من شـدة الحنق من قمة رأسـها الى أخمص قدميها • أذكر أيضـاً أننى أنا نفسى كنت فى وضع يبلغ غاية الغباء والخزى ، فاننى لم أجد كلمة أقولها ، بجريرة هذا الرجل الفظ الوقح •

ـ هبه ابنه ! ما قيمة ذلك ؟ واذا كان فى صحبتك فلابد أن يكون وغداً حقيراً مثلك •

والتفتت الىّ فقالت لى :

ـ اذا كنت ابن فرسيلوف فأبلغ أباك عنى أنه سافل ، منحط ، وأننى لست فى حاجـة الى ماله •• خذ •• خذ •• خذ •• ردّ اليه هذا المـال فوراً •

واستلت من جيبها عدة أوراق نقدية • ولكن المرأة المسنة (وهى أمها كما عرفت ذلك فيما بعد) أمسكت ذراعها وقالت لها :

ـ ولـكن قد لا يـكون كلامه صحيحاً يا أوليا ! قد لا يكون هذا ابنه !

فألقت عليها أوليا نظرة سريعة ، وفكرت ، وتفرست فيَّ باحتقار ، وعادت تدخل غرفتها ، ولكنها قبل أن تغلق الباب ، وقفت على العتبة ، وشملت ستيبلكوف بنظرها مرة أخرى وقالت له :

ـ اخرج من هنا !

حتى لقد قرعت بقدمها الأرض ! ثم خبطت الباب فأغلقته ، وسمع صوت اقفاله من الداخل بالمفتاح . وكان ستيبلكوف ما يزال قابضاً على كتفي ، فرفع اصبعه وقد تمدد فمه بابتسامة طويلة تنم عن تفكير ، ثم حدق الىَّ بنظرة سائلة مستفهمة ، فجمجمت أقول له .

ـ أرى سلوكك معي سخيفاً ومعيباً .

ولكنه كان لا يصغي الى كلامي ، ورغم أنه لم يحول بصره عني . وتمتم يقول حالم الهيئة :

ـ هذا ما ينبغي أن يد .. ر .. س !

ـ ولكن كيف تجرأت أن تقحمني في هذه الأمور ؟ من هذه ؟ من هذه المرأة ؟ لقد أمسكت كتفي وجررتني . ما هذا الفعل ؟

ـ أوه ! امرأة فقدت بكارتها « الاستثناء الذي يتكرر كثيراً » . هل تتبع كلامي ؟

وغرز اصبعه في صدري . فقلت وأنا أدفع اصبعه :

ـ دعني ! شيطان يأخذك !

ولكنه أخذ يضحك فجأة ، أخذ يضحك ضحكاً هادئاً رفيعاً جذلاً . وأخيراً وضع قبعته على رأسه ، ثم قال وقد تغيرت سحنته واربد وجهه وتقطب حاجباه :

ـ يجب نصح المؤجرة . عليها أن تطردهما من الشقة،وأن تطردهما بأقصى سرعة ، والا ... سوف ترى ! احفظ ما أقوله لك ، ســـوف ترى ...

وظهر عليه الابتهاج ، وقال يسألني :

ـ أتنتظر جريشا ؟

فأجبته بجزم :

ـ لا ، لن انتظره .

ـ طيب . سيان !

وبدون أن يضيف حرفاً واحداً ، أدار ظهره وخرج ، وأخذ يهبط السلم حتى دون أن يلقى نظرة على المؤجرة التى كان يبدو عليها أنهـا تنتظر منه ايضاحات وأنباء . وتناولت قبعتى أنا أيضاً ، وأسرعت أنزل بعد أن رجوت المؤجرة أن تبلغ فاسين أن دولجوروكى جاء اليه .

٣

أضعت وقتى . فهـأنذا أبادر الى البحث عن مسكن منذ خرجت . كنت ذاهلاً . وظللت أطوف فى الشوارع عدة ساعات . ودخلت خمسة بيوت مفروشة أو ستة ، لكننى واثق بأننى مررت بنحو عشرين بيتاً دون أن ألاحظها . ما كنت لأتصور أن العثور على مسكن أمر يبلغ هذا المبلغ من الصعوبة . لذلك ضاق صدرى ضيقاً شديداً . ان جميع الغرف التى رأيتها تشبه غرفة فاسين ، بل هى أسوأ منها ، وكراؤها مع ذلك باهظ جداً ، أو هو فوق طاقتى المالية . ولم أكن فى حاجة الى أكثر من ركن أضطجع فيه . فكنت اذا أفصحت عن هذا أُجاب فى احتقار بأن علىّ اذن أن أتجه الى أناس ممن « يؤجرون أركاناً » .زد على ذلك أن جميـــع البيوت التى رأيتها كانت تزدحم بمستأجرين شاذين يكفى أن أنظر الى سحنهم حتى أحس أننى لا أستطيع أن أساكنهم ، بل أننى مستعد لأن أدفع مالاً من أجل ألا أعيش بجوارهم . ففى أحد البيوت مثـلاً رأيت أناساً بغير ردنجوت ، يبلغ عددهم عشرة أشخاص ،يرتدون صديرة ، وقد تشعثت لحاهم ، وظهر عليهم الفضول ، وليس فى سلوكهم أى تحرج، قد احتشدوا فى غرفة ضيقة شديدة الضيق وراحـــوا يلعبون بالورق ويشربون البيرة . وقد عُرضت علىّ فى ذلك البيت غرفة الى جانب تلك الغرفة . وفى بيت آخر انهمرت علىّ أسئلة المؤجرين فكنت أنا الذى أجيب عن الأسئلة ، وبلغت اجاباتى من الغباء أنهم كانوا ينظرون الىّ دهشين . وفى بيت ثالث ثارت ثائرتى وغضبت . ولا داعى الى وصف هذه التفاصيل التافهة على كل حال . وانما أردت أن أقول اننى وقد تعبت تعباً شديداً، أصبت شـيئاً من طعام فى نزل حين هبط المساء وكاد الظلام أن يخيم . وانتهيت الى اتخاذ قرار حاســم هو أن أذهب وحـــدى وبنفسى الى

فرسيلوف ، فأسلمه الرسالة الخاصة بالميراث (دون أى شرح أو تعليق) ، ثم أصعد الى فوق فآخذ أمتعتي فأملأ بها حقيبتي وصرة ، وأمضى الى فندق أبيت ليلتى فيه • كنت أعلم أن فى آخر شارع أوبلوخوف ، بقرب « قوس النصر » فنادق يستطيع المرء أن يكترى فيها لنفسه غرفة مستقلة بثلاثين كوبكاً • فقررت أن أبذل هذه التضحية فى تلك الليلة حتى لا أبقى عند فرسيلوف مدة أطول • ولكننى حين مررت أمام « معهد التكنولوجيا » ، خطر ببالى فجأة أن أدخل على تاتيانا بافلوفنا التى تسكن فى شقة أمام المعهد • وكانت حجتى التى عللت بها نفسى للدخول على تاتيانا بافلونا هى هذه الرسالة نفسها التى تتعلق بالميراث ، ولكن رغبتى هذه التى لا تقاوم انما كانت لها أسباب أخرى الآن ، وهى أسباب أعجز اليوم عن وصفها : كان قد حدث فى فكرى خلط عجيب بين « الطفل الرضيع » و « الاستثناءات التى تصبح قاعدة عامة » ، وما الى ذلك • ترى أكنت أريد أن أروى شيئاً ، أم كنت أريد أن أصطنع أوضاعاً ، أم كنت أريد أن أشاجر تاتيانا بافلوفنا ، أم كنت أريد أن أبكى ؟ لست أدرى ، ولكننى صعدت سلم تاتيانا بافلوفنا • لم أكن قد زرتها الى مرة واحدة قبل اليوم ، فى بداية اقامتى بموسكو ، وذلك لأنقل اليها رسالة من أمى لا أذكر الآن ما هى ، ولكننى أذكر أننى دخلت على تاتيانا بافلوفنا ونقلت اليها الرسالة وانصرفت بعد دقيقة ، فلا أنا جلست ولا هى منعتنى من الانصراف •

قرعت الجرس • فسرعان ما فتحت لى الطباخة الباب ، وأدخلتنى صامتة لا تتكلم • ان هذه التفاصيل ضرورية جدا من أجل أن نفهم كيف أمكن وقوع ذلك الحادث الخارق الجنونى الذى كان له شأن خطير فى كل ماتبعه من أحداث • ولنبدأ بالكلام على الطباخة • انها فنلدية سيئة الطبع فطساء الأنف أظن أنها كانت تكره مولاتها تاتيانا بافلوفنا ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت لا تستطيع أن تنفصل منها ، وكانت تتعلق بها تعلقاً شديدا كتعلق العوانس بكلابها ذات الأنوف الرطبة ، أو بقططها الغافية

دائمـاً . كانت الفنلدية تتقلب بين حالتين : فهى اما متأففـة متذمـرة ، واما صامتة في اثر شـــجار تظل خرساء لا تنطق بحرف واحـد خـلال أسابيع بكاملهـا عقاباً لمولاتها . ولا شـك أن مجيئى قد صـادف يوماً من أيام الصمت هذه ، لأننى حين سـألتها : « هل السـيدة فى البيت ؟ » ـ وقد ألقيت سـؤالى واضحاً كل الوضـوح فيما أتذكر ـ لم تجبنى بكلمة ، ورجعت الى مطبخهـا دون أن تفتح فمهـا . واذ ظننت عنـدئذ أن السيدة فى البيت ، دخلت غرفة الاستقبال ، ولكننى لم أجد أحداً ، فانتظرت ، ظناً منى أن تاتيانا بافلوفنا لن تلبث أن تخرج من غرفتها ، والا فهل كان للطباخة أن تدخلنى ؟ ولبثت واقفاً مدة دقيقتين أو ثلاث . وكان الظلام يخيم ، وكانت شقة تاتيانا متجهمة فى ذاتها من كثرة ما يتدلى فيها من ستائر وقماش هنا وهناك . ولنقل الآن كلمتين عن هذه الشقة الكريهة من أجل أن يتصور القارىء هذا المكان الذى وقع فيه الحادث . ان تاتيانا بافلوفنا ، بسبب طبعها المستبد العنيد ، وبسبب ما تتصف به مـن حب الظهور بمظهر السـادة النبـلاء ، لم تستطع أن تكتفى بغرفة مفروشة ، فاستأجرت هذا المسكن الذى يحاكى شقة ، لا لشىء الا أن تعيش فيـه مستقلة وأن تكون سيدة بيتها . والحق أن الغرفتين اللتين تتألف منهمـا هذه الشقة أشبه بقفصين من أقفاص عصافير الكنارى ، قد التصق أحدهما بالآخر ، وكان كل منهما أصغر من أخيه . وهما تقعان فى الطابق الثانى ، وتطلان على فناء العمارة . انك حين تدخل هذه الشقة يطالعك فى أول الأمر ممر صغير ممطوط ، لا يزيد عرضـــه على متر ، ثم ترى قفصى عصافير الكنارى على يسارك ، فاذا نظرت الى أمام ، عند آخـــر الممر ، أبصرت مدخل مطبخ صغير . ان الأربعة عشر متراً مربعاً من الهواء ، التى لابد منها للانســـان حتى يعيش اثنتى عشرة ساعة ، قد تكون متوفرة فى هذا البيت ، ولكن لا شك أنه لا يتوفر فيه من الهواء أكثر من ذلك . الغرفتان واطئتان الى حد مخيف ، والأبشع من هذا أن النوافذ والأبواب

والسقف والجدران والأثاث ، أن كل ذلك كان مكسواً أو مغطى بقماش من قطن ، قماش فرنسي جميل مشجر ، لذلك تبدو الغرفة أضيق من واقعها مرتين ،حتى لكأنها جوف عربة • ولقد كان المرء يســتطيع في الغرفة التي كنت أنتظــر فيها أن يتحرك ملتفتاً اذا أراد ، رغم أن المكان مزدحــم بالأثاث ، ولم يـكن الأثاث رديئــاً : ففي الغرفة أنواع شتى من الطاولات الصغيرة المصنوعة من خشب مرصع مزدان بالبرونز ، وفيهــا أنواع من العلب ، ومنضدة لأدوات الزينة رائعة الجمال بل واسعة الثراء • أما الغرفة الصغيرة الأخرى التي كنت أتوقع أن تخرج منها تاتيانا بافلوفنا ، وهي غرفة النوم التي تفصلها عن الأولى ستارة ، فليس فيها الا سرير كما عرفت ذلك من بعد • ان هذه التفاصــيل كلهــا ضرورية لفهم الحماقة التي ارتكبتها •

انتظرت لا يساورني أي شك • واني لكذلك اذا بالجرس يرن • وسمعت الطباخة تجتــاز الممر بغير تعجل ، وتُدخــل عدداً من الزوار صامتة ، كما فعلت معي منذ قليل • هما سـيدتان تتكلمان كلتاهما بصوت عال • • ولكن ما كان أشد دهشتي حين تعرفت صوت احداهما فعرفت أنها تاتيانا بافلوفنا ، وتعرفت صوت الثانية فعرفت أنها المرأة التي لم أكن متهيئاً لأن ألقاها الآن أبداً ، ولا سيما في هذا المكان ! لا شك في أنهــا هي ، « امرأة الأمس » ! فما العمل ؟ انني لا ألقي هذا الســؤال على القارىء • وانما أنا أتخيل تلك الدقيقة لنفسي ، وما زلت الى اليوم عاجزاً عجزاً مطلقاً عن أن أفسر لنفسي كيف ارتميت فجأة وراء الستارة ، فصرت في غرفة نوم تاتيانا بافلوفنا ! المهم انني اختبأت ، وما كدت أثب تلك الوثبة التي اخفتني عن الأنظــار حتى دخلت السيدتان • لماذا لم أهبَّ الى لقائهما بدلاً من أن أختبىء ! لا أدري • لقد حدث هذا كله مصــادفة ، على غير وعي مني ، وعلى غير ارادة •

ولطوت عند السرير ، فلم ألبث أن لاحظت أن للغرفة باباً يفضي

الى المطبخ ، أى مخرجاً يمكن اللجوء اليه والهروب منه اذا وقع مكروه! ولكن يا للهول ! لقد كان الباب مقفلاً بالمفتاح ، ولم يكن المفتاح بالقفل • فتهالكت على السرير يائساً مكروباً • ولقد كان واضحاً لى أننى سأستسمع الآن الى حديثهما ، وأدركت منذ الجمل الأولى ، منذ الأصوات الأولى ، أن حديث المرأتين سرى جداً وحرج جداً • أوه ! لا شك أن الرجل النبيل الشريف المستقيم يجب عليه ، حتى فى مثل تلك اللحظة ، أن يخرج ويقول بصوت عال : « أنا هنا ، انتظرا ! » ، وأن يخرج مهما يكن وضعه عندئذ مضحكاً • ولكننى لم أنهض ولم أخرج • وخفت أحقر خوف •

قالت تاتيانا بافلوفنا متوسلة ضارعة :

ـ كاترين نيقولايفنا ، عزيزتى ، هدئى نفسك ، أرجوك ، ان هذا الاضطراب ليس من طبعك • حيثما تكونى يكن الفرح ، فما بالك فجأة••• آمل أن تظلى واثقة بى ••• أنت تعرفين مدى اخلاصى لك ••• وتعرفين أن هذا الاخلاص لك يساوى على الأقل اخلاصى لآندره بتروفتش الذى لا أكتمه وفائى له الى الأبد • صدقينى اذن ! أحلف لك بشرفى انه لا يملك هذه الوثيقة ، وربما كان لا يملكها أحد على الاطلاق • ثم انه لايقدر على هذا النوع من المكائد ، فليس حسناً منك أن تضعيه فى موضع شبهة • أنتما كلاكما تخيلتما هذه العداوة •••

ـ الوثيقة موجودة • وهو لا يتورع عن شىء • أمس دخلت ، فكان اول شخص لقيته هو « ذلك الجاسوس الصغير » الذى فرضه على الأمير !

ـ دعيك من هذا الكلام • « ذلك الجاسوس الصغير » أولاً ، ماهو جاسوس • أنا الذى ألححت على وضعه عند الأمير • ولولا ذلك لفقد عقله فى موسكو أو مات جوعاً • أو هذه هى على الأقل المعلومات التى تلقيناها من هناك • ثم ان هذا الصبى الفظ ليس أكثر من أبله • فكيف يمكن أن يتخذ جاسوساً ؟

ـ هو أبله ، نعم ، ولكن ذلك لا ينفى أن يصبح وغداً • لقد كنت معتكرة المزاج بالأمس ، ولولا ذلك لفطست من الضحك : اصفر وجهه، وتقدم مسرعاً ، وراح يسلم متلطفاً ، وأخذ يرطن بالفرنسية • ومع ذلك كانت ماريا ايفانوفنا تحدثني عنه حديثها عن عبقرى ! ان تلك الرسالة لم تُتلف ، وهى بين أيد خطرة ، استنتجت ذلك من هيئة ماريا ايفانوفنا •

ـ عزيزتى الجميلة ! ألم تقولى أنت نفسك ان ماريا ايفانوفنا ليس عندها شيء ؟

ـ هى تزعم ذلك • ولكنها تكذب بل هى حاذقة فى الكذب ! قبل رحلتى الى موسكو كان لا يزال يساورنى أمل فى ألا تكون قد بقيت أية ورقة ؛ أما هنا ، هنا •••

ـ ولكن يقال يا عزيزتى انها انسانة طيبة جداً عاقلة جداً ، وان المرحوم كان يقدرها أكثر من سائر بنات اخوته وأخواته • أنا لا أعرفها طبعاً ، ولكن كان يجب عليك أن تغازليها قليلاً يا عزيزتى الجميلة ! ليس صعباً عليك أن تفتنيها : اننى ـ أنا العجوز ـ مغرمة بك ، مولهة بحبك ، حتى لأكاد أقبلك ••• فهل كان يعز عليك أن تغويها ؟

ـ غازلتها يا تاتيانا بافلوفنا • حاولت • حتى انها سرت بذلك سروراً كبيراً • لكنها ماكرة • انها هى أيضاً ماكرة • لا ، لا • هذه شخصية غريبة ، شخصية موسكوبية ! تصورى أنها نصحتنى بأن ألتجىء هنا الى رجل اسمه كرافت ، كان مساعد آندرونيكوف ، فلعله يعرف شيئاً ! وأنا أعرف من هو كرافت هذا ، بل اننى أذكره قليلاً • ولكن ما ان كلمتنى عن كرافت حتى أيقنت فوراً أنها لا تجهل شيئاً ، بل تعرف كل شيء ، وانما هى تكذب •••

ـ ولكن لماذا تكذب ؟ على كل حال ، يمكن التماس معلومات من

كرافت ! ان هذا الألماني ليس بالرجل الثرثار ، وهو شريف جداً فيما أذكر . ولكن لابد من سؤاله ، وأظن أنه ترك بطرسبرج ...

ـ رجع أمس . انني قادمة من عنده ... وهذا بعينه هو السبب في أنك ترينني على هذه الحال من التخوف والارتعاش الشديد . كنت أريد أن اسألك يا ملاكي تاتيانا بافلوفنا ، ما دمت تعرفين جميع الناس ، أما من وسيلة الى البحث بين أوراقه ؟ لابد أنه ترك أوراقاً . فمن الذي تئول اليه هذه الأوراق ؟ ذلك أنها قد تقع بين أيد خطرة . لقد جئت أسألك أن تسدي الىّ بنصيحة .

ـ أي أوراق تعنين ؟ ألم تقولي انك قادمة من عند كرافت ؟

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا التي لم تفهم من سؤالها شيئاً . فأجابت كاترين نيقولايفنا :

ـ نعم نعم ، انني قادمة من عنده . ولكنه انتحر ! مساء أمس .

فقفزت من على السرير . لقد استطعت أن أبقى لاطياً ساكناً حين سمعتها تصفني بأنني جاسوس وبأنني أبله . وكنت كلما أوغلتا في حديثهما مزيداً من الايغال ، أحس احساساً أقوى بأنني لا أستطيع أن أظهر لهما ، فليس ذلك لائقاً . كنت قد عزمت في قرارة نفسي ، بعد أن كف قلبي عن خفقانه الشديد ، أن أنتظر الى اللحظة التي تشيع فيها تاتيانا زائرتها (هذا اذا واتاني الحظ فلم تحتج الى دخول غرفتها قبل ذلك) فمتى انصرفت آخماكوفا كنت مستعداً لأن أظهر فأخوض معركة مع تاتيانا بافلوفنا ! ... أما الآن وقد علمت بانتحار كرافت فقد قفزت واعتراني نوع من التشنج ، وأصبحت عاجزاً عن التفكير في أي شيء ، عاجزاً عن التبصر بعواقب الأمور ، فاذا أنا أرفع الستارة وأجدني واقفاً أمامهما . ولم تكن حلكة الظلام قد اشتدت بعد ، فكان يمكنهما أن ترياني شاحباً مرتعشاً . فهاهما تصرخان . وكيف لا تصرخان ؟

تمتمت أقول ملتفتاً الى آخماكوفا :

ـ كرافت ؟ انتحر ؟ أمس ؟ عند غروب الشمس ؟

فأعولت تاتيانا بافلوفنا تسألني وقد غرزت أصابعها في كتفي :

ـ أين كنت ؟ من أين خرجت ؟ كنت تتجسس علينا ؟ كنت تتنصت على حديثنا ؟

وقالت كاترين نيقولايفنا وهي تنهض عن الديوان وتشير الي باصبعها :

ـ ماذا قلت لك عنه ؟

فقاطعتها صارخاً وقد استبد بي غضب مسعور :

ـ هذه كلها أكاذيب ! هذه كلها حماقات وسخافات ! لقد وصفتني من لحظة بأنني جاسوس . فاعلمي اذن أنه لا شيء يستحق من المرء عناء أن يتجسس ، بل لا شيء يستحق منه عناء أن يعيش في هذه الحياة الدنيا مع أناس من أمثالكم ! ان الأخيار ينتهون الى الانتحار . لقد انتحر كرافت في سبيل الفكرة ، من أجل هيكوب . ولكن أني لك أن تعرفي شيئاً عن هيكوب ؟ ... لقد حكم على الانسان هنا أن يحيا في وسط مكائدكم ، وأن يتخبط في اوحال أكاذيبكم وأخاديعكم ودسائسكم المستترة الخفية ... كفى !

صرخت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

ـ اصفعيه ! اصفعيه !

ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت تنظر الي (أذكر هذا كله بأدق تفاصيله) دون ان تحول بصرها عني لحظة واحدة ، ودون أن تتحرك من مكانها قيد شعرة ، فما كان من تاتيانا بافلوفنا الا أن هبت واقفة تريد ان تتولى تنفيذ النصيحه بنفسها .. فرأيتني أرفع يدي بغير ارادة مني لأحمي

وجهي من صفعتها • فاذا هي تتصور من هذه الحركة التي قمت بها انني أهددها • فصرخت تقول لي :

ــ هيا ! اضرب ، اضرب ! فتبرهن على أنك بمحتدك خادم • أنت الأقوى ، فلماذا تتحرج من نساء مسكينات ؟

فصرخت أقول :

ــ كفي تخرصاً ، كفي ! ما رفعت يدي على امرأة في يوم من الأيام ! لكنك سفيهة يا تاتيانا بافلوفنا • ولقد كنت تحتقرينني دائما • علام احترام الناس ؟ وأنت يا كاترين نيقولايفنا ، أراك تضحكين • فلا شك أنك تضحكين من هيئتي : نعم ، ان الله لم يهب لي وجهاً كوجوه مرافقيك• لكنني لا أشعر أمامك بهوان ومذلة • بل النقيض هو الصحيح : فأنا أحس بأنني أعلى منك • ولا قيمة للتعابير على كل حال ، فانما المهم أنني لم أرتكب ذنباً • لقد جئت الى هنا عرضاً ياتاتيانا بافلوفنا • والمذنب الوحيد انما هو طباختك الفنلندية ، بل قولي ان الذنب انما يقع على تعلقك الشديد بها • لماذا لم تجبني حين سألتها عنك ، لماذا أدخلتني الى هنا رأساً ؟ ولعلكما تدركان أنني ما كنت لأستطيع أن أخرج من غرفة امرأة على حين فجأة •• دفعة واحدة •• هكذا •• والا كان ذلك أمراً عجيباً شاذاً •• لذلك آثرت •• أن أسمع شتائمكما على أن أظهر لكما • أما تزالين تضحكين يا كاترين نيقولايفنا ؟

صاحت تاتيانا بافلوفنا قائلة وهي تكاد تدفعني دفعاً :

ــ اخرج من هنا ، اخرج من هنا ! لا تأبهي لأكاذيبه يا كاترين نيقولايفنا • سبق أن قلت لك انه وُصف لي من هناك بأنه مجنون •

ــ مجنون ؟ من هناك ؟ من وصفني بأنني منجون ؟ ولكن لا ضير ، كفي هذا ! يا كاترين نيقولايفنا ، أحلف لك بكل ما أقدس ، أن هذا

الحديث الذى سمعته سيظل مكتوماً لا أبوح به لأحد . هل ذنبى أننى اكتشفت أسراركم ؟ واعلمى خاصةً أننى تارك أباك منذ الغد . فتستطيعين أن تطمئنى وأن تهدئى بالاً فيما يتعلق بالوثيقة التى تبحثين عنها .

ـ ماذا ؟ أى وثيقة تعنى ؟

اضطربت كاترين نيقولايفنا اضطراباً بلغ من القوة أن لونها شحب شحوباً شديداً . أو هذا ما بدا لى أنا . فأدركت أننى قلت أكثر مما كان ينبغى أن أقول .

وخرجت مسرعاً . وشيعتانى بنظراتهما صامتتين . وكنت أقرأ فى وجهيهما دهشة قصوى . الخلاصة أننى ألقيت لغزاً .

الفصل التاسع

١

أسرعت أعود الى البيت . ومن أشد العجب أننى كنت راضياً عن نفسى مغتبطاً بها . صحيح أن المرء لا يكلم النساء بهذه اللهجة ، ولاسيما مثل هذه النساء ، بل قل مثل هذه المرأة ، (ذلك أننى لا أدخل تاتيانا بافلوفنا فى حسابى) . لعله لا يجوز لرجل أن يقول لامرأة من هذا النوع : « أنا لا أعبأ بمكائدك ودسائسك ! » . ولكننى قلت ذلك ، وهذا بعينه هو ما كان يجعلنى راضياً مغتبطاً . كنت موقناً على الأقل اننى اذ خاطبتها بهذه اللهجة قد بددت كل ما كنت فيه من وضع مضحك ، ناهيك عما عدا ذلك . غير أن وقتى لم يتسع للتفكير فى هذا كله زمناً طويلاً : ذلك أن كرافت كان يملأ جوانب نفسى كلها . لا أقصد أن انتحاره كان يؤلمنى ويعذبنى كثيراً ، وانما أقصد أن نفسى قد اهتزت للنبأ اهتزازاً قوياً واضطربت اضطراباً شديداً . وحتى اللذة العادية التى يشعر بها الناس حين يرون مصيبة تنزل بغيرهم ، كأن تكسر ساق أحد أو يلطخ شرفه أو يموت له عزيز أو ما الى ذلك ، حتى هذه اللذة العادية لم أشعر بها ، وانما اجتاحنى شعور آخر ، شعور قوى الى أقصى حدود القوة ، شعور بالحزن أو شعور بالحسرة .. لا أدرى .. ولكنه شعور

يبلغ غاية القوة والحسن • وعن هذا أيضاً كنت راضياً وبهذا أيضاً كنت مغتبطاً • أمر عجيب : ما اكثر الأفكار الغريبة عما أنت فيه ، التى يمكن أن تتدفق وتتلاحق فى ذهنك حين يهزك نبأ ضـخم كان ينبغى له فى الظاهر أن يخنق سائر المشاعر وأن يبعثر جميع الخواطر التى لاتمت اليه بصلة ، ولاسيما الخواطـر التى لا قيمة لها ولا خطـورة • ومع ذلك فان هذه المشاعر والخواطر هى التى عرضت لى وملأت نفسى • ما أزال أذكر أننى قد اجتاحتنى هزة عصبية قوية ، شيئاً بعد شيء ، دامت عدة دقائق ، بل دامت طول الوقت الذى قضيته فى البيت متحدثاً مع فرسيلوف •

وقد جرى هذا الحديث مع فرسيلوف فى ظروف خاصة غير مألوفة• سبق أن قلت اننا نقيم فى جناح بفناء عمارة وهذا المسكن رقمه ١٣ ؛ فقبل أن أصل الى بوابة المبنى سمعت امرأة تسأل بصوت عال ، وقد نفد صبرها واشتد ضيقها : « أين يقع المسكن رقم ١٣ ؟ » • انها سيدة فتحت باب دكان صغير مجاور • ولكن أحداً لم يجب عن سؤالها ، بل لعلهم طردوها ، لأننى رأيتها تهبط الدرجات غاضبة مكروبة يائسة ، وصرخت تقول وهى تخبط الأرض بقدمها :

ـ فأين البواب اذن ؟

وكنت قد تعرفت هذا الصوت منذ مدة • فقلت وأنا أتقدم منها :

ـ أنا ذاهب الى المسكن ١٣ ؛ عمن تسألين ؟

ـ اننى أبحث عن البواب منذ ساعة • سألت جميع الناس ، وصعدت جميع السلالم •

ـ ان المسكن الذى تسألين عنه يقع فى فناء العمارة • ألم تعرفينى ؟

ولكنها كانت قد تعرفتنى • وواصلت كلامى فقلت :

ـ تريدين أن ترى فرسيلوف ؟ لك معه شأن ، ولى أنا معه شأن أيضاً • اننى آت اليه لأودعه الى الأبد • فهيا بنا •

ـ أأنت ابنه ؟

ـ لا قيمة لهذا . هبيني ابنه ، رغم أن اسمي دولجوروكي أنا ولد غير شرعي . ان لهذا السيد عدداً كبيراً من الأولاد غير الشرعيين . ورب ابن شرعي يترك منزل أبيه اذا أوجب عليه الضمير والشرف ذلك . جاء هذا حتى في التوراة . ثم انه قد نال ميراثاً فلا أريد أن أقاسمه هذا الميراث . أريد أن أكتفي بكدّ يميني . ومن كان كريم القلب ضحى حتى بحياته اذا لزم ذلك . لقد انتحر كرافت في سبيل الفكرة ! تصوري ! كرافت الشاب الذي كانت تعقد عليه آمال كبار ! حتى في التوراة جاء أن على الأولاد أن يتركوا آباءهم وأن يبنوا لأنفسهم أعشاشاً .. حين تجرفك الفكرة .. حين يكون له فكرة .. آه .. ان الفكرة هي الأمر الرئيسي .. كل شيء قائم في الفكرة ..

واصلت هذه الثرثرة بعض الوقت الى أن بلغنا بيتنا . لاشك أن القارىء لاحظ أنني لا أراعي نفسي ولا أداري نفسي ، وانما أصفها بما هي . انني أريد أن أتعلم قول الحق .

كان فرسيلوف بالبيت . دخلت دون أن أترك معطفي . وكذلك فعلت هي . كانت ثيابها خفيفة جداً : فستان قاتم اللون تتحرك في أعلاه قطعة من قماش لا أدري ما هي ، ولكنها وضعت هنالك لتكون بمثابة ياقة أو خمار ؛ وطاقية عتيقة مجرودة تغطي الرأس وهيهات أن تجمله .

حين دخلنا الصالة كانت أمي في مكانها المألوف مكبةّ على شغلها ، وخرجت أختي من غرفتها لتنظر ، ووقفتْ عند العتبة . وكان فرسيلوف ، على عادته ، لا يعمل شيئاً ، فنهض يستقبلنا .. وحدّق الى بنظرة قاسية مستفهمة ، فأسرعت أقول لأطمئنه وأنا أتنحى :

ـ أنا لا شأن لي في الأمر . لقد التقيت بها أمام الباب ، وكانت تسأل عنك ، فلا يدلها أحد . لكن لي أنا أيضاً قضية سوف يسرني أن أشرحها لك بعد قليل ..

ولكن فرسيلوف ظل يتأملنى مستطلعاً •

وبدأت الفتاة تتكلم وقد نفد صبرها فقالت :

ـ هل تسمح ؟

فالتفت فرسيلوف اليها • فأردفت تقول :

ـ لقد فكرت طويلاً فى السبب الذى دعاك الى أن تترك لى هذا المال بالأمس ، فانتهيت الى •• الخلاصة : اليك مالك فخذه •

وأطلقت صرخة كما فعلت من قبل ، وألقت على الطاولة حزمة من الأوراق المالية • واستطردت تقول :

ـ اضطررت أن أذهب الى مكتب العناوين لأعرف أين تسكن ، ولولا ذلك لجئت قبل الآن •

ثم أضافت وهى تلتفت فجأة الى أمى التى شحب لونها شحوباً شديداً :

ـ اسمعى انت • اننى لا أريد أن أهينك • فوجهك يدل على أنك سيده شريفة ، وربما كانت هذه الفتاة ابنتك • لا أدرى أأنت زوجته أم لا • ولكن اعلمى أن هذا الرجل يقص من الصحف الاعلانات التى تنشرها المربيات والمعلمات بآخر ما يملكن من قروش ، ويطوف على هؤلاء المسكينات سعياً الى منافع غير شريفة مغرياً اياهن بالمال • لا أدرى كيف أمكننى أن أقبل ماله أمس ! كانت هيئته تدل على استقامة وصدق • قف مكانك ! لا تقل كلمة واحدة ! أنت رجل دنىء يا سيد ! وهبك شريف النيات فاننى لا أريد مالك ! آه •• ما أشد سرورى بأن أفضحك وأخزيك أمام نسائك ! لعنة الله عليك !

وهربت مسرعه • ولكنها عند العتبة التفتت ، لا لشىء الا أن تصرخ قائلة :

ـ يقال انك نلت ميراثاً !

ثم اختفت كما يختفي ظل • يجب أن أذكر مرة أخرى أنها كانت بشـدة غضبها كجنية • شـده فرسيلوف شـدهاً عميقاً • ولبث في مكانه حالماً ، وكأنه يفكر في شيء ما • ثم التفت الىّ فجأة وسألني :

ـ ألا تعرفها البتة ؟

ـ رأيتها هذا الصباح مصادفةً في بيت فاسين • كانت تضطرب في الدهليز وتطلق الصرخات وترسـل اليك اللعنات • ولكننا لم ندخل في حديث ، ولا أعرف عنها شيئاً • وقد التقيت بها الآن أمام الباب • لابد أنها معلمة الأمس ، « تلك التي تعطي دروساً في الحساب » •

ـ هي نفسها • مرةً في حياتي قمت بعمل حسن ، و •• وأنت ماذا جاء بك ؟

فأجبته بقولي :

ـ اليك رسـالة • لا داعي الى أن أشـفعها بايضـاحات • انها من كرافت • وقد تلقـاها كرافت من المرحوم آندرونيكوف • اقرأها فينيرك مضمونها • ولكنني أضيف أن أحداً في العالم لا يعرف الآن بوجود هذه الرسـالة سـواي ، لأن كرافت الذي أعطانيها أمس قد انتحـر فوراً بعد زيارتي له •

فيما كنت أتكلم لاهثاً متعجلاً ، تناول هو الرسالة ، فجعلها في يده اليسرى ، وتابع النظر الىّ بانتباه • وحين أبلغته نبأ انتحار كرافت أنعمت النظر في وجهه لأرى ما أحدثه النبأ في نفسه • فما رأيكم اذا قلت لكم ان النبأ لم يحدث في نفسه أي أثر ؟ حتى حاجباه لم يرتفعا ! بالعكس : حين رآني أتوقف عن الكلام استل نظارته التي ترتكز على الأنف ويتدلى منها شريط أسود (وكان لا يفارق هذه النظارة أبداً) وقرّب الرسالة من

شمعة ، وأخذ يقرؤها بعد أن ألقى نظرة على التوقيع الذي يذيلها • ليس في وسعي أن أصف لكم عمق الجرح الذي أصابتني به كبرياؤه وقلة احساسه • لابد أنه يعرف كرافت معرفة قوية • وهذا نبأ خارق على كل حال ! ولقد كنت أتمنى طبعاً أن أحدث في نفسه أثراً • انتظرت نصف دقيقة ، واذ كنت أعرف أن الرسالة طويلة ، فقد أدرت له ظهري وانصرفت • كانت حقيبتي مهيأة منذ مدة طويلة ، ولم يبق عليّ الا أن أجعل بعض أمتعتي في صرة • وخطرت ببالي أمي : لم أكن قد اقتربت منها • وبعد عشر دقائق كنت قد تهيأت تهيؤاً تاماً ، وهممت أن أمضي باحثاً عن عربة ، فاذا بأختي تدخل عليّ في حجرتي تحت السقف •

ـ خذ • ان ماما ترسل اليك الستين روبلاً التي أعطيتها اياها ، وترجوك مرةً أخرى أن تغفر لها أنها حدثت آندره بتروفتش في الأمر • ثم اليك عشرين روبلاً أخرى • فقد دفعت بالأمس نفقات اقامتك خمسين روبلاً ، وماما تقول انها لا يحق لها أن تأخذ منك الا ثلاثين ، لأنها لم تنفق عليك أكثر من ذلك ، فهي ترد اليك العشرين روبلاً الزائدة •

ـ شكراً ، لكنني أرجو أن يكون ما قالته حقاً • استودعك الله يا أختي • أنا راحل •

ـ الى أين ؟

ـ الى الفندق مؤقتاً ، حتى لا أقضي في هذا البيت يوماً آخر فوق ما قضيت فيه من أيام • قولي لماما انني أحبها •

ـ هي تعرف أنك تحبها • وهي تعرف أيضاً أنك تحب آندره بتروفتش • كيف لم تخجل من الاتيان بتلك الفتاة المسكينة ؟

ـ أنا لم آت بها ، أحلف لك • وانما لقيتها أمام الباب •

ـ بل أنت الذي أتيت بها •

ـ أؤكد لك ••

ـ فكر جيداً ، واسأل نفسك ، تجد أنك أنت أيضاً كنت سبباً في ...

ـ كل ما هنالك انني سررت جداً باخزاء فرسيلوف . تصوري أن له ولداً رضيعاً من ليديا آخماكوفا .. ولكن لماذا أقول لك هذا الكلام ؟

ـ هو ؟ له ولد رضيع ؟ خطأ .. ليس الولد منه . من ذا الذي قصّ عليك هذه الأكذوبة ؟

ـ ما أدراك أنت ؟

ـ ما أدراني أنا ؟ أنا التي ربيت هذا الولد في لوغا . اسمع يا أخي : ألاحظ منذ مدة طويلة أنك ، بدون أن تعرف شيئاً ، تهين آندره بتروفتش ، وبذلك نفسه تهين ماما أيضاً .

ـ طيب . اذا كان هو على حق ، فأنا على خطأ . ولكن هذا لا ينفي أنني أحبك كثيراً . لماذا تحمرين يا أختي ؟ طيب طيب . هأنت ذي تزدادين احمراراً . على كل حال ، سوف أطلب مبارزة ذلك الأمير الصغير ، انتقاماً للصفعة التي كالها لفرسيلوف بمدينة « امس » . واذا كان فرسيلوف غير مخطىء في حق آخماكوفا ، فيكون هذا أولى ..

ـ ما هذا الذي تقوله يا أخي ؟ ألا فكرت قليلاً ؟

ـ من حسن الحظ أن الدعوى قد فصل القضاء فيها . هأنت ذي الآن تصفرّين .

ابتسمت ليزا ابتسامة صفراء من خلال ذعرها وقالت :

ـ ولكن الأمير لن يبارزك .

ـ عندئذ سأخزيه على رءوس الأشهاد . ما بك يا ليزا ؟

لقد بلغت ليزا من صفرة الضعف والوهن أنها أصبحت لا تستطيع أن تثبت على قدميها ، فاذا هى تتهالك على الديوان .

ـ ليزا !

هكذا نادتها أمها من تحت .

فاستجمعت ليزا قوتها ونهضت ، وابتسمت لى ابتسامة رقيقة زاخرة بالحنان ، وقالت :

ـ أخى ، دع هذه السخافات ، أو فانتظر حتى تعرف من الأمر أكثر مما تعرف الآن . ان ما تعرفه قليل جداً .

ـ لسوف أتذكر يا ليزا أنك شحبتِ حين علمت أننى سأبارز الأمير .

ـ نعم نعم ، تذكر هذا !

وابتسمت مرةً أخرى مودعة ، ونزلت .

ناديت حوذياً ، ونقلت أمتعتى بمعاونته . لم يعترضنى فى البيت أحد ، ولا استوقفنى أحد . ولم أودع ماما حتى لا ألقى فرسيلوف . وفيما أنا أركب العربة ، برقت فى خاطرى فكرة سريعة ، فاذا أنا أقول للحوذى :

ـ فونتانكا ، جسر سان سيمون !

وأعود الى عند فاسين .

٢

قدرت أن فاسين لابد أن يكون مطلعاً على نبأ انتحار كرافت ، وأنه أعرف منى كثيراً بالأمر • وذلك ما وقع • فسرعان ما روى لى فاسين جميع التفاصيل ملبياً رغبتى ولكن بغير حرارة • فاستنتجت من ذلك أنه متعب ، وكان ذلك حقاً • لقد ذهب فى الصباح الى كرافت • وكان كرافت قد أطلق على نفسه رصاصة مسدس (ذلك المسدس نفسه !) بالأمس ، منذ هبط المساء ، كما يستخرج ذلك من يومياته • ان الكمات الأخيرة التى دونها فى يومياته انما كتبها قبيل انتحاره بلحظات ، وفيها يذكر أنه يكتب فى العتمة تقريباً وأنه لا يكاد يميز الأحرف ، ولكنه لا يريد أن يشعل شمعة ، مخافة أن يخلف وراءه حريقاً ، ثم هو يضيف الى ذلك فى السطر الأخير قوله هذا الغريب : « أما أن أشعل الشمعة لأطفئها قبل إطلاق الرصاص مع اطفاء حياتى ، فذلك ما لا أريده » • وكان كرافت قد بدأ كتابة هذه اليوميات أمس الأول ، فور عودته الى بطرسبرج ، قبل زيارته درجاتشيف •

وكان بعد انصرافى يدوّن شيئاً كل ربع ساعة ، أما مرات التدوين الثلاث أو الأربع الأخيرة فلم يكن يفصل بين الواحدة والأخرى منها الا خمس دقائق • ولقد أدهشنى أشد الدهشة أن فاسين ، وقد أصبحت هذه اليوميات تحت بصره منذ مدة طويلة (اذ أعطيها ليقرأها) لم يحاول أن ينسخها ، لاسيما وأنها لا تملأ أكثر من ورقة واحدة ، وأن جميع التدوينات قصيرة ، « ولاسيما فى الصفحة الأخيرة ! » • وذكر لى فاسين مبتسماً أنه يتذكر كل ما ورد فى اليوميات ، وأن كلامها فوضى لا ينظمه ناظم وانما هى تسجيل لكل ما كان يخطر ببال المنتحر • وقد هممت

أن أجيبه بأن قيمتها انما تكمن في هذا نفسه ، ولكنني أمسكت عن الكلام، وآثرت أن ألح على أن يتذكر شيئاً مما قرأ . فتذكر بضعة أسطر فعلاً . كان كرافت قد كتبها قبل اطلاق الرصاص على نفسه بنحو ساعة ، وفيها يقول انه « يشعر بقشعريرة » وانه « تمنى أن يشرب كأساً من الخمرة طلباً للدفء ، ولكنه تصور أن شرب الخمرة سيزيد غزارة الدم المسفوح ، فامتنع عن الشرب » . قال فاسين ان كل ما كتبه هو من هذا النوع تقريباً .

هتفت أقول :

ـ أفهذا ما تسميه سخافات ؟

ـ متى تكلمت عن سخافات ؟ كل ما هنالك انني لم أنسخ اليوميات. وأنا أرى انها عادية وان لم تكن سخيفة ، أو قل انها طبيعية ، أي هي ما لابد أن يحدث في مثل هذه الحالة ..

ـ ولكن الأفكار الأخيرة ، الأفكار الأخيرة ..

ـ الأفكار الأخيرة تكون في بعض الأحيان تافهة تفاهة عجيبة . أعرف منتحراً تشكى في يومياته من أنه لم تزره في مثل هذه الساعة الخطيرة أية « فكرة عليا » : فلا شيء الا أفكار جوفاء تافهة .

ـ وهل القشعريرة فكرة جوفاء أيضاً ؟

ـ أتقصد القشعريرة أم غزارة الدم المسفوح ؟ انه لأمر معروف جداً أن كثيراً من الذين يقدورن على التفكير في موتهم الوشيك ، سواء أكان موتهم بارادتهم أم كان بغير ارادتهم ، يهتمون في كثير من الأحيان بحسن حالة جثمانهم . وبهذه الروح انما كان كرافت يخشى انسكاب دم غزير ..

جمجمت أقول :

ـ لا أدرى هل هذه واقعة معروفة .. وهل هذا الذى تقوله

صحيح ، ولكن يدهشني أن ترى في الأمر كله شيئاً طبيعياً الى هذا الحد • ان كرافت كان منذ وقت قصير يتكلم ويتحرك ويجلس بيننا • فهل يعقل أن لا تأخذك به أية شفقة ؟

ـ بل تأخذني به شفقة طبعاً • ولكن هذه قضية أخرى • ثم ان كرافت نفسه ، على كل حال ، قد صور موته في صورة استنتاج منطقي • وقد تبين أن كل ما قيل عنه بالأمس عند درجاتشيف صحيح • لقد ترك دفتراً ضخماً ضمنه نتائج علمية تذهب الى أن الروس جنس من الطبقة الثانية ، وأقام نتائجه على علم الهيئة ودراسة الجمجمة ، بل على الرياضيات أيضاً ، واستخلص من ذلك أن المرء اذا كان روسياً فلا داعي الى أن يحيا • فالشيء الذي يتميز به موت كرافت ، اذا شئت أن تجد له صفة تميزه ، ليس أنه استنتج هذه النتائج ، ففي وسع المرء أن يستخلص من النتائج المنطقية ما يشاء ، وانما هو أن ينتحر تدعيماً لهذه النتائج • ذلك هو الشيء النادر الذي لا يحدث كل يوم •

ـ يجب أن تكبر قوة ارادته على الأقل •

قال فاسين متهرباً :

ـ وربما كان يجب أن نكبر شيئاً آخر ••

ولكن كان واضحاً أن ما يدور في خلد فاسين انما هو غباء كرافت وضعف عقله • فكان ذلك يثير حنقي • قلت :

ـ بالأمس تحدثت أنت نفسك عن العواطف يا فاسين •

ـ ولست اليوم أنكرها • لكنني ازاء عنف الأمر الذي وقع لا أملك الا أن أجد فيه من فحش الخطأ ما يجعل حكمي قاسياً يطرد من نفسي حتى الشعور بالشفقة •

ـ لقد أدركت من النظر في عينيك أنك ستقول سوءاً في حـق

كرافت . ومن أجل أن لا أسمع ما ستقوله ، قررت أن لا أسألك رأيك . ولكنك أفصحت عن رأيك من تلقاء نفسك ، فلا يسعني الا أن أوافق برغم ارادتي على رأي رجل له ما لك من قوة الحجة . ولكنني مستاء منك يا فاسين . انني آسف على كرافت .

ـ أرى أننا نغالي قليلاً ...

فقاطعته قائلاً :

ـ نعم ، نعم ... ولكن من المطمئن على الأقل أن الأحياء الذين يحكمون على المتوفى يستطيعون دائماً في مثل هذه الحالة أن يقولوا لأنفسهم : « مهما يكن المنتحر جديراً بالشفقه والتسامح ، فما نزال نحن أحياء ، فلا داعي أن نسرف في الحزن . » .

ـ طبعاً ... من هذه الناحية كلامك صحيح . ولكن .. ولكن أظن أنك فيما قلته الآن كنت مازحاً . ظريفة نكتتك . اسمع . لقد اعتدت أن أشرب الشاي في مثل هذه الساعة فسآمر لنفسي بشاي . وستشاركني طبعاً .

قال ذلك ثم خرج وهو يشمل ببصره حقيبتي وصرتي .

والحق انني أردت أن أسخر منه انتقاماً لكرافت . فقلت ما قلته على نحو ما استطعت . ولكن أغرب ما في الأمر أنه في البداية قد أخذ جملتي مأخذ الجد : « ما نزال نحن أحياء » . ومع ذلك ، ومهما يكن من أمر ، فقد كان أقرب مني الى الحق والصواب ، حتى في موضوع العاطفة . اعترفت بذلك لنفسي دون أي امتعاض . ولكنني أحسست أنني لا أحبه.

فلما صار الشاي أمامنا أعلنت له أنني أريد أن يستضيفني هذه الليلة ، فاذا كان ذلك مستحيلاً فما عليه الا أن يصارحني ، فأذهب الى الفندق . ثم بسطت له الأسباب التي تدفعني الى طلب هذه الضيافة ،ذاكراً

أننى على شقاق مع فرسيلوف ، ولكن دون أن أدخل فى التفاصيل . فأصغى الىّ فاسين بانتباه ، غير أنه لم يظهر عليه شىء من انفعال . وكان يقتصر على الاجابة عن أسئلتى ، ولكن اجاباته كانت لا تخلو من افاضة ، وكانت لهجته لا تخلو من لطف ومودة . ولم أقل كلمة واحدة عن الرسالة التى جئت الى بيته فى الصباح لأسأله النصح فى أمرها . وانما ذكرت أن زيارتى السابقة لم يكن لها من غرض غير الزيارة . اننى بعد الذى قطعته على نفسى لفرسيلوف ، وهو أن لا يعرف أحد عن هذه الرسالة شيئاً سواى ، قد أصبحت أعتقد أنه ليس من حقى أن أجىء على ذكرها لأحد أبداً . وكان يزعجنى كثيراً من جهة أخرى أن أكلم فاسين فى بعض الأمور ، أقول فى بعض الأمور لا فى جميع الامور ، حتى لقد أفلحت فى اثارة اهتمامه حين قصصت عليه المشاهد التى وقعت فى الدهليز وفى غرفة الجارتين ، واُختتمت فى بيت فرسيلوف . فكان ينصت الىّ بانتباه شديد ، ولا سيما حين كان الحديث يتناول ستيبلكوف . حتى انه استعادنى الكلام مرتين ، ثم شرد فكره حين أتيت على ذكر الأسئلة التى ألقاها ستيبلكوف عن درجاتشيف . على أنه انفجر فى النهاية ضاحكاً . فبدا لى فجأة فى تلك اللحظه أنه لا شىء ولا أحد يمكن أن يربك فاسين فى يوم من الأيام . وانى لأذكر أن هذه الفكرة قد عرضت لذهنى فى صورة تشرّفه كثيراً . وقلت اختم حديثى عندئذ :

ـ لم أستطع أن استخلص شيئاً مما قاله السيد ستيبلكوف ، فانه ينطق بكلام مبهم متهرب ، وان معانيه يجرى بعضها وراء بعض متلاحقاً فلا تتماسك ...

فسرعان ما ظهر الجد فى هيئة فاسين . وقال :

ـ صحيح أنه لم توهب له ملكة الكلام ، ولكن يتفق له أن يبدى ملاحظات تبلغ غاية الصحة والصواب فى وهلة واحدة . ثم ان أمثال

هذا الرجل أناس عمليون ، أو قل انهم رجال عمل لا رجال فكر • فيجب أن نحكم عليهم بهذا المقياس •

وذلك بعينه ما كنت قد أدركته من قبل •

قلت :

ـ ومع ذلك أحدث عند جارتيك فضيحة رهيبة ، فلا يستطيع أحد أن يتنبأ بما كان يمكن أن ينتهي اليه هذا كله •

وعن هاتين الجارتين أسرّ الىّ فاسين أنهما هنا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً ، وأنهما قادمتان من الأقاليم ، وأنهما تشغلان غرفة صغيرة جداً ، وأن جميع الدلائل تشير الى أنهما فقيرتان فقراً مدقعاً ، وأنهما تنتظران هنا شيئاً ما • كان لا يعرف أن الفتاة نشرت اعلاناً في الجريدة تذكر فيه أنها معلمة ، ولكنه علم أن فرسيلوف زارهما • وقد وقعت الزيارة في غيبته ، غير أن المؤجرة ذكرتها له • وكانت الجارتان لا تخالطان أحداً ، ولا تلقيان حتى المؤجرة • وقد لاحظ فاسين في الأيام الأخيرة أن لدى الجارتين مشكلات لا تجد سبيلها الى الحل فعلاً ، ولكن لم يسبق أن وقعت عندهما مشاهد كالمشاهد التي وقعت اليوم • انني أتذكر حديثنا عن الجارتين بسبب الأحداث التي تلت ذلك • وكان يخيمّ في غرفتهما آنئذ صمت كصمت الموت • وقد ظهر على فاسين اهتمام شديد حين ذكرت له أن ستيبلكوف رأى أن عليه أن يكلم المؤجرة عن هاتين الجارتين ، وأنه ردد مرتين قوله « سترى ، سترى » : وأضاف فاسين يقول : « سوف ترى أن هذه الفكرة لم تساوره لغير سبب • ان له في بعض الأمور نظرة حادة صائبة » •

ـ أتعتقد اذن بأن من الواجب أن تُنصح المؤجرة بطردهما من البيت ؟

ـ لا ، ليست المسألة مسألة طردهما من البيت • ولكنني أخشى أن

تقع قصة . على كل حال ، فان جميع هذه القصص لا بد تنتهي أخيراً على نحو من الأنحاء ... دعنا من هذا !

وامتنع فاسين امتناعاً قاطعاً عن ابداء رأيه في زيارة فرسيلوف للجارتين .

ـ كل شيء ممكن . أحس الرجل بأن في جيبه مالاً .. ومن الجائز مع ذلك أن لا يكون قد أراد الا اعطاء صدقة ، فهذه أمور هي من تقاليده، بل لعلها قائمة في طبيعته وميوله .

فلما ذكرت له أقاويل ستيبلكوف عن « الطفل الرضيع » ، قال فاسين بلهجة جادة خاصة (مازلت أسمعها) :

ـ هنا يخطىء ستيبلكوف كل الخطأ . ان ستيبلكوف يبالغ أحياناً في الاعتماد على حسه العملي والركون اليه ، وقد يتسرع في استخلاص النتائج بمنطقة الذي كثيراً ما يكون صادقاً نافذاً . فرب حادث واحد تختلف دلالته اختلافاً شديداً باختلاف الأشخاص ، فيخضع للمنطق ويمكن التنبؤ به تارة ، ويتخذ صوراً خارقة ليست في الحسبان تارة أخرى . وذلك ماوقع : فان ستيبلكوف وقد عرف جزءاً من القضية استنتج أن الطفل ولد فرسيلوف ، والحق أنه ليس من فرسيلوف .

وألححت على فاسين مستزيداً من المعرفة ، فما كان أشد دهشتي حين علمت أن الولد من الأمير سيرجي سوكولسكي . ان ليديا آخماكوفا ، بسبب مرضها أو بسبب طبيعتها الحالية الشاذة ، كانت تتصرف في بعض الأحيان تصرف مجنونة . لقد تولهت بحب الأمير قبل وصول فرسيلوف ، ولم « يجد الأمير حرجاً في قبول حبها » برهة قصيرة ، تشاجرا بعدها كما يعرف العارفون ، فطردت ليديا الأمير ، ويبدو أن الأمير ابتهج بهذا الطرد وسر به سروراً كبيراً . كانت ليديا فتاة عجيبة الأطوار (كذلك أضاف سافين) : ومن الجائز جداً أنها لم تكن سليمة العقل في يوم من

الأيام • ولكن الأمير حين سافر الى باريس كان يجهل كل الجهل أنه ترك ضحيته حبلى ، وظل يجهل ذلك الى النهاية ، أى الى حين عودته • وفى أثناء ذلك أصبح فرسيلوف صديق ليديا ، فعرض عليها الزواج ، خاصة بسبب حبلها الذى كان ظاهراً (ولكن لم يفطنوا اليه حتى النهاية تقريباً) • وكانت ليديا قد تولهت بحب فرسيلوف فطار لبها فرحاً بعرضه ، « ولم تر فى هذا العرض تضحية فحسب » ، مع تقديرها للتضحية فى الوقت نفسه • وولد الطفل (بنتاً) قبل الأوان بشهر أو بستة أسابيع ، فعهد به الى مرضعة بمكان فى ألمانيا ، ثم استرده فرسيلوف ، وهو يعيش الآن فى روسيا ، ربما ببطرسبرج •

ـ وما حكاية أعواد الكبريت الفوسفورية ؟

قال فاسين :

ـ لا أعرف عن هذا شيئاً البتة • وقد ماتت ليديا آخماكوفا بعد الولادة بخمسة عشر يوماً • ما ظروف موتها ؟ لا أدرى • وقد علم الأمير بوجود الطفل منذ عاد من باريس ، ويبدو أنه فى الوهلة الأولى لم يصدق أن الطفل منه ••• ومن جهة أخرى جهدت جميع الأطراف فى ابقاء القصة سراً لا يفشو بين الناس • وما تزال الى اليوم محفوفة بالغموض •

هتفت أقول مستاء :

ـ ولكن ما هذا الأمير ؟ أهكذا تُعامل فتاة مريضة ؟

ـ لم يكن مرضها فى ذلك الحين قد تفاقم • ثم انها هى التى طردته • صحيح أنه ربما كان قد أسرع يستفيد من هذا الطرد ، فلم يلبث أن رحل على الفور •

ـ أتبرر سلوك رجل نذل مثله ؟

ـ لا • ولكننى لا أصفه بأنه نذل • ان فى الأمر شيئاً آخر غير النذالة • على كل حال ، هذه مسألة عادية مألوفة • انه لا ينفرد بهذا السلوك من دون سائر الناس •

ـ قل لى يا فاسين : هل عرفته من قرب ؟ اننى أحب كثيراً أن اعتمد على رأيك بسبب ظرف يمسنى جداً •

ولكن فاسين أجاب هنا بكثير من التحفظ • انه يعرف الأمير ،ولكنه لم يشأ أن يقول كلمة واحدة عن ظروف تعرفه اليه • وقد أسرَّ الىَّ بعد ذلك أن طبع الأمير يجيز له أن يكون متسامحاً فى الحكم عليه • « ان نفسه تزخر بميول خيرة ، وهو انسان يمكن التأثير فيه ، لكنه لا يملك لا من العقل ولا من الارادة ما يمكنه من السيطرة على رغباته وشهواته »• وهو رجل لا ثقافة له ، لكنه مهووس بالتنقل والتشرد بين أفكار وأمور لا قدرة له على فهمها • من ذلك أنه يصدع أذنيك بأقوال من هذا النوع: « أنا أمير ، أنا سليل روريك • ولكن لماذا لا أكون مساعد اســـكافى اذا احتجت الى أن أجنى رزقى وكنت عاجزاً عن عمل شىء آخر ؟ ســوف يقرأ الناس على لافتة دكانى حينئذ : « الأمير فلان ، حذاء » ، هل ثمة ما هو أنبل من هذا ؟ » • انه يقول هذا الكلام مستعداً لتنفيذه ، وذلك هو الأمــر الخطير • أضاف فاسين هذه الجملة ، وأردف : ولكنه لا يقول هذا الكلام عن اقتناع ، وانما يقوله عن خفة عقل وسرعة تأثر • ثم تأتى الندامة بعد ذلك حتماً ، فيكون على أتم الاستعداد للانتقال الى النقيض تماماً •وهكذا تجرى حياته كلها • ان فى عصرنا أناساً كثيرين يجدون أنفسهم محصــورين فى طريق مســدودة ، لا لشىء الا لأنهم ولدوا فى عصرنا •

بذلك ختم فاسين كلامه • فشرد ذهنى ووجمت حالماً مفكراً •ثم سألت فاسين :

ـ هل صحيح أنه طُرد فى الماضى من الجيش ؟

ـ لا أدرى أطرد أم لا • ولكننى أعلم أنه ترك الجيش بعد بعض المضايقات • لعلك لا تجهل أنه فى الخريف الماضى ، وقد أحيــل الى التقاعد ، قد قضى شهرين أو ثلاثة أشهر فى لوغا ؟

ـ أنا ... أعلم أنك كنت حينذاك فى لوغا .

ـ نعم ، كنت فى لوغا أيضاً بعض الوقت . وكان الأمير يعرف كذلك اليزابث ما كاروفنا ؟

هتفت أقول :

ـ صحيح ؟ كنت أجهل هذا . اننى لم أكلم أختى الا قليلاً . ولكن هل استقبلته أمى فى بيتها ؟

ـ لا . هذه معرفة قديمة تمت فى لقاء ببيت ثالث .

ـ نعم . ثم ، ماذا قالت لى أختى عن ذلك الطفل ؟ هل كان الطفل فى لوغا أيضاً ؟

ـ بعض الوقت .

ـ وأين هو الآن ؟

ـ لا بد أن يكون ببطرسبرج .

صحت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

ـ لن أصدق أبداً أن تكون أمى قد شاركت أية مشاركة فى هذه الألاعيب من قصة ليديا كلها !

فقال فاسين وهو يبتسم ابتسامة تسامح :

ـ فى هذه القصة ، التى لا أحاول أن أحلل عقدها على كل حال ، لا أرى أن دور فرسيلوف يشتمل على شىء يستحق أن يلام عليه لوماً شديداً فى حقيقة الأمر .

وأظن أن فاسين كان قد سئم من الحديث معى ،ولكنه لا يريد أن يظهر سأمه .

وهتفت أقول مرة أخرى :

ـ لن أصدق أبداً ، أبداً ، ان امرأة يمكن أن تتنازل عن زوجها لامرأة أخرى ! لا ، هذا شيء لن أصدقه أبداً ! ••• أحلف أن أمي لم تشارك أية مشاركة في هذا الأمر •

ـ يخيل الي مع ذلك أنها لم تعارضه •

ـ لو كنت في مكانها لثرت وعارضت ، من باب العزة والشمم على الأقل •

قال فاسين يختم كلامه :

ـ لا أريد من جهتي أن أقطع بحكم في هذا الموضوع •

والواقع أن فاسين ، رغم ذكائه كله ، كان لا يفهم في شئون النساء شيئاً ، فكانت دائرة كبيرة من الأفكار والحوادث ، غريبة عنه مجهولة لديه • وصمت • وكان فاسين يعمل مؤقتاً في شركة مساهمة ، وكنت أعلم أنه يحمل شيئاً من عمله الى بيته • فلما ألححت في القاء الاسئلة عليه ، أعلن لي أن هناك حسابات يجب عليه أن ينجزها ؛ فرجوته رجاء حاراً أن لا يشعر من وجودي بحرج ، وأن يشرع في انجاز عمله • وأظن أن ذلك قد سره • ولكنه قبل أن يجلس الى مكتبه أراد أن يهيىء لي سريراً على الديوان • وكان قد عرض عليّ أن أنام على سريره هو ، ولكنني رفضت ، وأظن أن هذا أيضاً قد سره • واستعرنا من المؤجرة مخدة وغطاء • وكان فاسين مهذبا ولطيفا الى أقصى حد ، لكنني كنت أشعر بشيء من الضيق حين أراه يتكلف هذا العناء من أجلي • أذكر أنني قبل ثلاثة أسابيع ، حين اتفق لي عرضاً أن بتُّ ليلة عند ايفيم في بطرسبرجسكايا ستورونا ، كنت أكثر ارتياحاً • انه هو أيضاً قد أعد لي سريري على الديوان بغير علم عمته ، مفترضاً ـ لا أدري لماذا ـ أنها ستستاء اذا علمت أن رفاقاً له يجيئون اليه للمبيت عنده • لقد ضحكنا كثيراً ، واتخذنا من قميص شرشفاً نغطي به الديوان ، ولففنا معطفاً فجعلناه مخدة • وأذكر أن

زفاريف ، بعد أن أتممنا هذا العمل كله ، ربت على الديوان براحة يده قائلاً بعاطفة :

ـ « ستنام كملك صغير » (بالفرنسية) .

فكان من شأن هذا المرح الغبي ، وهذه الجملة الفرنسية التي لاتناسبه أكثر مما يناسب البقرة أن تلبس مريلة ، كان من شأن ذلك أن قضيت عند هذا المهرج ليلة بديعة . أما عند فاسين فما كان أشد ارتياحي حين رأيته يجلس أخيراً الى مكتبه ويدير لى ظهره .

اضطجعت على الديوان ، وطفقت أفكر في أمور كثيرة وأنا أنظر الى ظهره .

٣

كان ثمة أشياء كثيرة تبعث على التفكير . وكانت نفسى مضطربة ، فلا شيء فيها مكتمل . صحيح أن بعض الاحساسات أبرز من بعض ،ولكن ما من احساس بينها كان يجرني وراءه جراً تاماً ، وذلك من فرط وفرتها وغزارتها . كان كل شيء يبرق برقاً ان صح التعبير ، بغير ترابط ولاتماسك، وكنت أنا نفسى لا أريد أن أتلبث على شيء ، ولا أن أقيم أى نظام . حتى ذكرى كرافت تراجعت شيئاً فشيئاً ، فأصبحت في المقام الثانى من اهتمامى . ان ما يبث الاضطراب في نفسى أكثر من كل ما عـــداه انما هو حالتى الشخصية . انني الآن قد « قطعت صـــلتي » فها هى ذى حقيبتى ، وهأناذا بعيد عن البيت ،وهأناذا أبدأ حياة جديدة . لكأن كل ما سبق أن عقدت النية عليه وهيأت له الأسباب انما كان قبل الآن لهواً وضحكاً ، ثم اذا بكل شيء « ينقلب الآن الى واقع على حين فجأة ، على حين غرة خاصة » . فكانت هذه الفكرة تشجعنى ، وكانت تبهجنى رغم الاضطراب الذى كنت أحسه لأسباب شتى . ولكن ... ولكن كان ثمة احساسات اخرى . وكان بينها احساس يتمنى أن يتقدمها جميعاً وأن يستولى على نفسي كلها . ومن غريب الأمر أن هذا الاحساس كان هو أيضاً يشجعنى ، ويدفعنى الى فرح شديد . ومع ذلك كان هذا الاحساس قد بدأ بخوف : لقد خفت منـــذ مـــدة طويلة ، طويلة جداً ، أن أكون قد أسرفت فى الكلام عن موضوع الوثيقة مع آخماكوفا ، بدافع الحماسة والمفاجأة . قلت أحدث نفسى : «نعم ، لقد قلت أكثر مما كان يجب أن أقول ، فلا بد أنهما حزرتا شيئاً . ياللمصيبة ! لا شك في أنهما لن تدعا لى راحة اذا ساورتهما شبهة. ولكن لعلهما لن تعثرا عليّ . سوف اتوارى عن الأنظار ! ولكن ماذا اذا لاحقتاني ؟ ... » فاذا أنا أتذكر ، بغير قليل من التلذذ ، ما وقع لى مع

كاترين نيقولايفنا كاملاً لا ينقصه شيء من التفاصيل • فأرى نظرتها التي كانت جريئة ولكنها كانت كذلك مدهوشة أشد الدهش ، وأرى كيف تركتها مشدوهة مضطربة مشوشة ؛ « ليست عيناها سوداوين سواداً حالكا مع ذلك ••• وانما السواد الحالك في الأهداب وحدها ••• فهذا ما يضفي على العينين مظهر السواد الشديد ••• » •

أذكر أن هذه الذكرى قد أثارت في نفسي اشمئزازاً قوياً على حين فجأة ، أشمئزازاً وتقززاً منها ومني على السواء • فأخذت أكيل لنفسي أنواعاً من اللوم ، وحاولت أن أصرف فكري الى شيء آخر • وخطر ببالي هذا السؤال فجأة : « لماذا لم يساورني أي استياء من فرسيلوف بسبب حكايته تلك مع الجارة ؟ » • كنت من جهتي مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنه مثّل دور العاشق الولهان ، وانه لم يجيء الا نشداناً للتسلية ، ولكن ذلك لم يثر غضبي في الواقع • حتى لقد بدا لي أنه يستحيل على المرء أن يتصوره في غير هذا الصورة • ولئن سرني أنه أخزى ، فانني ما اتهمته ولا أدنته قط • وانما كان الشيء الذي يهمني هو نظرة الكراهية تلك التي ألقاها عليّ حين دخلت عليه مع الجارة • لقد قلت محدثاً نفسي خافق القلب : « ها قد أخذني أخيراً مأخذ الجد ! » • آه ••• هل كان يمكن أن اغتبط لكراهيته هذا الاغتباط كله لولا أن كنت أحبه ؟ •••

وغفوت في النهاية ، ثم نمت نوماً كاملاً • وفيما يشبه الحلم ،رأيت فاسين ــ وقد أنهى عمله ــ يرتب كل شيء بعناية ، ويلقي على ديواني نظرة ثابتة ، ثم يخلع ملابسه ويطفيء الشمعة • كان الوقت قد جاوز منتصف الليل •

٤

بعد ساعتين ، استيقظت منتفضاً وجلست على ديوانى • كان ينبعث وراء الباب فى غرفة الجارتين صراخ رهيب وانتحاب وبكاء وعويل • وكان باب غرفتنا نحن مفتوحاً على مداه ، وكان الدهليز مضاءً ، وكان فيه أناس يصيحون ويركضون • فأردت أن أنادى فاسين ، لكننى سرعان ما أدركت أنه لم يكن فى سريره • ولم أعرف أين يمكننى أن ألتمس أعواد ثقاب ، فتناولت ملابسى تلمساً ، وارتديتها فى الظلام • لكأن المؤجرة وجميع المستأجرين كانوا على موعد فى غرفة الجارتين • ان العويل يصدر عن صوت واحد اجمالا ، هو صوت الجارة المسنة ، أما صوت الفتاة الذى سمعته أمس وما أزال أتذكره تذكراً واضحاً كل الوضوح ، فقد كان صامتاً صمتاً مطلقاً • هذه هى الملاحظة الأولى التى برقت فى خاطرى • وما ان انتهيت من ارتداء ملابسى حتى دخل فاسين مسرعاً ، فتناول أعواد الثقاب فى لحظة واحدة بيد تعرف المكان ، وأنار الغرفة • وكان يلبس قميصاً وثوباً للمنزل وخفين ، فسرعان ما أخذ يرتدى ثيابه •

هتفت أسأله :

ـ ماذا حدث ؟

فقال بما يشبه الغضب :

ـ قصة مزعجة مربكة ! ان الجارة الشابة التى حدثتنى عنها بالأمس قد شنقت نفسها فى غرفتها •

فانطلقت من صدرى صرخة • لن أستطيع أن أصف الألم الشديد الذى اعترانى ! وهرعنا الى الدهليز • أعترف أننى لم أجرؤ أن أدخل غرفة الجارتين • ولم أر الفتاة المسكينة التى شنقت نفسها الا فيما بعد •

بل لم أنظر اليها الا من بعيد • كانت مغطاة بشرشف برز تحته تعـــلا حذاءيها الضيقان • لم أنظر الى وجهها • كانت الأم فى حالة فظيعـــة مخيفة • وكانت معها المؤجرة التى لم ألاحظ فيها كثيراً من الارتياع • وكان المستأجرون قد تجمعوا في غرفة المأساة • ولم يكن عددهم كبيراً : بحار عجوز دائم التذمر متشدد فى مطالبه ، لكنه اليوم هادىء كل الهدوء، وعجوزان ـ زوج وامرأته ـ قدما بالأمس من اقليـم « تفير » ، وهمـا شخصان محترمان من رتبة معينة • لن أصف بقية تلك الليلة ، ولا الذهاب والاياب ، ولا الزيارات الرسمية • لقد ظللت الى مطلع الصبح ارتعش ارتعاشاً صـغيراً سريعاً من شدة الاضطراب ، ورأيت أن من واجبى أن لا أرقد ، رغم أننى لا أقدم أية معونة ولا أقوم بأن عمل مفيد • وكانت وجوه الجميع تعبر عن يقظة شديدة على كل حال ، بل كانت تعبر عن همة ونشاط • وقد خرج فاسين من البيت للقيام باجراءات رسـمية فى أغلب الظن • وبرهنت المؤجرة على أنها فى هذه الأحوال امرأة ذات شـهامة ، وأنها خير مما ظننت فيها • وقد أقنعتها (وذلك أمـر شعرت منه بفخر) بأنه لا يجوز أن تُترك الأم وحيدةً مع جثمان ابنتها ، وبأن عليها أن تنقلها الى غرفتها حتى الغد على الأقل • فسرعان ما وافقت على رأيى • ورغم أن الأم أخذت تتخبط وتبكي رافضةً أن تترك جثمان ابنتها ، فقد رضيت أن تذهب الى غرفة المؤجرة أخيراً ، ولم تلبث المؤجرة أن سارعت تأمر باشعال السـماور • وتفرق المسـتأجرون بعد ذلك ذاهبين الى غرفهم وأقفلوا أبوابهم بالمفاتيح • ولكننى لم أشأ أن أرقد بحال من الأحوال ، وظللت عند المؤجرة طول الليل ، فسُرت المؤجرة بأن يكون في غرفتها شخص آخر ، وأن يكون هذا الشخص عدا ذلك قادرا على أن يحدثها فى الأمر • وكان السماور نعمَ الجليس • ان السماور فى روسيا ضرورة لازمة فى جميع الكوارث والنوازل ، ولاسـيما ما كان منها فظيعاً مفاجئاً شـاذاً •• فحتى الأم شربت فنجانين من الشـاى ، ولـكن بعد أنواع من التوسـل

والتضرع طبعاً ، حتى لكأننا أجبرناها على الشرب اجباراً • والحق انني لم أر في حياتي كرباً أقسى من كرب هذه الأم ولا يأساً أوضح من يأسها • وقد طاب لها بعد الانتحاب الشديد والصراخ المسعور أن تأخذ في الكلام عما جرى لابنتها ، فأصغيت الى قصتها بنهم قوي • ان بين التعساء الذين نزلت بهم المصائب ، ولاسيما النساء منهم ، أناساً يجب عليك في مثل هذه الحالة أن أن تدعهم يتكلمون ما شاءوا أن يتكلموا • هذه نفوس حرثتها أنواع الشقاء والمحن والأحزان حرثاً ان صح التعبير ، فلا شيء يدهشها بعد ذلك ، ولو كان كوارث مفاجئة ، ولا شيء ينسيها قاعدة من قواعد فن الكياسة والتماس المودة والشفقة ، ولو كان منظر جثمان أعز مخلوق لديها • ولست أحكم على هؤلاء الناس • فليس مصدر هذا عندهم أنانية عامية ولا تربية فجة • بل لعل في هذه القلوب من صفاء الذهب ما ليس في قلوب أبطال لهم من النبل أعظم مظهر ؟ ولكن التعود الطويل على المذلة ، وغريزة البقاء ، واستمرار ما يعانون من القلق والخوف والاضطهاد ، قد غلبهم على أمرهم أخيراً • فمن هذه الناحية كانت المنتحرة المسكينة لا تشبه أمها • ولكنهما متشابهتان في ملامح الوجه تشابهاً تاماً ، وان تكن الفتاة جميلة حقاً • ان الأم لم تطعن في السن ، فهي في نحو الخمسين من عمرها ؟ وكانت شقراء هي أيضاً ، ولكن عينيها غائرتان وخديها خاسفان وأسنانها كبيرة صفراء متفاوتة • وكل ما فيها يمت الى الاصفرار بصلة : فجلد الوجه واليدين أشبه بالرق ؟ وفستانها القاتم قد اصفر من فرط قدمه ؟ وظفر الابهام من اليد اليمنى كان مدهوناً بشمع أصفر لا أدري لماذا !

ولقد كانت القصة التي روتها مشوشة في بعض الأحيان ، فلا ترابط بين أجزائها • وسوف أروي لكم الآن ما فهمته وما أتذكره •

٥

لقد جاءتا من موسكو . وهى أرملة منذ مدة طويلة ، ولكنها أرملة « مستشار » . كان زوجها موظفاً ، ولم يترك لها شيئاً ، « الا مائتى روبل هى راتب المعاش ، ولكن ما قيمة مائتى روبل ؟ » . ومع ذلك ربت أوليا ، وأرسلتها الى الليسيه .. « وما كان ألمعهـا فى الدراسـة ، ما كان ألمعها ! لقد نالت عند تخرجها من المدرسة مدالية فضية .. » (هنا ذرفت المرأة دموعاً غزيرة بطبيعة الحـال) . وكان زوجهـا قد خسر عند تاجـر من بطرسبرج مبلغاً يساوى قرابة أربعة آلاف روبل . وفجأة استرد التاجر ثـراءه . « لدىّ أوراق ، وقابلت محاميـاً ، فقيل لى : طالبى بالدين ، وستقبضين المبلغ حتماً .. » ففعلت ذلك ، فأخذ التاجر يوافق . فقيل لى : اذهبى اليه بنفسك . فحزمنا أمتعتنا ، أنا وأوليا ، وجئنا الى بطرسبرج ، ونحن فيها منذ شهر . وكنا نملك قليلاً من المال . واستأجرنا هذه الغرفة لأنها أصـغر الغرف ، ولكنها فى بيت شريف . لاحظنا هذا بأعيننا ، وهو الشيء الهام فى نظرنا : فانا ونحن امرأتان بغير خبرة يمكن أن يسيء الينا الناس وأن ينالونا بأذى . ودفعنا لك أجرة شهر سلفاً . ولكن المعيشة فى بطرسبرج باهظة التكاليف . ورفض التاجر أن يدفع لنـا حقنا . قال : « أنا لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما » ، وكانت الأوراق التى بيدى غير كافية . أدركت ذلك بنفسى . ونصحونى بأن استشير محامياً شهيراً . كان المحامى الذى نصحونى باستشارته استاذاً . لم يكن محامياً عادياً بل كان من رجـال التشريع ، فلابد أن يقول لى ما الذى يجب علىّ أن أعمله . ذهبت اليه حاملةً له آخـر ما نملك ، خمسة عشر روبلاً . لم يصغ الى كلامى ثـلاث دقائق . وقاطعنى يقول « فهمت ، فهمت . أعـرف . اذا أراد التاجر أن يدفع دفع ، واذا لم يشأ أن يدفع فلن يدفع . واذا أقمت

دعوى ، فقد يحكم عليك بدفع النفقات . فالأفضل أن تحلى المسألة معه صلحاً » ، حتى لقد زج في كلامه آيات من الانجيل مازحاً متهكماً : « كن مصالحاً لخصمك ما دمت معه في الطريق ، قبل أن تخسر آخر فلس » . وشيعني ضاحكاً . هكذا ضيعت خمسة عشر روبلاً ! رجعت الى أوليا . وجلست كل منا أمام الأخرى . وكنت أبكي .. أما هي فانها لم تبك . بل بقيت ساكنة ، شامخة ، متألمة . وهكذا كان شأنها طول حياتها . لا « آه » ولا « أوه » ! لا تذرف دمعة . وتظل عيناها قاسيتين . وكنت اذا رأيتها على هذه الحال تسري في ظهري رعدة . صدقني اذا أردت أن تصدق : كنت أخاف منها ، أخاف منها حقاً ، منذ مدة طويلة . وكنت أشتهي في بعض الأحيان أن أتشكى ، ولكنني لا أجرؤ أن أتشكى أمامها . عدت الى التاجر مرة أخيرة ، وذرفت دموعاً غزيرة . فلم يزد على أن قال لي : « طيب » ، حتى دون أن يصغي الى كلامي . يجب أن أذكر لكما أننا كنا لا ننوي أن نمكث مدة طويلة هذا الطول كله ، لذلك نفد كل ما كان معنا . رهنت جميع أثوابي واحداً بعد واحد ، فكنا نعيش مما نقترض . ونفدت ثيابنا كلها . فأعطتني آخر قميص عندها . فذرفت دمعة مريرة . وقرعت بقدمها الأرض من شدة غضبها ، وهرعت تذهب الى التاجر بنفسها . انه رجل أرمل . فكلمها هكذا : « تعالي غداة غد في الساعة الخامسة ، فقد يكون عندي ما أقوله لك » . فرجعت الى البيت فرحة جذلى . وأبلغتني ما قاله لها : « سيكون عندي ما أقوله لك » . فسررت أنا أيضاً . ولكن شعرت في الوقت نفسه بثقل يجثم على صدري . قلت لنفسي : سوف يحدث شيء ! ولكن هل كنت أجرؤ أن أفاتحها بما يساورني ؟ وفي غداة الغد رجعت من عند التاجر شاحبة شحوباً شديداً ، مرتعشة ارتعاشاً قوياً ، وارتمت على السرير . ففهمت كل شيء ، ولم أجرؤ حتى أن أسألها عما حدث . هل يمكنك أن تصدق ما وقع ؟ لقد أخرج لها هذا اللص الحقير خمسة عشر روبلاً ، وقال : « اذا وجدتك

عذراء زدت المبلغ أربعين روبلاً » . قال لها هذا ، في وجهها ، دون خجل . فما كان منها الا أن هجمت عليه ــ فيما روت لى ــ ولكنه دفعها عنه برجله ، ومضى الى غرفة أخرى أقفل عليه بابها بالمفتاح . وانى لأعترف لكما صادقة أننا كنا مع ذلك لا نكاد نملك ما نقتات به . وأخذنا صديرة مبطنة بجلد أرنب فبعناها . ثم ذهبت الى الجريدة ، ونشرت اعلانا تقول فيه : أحضّر لجميع العلوم ، وللحساب . وقالت لى : « سأقبل أن يدفع لى ثلاثون كوبكاً » . وأصبحت فى النهاية ، أنا أمها ، ارتاع حين أراها . أمست لا تقول لى شيئاً ، بل تبقى جالسة على النافذة ساعات بكاملها تنظر الى سطح المنزل المقابل ، ثم تصرخ قائلة على حين فجأة : « لسوف أعمل غسالة ، أو أعمل حفارة اذا لزم الأمر » . تقول ذلك ثم تقرع الأرض بقدمها . ذلك أننا ليس لنا أحد يمكن أن نلتجىء اليه . ما المصير الذى ينتظرنا ؟ وكنت ما أزال أخاف أن أتحدث معها . ونامت مرة فى وضح النهار ، ثم اذا هى تستيقظ فجأة فتفتح عينيها وتنظر الىّ . وكنت أنا جالسة على الصندوق ، أنظر اليها أيضاً . فاذا هى تنهض دون ان تقول شيئاً ، وتدنو منى ، فتقبلنى بقوة ، بقوة ، ثم تفقد كلتانا الصبر ، فنأخذ نبكى ، ونظل متعانقين لا تترك احدانا الأخرى . لم يحدث لها هذا فى حياتها الا تلك المرة . وفيما نحن كذلك دخلت علينا خادمتك ناستاسيا وقالت : « هناك سيدة تسأل عنكم » . حدث هذا منذ أربعة أيام . ودخلت تلك السيدة : انها ترتدى ثياباً حسنة ، وتتكلم الروسيه ، ولكن بلكنة ألمانية . قالت : « هل أعلنت فى الجريدة أنك تعطين دروساً ؟ » ، فاحتفينا بها ، وأجلسناها ، وكانت تضحك بلطف ومودة . وأضافت تقول : « لست أجىء من أجلى أنا ، بل من أجل ابنة أختى التى لها أولاد صغار . فتعالى الينا اذا شئت ، وسنتفاهم » . وأعطت عنوانها : شارع كذا ، عمارة كذا ، شقة كذا . ان العمارة تقع قرب جسر فوزنسنسكى . وانصرفت . ذهبت أوليا الى العنوان .

بل سعت اليه في ذلك اليوم نفسه • ثم اذا هي تعود بعد ساعتين مصابة بنوبة عصبية رهيبة • وقد روت لي ما حدث لها فيما بعد فقالت : سألت البواب : « أين الشقة رقم كذا ؟ » ، فنظر الى البواب وقال : « ما حاجتك الى هذه الشقة ؟ » • وكان في لهجته غرابة شديدة ، حتى لتراود المرء ريبة من سماع هذه اللهجة وحدها • ولكن أوليا قوية الكبرياء ، نافدة الصبر ، فلا تستطيع أن تطيق الأسئلة الكثيرة والكلمات الفظة • فقال لها البواب مشيراً باصبعه الى السلم : « طيب • هي ذي الشقة فاذهبي اليها » • وأدار لها ظهره ، وعاد الى حجرته • فهل تتصورون ما الذي حدث ؟ دخلت أوليا الشقة ، وسألت ، فسرعان ما هرعت نساء من جميع الجهات تقول لها : « ادخلي ، ادخلي ! » ، وقد هرعن جميعاً ضاحكات ، مبهرجات ، مخضبات الوجوه بالأصباغ والمساحيق ؛ نساء ساقطات يبعثن على التقزز ، أحدقن بها وجررنها جراً ، وكان هناك من يعزف على البيانو • قالت لي أوليا : « أردت أن أهرب ، ولكنهن لم يتركنني » • فخافت ، وخارت ساقاها فلا تكادان تحملانها • والنساء ما يزلن ممسكات بها ، يكلمنها بلطف ورقة ، ويشجعنها • وفتحن زجاجة من خمرة بورتو يردن أن يسقينها احتفاءً بها وتكريماً لها • فانتفضت وأخذت ترشقهن بالشتائم مرتعشة مرددة : « اتركنني ، اتركنني » • وهجمت على الباب فأمسكنها ، فأخذت تعول • وعندئذ وثبت الأخرى ، تلك التي جاءت الينا ، فصفعت أوليا صفعتين ، ودفعتها الى الخارج وهي تقول لها : « أنت لا تستحقين يا قاذورة ، أنت غير جديرة بسكنى بيت لائق ! » وهتفت امرأة ثانية قائلة لها وهي تهبط على السلم : « أنت جئت تعرضين نفسك ، لأنك ليس في بيتك طعام تسدين به رمقك ، والا لما رضينا أن ننظر اليك وأنت على ما أنت عليه من هذه الدمامة كلها ! » • وقد قضت ليلتها في حمى وهذيان • وفي الصباح كانت عيناها تسطعان • نهضت وقالت : « سأشتكي » • ولم أقل أنا شيئاً ،

ولكنى فكرت بينى وبين نفسى : « كيف تمكن الشكوى ؟ أين الأدلة ؟ » • وأخذت أوليا تسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وتلوى يديها ؛ وأخذت الدموع تسـيل من عينيها ، ولكنها تكز أسنانها متجلدة مكابرة • وقد صـار وجهها بلون التراب منذ تلك اللحظة ، وظـل على هذه الحال حتى النهاية • وتحسنت فى غداة الغد ، وسـكتت عن الكلام ، فاعتقدت أنهـا هدأت وسـكنت • وفى السـاعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم انما جاء السيد فرسيلوف •

أقول بصراحة : اننى مازلت غير قادرة على أن أفهـم كيف أمكن أن تصغى أوليـا اليه من أول كلمة وهى على ما عليه من سوء الظن وشدة الارتيـاب • والحق أن ما جذبنا كلتينا اليه هو هيئته الجادة الرصينة ، بل القاسـية ، وكذلك أسـلوبه فى الكلام وهو أسـلوب رقيق ، مهذب ، لا مهذب فحسب ، بل فيـه توقير واحترام أيضـاً ، بدون أن تملق مع ذلك : ان المرء يحس أن كلامه نابع من قلبه • قال : « قرأت اعلانك فى الجريدة • وأرى أنك لم تحسنى كتابته ، وذلك قد يسىء اليك • » ثم ذكر بعد ذلك شيئاً لم أفهمه ، شيئاً عن الحساب • ولكننى رأيت أوليا تحمر (فلابد أنه رجل ذكى جداً) ، حتى لقد سمعتها تشكره • وألقى عليها عدداً من الأسئلة • وعرفت أنه يقيم بموسكو منذ مدة طويلة ، وأنه يعرف مديرة ليسيه معرفة شخصية • وأضاف يقول : « سوف أجد لك دروساً ، لأننى أعرف كثيراً من الناس هنـا ، بل أستطيع ـ اذا شئت الحصول على وظيفة ثابتة ، أن أوصى بك أشخاصاً لهم نفوذ كبير • ولكن اسمحى لى ، بانتظار أن يتحقق ذلك ، أن ألقى عليك سؤالاً صريحاً بغير لف ولا دوران : ألا أستطيع أن أساعدك فى شىء على الفور ؟ وثقى بأنك أنت التى تحسنين الىّ اذا أتحت لى أن أساعدك ، فيكون علىّ أنا أن أشكر لك صنيعك • والأمـر بسيط : سـوف تردين الىّ المسـاعدة متى حصلت على الوظيفة • وأقسم لك بشرفى أننى من جهتى اذا وقعت يوماً فى ضائقة

كالضائقة التي تعانين منها ، فلن أخجل من أن أطلب مساعدتك ، ولسوف أرسل اليك عندئذ زوجتي وابنتي •• » • لن أروى لكما كل حاله ، وحسبي أن أذكر أنني ذرفت دمعة حين رأيت شفتي أوليا تختلجان شكراً وعرفاناً بالجميل • ولقد أجابته هكذا : « اذا قبلت مساعدتك ، فانما أقبلها لثقتي برجل شريف مستقيم انساني يمكن أن يكون بمثابة أبي •• » • لقد عبرت عما في ذهنها بكلام يبلغ هذا المبلغ من الحسن والايجاز والنبل : « رجل انساني ! » • فما كان منه الا أن نهض فوراً وهو يقول : « سأجد لك دروساً ووظيفة ، حتماً ؛ سأهتم بهذا الأمر منذ اليوم ، لا سيما وأنك حاصلة على شهادات كافية ••• » ولكنني نسيت أن أقول لكما انه منذ دخل قد دقق في شهادات الليسيه لأنها أرته اياها ، وانه سألها في موضوعات كثيرة • وقد قالت لى أوليا بعد انصرافه : « هل تعرفين يا ماما أنه امتحنني امتحاناً ••• ما أذكاه ! ما أمتع الحديث مع رجل في مثل علمه وثقافته ! ••• » • كان وجهها يشع فرحاً • وكان على الطاولة ستون روبلاً • قالت لى : « ارفعيها يا ماما • سوف نحصل على وظيفة • وسوف نرد اليه القرض في أقرب وقت • سوف نبرهن على أننا أناس شرفاء ، وأن لنا شعوراً مرهفاً واحساساً رقيقاً ، ولقد لاحظ هو ذلك طبعا • » • ثم صمتت • ورأيت أنها تتنفس تنفسا عميقا • وقالت لى بعد برهة : « لو كنا أناساً أفظاظاً يا ماما ، لرفضنا مساعدته كبرياء وأنفة ولكننا بقبولنا هذه المساعدة برهنا على رقة شعورنا ، وعلى أننا نثق به رجلاً جديراً بالاحترام ، شائب الشعر ، أليس كذلك ؟ » • فلم أفهم في أول الأمر شيئاً ، وقلت : « لكن علام نرفض مساعدة رجل نبيل غنى يا أوليا ، اذا هو كان فوق ذلك طيب القلب ؟ » • فقطبت حاجبيها وقالت : « لا ياماما ، ليس هذا هو الأمر ، ليس الأمر أمر مساعدة بل أمر روح انسانية • أما المال فلعله كان ينبغي أن لا نأخذه • ألم يعد بأن يجد لى وظيفة ؟ كان هذا يكفي ••• رغم شدة حاجتنا الى المال • » • قلت « كفاك يا أوليا ، ما نحن

في حال تسمح لنا بالرفض » ، حتى لقد ضحكت وأنا أقول لها هذا الكلام. كنت بيني وبين نفسي مسرورة . ولكن ها هي ذي أوليا تعود الى الموضوع بعد ساعة قائلة : « تريثي يا ماما . لا تنفقي من هذا المال شيئاً . » قالت ذلك بلهجة قاطعة . فسألتها : « لماذا ؟ » ، قالت : « نعم ياماما ، تريثي » . ثم لم تنطق بعد ذلك بشيء . وانما ظلت مساءها كله صامتة . حتى اذا كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظت فسمعت أوليا تتقلب على سريرها وتسألني : « ألست نائمة يا ماما ؟ » ، فأجبتها : « لا » ، فقالت: « هل تعلمين ؟ لقد أراد أن يهينني » . قلت : « ــ ما هذا الكلام ؟ » . قالت: « حتماً ، حتماً ، انه رجل دنيء . اياك أن تنفقي كوبكاً واحداً من ماله . » . وهممت أن أجيبها ، حتى لقد بدأت أبكي على سريري ، ولكنها انقلبت الى جهة الحائط قائلة لي : « لا تجيبيني ، دعيني أنام ! » . ونظرت اليها في الصباح ، فلم أتعرفها من فرط تغيرها . صدقا أو لا تصدقا ، لكنني أحلف لكما أمام الله أنها قد جنت ! انها منذ عوملت تلك المعاملة في ذلك البيت الساقط القذر ، قد اختل قلبها ، واختل عقلها أيضاً ... نظرت اليها في ذلك الصباح ، فاستبدت بي الحيرة وصرت لا أدرى كيف أتصور الأمر واستبد بي الخوف . قلت لنفسي : « يجب أن لا أعارضها . سألتني : « ماما ، لم يترك عنوانه ، أليس كذلك ؟ » . فقلت : « أنت على خطأ يا أوليا . لقد سمعت حديثه أمس ، فأثنيت عليه ، ثم أوشكت أن تذرفي دموع الشكر والعرفان بالجميل . » . ولم أقل لها شيئاً آخر ، ولكنها أخذت تصرخ ، وتضرب الأرض بقدمها قائلة لي : « ليس في قلبك الا عواطف ذل ! هي تربية عهد العبودية ، القديمة ... واضح هذا ! » . ما أكثر ما قالته لي من كلام جارح ! ... وتناولت قبعتها ، وهربت . لم أستطع أن أصدها . وصحت أناديها على السلم . ثم تساءلت ماذا دهاها ؟ الى أين هربت ؟ لقد ذهبت الى مكتب العناوين ، لتعرف أين يسكن السيد فرسيلوف . وقالت لي حين عادت : « في هذا اليوم نفسه

سأردّ اليه ماله ، سأرمى ماله فى وجهه . لقد أراد أن يهيننى ، كما فعل سافرونوف (التاجر) ، ولا فرق بينهما الا فى أن سافرونوف فعل ما فعله بفطانة فلاح ، أما هو فبمكر واحتيـال ، ورياء ونفاق . . » . وفى تلك اللحظة نفسها نقر على الباب ذلك السيد الذى جــاءنا أمس ، وقال : سمعتكما تتكلمان عن فرسيلوف ، فأستطيع أن أزودكما بأنبائه » . فما ان سمعت اسم فرسيلوف حتى وثبت الى الرجل مستعرة الغضب . وأخذت تتكلم ، وتتكلم . فكنت أنظر اليها فلا أصدق عينى . عهدى بها شديدة الصمت ، ما رأيتها فى حياتها تتدفق فى الكلام هــذا التدفق ، فكيف تندفع الآن فى الحديث هذا الاندفاع ، ولا سيما مع رجل لا تعــرفه ؟ وكانت خداها حمراوين ، وكانت عيناها تسطعان . قال الرجل لهـا : انك على حق يا آنســة . ان فرسيلوف يشبه كل الشبه أولئك الجنرالات الذين يوصفون فى الصحف . يتزين واحدهم بجميع أوسمته ، ويسعى الى المربيات اللواتى ينشرن اعلانات فى الجرائد ، يسعى ويجد مطلبه . واذا لم يجده يتكلم ، ويبذل الوعود البراقة ، ثم يرجع من حيث أتى ! يــكون قد تسلى على الأقل . « حتى أوليـا ضحكت ، ولكن ضحكها كان متقطعاً عجيباً . وتناول ذلك السيد يدها وحملها الى قلبه قائلاً : « أنا أيضاً أملك ثروة فى امكانى دائماً أن أعرضها على فتاة جميلة . ولكن حسبى فى أول الأمر أن أقبل يدها ... » ، ورأيت أنه يجذبها الى صـــدره ليعانقها ويقبلها ، فوثبت أوليا ، ووثبت أنا معها فى هذه المرة ، وتعاونا كلتانا على طرده . وفى المساء استردت أوليا المال منى وخرجت مسرعة ، ثم رجعت فقالت لى : « ماما ، انتقمت من ذلك الرجل الحقير ! » . قلت لها : « أوليا ، من يدرى أننا لم ندمر سعادتنا بأيدينا ، من يدرى أنك لم تهينى رجلاً شريفاً محسناً ! » وبكيت ألماً وحسرة . لم أستطع أن أسيطر على نفسى . فاذا هى تصرخ قائلة : « لا أريد ، لا أريد ، هبه أشرف انسان فى العالم ، فاننى لا أريد صدقاته ! لا أريد أن يشفق علىّ أحد ! » .

ورقدت خالية البال من أية فكرة • لم يدر فى خلدى شىء • لطالما نظرت اليه ، هذا المسمار المدقوق فى الجدار من بقايا مرآة ، فلم يخطر فى ذهنى شىء ، لا أمس ، ولا قبله ، ولا فى يوم من الأيام • لم أقدر أن يحدث حادث • لاسيما وأننى كنت لا أتوقع هذا من عزيزتى أوليا • ومن عادتى أننى أنام نوماً ثقيلاً ، وأشخر : انه الدم يصعد الى رأسى • وقد ينزل الدم الى قلبى فأصرخ فى نومى ، فتوقظنى أوليا فى الليل وتقول لى : « ما هذا يا ماما ؟ انك تنامين نوماً يبلغ من الثقل أنه يصعب ايقاظك عند الحاجة • » فأقول لها : « آ ••• نعم نعم يا صغيرتى أوليا ، ان نومى ثقيل ، ثقيل جداً • » • ولا بد اذن أننى كنت فى هذه الليلة أشخر ذلك الشخير • وهذا ما كانت تنتظره أوليا: فنهضت دون أن تخشى شيئاً •وكان عندنا سير طويل نحزم به حقيبتنا ، وكان السير ملقى فى الغرفة ظاهراً للعيان طول هذا الشهر • ولقد حدثت نفسى بالأمس قائلة ان علىّ أن أضعه فى مكان ، فليس يليق أن يبقى ملقى فى الغرفة هكذا ! أما الكرسى فلا بد أنها دفعته بقدمها ؟ ومن أجل أن لا تحدث ضجة وضعت تحته تنورتها • ولا شك أننى لم أستيقظ الا بعد مدة طويلة ، بعد ساعة أو أكثر • فناديتها : أوليا ! أوليا ! لكأن نوعاً من رؤيا قد وافانى فناديتها • واما لأننى لم اسمع تنفسها فى السرير ، واما لأن سريرها بدا لى فى الظلام خالياً ، فقد رأيتنى أثب دفعة واحدة وأمد ذراعى أتلمس السرير: لم يكن فى السرير أحد ، وكانت المخدة باردة • عندئذ انقبض قلبى ، وتجمدت فى مكانى كأننى تمثال من حجر ، واضطرب عقلى • قلت لنفسى : « لا بد أنها خرجت » • ثم لاح لى بقرب السرير ، فى الزاوية، أمام الباب ، أننى أراها واقفة • فنظرت اليها دون أن أقول كلمة ، ونظرت الىّ هى أيضاً فى الظلام دون أن تتحرك • ولكن لماذا هى واقفة على الكرسى • وقلت لها بصوت خافت جداً : « أوليا • اننى خائفة • أوليا ، هل تسمعيننى ؟ » • عندئذ اتضح فى نفسى كل شىء فجأة • فتقدمت خطوة

الى أمام ، ومددت ذراعى نحوها ، وطوقتها • فكانت تترجح بين يدى • وأمسكتها فظلت تترجح • أدركت كل شىء • ولم أشأ أن أدرك ••• وأردت أن تصرخ ••• ولكن صوتى لم يخرج • تأوهت فى داخلى : آه ••• وهويت على الأرض • وعندئذ صرخت •

• • • • • • • • • •

• • • • • • • • • •

قلت لفاسين فى الصباح ، بين الساعة الخامسة والساعة السادسة :

ـ لولا صاحبك ستيلكوف يا فاسين ، كان يمكن أن لا يحدث شىء مما حدث •

ـ ما يدريك ؟ بل كان سيحدث حتماً • لا يجوز للمرء أن يحكم فى الأمور على هذا النحو • لقد كان كل شىء يسير بالفتاة الى هذه الخاتمة • صحيح أن ستيلكوف ، فى بعض الأحيان •••

ولم يكمل فاسين جملته ، وقطب حاجبيه ممتعضاً ؛ وانصرف فى الساعة السادسة ، فخلوت أخيراً الى نفسى • لقد طلع النهار • وكنت أشعر بشىء من دوار • ووافتنى صورة فرسيلوف : ان القصة التى روتها عنه السيدة تظهره فى ضوء جديد • ومن أجل أن أفكر فى الأمر على مهل ، استلقيت على سرير فاسين بملابسى وحذائى لحظة ، وليس فى نيتى أن أنام أبداً • لكننى لم ألبث أن نمت ، لا أذكر كيف تم هذا • نمت قرابة أربع ساعات • ولم يوقظنى أحد •

الفصل العاشر

١

استيقظت في نحو الساعة العاشرة والنصف ، فلبثت مدة لا أصدق عيني : فعلى الديوان الذى نمت عليه في الليلة البارحة كانت تجلس أمى ، وبجانبها الجارة المسكينة المفجوعة ، أم المنتحرة . وكانت الاثنتان قد أمسكت كل منهما يد الأخرى ، وراحتا تتحدثان بصوت خافت حتى لا توقظانى طبعاً ، وكانتا كلتاهما تبكيان . نهضت ووثبت لأقبل أمى ، فأشرق وجهها وقبلتنى ، ورسمت علىّ اشارة الصليب بيدها اليمنى ثلاث مرات . ولم نكن قد نطقنا بعد بكلمة واحدة حين فتح الباب ، فدخل فرسيلوف وفاسين . مدّ الىّ فاسين يده . ولم يخاطبنى فرسيلوف بكلمة ، بل تهالك على المقعد . أغلب الظن أنه جاء الى هنا هو وأمى منذ وقت . وكان وجهه مشدوداً ، وكانت هيئته تنم عن هم وقلق . ولا شك أنه كان قد بدأ حديثاً مع فاسين ، فهاهو ذا يكمل حديثه قائلاً له بصوت واضح جداً :

ـ ان ما آسف له أكثر من كل شيء آخر هو أننى لم أستطع أن أعالج هذا الأمر كله مساء أمس . ولولا ذلك لما وقعت هذه الحادثة الرهيبة ! كان فى الوقت متسع . لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد .

وما ان خرجت من عندنا هاربة حتى قررت بيني وبين نفسي أن أدركها هنا ، فأبدد ما قام في ذهنها من فهم خطأ • ولكن تلك القضية المستعجلة التي لم تكن في الحسبان ، والتي كان يمكنني مع ذلك أن أرجئها الى اليوم ••• بل كان يمكنني أن أرجئها أسبوعاً ••• تلك القضية المؤسفة هي التي حالت بيني وبين اللحاق بالفتاة الى هنا ، فأفسدت كل شيء • أمور تحدث !

فقال فاسين معترضاً :

ـ لعلك ما كنت لتستطيع أن تقنعها • ان أحقاداً مريرة كثيرة كانت قد تجمعت في نفسها قبل أن تلقاها •

ـ بل كنت سأفلح في اقناعها • كنت سأفلح حتماً • وكانت في ذهني فكرة أخرى ، هي أن أرسل اليها صوفيا آندريفنا نيابة عني • لقد خطرت هذه الفكرة ببالي ، ولكنها لم تستقر فيه • كان يمكن أن تفلح صوفيا آندريفنا ، فلو نفذنا هذه الفكرة لأمكن أن تكون المسكينة حية الآن • لا ، لا ! لن أقحم نفسي بعد اليوم في ••• « أعمل خير » ••• ها قد جربت فكان مسعاي وبالاً ! ما كان أغباني حين ظننت أنني ما أزال من أبناء هذا العصر ، وأنني أفهم طبيعة الشباب في هذا الزمان ! نعم ، ان أدمغتنا قد شاخت حتى قبل أن تنضج • بالمناسبة : ان عدداً هائلاً من الناس لا يزالون بحكم العادة يظنون أنفسهم من جيل الشباب لأنهم كانوا حتى الأمس ينتمون الى جيل الشباب ، ولا يدركون أنهم قد أقصوا ونحّوا •

قال فاسين بتعقل وحكمة :

ـ هناك خطأ واضح في فهم المسألة • ان أم الفتاة تعترف بأن ابنتها ، بعد الحادث الذي وقع لها في بيت المومسات ، قد أصبحت كمن فقد عقله وأصابه جنون • أضف الى ذلك الظروف القاسية ، والاهانة الأولى التي

ألحقها بها التاجر ... ان هذا كله يمكن أن يحدث فى الماضى على هذا النحو نفسه ، وليس هو فى رأيى صفةً تتميز بها شبيبة هذا العصر .

ـ ان شبيبة هذا الزمان نافدة الصبر قليلاً ، ناهيك طبعاً عما تتصف به الشبيبة فى جميع الأزمنة من ضعف ادراك الواقع ، ولا سيما شبيبة الزمان الحاضر . قل لى : ماذا لفق السيد ستيبلكوف هنا ؟

فانبريت أتدخل فى الحديث فجأة فقلت :

ـ ان السيد ستيبلكوف هو سبب البلاء كله . فلولاه لما حدث شىء . لقد صبَّ على النار زيتاً .

فأصغى فرسيلوف ، ولكنه لم ينظر الى . وقطب فاسين حاجبيه . ثم استأنف فرسيلوف كلامه فقال ماطاً كلماته بدون تعجل :

ـ هناك شىء آخر سخيف ألوم نفسى عليه . يخيل الىَّ اننى بحكم عادة سيئة مستحكمة قد أبحت لنفسى شيئاً من المرح معها ، فضحكت ضحكة خفيفة ، أى اننى لم أكن قاطعاً وجافاً وجهماً بالقدر الكافى ، وهذه صفات ثلاث أظن أن الجيل الجديد يقدرها قدراً كبيراً . فلعلنى أتحت لها أن تحسبنى نوعاً من سيلاون متجولاً .

فعدت أقاطعه مرة أخرى قائلاً بعنف :

ـ بالعكس : ان الأم تؤكد أنك أحدثت فى نفسها اثراً حسناً رائعاً ، وأن الفضل فى هذا الأثر انما يرجع الى ما كان فيك من جد بل من قسوة ، وما كان فيك من صدق . هذه أقوالها هى نفسها . ان الفتاة الراحلة قد أثنت عليك بعد انصرافك ثناء يحمل هذا المعنى ذاته .

فتمتم فرسيلوف وهو يلقى علىَّ أخيراً نظرة سريعة خاطفة :

ـ هـ ... كذا ؟

ثم أضاف قائلاً لفاسين وهو يمد اليه ورقة صغيرة :

ـ خذ اذن هذه الورقة ، فلا بد منها للقضية .

فتناول فاسين الورقة ؛ واذ رأى أننى أنظر اليها مستطلعاً ، أعطانيها لأقرأها . انها بطاقة كتب فيها سطران مضطربان كتبا خربشة بالقلم الرصاص ، وأغلب الظن أنهما كتبتا فى الظلام : « ماما ، ماما العزيزة ، اغفرى لى أننى قد رسبت فى مطلع الحياة : ابنتك أوليا التى أورثتك آلاماً . . » .

قال فاسين شارحاً :

ـ وجدت البطاقة فى هذا الصباح .

فهتفت أقول :

ـ يا لها من رسالة عجيبة !

فسألنى فاسين :

ـ عجيبة ؟ لماذا ؟

ـ هل يستطيع المرء ، فى لحظة كتلك اللحظة ، أن يكتب بهذا الأسلوب الهزلى ؟

فنظر الى فاسين مستفهماً . فتابعت كلامى أقول :

ـ هذا الهزل نفسه عجيب . انه من اللغة التى يتخاطب بها تلاميذ المدرسة . من ذا الذى يستطيع ، فى مثل تلك اللحظة ، وفى رسالة لأمه الشقية ، أمه التى يحبها هذا الحب الذى نراه واضحاً فى الرسالة نفسها ، أن يكتب : « رسبت فى مطلع الحياة » ؟

فسألنى فاسين وهو لايزال لا يفهم :

ـ لماذا ؟

وقال فرسيلوف أخيراً :

ـ ليس ههنا أى هزل . قـد يكون التعبير غير دقيق ، قد يكون ناشزاً ، قد يكون من بقايا اللغة التى يتخاطب بها التلاميذ فى المدرسة كما تقول ، أو قد يكون مستمداً من رواية مسلسلة قرأتها الفتاة ، ولكن لا شك فى أن الفتاة حين استعملته لم تلاحظ أنها تستعمل لهجة فيها هزل ، وانما هى استعملته فى هذه الرسالة النظيفة بسذاجة تامة وجد كامل .

ـ مستحيل . لقد أنهت دراستها ، وحصلت عند تخرجها على مدالية فضية .

قال فرسيلوف :

ـ لا شأن للمدالية الفضية فى هذا . كثيرون من ينهون دراستهم فى هذا الزمان على هذا النحو !

فقال فاسين مبتسماً :

ـ تقصد الشبيبة أيضاً !

فأجابه فرسيلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ لا ، أبداً .

ثم أضاف يقول بجد غير معهود فيه :

ـ لئن كان الجيل الحالى أقل معرفة بالأدب ، فمما لا شك فيه ... أن له مزايا أخرى ! ثم ان قولى «كثيرون» لا يعنى «الجميع» . فأنت مثلاً لا يمكننى أن أتهمك بأن ثقافتك الأدبية ناقصة ، ومع ذلك فأنت لا تزال شاباً .

فلم أستطع أن أمنع نفسى عن أن أقول :

ـ ولكن فاسين لا يجد فى هذا «الرسوب» خيراً ، ولا يعده سوءاً .

مدّ فرسيلوف يده الى فاسين صامتاً . وتناول فاسين كسكيتته ليخرج معه قائلاً لي : الى اللقاء .

وخرج فرسيلوف دون أن يوليني انتباهاً . وكنت أنا أيضاً على عجلة من أمري ، لا أملك من الوقت ما أستطيع أن أضيعه سدى : كان عليّ أن أسعى باحثاً لنفسي عن مسكن يؤويني . ان حاجتي الى هذا أقوى منها في أي وقت مضى !

وكانت أمي قد انصرفت مصطحبة الجارة . فلما خرجت الى الشارع وجدتني مشرق المزاج . ان احساساً جديداً رحباً قد نبت في نفسي . وشاءت المصادفة أن ينجح مسعاي . فسرعان ما وقعت على مسكن مناسب كل المناسبة . سوف أعود الى هذا من بعد . أما الآن فلأفرغ من الشيء الأساسي .

حين عدت الى بيت فاسين لأخذ حقيبتي لم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة كثيراً . وكان فاسين في البيت فما ان رآني حتى هتف يقول لي جذل الهيئة صادق النبرة :

ـ كم يسعدني أنك وجدتني ! كنت على وشك أن أخرج . هناك حادث يجب أن أنقله اليك ، وأنا على يقين من أنه سيهمك كثيراً .

فهتفت أقول :

ـ أنا على يقين من ذلك سلفاً .

ـ هيه ! ما أشد هذه الكبرياء في هيئتك ! قل لي : ألم تكن تعرف شيئاً عن رسالة كانت عند كرافت ، ووقعت أمس بين يدي فرسيلوف ، في أمر الميراث الذي آل اليه ؟ ان كاتب الوصية قد عبر في هذه الرسالة عن ارادته بما يناقض حكم المحكمة . ويرجع تاريخ الرسالة الى زمن بعيد . الخلاصة انني لا أعرف ما ذا تتضمن الرسالة على وجه الدقة ، ولكن ألا تعرف أنت شيئاً عن ذلك ؟

ـ أعرف ، طبعاً ! لقد اقتادني كرافت أمس الأول الى بيته ••• من عند أولئك السادة ، فأعطاني الرسالة • وأنا الذى سلمتها أمس الى فرسيلوف •

ـ صحيح ؟ ذلك ما قدرته • تصور أن القضية التي تكلم عنها فرسيلوف هنا منذ قليل ، والتي حالت بينه وبين اللحاق بالفتاة في مساء الأمس ليبدد ما وقع في وهمها من سوء الظن ، انما هي قضية أثارتها تلك الرسالة • لقد ذهب فرسيلوف الى محامي الأمير سوكولسكي رأساً ، في مساء الأمس ، وأعطاه الرسالة وتنازل عن الميراث كله • وقد اكتسب هذا التنازل الآن صفة شرعية • فان فرسيلوف لا يهب هبة ، وانما يعترف في صك التنازل بأن الميراث حق كامل للأمراء •

ذهلت • ولكنني سررت • الحق انني كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن فرسيلوف كان سيتلف هذه الرسالة التي تعرض مصلحته للخطر •وأكثر من ذلك أنني قلت لكرافت : ان اتلاف الرسالة عمل غير شريف ، حتى انني كررت هذا القول لنفسي في المطعم ، ولكنني كنت في قرارة نفسي أحس أن هذا الحل يفرض نفسه ، وانه طبيعي ، سواء أكان الرجل شريفاً أم كان غير شريف • واذا أمكنني أن أتهم فرسيلوف فيما بعد ، فانما يكون ذلك مني تظاهراً ، اي انني كنت سأصدر الاتهام عامداً لأحتفظ بتفوقي على فرسيلوف • أما الآن ، وقد علمت بالمأثرة التي قام بها، فقد أحسست بحماسة صادقة تامة • وأسفت لاستخفافي بالفضيلة وقلة اكتراثي بالواجب ، وسرعان ما وضعت فرسيلوف في منزلة أعلى كثيراً من منزلتي في هذا المضمار • وأوشكت أن أقبل فاسين • وهتفت أقول فيما يشبه الهذيان من النشوة :

ـ ما أعظمه من رجل ! ما أعظمه من رجل ! من ذا الذى كان يمكن أن يفعل ما فعله ؟

قال فاسين :

ـ اعترف معك بأن كثيراً من النـاس ما كانوا ليفعلوا ما فعل ••• وأن عمله عمل ينزله في منزلة عالية من النزاهة والزهد بالمنفعة •••

ـ « ولكن » ؟ أكمل يا فاسين ••• هل عندك ما تعترض عليـــه قائلاً « ولكن » ؟

ـ طبعاً ، عندي « ولكن » • ان العمل الذي قام به فرســـيلوف يشتمل في رأيي على تسرع ، ويشتمل على ••• على ••• ماذا أقول ؟ كيف أعبر ؟ نعم يشتمل على شيء من الزيف ••••

ـ الزيف ؟

ـ نعم • لقد أراد بهذا الفعل أن يرفع قدر نفسه ••• كان كمن يبني لنفسه « نصباً » يرتقيه • لقد كان في وسعه أن ان يقوم بعمل نزيه دون أن يلحق بنفسه ضرراً • فكأنه أراد أن يقلد نفسه وسام شرف بايذاء مصلحته • لقد كان في وسعه ـ والظروف هي ما عرفت من ان حـكم القضاء صدر ومن أن الوثيقة ليس لها قيمة حاسمة ـ كان في وســعه أن يحتفظ لنفسه بنصف الميراث أو بجزء كبير منه في أقل تقدير ، دون أن يعترض على ذلك أي وجدان مهما يكن شديد الاحساس ، قـوي التزمت • وهذا رأي محامي الخصوم نفسه • لقد تحدثت مع المحامي منذ برهة • فلو فعل فرسيلوف ذلك لكان قد قام بعمل لا يقل جمـالاً عن العمل الذي قام به • ولكنه فعل ما فعل حباً بالظهور ورغبـة في المباهاة • لقد تحمس السيد فرسيلوف كثيراً وأسرف في التسرع • ألم يقل هو نفسه منذ قليل انه كان يستطيع أن يرجيء الأمر أسبوعاً ؟ •••

ـ اسمع يا فاسين ••• لا يسعني الا أن أوافق على أن ما تقـوله سليم ••• ولكنني أود أن أرى الأمور تجري كما جرت !

ـ هذه مسألة ذوق • أنت الذي حرضتني على الكلام • ولولا ذلك لصمت وما قلت شيئاً •

وتابعت كلامي فقلت :

ـ هب عمله نصباً يرتقيه اعلاءً لقدر نفسه فان هذا رغم ذلك أفضل . ان ميل المرء اعلاء قدر نفسه ، ولو بارتقاء « نصب » ، أمر جدير بالاعتبار والتقدير . ان له « مثلاً أعلى » على كل حال ، واذا كان الناس في هذا الزمان ليس لهم مثل أعلى ، فما هذا بتقدم . صحيح ان هذا المثل الأعلى مشوه بعض التشويه ، ولكنني أفضل أن يوجد على أن لا يوجد . ولا شك أنك تفكر هذا التفكير نفسه يافاسين صديقي ، يا عزيزي فاسين ! أنا أعرف أنني أسرف في الحماسة حتى لكأنني أهذي، ولكنك تفهم عني طبعاً ، والا لم تكن فاسين . على كل حال ، فانني أعانقك وأقبلك يا فاسين !

ـ من شدة الفرح ؟

ـ من شدة الفرح ! ذلك أن هذا الرجل « كان ميتا فبعث ، وكان ضائعاً فرجع ! » . أنا فتى سيىء يا فاسين ، أنا لا أساويك . لذلك أشعر احياناً بأنني أصبح انساناً آخر ، أسمى وأعمق في آن واحد . انني بعد أن كلت لك المديح أمس الأول (وما مدحتك في الواقع الا لأنك أذللتني وأرهقتني) ، ظللت أكرهك يومين كاملين ! وقد عاهدت نفسي في تلك الليلة على أن لا أجيئك من بعد أبداً ، لئن جئت اليك في صباح أمس ، فانني لم أفعل ذلك الا من حنق ، هل فهمت ؟ من « حنق » ! وحين جلست على هذا الكرسي ، أخذت أنتقد غرفتك ، وانتقدك أنت نفسك، وانتقد كل كتاب من كتبك ، وأنتقد مؤجرتك ... كنت أحاول أن أخفض قيمتك وأن أسخر منك ...

ـ ما كان ينبغي أن تقول لي هذا .

ـ في مساء أمس ، حين استنتجت من احدى عباراتك أنك لاتفهم المرأة ، أسعدني كثيراً أنني أستطعت أن أغلبك . ومنذ قليل ، بمناسبة

الكلام عن « الرسوب في مطلع الحياة » ، سعدت مرة أخرى سعادة هائلة لأنني استطعت أن أخطّئك • وما ذلك كله الا لأنني مدحتك في ذلك اليوم •••

كان فاسين لا يزال يبتسم ، دون أن يدهش أي دهش • وهتف يقول أخيراً :

ـ ولكن هذا أمر طبيعي • هذا ما يحدث دائماً ، لجميع الناس تقريباً ، بل هذا هو الشعور الأول الذي يشب في النفس • ولكن لا أحد يعترف به ، ولا ينبغي الاعتراف به على كل حال ، لأنه ينقضي ولا تترتب عليه أية نتيجة •

ـ يحدث لجميع الناس ؟ هل هذا ممكن ؟ هل جميع الناس على هذه الشاكلة ؟ هل يمكن أن يعرف المرء هذه الحقيقة ثم يحافظ على هدوئه ؟ بمثل هذه الأفكار ، تصبح الحياة مستحيلة !

ـ فأنت اذن ترى ما يراه القائل :

لوهمٌ يسمو بالنفس خير من ألف حقيقة دنيئة •

فهتفت أقول :

ـ هذا صحيح كل الصحة • ان هذا البيت من الشعر يعبر عن بديهية مقدسة !

ـ لا أدري ! لا أريد أن أجزم بأن هذا البيت من الشعر صادق أو كاذب • ان الحقيقة قائمة في مكان بالوسط • كذلك شأنها دائماً • فرب أمر واحد يكون حقيقة مقدسة تارة ، ويكون كذباً سفيهاً تارة أخرى • غير أن هناك شيئاً أعلمه علم اليقين هو أن هذه الفكرة ستظل احدى النقاط الهامة التي يثور حولها الجدال وتكون موضع خلاف ونزاع بين الناس • واني لألاحظ على كل حال أن بك الآن رغبة في الرقص • فهيا

أرقص ! الرقص متعة ولكنني في هذا الصباح قد تلقيت ركاماً ضخماً من من العمل • وأرى أننا تأخرنا •

صحت أقول وأنا أمسك حقيبتي :

ـ سأنصرف حالاً ، سأنصرف حالاً • ولكن لي كلمة واحدة • لئن حدث لي مرة أن « ارتميت على عنق أحد أقبله » ، فما ذلك الا لأنك نقلت الي النبأ منذ وصولي بفرح صادق ، ولأنك قد أسعدك أنني وجدتك في البيت ، حتى بعد قضية « الرسوب في مطلع الحياة » • فهذا السرور الصادق قد رد « قلبي الفتي » اليك زاخراً بالمحبة • استودعك الله ، استودعك الله ، سوف أحاول أن لا أجيء اليك الا بعد مدة طويلة ، بعد أطول مدة ، وأنا أعرف أنك ترتاح لغيابي ارتياحاً عظيماً • أقرأ هذا في عينيك • وعلى كل حال ، فان في غيابي عنك خيراً لنا كلينا ••

وفيما أنا في هذه الثرثرة التي تكاد تخنقني مرحاً وجذلاً ، سحبت حقيبتي ومضيت بها الى مسكني الجديد • وكان الشيء الذي يرضيني ارضاء خاصاً هو أن فرسيلوف قد غضب مني ، ورفض أن يكلمني وأن ينظر الي • فما ان أودعت حقيبتي في المسكن الجديد ، حتى طرت الى صاحبي الأمير العجوز • يجب أن أعترف بأن بعدي عنه خلال هذين اليومين قد شق على نفسي قليلاً • ولابد من جهة أخرى أنه علم بما فعله فرسيلوف •

٢

كنت أعرف أنه سيفرح برؤيتي فرحاً شديداً ، وأقسم انني كنت سأذهب اليه في ذلك اليوم بصرف النظر عن رغبتي في سماع ما سيقوله عن فرسيلوف . ولكن كان يخيفني أمس ، وقبل ساعات ، أنني قد ألقى عنده كاترين نيقولايفنا ، أما الآن فلا أخشى شيئاً .

عانقني من شدة فرحه .

وسرعان ما هجمت على الموضـوع الأسـاسي ، فبدأت حديثي معه قائلاً :

ـ هيه ! ما رأيك فيما فعله فرسيلوف ؟

فبادرني بقوله :

ـ « يا بني العزيز » هذا عمل عظيم ، هذا عمل نبيل ! حتى كيليان (الموظف الذي يعمل تحت) قد شـده منه شـدهاً كبيراً . هذا العمل جنون طبعاً ، ولـكنه عمل باهـر . انه مأثرة عظيمة ! يجب على المرء أن يعرف كيف يقدر المثل الأعلى .

ـ أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ لقد كنا دائماً على اتفاق في هذه النقطة .

ـ يا عزيزي نحن دائماً متفقان . أين كنت ؟ لقد أردت أن أذهب اليك حتماً ، ولكنني كنت لا أعرف أين يمكنني أن أجدك .. ولم يكن في وسـعي أن أذهب الى فرسـيلوف طبعـاً .. رغم انني اليوم ، بعد ما حدث .. هل تعلم يا صديقي ؟ انه بمثل هذه الميزات انما أتيح له أن ينتصر على النساء . أنا من هذا على يقين ..

ـ بالمناسبة ، قبـل أن أنسى .. لقد سمعت تعبيراً قيل في حقه ، فحفظته لأقوله لك خاصة . أمس ، قال شخص بذيء حقير وهو يشتم فرسيلوف ، قال ان فرسيلوف « نبي للنساء الفاضلات » . ياله من تعبير عجيب ! التعبير نفسه ، هه ؟ حفظته لأقوله لك ..

ـ « نبى للنساء الفاضلات ! » تعبير أخاذ ! هأهأهأ ! تعبير ينطبق عليه تماماً ! بل قل انه لا ينطبق عليه ، لكنه تعبير أصاب هدفاً ، بل قل انه لم يصب أى هدف .. ولكن ..

ـ لا بأس ، لا بأس ! لا تقلق ! انظر الى الكلمة الموفقة فحسب ..

ـ الكلمة رائعة ، وان لها لمعنى عميقاً .. الفكرة صحيحة كل الصحة . أقصد .. لعلك ستصدق ما سأقوله لك .. الخلاصة .. سأفضى اليك بسر . هل لاحظت فى ذلك اليوم أوابِ تلك ؟ هل تصدق أنها أغرمت بآندره بتروفتش ؟ بل اننى أعتقد أن أملاً يساورها ..

صحت أسأله مستاءً :

ـ أى أمل ؟

ـ « يا عزيزى » لا تصح هذا الصياح . الأمور تجرى دائماً هذا المجرى . وأنت من جهة أخرى على حق ، من وجهة نظرك . بالمناسبة : قل لى يا صديقى ، ماذا حدث لك فى المرة الماضية أمام كاترين نيقولايفنا ! لقد رأيتك تترنح ، وكدت تسقط ، حتى اننى هممت أن أثب لأمسك بك .

ـ ليس هذا أوان الكلام فى هذا الأمر . على كل حال ، اضطربت بعض الاضطراب ، لسبب من الأسباب ..

ـ وهأنت ذا يحمر وجهك .

ـ وهل أنت فى حاجة الى مزيد من الالحاح ؟ انك تعرف أن بينها وبين فرسيلوف شقاقاً .. ثم هنالك تلك الأمور كلها .. المهم اننى اضطربت . دعنا من هذا الى حين آخر .

ورأيت ضابطاً شاباً جميلاً يدخل . فنظرت اليه بعين نهمة ، لأننى لم أكن قد رأيته من قبل أبداً . واذا قلت انه جميل ، فلأن جميع الناس كانوا يقولون عنه ذلك ، ولكن يجب أن أذكر أن وجهه الشاب الجميل

كان فيه شيء منفر • اننى أسجل هنا شعوراً أحسسته في الوهلة الأولى ، شعوراً خامرنى منذ أول نظـرة ، ثم بقى فى نفسى لم يبارحهـا • انه نحيل الجسـم ، حسن القامة ، كسـتناوى اللون ، نضر البشرة على شيء من صفرة ، جازم النظرة ، تبدو فى عينيه ، القاتمتين قليلاً ، قسوة ، حتى حين يكون هادئاً • ولـكن نظرته الجازمة هى نفسـها الشيء المنفر فيه ، لأن المرء يحس أنها لا تكلفه الا ثمناً بخسـاً جداً • الخلاصـة •• اننى لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله • على كل حـال ، كانت هيئته قادرة على الانتقال من القسوة الى المودة فجأة ، وذلك بصدق لا يستطيع المرء أن يمارى فيه أو أن يجحده • فهذا الصدق كان فيه جذاباً • وثمة سمة أخرى : لقد كانت سحنته ، رغم هذه المودة وهذا الصدق ، خالية من الفرح • فحتى حين كان هذا الأمير يضحك ، تحس رغم كل شيء أن قلبه لابد أن يـكون خاليـاً من الفرح ، الفرح الحق ، الفرح الرشـيق المضيء • ولكن ما أصعب رسم صورة لوجه من الوجوه ! اننى من جهتى عاجز عن هذا كل العجز •

وسرعان ما اندفع الأمير الشيخ يعـّرف أحدنا بالآخر ، على ما جرت به عادته المستحكمة الحمقاء •

ـ صـديقى الشـاب آركادى آندريفتش (أيضـاً آندزيفتش) دولجوروكى •

فالتفت الأمير الشـاب الى جهتى معبراً بوجهـه عن احترام عظيم • ولكن كان واضحاً أنه لم يسـمع باسمى من قبل • وتابع صاحبى الأمير الذى لا يطاق ، تابع كلامه قائلاً :

ـ هو •• قريب آندره بتروفتش ••

ما أثقل هؤلاء الأمراء العجائز احياناً بعاداتهم المستحكمة !

وسرعان ما حزر الأمير الشاب من أنا • فسرعان ما قال :

ـ آ ... نعم .. سمعت عنك منذ مدة طويلة . وقد سررت كثيراً بمعرفة اختك اليزابث ماكاروفنا ، السنة الماضية ، في مدينة لوغا . وقد حدثتني عنك أيضاً ..

دهشت دهشـة كبيرة : ان سروراً صـادقاً مخلصـاً قد التمع في وجهه .

وتمتمت أقول وأنا أعقد ذراعيّ على ظهري :

ـ اسمح لي يا أمير . يجب أن أقول لك بصراحة ـ ويسرني أن أقول هذا الكلام بحضـور أميرنا الغـالي ـ انني أرغب في لقائك رغبـة شديدة ، وان هذه الرغبة قد استبدت بي في الآونة الأخيرة ، واشتدت بالأمس اشتداداً خاصاً ، ولكن لنية أخرى وغرض آخر . أقول لك هذا بصراحة مهما يدهشك . خلاصة الأمر أنني كنت أريد أن أدعوك الى المبارزة بسبب الاهانة الى ألحقتها منذ ثمانية عشر شـهراً بفرسيلوف في مدينـة « امس » . فاذا اتفق أن رفضت التحدي بحجـة انني تلميذ في المدرسة وأنني فتى مراهق ، فانني كنت سأوجه اليك هذا التحدي أياً كان جوابك ، وأياً كان العمل الذي تستطيع أن تقوم به . وما أزال عاقداً عزمي على انفاذ هذا النية نفسها . اعترف لك بذلك .

وقد ذكر لي الأمير العجوز فيما بعد انني ألقيت جملتي الأخيرة هذه بكثير من النبل والشمم .

وارتسم على وجه الأمير الشـاب أسى صـادق . وأجابني بلهجة فيها حرارة :

ـ انك لم تترك لي أن أتم كلامي . لئن كنت قد وجهت اليك بضع كلمـات نابعـة من القلب ، فانما السبب في ذلك ما أحمـله الآن لآندره بتروفتش من عواطف صـادقة . يؤسفني أنني لا أستطيع أن أذكر لك على الفور جميع الظروف والملابسات ، ولكنني أحلف بشرفي أنني منذ

مدة طويلة أشعر بأعمق الأسف للفعل السيء الذى بدر منى بمدينة « امس » • وحين عدت الى بطرسبرج كنت قد عقدت العزم على أن أقدم لآندره بتروفتش كل الترضيات الممكنة أى أن أطلب منه العفو والمغفرة صراحةً على النحو الذى يحدده هو نفسه ، وفى الصورة التى يرسمها بارادته • ان مؤثرات سامية جداً وقوية جداً هى التى كانت سبب هذا التبدل فى الرأى • أما أننا كان بيننا دعوى ينظر فيها القضاء ، فذلك أمر لم يكن له أى تأثير فيما اتخذت من قرار • ولكن موقفه منى بالأمس قد هزنى هزاً قوياً • وصدقنى اذا قلت لك اننى حتى هذه اللحظة مازلت مضطرباً أشد الاضطراب لم استرد توازنى بعد • اعلم أننى انما أجيء الآن الى الأمير لأبلغه أمراً فى غاية الخطورة : منذ ثلاث ساعات ، أى - على وجه التحديد - فى اللحظة الذى كان يحرر فيه ذلك الصك مع المحامى ، جاءنى الرجل الذى هو محل ثقة آندره بتروفتش ، ونقل الىّ منه دعوةً الى المبارزة •• دعوة رسمية •• ثأراً لحادثة « امس »•••

هتفت أقول :

- دعاك الى المبارزة ؟

وأحسست بعينى تلتهبان ، وبالدم يصعد الى رأسى •

- نعم ، دعانى الى المبارزة • وقد قبلت التحدى فوراً • لكننى قررت ، قبل النزال ، أن أبعث اليه رسالةً أعلن له فيها رأيى فى الفعل الذى صدر عنى ، وأعرب له فيها عن أسفى لهذه الخطيئة الرهيبة التى ارتكبتها •• ذلك أنها كانت خطيئة رهيبة ، خطيئة فظيعة ، مشئومة ! •• أرجو أن تلاحظ أن هذه الخطوة التى أقوم بها قبيل المبارزة ، أعنى هذا التراجع الذى يصدر عنى عشية النزال ، أمر مشين يحرك ألسنة الناس بما يسيء الى سمعتى ، ويحرض رفاقى فى الحين على هاجر القول فى حقى ، هل تفهم ما أعنى ؟ ومع ذلك اتخذت قرارى وعزمت أمرى • ولكن الوقت لم يتسع لارسال الرسالة ، فبعد انقضاء ساعة واحدة على

دعوته اياى للنزال ، وصلتنى منه رسالة جديدة يرجونى فيها أن أغفر له أنه أزعجنى ، وأن أنسى تحديه ، ويضيف الى ذلك أنه « يأسف لهذه النوبة الطارئة من الوضاعة والأنانية التى اعترته عرضاً » . تلك ألفاظه نفسها . وبذلك يسّهل على أمر القيام بتلك الخطوة ، أعنى ارسال الرسالة . وأنا لم أرسلها بعد ، ولكننى جئت أباحث الأمير قليلاً . وصدقنى اذا قلت لك ان ما عانيته من عذاب الضمير يفوق ما عاناه أى انسان . هل يرضيك هذا الايضاح ، ولو الى حين على الأقل ، يا آركادى ماكاروفتش ؟ هل تقبل أن تسبغ علىّ شرف اعتقادك بصدق ما أقول صدقاً كاملاً ؟

غُلبت . لقد رأيت صراحة لا مراء فيها ، صراحة لم أكن انتظرها أبداً . لا ولا كنت أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط . فتمتمت أجيبه بكلمات لا أدرى ماذا كانت ، ومددت اليه يدى مستقيمين ، فهزهما بيديه فرحاً . ثم خلا بالأمير ، وتحدث معه فى غرفته نحو خمس دقائق .

حتى اذا خرج من غرفة الأمير قال لى بصوت عال صريح اننا سننصرف معاً ، وانه سيطلعنى على الرسالة التى سيرسلها الى آندره بتروفتش وانه سيطلعنى كذلك على الرسالة التى تلقاها منه .

فوافقته على ذلك مسروراً أعظم السرور . وانهمك الأمير بتوديعى وتشييعى ، ونادانى أيضاً الى غرفته دقيقة فقال لى هناك :

ــ « يا صديقى » ، ما أسعدنى ، ما أسعدنى ! .. وسنتكلم فى هذا من بعد على كل حال . أما الآن فان هناك عملين أرجو أن تتكرم فتنجزهما لى بنفسك على جناح السرعة فى البنك .

قال ذلك وناولنى قراطيس تقتضى منى ، فيما زعم ، أشد اليقظة والانتباه ، وشرح لى أن علىّ أن أذهب الى البنك ، فأودع رسالةً ، وأوقع

على ورقة ، الخ •••

فهتفت أقول له ضاحكاً وأنا أتناول الأوراق :

ـ ما أشد مكرك ! يميناً ليس هذا منك الا تظاهراً وادعاءً ، وليس هناك أى عمل يجب عليَّ أن أقوم به • وما هاتان المهمتان المزعومتان الا من صنع خيالك لفقتهما تلفيقاً لتوهمنى بأن لوجودى معك نفعاً ، وانى أتقاضى أجرى عن جدارة واستحقاق !

فقال لى :

ـ أحلف لك انك لمخطىء « يا بنى ! » • هما مهمتان مستعجلتان كل الاستعجال •

ثم هتف يقول وقد فاض قلبه رقة وعاطفة وحناناً على حين فجأة :

ـ « بنى العزيز ! » •

ووضع يديه على رأسه وأردف يقول :

ـ اننى أباركك ، وأبارك مستقبلك •• لتكن قلوبنا عامرةً بالطهارة والعفة كما نحن الآن •• ولنتحلَّ بالخير والجمـال الى أقصى ما نطيق • لنحب الجمال •• فى جميع صوره وكافة أشكاله •• « هيا •• أخيراً •• أخيراً •• لنشكر الله على نعمه وآلائه •• اننى أباركك •• » •

ولم يكمل كلامه ، بل أخـذ يبـكى فوق رأسى • وأعترف بأننى كدت أن أبكى أنا أيضاً • ولئن لم أبك فاننى على الأقل قد قبلت صاحبى الشاذ صادقاً مسروراً • بل تبادلنا قبلات كثيرة •

٣

قادنى الأمير سرجى (أقصد سرجى بتروفتش ، وبهذا الاسم سأسميه بعد الآن) قادنى الى بيته فى مركبة أنيقة ، فأخذت أعجب بما فى شقته من فخامة وأبهة ، أو دعك من الفخامة والأبهة وقل انها شقة كالشقق التى يملكها أناس من « علية القوم » : غرف واسعة عالية وضاءة (رأيت منها غرفتين وكانت الغرف الأخرى مغلقة) ، وأثاث ان كان لا يذكّر بقصر فرساى أو عصر النهضة ، فانه لين طرى مريح وافر أنيق غاية الأناقة ، الى سجاد ثمين ، وخشب محفور ، وتماثيل صغيرة • ومع ذلك كان الناس مجمعين على أن هذه الأسرة فقيرة معدمة ، وانها أصبحت لا تملك شيئاً البتة • ولكن يجب أن أضيف الى هذا أن الأخبار كانت تقول ان الأمير سرجى كان يحب أن يزر الرماد فى العيون حيث يكون ، سواء هنا أو فى موسكو أو فى الجيش ، وانه مقامر ، وانه مدين • وكنت أنا أرتدى ردنجوتاً مهترئاً ، وكان الردنجوت عدا ذلك مغطى بالزغب بعد أن نمت من غير أن أخلع ثيابى ، ولم أكن قد بدلت قميصى منذ أربعة أيام • على أن الردنجوت لم يكن يبعث على الاشمئزاز ، لكننى ما ان وجدت نفسى عند الأمير حتى تذكرت ما أوصانى به فرسيلوف من تفصيل رداء جديد •

قلت شارد الذهن :

ـ تصور أننى قضيت الليل دون أن أخلع ثيابى ، بسبب حادثة انتحار !

فلما رأيته يصيخ بسمعه منتبهاً على الفور ، رويت له القصة بايجاز • غير أن ما كان يهمه أكثر من كل ما عداه انما هو الرسالة التى ينتوى أن

يبعثها الى فرسيلوف • وقد استغربت من جهتي أنه لم يظهر فيه حتى شيء من تبسم ، بل لم تبدر منه حتى حركة يسيرة تحمل هذا المعنى ، حين أعلنت له بغتةً منذ قليل ، أنني أريد أن أدعوه الى مبارزة • فأغلب الظن أنني عرفت كيف أجبره على أن لا يضحك ، غير أن الأمر يظل محل استغراب من رجل مثله •

جلسنا متقابلين في وسط الغرفة أمام مكتب كبير ، وأراني رسالته الى فرسيلوف ، وكانت مهيأة تهيئةً كاملة • كانت الرسالة تتضمن جميع المعاني التي عبر عنها الأمير • حتى لقد كُتبت بلهجة فيها حرارة • والحق أنني كنت لا أعرف بعد ماذا يجب أن أراه من رأي حاسم في هذه الصراحة الظاهرة وهذه الميول الطيبة الخيرة ، ولكنني قد بدأت انقاد للافتتان بالرجل ، حتى لقد تساءلت ما الذي يدعو الى أن لا أصدقه ؟ انه مهما يكن طبعه ، ومهما تكن الاشاعات التي تروج عنه ، قد يتصف بميول حسنة وسجايا كريمة • ورأيت الرسالة الأخيرة التي بعثها اليه فرسيلوف أيضاً ، وهي سبعة أسطر يعلن له فرسيلوف فيها عدوله عن تحديه ، وتراجعه عن دعوته الى مبارزته • فرأيت أن هذه الرسالة رغم ما ضمنها فرسيلوف من كلام عن « وضاعته » وعن « أنانيته » تتميز في جملتها بنوع من الاستعلاء •• أو قل ان المرء يحس حين يقرؤها أن الخطوة التي قام بها فرسيلوف تشتمل على نوع من الاحتقار ! •• وقد حاذرت أن ابدى له هذه الملاحظة •

قلت أسأله :

ـ ولكن ما رأيك أنت في عدوله هذا ؟ ألا تعتقد أنه خاف ؟

فابتسم الأمير ، ولكن ابتسامته كانت تشتمل على كثير من الجد ، وقال :

ـ لا ، حتماً •

وكان يبدو عليه من جهة أخرى مزيد من الهم • وتابع كلامه يقول :

ـ اننى أعرف شجاعة هذا الرجل • ولكن له ـ وهذا رأى خاص بى طبعاً ـ طرازاً فريداً فى النظر الى الأمور ••

فقاطعته قائلاً بحرارة :

ـ قطعاً • ان شخصاً اسمه فاسين يرى أن فى حكاية الرسالة والتنازل عن الميراث نوعاً من اقامة « نصب » يرتقيه اعلاءً لقدره فى نظر الناس عن عمد • أما رأيى أنا فهو أن هذه الأشياء لا يفعلها المرء حباً بالظهور ، وانما هى تقابل شعوراً عميقاً وعاطفة صادقة •

قال الأمير :

ـ اننى أعرف السيد فاسين معرفة جيدة •

ـ آ •• نعم •• لابد أنك رأيته فى لوغا •

فنظر كل منا فى صاحبه فجأة • وأذكر أننى قد احمر وجهى قليلا • وانقطع الحديث على كل حال • وكنت أنا ميالاً الى الكلام • كنت أتصور اللقاء الذى تم بالأمس ، فيحضنى ذلك على أن ألقى عليه بعض الأسئلة ، ولكننى لا أعرف كيف أتصرف فى الأمر ، وكنت أشعر بغير قليل من الارتباك • ومما خطف بصرى أيضاً ما لاحظته فيه من حسن أدب ورقة تهذيب وطلاقة حركة ، أى ما رأيته فيه من ذلك البريق الذى يكتسبه أمثال هؤلاء الناس وهم لا يزالون فى المهد • لكننى وقعت فى رسالته على خطأين فاحشين من أخطاء الاملاء • وأنا فى لقاء أمثال هؤلاء الناس لا أخفض رأسى أبداً ، حتى انى شراستى تعنف فى بعض الأحيان عنفاً سيئاً • ولم يكن من شأن ردنجوتى المغطى بالزغب أن يهدىء ما يضطرم فى نفسى • وكنت قد لاحظت أن الأمير يتفرس فىّ أحياناً بكثير من الاستطلاع •

قلت فجأة :

ـ قل لي يا أمير : ألا ترى في قرارة نفسك أنه أمـر مضحك أن يدعوك « غرٌّ » مثـلي الى مبارزة ، ولاسـيما بسبب اساءة لحقت شخصاً غيره ؟

فأجابني برصانة ووقار قائلاً :

ـ انه لأمر طبيعي أن يغضب المرء لاساءة ألحقت بأبيه . فلست أرى في عملك شيئاً سخيفاً يبعث على السخرية .

ـ أما أنا فأرى عملي سخيفاً سخفاً رهيباً .. من وجهة نظر شخص آخر طبعاً ، لا من وجهة نظري أنا . ولاسيما أن اسمي هو دولجوروكي ، وليس فرسيلوف . فاذا كنت لا تقول الحقيقة ، أو اذا كنت تلطف الأمور من باب الكياسة التي يلتزمها أبناء المجتمع الراقي ، فأنت اذن تخدعني وتغشني في سائر الأمور الأخرى .

فكرر يقول بجد كبير :

ـ لا ، لا أرى في هذا شيئاً سخيفاً . انك لا تستطيع أن لا تحس بدم أبيك فيك ! .. صحيح أنك ما تزال فتى يافعاً ، و .. لا أدرى .. لكن يخيل اليّ أنه لا يجوز لقاصر أن يبارز ، وأنه لا يجوز لأحد أن يلبي دعوته الى النزال .. فيما توجبـه الأنظمة ! .. غير أن هنـاك اعتراضـاً واحداً يجدر أن ننظر فيه : انك حين تدعو الى المبارزة على غير علم من الشخص الذي لحقت به الاهانة والذي تريد أن تثأر له ، ألا تكون بذلك قد انتقصت من قدره ولم توله ما يجب له من احترام ؟

وفجأةً دخـل خادم ليبلغ عن قدوم زائر ، فانقطعت محادثتنـا . وأغلب الظن أن الأمير كان ينتظر هذا الزائر ، فما ان رأى الخادم حتى نهض دون أن يكمل كلامه ، وتقدم الى لقائه مسرعاً ، فكلمه الخادم بصوت خافت ، فلم أسمع من كلامه شيئاً . وقال لي الامير :

ـ معذرة . سأرجع بعد دقيقة .

وخرج . وبقيت وحيداً . وأخذت أذرع الغرفة ذاهباً آيباً وأنا مسترسل في التفكير . غريب : لقد أعجبني الأمير ولم يعجبني . ان فيه

شيئاً لا أستطيع أن أصفه وأن أعبر عنه ، لكنه شيء يصدمني ويؤذيني. قلت أحدث نفسي : « اذا كان لا يسخر مني فانه اذن ممتلىء سذاجة .. ولو كان يسخر مني ، لبدا لي أكثر ذكاءً . » برقت هذه الفكرة العجيبة في ذهني . ودنوت من الطاولة فأعدت قراءة رسالته الى فرسيلوف . ومن ذهولي لم أشعر بانقضاء الوقت ، حتى اذا أفقت من شرودي لاحظت فجأة أن دقيقة الأمير دامت ربع ساعة . فاضطربت من ذلك بعض الاضطراب . وعدت أسير في الغرفة ذاهباً آيباً . ثم تناولت قبعتي أخيراً وقررت أن أنصرف . انني أتذكر هذا . قلت لنفسي : اذا رأيت أحداً بعثته يستدعي الأمير ، حتى اذا جاء ودعته مؤكداً أن ثمة عملاً يناديني وأنني لا أستطيع المكوث معه أكثر مما مكثت . فبدا لي أن هذا أحفظ للكرامة ، لأنني تصورت أنه بتركي هذه المدة الطويلة انما يدل على أنه يزدريني .

وكان للغرفة بابان اثنان يقعان في طرفي جدار واحد . وكان البابان كلاهما مغلقين . وكنت قد نسيت من أي باب دخلنا ، أو قل انني لذهولي فتحت واحداً من البابين بغير تفكير ، فاذا أنا أفاجأ باختي ليزا جالسةً على ديوان في غرفة طويلة ضيقة . ولم يكن في الغرفة أحد غيرها ، فلابد أنها كانت تنتظر أحداً . ولكن ما ان اعترتني هذه الدهشة الأولى حتى سمعت صوت الأمير يتكلم بصوت عال راجعاً الى المكتب . فأغلقت الباب ، ودخل الأمير من الباب الآخر فلم يلاحظ شيئاً . أتذكر أنه أخذ يعتذر عن تأخره أشد الاعتذار ، وأنه جاء على ذكر امرأة سماها آنا فيدوروفنا .. ولكنني كنت قد بلغت من الانشداه والاضطراب أنني لم أكد أفهم من كلامه شئاً ، وتمتمت أقول ان عليّ أن أعود الى بيتي حتماً . ثم خرجت متعجل الخطى . ولاشك أن هذا الأمير المهذب ذلك التهذيب كله قد بدا له سلوكي غريباً . وقد شيعني الى الباب وهو ما يفتأ يتكلم ويتكلم ، بينا أنا لا أجيبه بشيء ولا أنظر اليه .

٤

صرت في الشارع ، فاستدرت يسرةً ، وأخذت أسير على غير هدى . كان كل شيء في رأسي مختلطاً مضطرباً . وكنت أسير سيراً بطيئاً . أظن أنني قطعت مسافة طويلة ، تبلغ نحو خمسمائة خطوة . واني لكذلك اذا أنا أحس ربتاً رفيقاً على كتفي . فالتفت . فرأيت أختي ليزا . لقد أدركتني ، ولامست كتفي بمظلتها . وكان في نظرتها المتلألئة فرح عظيم ، وشيء من مكر .

ـ يسرني جداً أنك سرت في هذا الطريق ، والا لما استطعت أن ألقاك طول النهار .

كانت تلهث قليلاً من سرعة السير .

ـ ما أشد لهاثك !

ـ ركضت كثيراً لأدركك .

ـ ليزا ، أأنت مَنْ رأيت منذ قليل ؟

ـ أين ؟

ـ عند الأمير .. الأمير سوكولسكي ..

ـ لا ، ليست أنا .. لا يمكن أن تكون قد رأيتني ..

فصمت . وسرنا نحو عشر خطوات . انفجرت ليزا ضاحكة ، وقالت :

ـ طبعاً أنا التي رأيتني ! رأيتني وحدقت الى عيني ، وحدقت اليك أنا أيضاً . فلماذا تلقى هذا السؤال ؟ ما أغرب طبعك ! .. ولقد راودتني رغبة قوية في الضحك حين حدقت اليّ . كانت هيئتك مضحكة جداً .

وضحكت ضحكاً شديداً • فبدد ضحكها قلقى •

ـ ولكن ما جاء بك الى هناك ؟

ـ زرت آنا فيدوروفنا •

ـ أية آنا فيدوروفنا ؟

ـ السيدة ستوليبافا • حين كنا نقيم بمدينة لوغا ، كنت أقضى عندها أياماً كاملة • كانت تستقبلنا أنا وماما ، وكانت تجىء الينا أيضاً • وكانت لا تزور أحداً غيرنا تقريباً • انها تمتُ الى الأمير سوكولسكى بقرابة بعيدة ، وكذلك الى الأمراء سوكولسكى • أظن أنها للأمير بمثابة جدة •

ـ فهل تقيم عند الأمير ؟

ـ بل الأمير يقيم عندها •

ـ لمن الشقة اذن ؟

ـ لها • انها تملك الشقة منذ سنة • وقد وصل الأمير منذ قليل فنزل ضيفاً عليها • وهى نفسها لم تجىء الى بطرسبرج الا منذ أربعة أيام •

ـ طيب •• حفظها الله هى وشقتها ! ••

ـ ولكنها سيدة لطيفة •

ـ لا أنكر عليها ذلك • ثم انها تملك للطف وسائله وأسبابه • نحن أيضاً أناس لطاف • انظرى الى هذا النهار ما أجمله ! ما أبدع هذا الجو ! وما أجملك اليوم يا ليزا ! ما أنت الا طفلة على كل حال •

ـ قل لى يا آركادى : أرأيت الى حكاية تلك الفتاة بالأمس ما كان أهولها ! ••

ـ آه •• شىء محزن يا ليزا ، محزن جداً !

ـ محزن حقاً • يا لهذا المصير ما أشد هوله ! أليس شراً يا آركادى

أن نكون نحن فرحين هذا الفرح كله بينما تهوم روحها الآن فى الظلمات ، فى ليل بهيم ليس له قرار ، حاملةً اثمها معها ؟ قل لى يا آركادي : من المسئول عن الاثم الذى ارتكبته ؟ آه •• ما أشد هول هذه المسألة ! هل تفكر أحياناً فى تلك الظلمات ؟ آه •• لشدما أخاف من الموت ! وهذا أيضاً اثم ! اننى لا أحب الظلمة • هذه الشمس أحلى كثيراً ! تقول ماما ان الخوف من الموت شر •• قل لى يا آركادي : هل تعرف ماما حق معرفتها ؟

ـ لم أعرفها بعد الا قليلاً يا ليزا ، قليلاً !

ـ يا لها من انسانة ! يجب أن تعرفها ، يجب أن تعرفها • يجب على المرء أن يفهمها خاصة !

ـ أنت أيضاً كنت لا أعرفك ، وهأناذا أعرفك الآن معرفة تامة ! •• فى دقيقة واحدة ، نفذت الى حقيقتك كلها ! •• ليزا ، مهما تخافى من الموت ، فلابد أنك ذات كبرياء ، وجسارة ، وشجاعة • أنت خير منى ، خير منى كثيراً • أحبك حب الجنون يا ليزا • ليزا ، يستطيع الموت أن يجيء متى شاء ، أما الآن فلنعش ، فلنعش ! لنا أن نتألم لتلك البائسة ، ولكن فلنبارك الحياة • ألست على حق ؟ ان لى « فكرتى » يا ليزا • ليزا ، هل تعلمين أن فرسيلوف تنازل عن الميراث ؟

ـ كيف لا أعرف ذلك ؟ لقد تعانقنا أنا وماما •

ـ انك لا تعرفين ما بنفسى يا ليزا ، لا تعرفين ماذا كان هذا الرجل فى قلبى !

ـ دعك من هذا الكلام ، اننى أعرف كل شيء !

ـ تعرفين كل شيء ؟ نعم ، حتماً • أنت ذكية • أنت أذكى من فاسين • ان لك ولماما عيوناً نافذة ، انسانية ، أقصد النظرة ، لا العيون •• لقد أخطأت التعبير • ما أغبانى أحياناً يا ليزا •

ـ بل أنت في حاجة الى من يسيطر عليك . هذا كل شيء .

ـ فسيطري عليّ يا ليزا . ما أحلى النظر اليك اليوم يا ليزا ! هل تعلمين أنك رائعة الجمال ؟ لم أر عينيك قبل اليوم أبداً .. رأيتهما الآن أول مرة . من أين جئت بهما يا ليزا ؟ من أين اشتريتهما ؟ كم دفعت ثمنهما ؟ ليزا ، أنا لم يكن لى أصدقاء ، حتى لقد كانت هذه « الفكرة » حماقة ، أما الصداقة معك أنت فليست حماقة .. هل تقبلين أن نكون صديقين ؟ هل تفهمين ماذا أريد أن أقول ؟

ـ أفهم كل الفهم .

ـ أقصد صداقة بغير عقد ، بغير شروط . نكون صديقين وكفى ، ببساطة !

ـ نعم ، صداقة وكفى ، ببساطة .. غير أن لى شرطاً : اذا اتفق ان اتهم احدنا الآخر يوماً ، اذا ساءنا أمر من الأمور ، اذا اعتكر مزاجنا ، بل اذا نسينا أيضاً كل شيء فلن ننسى أبداً هذا اليوم ولا هذه الساعة ! فلنتعاهد على هذا . لنتعاهد على أن نتذكر الى الأبد ، هذا اليوم الذى سرنا فيه معاً وقد أمسك كل منا يد الآخر ، وضحكنا فيه كثيراً ، وسعدنا فيه هذه السعادة كلها .. هل تقبل ؟ تقبل ؟

ـ نعم يا ليزا ، نعم ، أقسم لك . يخيل الىّ يا ليزا اننى أسمعك الآن أول مرة .. ليزا ، هل قرأت كثيراً ؟

ـ لم تلق على هذا السؤال قبل اليوم ! أمس فقط ، حين أخطأت في كلمة ، تفضلت فانتبهت الى هذا أيها السيد الفيلسوف !

ـ لماذا لم تبادرينى أنت بالحديث بعدما رأيت أننى غبى الى ذلك الحد من الغباء ؟

ـ كنت أنتظر أن تصبح أكثر ذكاء . لقد عرفتك منذ البداية

يا آركادى ماكاروفتش ، فسرعان ما قلت لنفسى : لسوف يجىء ، لسوف يجىء آخـر الأمـر حتماً • وآثرت أن أدع لك شرف القيام بالخطـوة الأولى • قلت لك فى سرى : « لا ، عليك أنت أن تجرى الآن ورائى ! »•

ـ ها •• يا للصغيرة المغناج ! طيب قولى بصراحـة يا ليزا : لابد أنك ضحكت منى كثيراً طوال هذا الشهر ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً • لأنك مضحك فعلاً ، مضحك جداً يا آركادى ! ولكن هل تعلم ؟ لعلنى لهذا السبب انما أحببتك هذا الشـهر ، ذلك أنك كنت طريفاً • غير أن طرافتك رديئـة أحيـاناً • أقول لك هذا حتى لا تتباهى وتغتر • ولكن هل تعلم مَنْ ضحك منك أيضاً ؟ ماما • ضـحكنا معاً • كنا نتهامس قائلين : « غريب الأطوار ! ما أغرب أطواره ! » • وكنت أنت تظن طوال هذا الوقت أننا نرتعد رعباً منك •

ـ ليزا ، ما رأيك فى فرسيلوف ؟

ـ هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال فيه • لكننا لن نتكلم عنه الآن • ليس هذا اليوم أوان الحديث عنه ، أليس كذلك ؟

ـ أنت على حق • لا ، لا ، ان ذكاءك رهيب حقاً يا ليزا • انك أذكى منى حتماً • انتظـرى قليـلاً ، اننى متى فرغت من هذه الشئون كلها ، سوف أذكر لك فى النهاية بعض الأشياء •••

ـ ما بالك تقطب حاجبيك ؟

ـ لم أقطب يا ليزا ، ما هذا بشىء •• اسمعى يا ليزا •• الأفضل أن أقولها بصراحـة : ان لى سمه خاصة هى أن فى نفسى نقاطاً حساسـة لا أحب أن يلمسها أحد •• أو قولى ان لى مشاعر معينة لا أحب عرضـها طلباً لاعجاب الناس • مخجل ، أليس كذلك ؟ ولهذا أفضـل أحياناً أن أقطب الحاجبين ولا أقول شيئاً • أنت ذكية ، فعليك أن تفهمى •

ـ ولكننى مثلك . اننى أفهمك فهماً كاملاً . وماما أيضاً مثلك .

ـ آه يا ليزا ! كل ما أتمناه هو أن نعيش فى هذه الحياة الدنيا مدة طويلة . ماذا قلت ؟

ـ لم أقل شيئاً .

ـ انك تنظرين الى ...

ـ وأنت تنظر الى أيضـــاً . اننى أنظر اليك ، واننى أحبك ...

رافقتها حتى البيت تقريباً . وذكرت لها عنوانى . وحين تركتها ، قبلتها أول مرة فى حياتى .

٥

هذا كله كان حسناً ، لولا أن هناك ظلاً كان يعـــكره : ان فكرة حزينة كانت تضطرب في نفسي منذ الليل ولا تبارح خيالي • ذلك أنني حين التقيت في مساء الأمس بتلك المسكينة قلت لها انني سأترك البيت ، وان على المرء أن يبني عشه بعيداً عن الأشرار ، وان لفرسيلوف عدداً من أولاد الزنا ؟ فلا شك أن هذه الكلمات التي يقولها ابن عن أبيـــه قد أكدت جميع شكوكها في فرسيلوف ، وعززت احساسها بأنه أراد بها سوءاً • لقد كنت أتهم ستيبلكوف ، ولعلني أنا الذي صببت على النار زيتاً • فكرة رهيبة ، رهيبة حتى اليوم • ولكنني في ذلك الصباح ، رغم كل ما عانيت من عـــذاب في أول الأمر ، قد بدا لي أن الأمر ليس من الخطورة في المحل الذي أحله فيه ، وكنت أكرر لنفسي من وقت الى آخر: « دعك من هذا الكلام ، فان في نفسها من الحقد المتراكم قبـل أن تراها وقبل أن تقول لها شيئاً ما كان سيدفعها الى الاقدام على فعل ما فعلته حتماً ! هيا ••• سينقضي الأمر ، وسـأبرأ من هذه الوساوس •• وسـأكفر عن غلطتي بطريقة من الطرق ••• بعمل من الأعمال الحسنة • فما يزال في عمري خمسون عاماً ! » •

ولكن الفكرة ظلت تتحرك وتضطرب في نفسي •

الجزء الثاني

الفصل الأول

١

انقضى شهران تقريباً . أرجو من القارىء أن لا يقلق: فسوف يتضح له كل شيء . وكما دونت في بداية يومياتي تاريخ ١٩ أيلول (سبتمبر) ، فانني أسجل هنا تاريخ ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ، وهو يوم لا أنساه ، وذلك لأسباب كثيرة . يجب أن أذكر أولاً ان من رآني منذ شهرين لن يعرفني اذا هو رآني الآن . هذا من جهة المظهر على الأقل . أقصد انه سيعرفني ، ولكنه لن يفهم شيئاً . انني أرتدي الآن ثياباً تبلغ غاية الأناقة بل الغندرة . هذه نقطة أولى . ان الخياط الذي أوصاني به فرسيلوف يوماً ووصفه بأنه فرنسي دقيق في عملهرفيع الذوق قد خاط لي ثياباً كاملة ، ولكنني لا أرتديها فهي لا تبلغ المستوى الذي يليق بأنيق مثلي . وانما لي الآن خياطان من درجة أعلى ، خياطان من الدرجة الأولى ، حتى انهما فتحا لي حساباً . ولي حساب مفتوح أيضاً في مطعم راق . ولكنني ما أزال في هذا المجال تعوزني الجسارة : فما ان أملك مالاً حتى أبادر الى سداد الدين ، رغم علمي بأن هذا أمر ناب أعرّض به مهابتي للانتقاص . ولي في شارع نفسكي حلاق فرنسي من باريس ، يروي لي النوادر والملح كلما ذهبت اليه لقص

شعرى ، حتى أصبحت حكاياته معروفة لى مألوفة عندى . وأعترف بأننى أتمرن معه على الكلام بالفرنسية . اننى أعرف اللغة الفرنسية ، بل أعرفها معرفة مناسبة ، ولكننى فى المجتمع الراقى أشعر دائماً بخجل فلا أجرؤ على التكلم بها مجازفاً . هذا عدا أن لهجتى لابد أنها بعيدة عن اللهجة الباريسية . ولى كذلك عربة وحوذى هو ما تفثى ، يلبينى كلما ناديته . انه يقود مركبة فخمة يجرها حصان كميت ممشوق (أنا لا أحب الخيل الصهباء) . غير أن هناك أشياء ليست كما أحب . نحن الآن فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) . البرد قارص منذ ثلاث أيام . ومعطفى المصنوع من فراء الراتون ، وهو هدية أهداها الىّ فرسيلوف ، قد أصبح قديماً ، فلو شئت أن أبيعه لما جاءنى بأكثر من خمسة وعشرين روبلاً . لا بد لى من معطف جديد . وجيبى خاو . وعدا ذلك يجب على أن أحصل على مال لهذا المساء ، بأى شكل من الأشكال . والا « أفلست وهلكت » . هذه هى الألفاظ التى كنت أستعملها فى ذلك الأوان . أواه ! يا للشقاء ! من أين جاءت هذه الألوف ، وهذه الخيول ، وهذه المطاعم (أمثال مطعم بوريل) على حين فجأة ؟ كيف أمكن أن أنسى كل شىء ، وأن أتغير كل هذا التغير ؟ يا للخزى والعار ! أيها القارىء ، انى محدثك الآن عن خزيى ، عن تلطخى بالعار ، ولا شىء يمكن أن يخل بالشرف عندى كهذه الذكريات !

اننى أحكم فى الأمر كما يحكم قاض ، وأعرف أننى مذنب . فرغم أنى والزوبعة تجرفنى ، كنت وحيداً بلا مرشد ولا ناصح ، فلقد كنت أشعر بسقوطى ، فوالله ليس لى اذن من عذر . ومع ذلك كنت شبه سعيد خلال ذينك الشهرين . لماذا شبه سعيد ؟ بل لقد كنت سعيداً مسرفاً فى السعادة ، حتى لقد بلغت من فرط السعادة أن شعورى بتلطخ شرفى ، وهو شعور يخالجنى فى لحظات كثيرة متكررة ، ويهز نفسى هزاً قوياً ، كان يغمرنى بمزيد من النشوة والسكر ، هل تصدقون ؟ كان لسانى حالى يقول : « ما دمت أسقط ، فلأسقط الى الدرك الأسفل ؟ على

اننى لن أسقط ثم لا أخرج ، بل سأخرج • ان لى نجماً يهدينى ! » •
على جسر هزيل نحيل من نثارة ، جسر بغير درابزين ، كنت أسير فوق الهاوية ، وكان يسعدنى أن أسير هذا السير • وكان منظر الهاوية يفتن لبى • نعم ، كان يفرحنى أن أشعر أننى فى قلب الخطر • و « الفكرة » ؟ لا خوف عليها • سوف تأتى من بعد ، فى وسعها أن تنتظر • ما هذا كله الا « انحرافة » : « ••• لماذا لا يهب المرء لنفسه شيئاً من مسرة ؟ » ذلكم هو عيب « فكرتى » ، تلكم هى آفتها : أنها تتسامح فى جميع الانحرافات • فلعلها لو كانت أقل صلابة ومتانة ، لكانت ثقتى بها أضعف ، ولكن يمكن أن أخشى الانحراف عنها •

ما أزال محتفظاً بمسكنى الصغير • لقد احتفظت به دون أن أسكنه ، وأودعته حقيبتى وصرتى وأشياء أخرى • أما اقامتى فاكثرها عند الأمير سرجى سوكولسكى • أمكث عنده ، وأبيت عنده ، وأقيم أسابيع كاملة ••• أما كيف حدث هذا ، فسوف ترون ذلك بعد قليل • ولأحدثكم الآن عن مسكنى الصغير • انه عزيز فى نفسى • اليه انما جاء يزورنى فرسيلوف بنفسه أول مرة ، بعد المشاجرة التى قامت بيننا ، ثم جاء مراراً كثيرة • أكرر أن تلك المدة لم تكن الا عاراً فظيعاً ، ولكنها كانت سعادة كبيرة أيضاً ••• كنت فى تلك الفترة أوفق فى كل شىء ، وكان كل شىء يبتسم لى ! وكنت أقول لنفسى فى تلك اللحظات من النشوة : « علام ذلك الوجه المتجهم والسحنة الكالحة ؟ فيم ذلك الانقباض ، وتلك الطفولة المنعزلة المكتئبة والأحلام المستحيلة تحت الغطاء فى الفراش ، وتلك الأيمان والحسابات ، وحتى « الفكرة » ؟ ذلك كله أخيلة وأوهام ! العالم شىء آخر • وكنت فرحان جذلاً • كان كل شىء رائعاً • كان لى أب : فرسيلوف • وكان لى صديق : الأمير سرجى • وكان لى أيضاً ••• لكن دعونا من هذا • واحزناه ! ان كل ما حدث عندئذ باسم الحب والنبل والشرف قد ثبت بعد ذلك أنه كان قبحاً شنيعاً وعاراً وغشاً •

كفى !

٢

جاء الىّ أول مرة بعد قطيعتنا بثلاثة أيام • ولم أكن فى البيت • فانتظرنى • ورغم أننى انتظرته طوال هذه الأيام الثلاثة فقد بلغت من الاضطراب حين دخلت غرفتى الصغيرة أن عينىّ ضربت عليهما غشاوة ، وأن قلبى خفق خفاقاً شديداً ، فوقفت فى العتبة • ومن حسن الحظ أن مؤجرى قد استحسن أن يجالس الزائر فوراً حتى لا يصيبه ضجر ، فلما دخلت كان يقص عليه حكاية من الحكايات مندفعاً بحرارة • انه موظف بسيط ، فى نحو الأربعين من العمر ، مجدور الوجه ، مدقع الفقر ، مثقل بعبء زوجة مصدورة وابن مريض ، له طبع منفتح مسالم موادع رقيق • فابتهجت بوجوده ، بل ان وجوده قد أخرجنى من مأزق ، والا فما عساى أقول لفرسيلوف ، وكيف كان يمكن أن أكلمه ؟ كنت أعرف أن فرسيلوف سيجىء من تلقاء نفسه ، أنه سيكون هو البادىء بالسعى الىّ ، كما كنت أريد تماماً ، لأننى ما كنت لأبدأ أنا بالسعى اليه مهما يكن من أمر ، لا معاندة له ، بل حباً به ، مدفوعاً الى ذلك بنوع من غيرة المحب ، بنوع من عاطفة لا أعرف كيف أعبر عنها ، لا أعرف كيف أصفها • اننى لا أجيد الافصاح ، ولا بد أن القارىء قد ألف أن لا يجد فى كتابتى فصاحة أو بلاغة • ولكن رغم اننى انتظرته طوال هذه الأيام الثلاثة ، وكنت أتصوره فى كل حين داخلاً علىّ ، فقد كنت عاجزاً عن تخيل الحديث الذى سيجرى بيننا بعد كل ما حدث من صدام عنيف ، مع أننى بذلت جهوداً كثيرة فى سبيل أن أتصور ما قد يدور عليه كلامنا •

قال لى دون أن ينهض :

ــ ها ••• هأنت ذا •••

ومد الىّ يده ، واستطرد يقول :

ـ اجلس هنا ، الى جانبنا • ان بطرس هيبوليتوفتش يروى لى قصة شائقةً جداً عن تلك الصخرة التى كانت تُرى قريبة من ثكنة بافلوفسكى ، أو ربما قريبة من هنا •••

فأسرعت أجيب قائلاً وأنا أجلس على كرسى بجانبهما :

ـ نعم ، أعرفها ••• تلك الصخرة •••

كانا أمام الطاولة • وكانت الغرفة الصغيرة مربعاً لا يتجاوز طول ضلعه أربعة أمتار • وكنت أتنفس بمشقة •

التمع فى عينى فرسيلوف وميض فرح : لا شك أنه لم يكن هادىء النفس ، لا شك أنه كان يتوقع أن أقوم بحـــركات ، ثم اطمأن الآن • وأردف يهيب بمؤجرى أن يكمل قصته :

ـ اتمم يا بطرس هيبوليتوفتش •

كانا قد أخـذا يتخاطبان منـذ الآن بالاسـم الثنائى ، اسم الشخص وأبيه • فالتفت بطرس هيبوليتوفتش الىّ وتابع كلامه يقول منقبض الهيئة كأنما هو يخشى سلفاً أن لا أكون مستمعاً حسناً :

ـ نعم ، حدث الأمر فى عهد الامبراطور الراحل • أنت تعرف اذن تلك الصخرة ، تلك الصخرة الضخمة التى تجثم فى وسط الشـــارع ولا تزيد على أن تزعج • لقد مر الامبراطور بذلك المكان مراراً كثيرة ، وكانت الصخرة فى مكانها دائماً • فضاق بها أخيراً • الحق أنها كانت أشبه بجبل حقاً ، أشبه بجبل فى وسط الشارع ، يؤذى منظرها الأبصار • فها هو ذا الامبراطور الراحل يقول : « فلتختف الصـــخرة من هـــذا المكان ! » • نعم قال : « فلتختف ! » • تعرفـون ماذا يعنى أن يقـــول الامبراطور الراحل : « فلتختف الصخرة من هذا المكان ! » • هـــل

تتذكرون الامبراطور الراحل ؟ فما العمل بالصخرة ؟ طاش صواب الجميع . وكان المجلس البلدى حاضراً ، وكان آخرون لا أذكر الآن من هم ، حاضرين أيضاً . غير أن واحداً من أعلى شخصيات ذلك العهد قد كُلّف بتنفيذ أمر الامبراطور الراحل . فاليكم ما علمه ذلك الرجل : لقد قيل له ان تنفيذ أمر الامبراطور سيكلف خمسة عشر ألف روبل ، لا تنقص كوبكاً واحداً ، بل تكلف خمسة عشر ألف روبل فضة (ذلك أن الأوراق المالية قد بدّلت روبلات فضة فى عهد الامبراطور) . « خمسة عشر ألف روبل ؟ هل يعقل هذا ؟ » . أراد الانجليز فى أول الأمر أن يمدوا سككاً حديدية ، فيزلقوا الصخرة فوقها ، ثم يجرونها بقاطرة بخارية . ولكن كم كان يمكن أن يكلف هذا من نفقات ؟ لم تكن قطارات السكك الحديدية قد وجدت بعد ، وكان خط تسارسكويا سيلو هو الخط الوحيد الذى يعمل ...

فقاطعته أقول متبرماً ممتلىء النفس أسفاً وخجلاً أمام فرسيلوف :

ــ ألم يكن فى الامكان قطعها ؟

ولكن فرسيلوف كان يصغى الى كلام المحدث بسرور ظاهر للعين. فأدركت أنه يرحب بوجود الرجل ، لأنه كان هو أيضاً يشعر بخجل أمامى ، ويحس بحرج من الانفراد بى . حتى لقد كان ذلك منه بادرة مؤثرة .

ــ قطعها ؟ تلك هى بعينها الفكرة التى خطرت بالبال حينذاك . هى فكرة مونفران الذى كان ، كما تعلمون ، يبنى فى ذلك العهد كاتدرائية القديس اسحاق . قال سوف نقطع الصخرة نشراً بالمنشار ، ثم ننقلها . نعم ، ولكن ما النفقات ؟

ــ لا مجال لنفقات كبيرة ، تُقطع نشراً بالمنشار ثم تنقل ، هذا كل شىء !

ـ لا ، اسمح لى . كان لابد من تركيب ماكينة ، ماكينة بخارية .
ثم الى أين تنقل الصخرة ؟ الى أين ينقل جبل هذه ضخامته ؟ قيل ان النفقات لن تقل عن عشرة آلاف روبل ، عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً .

ـ اسمع يا بطرس هيبوليتوفتش . هذه سخافات . لم يحدث هذا كله على هذا النحو ...

ولكن فرسيلوف رمانى فى تلك اللحظة بغمزة خفيفة لا ترى ، رأيت فيها اشفاقاً كبيراً على مؤجرى بل تألماً شديداً له ، فأعجبنى ذلك منه كثيراً ، وضحكت مجاملاً .

لم يلاحظ الرجل شيئاً وكان يخشى أكبر الخشية كسائر أمثاله من القصاصين أن يقاطعه أحد بالقاء أسئلة ، فقال فرحاً جذلاً :

ـ نعم ، هو كذلك ، هو كذلك ، هو كذلك . لقد جاء شاب من الضواحى روسى السحنة تماماً ، له لحية صغيرة مدببة ، يرتدى قفطاناً طويلاً يغطى الكعبين ، ثمل بعض الثمل ، بل لم يكن ثملاً . جاء فى اللحظة التى كان فيها الانجليز و مونفران يعقدون مؤتمراً يتبادلون فيه الآراء ، ووقف يستمع الى أحاديثهم . ووصل الشخص الكبير المكلف بالاشراف على تنفيذ أمر الامبراطور راكباً عربة فخمة ، فأصغى الى كلام المؤتمرين فثارت ثائرته : كيف تطول المناقشات هذه المدة كلها ثم لا يتوصلون الى نتيجة ؟ وفجأة وقع بصره على ذلك الشاب واقفاً على مسافة غير قريبة ، مبتسماً ابتسامة زائفة ... لا ... لا زائفة .. ليس هذا هو اللفظ المناسب .. بل .. بل..

فقال فرسيلوف يحاول مساعدته فى العثور على الكلمة المناسبة بلباقة .

ـ ساخرة ؟

ـ نعم ساخرة ! أقصد ساخرة قليلاً ... انها تلك الابتسامة الروسية

التي تعرفونها • ومن شدة استياء الرجل الكبير زعق يسأل الشاب : « وأنت يا ذا اللحية هناك ؟ ما وقوفك ؟ ماذا تنتظر ؟ من أنت ؟ » •

فأجاب الشاب :

ــ أنظر الى الصخرة الصغيرة يا سمو الأمير • نعم بهذا ناداه : سمو الأمير • أظن أنه كان الأمير سوفوروف الايطالى • خسارة : نسيت من هو • ولكن هبه أميراً فلقد كان روسياً صرفاً ، كان نموذجاً روسيا حقا ، رجلاً وطنيا ، قلبا روسيا رحبا واسعا • فاستطاع أن يدرك كل شيء • وقال يخاطب الشاب الآتى من الضواحي :

ــ هيه ! أتتولى أنت نقل الصخرة ؟ والا فما ضحكك ؟

ــ يضحكنى الانجليز يا سمو الأمير • فلأن الخزينة الروسية عامرة، ولأنهم ليس في بلادهم ما يأكلونه ، تراهم يطلبون أسعاراً فاحشة ! أعطنى مائة روبل يا سمو الأمير ، فلا ترى للحجر أثراً في مساء غد ! في وسعكما أن تتصور المشهد • أراد الانجليز أن يلتهموه نيئاً • وضحك مونفران • والأمير وحده ــ هذا القلب الروسى الطيب ــ قال : « اعطوه مائة روبل ! أتنقل الصخرة اذن ؟ » •

ــ في مساء غد نكون قد نقلناها يا سمو الأمير •

ــ وكيف تعمل حتى تنقلها ؟

ــ لا يسيئنك جوابى يا سمو الأمير اذا قلت : هذا سرنا نحن •

قال له ذلك بلغة روسية أصيلة • فأعجب الأمير ، وقال : « اعطوه كل ما يريد ! » • وتركوه هناك ، فماذا تظنان ؟ هل وفى بما قال ؟

توقف المتحدث لحظة عن الكلام ، وأجال علينا نظرة رقيقة زاخرة بالعاطفة • فقال فرسيلوف مبتسماً :

ــ لا أدرى •

وكنت أنا متجهم الهيئة •

فهتف الآخر هتاف المنتصر ، كأنه هو الذى حقق المعجزة ، هتف يقول :

ـ بل وفى بما قال • كيف ؟ استأجر فلاحين ومجارف ••• مجارف روسية طيبة ••• وحفر حفرة بجانب الصخرة • ظلوا يحفرون طول الليل • حفروا حفرة ضخمة ، بضخامة الصخرة نفسها ••• بل أعمق قليلاً • حتى اذا فرغوا من حفر الحفرة ، فقدت الصخرة توازنها • فلما فقدت توازنها دفعوها الى الحفرة صائحين : « هوررا » • فسقطت الصخرة فى الحفرة • ثم أسرعوا يهيلون عليها التراب ، ومهدوا التراب بمخباط ، وفرشوا حصى صغيرة ، فعاد الطريق كما كان • ولم يبق للصخرة أثر !

قال فرسيلوف :

ـ انظر الى هذا الحذق !

ـ وجاء ناس كثير ، هرعت جماهير كبيرة • واغتاظ الانجليز الذين أدركوا كل شيء فوراً • ووصل مونفران وقال : « هذا عمل بسيط ، بسيط جداً ، يقوم به فلاحون ! » ولكن ذلك بعينه هو السر : عمل بسيط جداً ، ثم لم يخطر لكم على بال أيها الأغبياء • سأقول لكما شيئاً آخر : ان الرئيس الكبير ، الشخص الحكومى العظيم ، احتضن الرجل وقبله ، ثم سأله : « من أين أنت ؟ » فأجابه الرجل : « من اقليم ياروسلاف يا سمو الأمير • مهنتى خياط ، وفى الصيف أجيء الى العاصمة أبيع فاكهة • » • ووصل الأمر الى علم السلطات • فأمرت للرجل بمدالية تتدلى من عنقه • ومضى يتجول والوسام فى عنقه ، ثم مضى يشرب • تعلمان أننا معشر الروس لا نستطيع أن نسيطر على أنفسنا • وذلك هو السبب فى أننا ما نزال ندع للأجانب أن يأكلونا ، أليس كذلك ؟

قال فرسيلوف :

ـ حتماً ، الذكاء الروسى ...

ولكن شاء حسن الحظ أن تنادى القصاص امرأته فى تلك اللحظة، فهرع اليها . ولولا ذلك لما استطعت أن أصبر . وأخذ فرسيلوف يضحك.

ـ لكنه يا عزيزى قد سلاّنى ساعة كاملة قبل أن تصل ... ان قصة هذه الصخرة ... هى من أتفه ذلك الركام من القصص المعبرة عن الوطنية ، الشائعة بين الناس فى بلادنا . ولكن كيف أقاطعه ؟ لقد كان يذوب فرحاً كما رأيت . أظن أن الصخرة لا تزال فى مكانها اذا لم أخطىء ، ولم ينزلها أحد فى حفرة ...

فهتفت أقول :

ـ طبعاً ... كيف تجرأ فزعم ما زعم ؟ ...

ـ ما هذا الذى تقول ؟ ما بالك تستاء هذا الاستياء فيما أرى ؟ لابد أنه مزج بين شيئين : لقد سمعت فى طفولتى قصة من هذا النوع عن صخرة ، ولكنها ليست هذه الصخرة . « وصل الأمر الى علم السلطات ». كانت نفسه كلها تغنى لحظة قال هذا . ان أمثال هذه الحكايات ضرورية فى هذه البيئة المسكينة . وان عندهم ذخيرة كبيرة منها ، ولا سيما بسبب ميلهم الى المغالاة . انهم لم يتعلموا شيئاً ، ولا يعرفون أمراً من الأمور معرفة دقيقة صحيحة . فهم الى جانب قيامهم بأعمال مهنتهم ولعبهم بالورق ، يشتاقون الى الحديث عن شىء انسانى ، شعرى ... من هو بطرس هيبوليتوفتش هذا ؟

ـ انسان فقير بائس .

ـ أرأيت ؟ ولعله لا يلعب بالورق أبداً . فاذا روى هذه الحكايات الخيالية كان يرضى بذلك ما يملأ نفسه من حب الانسان لأخيه الانسان : لقد أراد أن يسرنا . وهو يرضى بذلك أيضاً ما يزخر به قلبه من روح

وطنية . انظر مثلاً في هذه القصة الأخرى التي يروون فيهاأن الانجليز عرضوا على زوفيالوف مليوناً في مقابل أن لا يضع ماركته على بضاعته...

ـ نعم نعم ، أعرف هذه الحكاية ...

ـ من ذا الذي لا يعرفها ؟ هو أيضاً كان يعرف حين روى لك قصة الصخرة أنك قد سبق لك أن سمعتها حتماً ، ولكنه يرويها مع ذلك ، متخيلا « عن عمد » أنك لا تعرفها . ان الحكاية التي تتحدث عن رؤيا ملك السويد قد أصبحت قديمة فيما يبدو ، ولكن الناس كانوا في أيام شبابي يتناقلونها همساً متلذذين . وكذلك تلك القصة الأخرى التي كانت تروي عن شخصية في مطلع هذا القرن أنها جثت راكعة أمام أعضاء مجلس الشيوخ في أحد اجتماعاته . وقد راجت أيضاً قصص كثيرة عن الكومندان باخوتشسكي ، ومن بين تلك القصص تلك التي تتحدث عن انتزاع النصب التذكاري . ان ابناء الشعب مولعون كثيراً بالقصص المتعلقة بالبلاط . من ذلك حكاياتهم عن تشرنيشيف ، وهو أمير من العهد السابق عمره سبعون عاماً استطاع فيما تروي القصة أن يبدل سحنته تبديلاً كبيرا ، فاذا رآه أحد لم يخطر بباله أن يكون قد تجاوز من عمره الثلاثين ، حتى ان الامبراطور الراحل كان لا يصدق عينيه حين يراه في الاستعراضات ...

ـ هذه أيضاً أعرفها .

ـ من ذا الذي لا يعرفها ؟ ان هذه الحكايات كلها تبلغ الذروة من فساد الذوق . ولكن اعلم ان هذا النوع من فساد الذوق أوسع انتشاراً وأعمق ذيوعاً مما نظن . ان هذه الرغبة في الكذب من أجل مسرة الآخرين شائعة حتى في أرقى مجتمع ، لأننا نعاني جميعاً من داء الغلو الذي يضطرم في قلوبنا . كل ما هنالك من فرق هو أن القصص التي نلقاها في المجتمع الراقي تنتمي الى نوع آخر : كم نحكي عن أمريكا مثلاً ؟ وعن رجال الدولة أيضاً ؟ لا أكتمك انني أنا نفسي أنتمي الى هذه الفئة من الناس ، ولشدما عانيت من ذلك طول حياتي !

ـ أنا أيضاً قصصت حكاية تشرنيشيف مراراً •

ـ أنت أيضاً ؟

ـ في هذا البيت الذى أسكنه يسكن مستأجر آخر هو موظف مجدور الوجه كالأول ، متقدم في السن ، لكنه واقعي الى درجة رهيبة ، فما ان يفتح بطرس هيبوليتوفتش فمه ، حتى يأخذ يقاطعه ويعارضه ويكذبه • وقد بلغ من نجاحه في ذلك أن بطرس هيبوليتوفتش يتملقه كعبد ، ولا يرجو الا أن يسره ، لا لشيء الا أن يحمله على الاصغاء اليه •

ـ وهذا نوع آخر من فساد الذوق ، بل لعله أدعى الى النفور من النوع الأول • الأول حماسة كله • « كل ما أطلبه هو أن تتيح لى أن أتكلم ، وسوف ترى أن ما سأقوله جميل جداً » • أما النوع الثانى فهو خال من روح الشعر ، وهو اسفاف وكآبة : « لا تقل لى سخافات • اين وقع هذا ؟ متى ؟ في أية سنة ؟ » • ان من يقف هذا الموقف انسان لا قلب له • يا صديقي ، اسمح دائماً للناس أن يكذبوا قليلاً • هذا كذب برىء • بل اسمح لهم أن يكذبوا كثيراً • فأنت بذلك تبرهن أولاً على رقة شعورك وحسن أدبك ، وأنت بذلك تحصل ثانياً على حق الكذب أيضاً : فائدتان في آن واحد • يجب على الانسان أن يحب أخاه الانسان •

وأضاف فرسيلوف قائلاً وهو ينهض عن كرسيه :

ـ انني مستعجل • يجب أن أنصرف • مسكنك رائع • سأذكر لصوفيا آندريفنا ولأختك أننى زرتك فوجدتك في صحة حسنة • الى اللقاء يا عزيزى •

كيف ؟ أهذا كل شيء ؟ أنا لم تكن حاجتى الى هذا • كنت أنتظر شيئاً آخر ، كنت أنتظر الشيء « الجوهرى » ، رغم أننى أدركت أن الأمور لا يمكن أن تجرى على غير هذا النحو • وسرت معه الى السلم حاملاً شمعة • وهمّ المؤجر أن يخرج من غرفته بهدوء ، ولكننى أمسكت ذراعه

وردته بقسوة وشـدة ، دون أن يلاحظ فرسـيلوف ذلك ، فنظر الىّ مدهوشاً ، ولكنه اختفى فوراً •

قال فرسيلوف ماطاً كلماته ، لا لسبب الا أن يتكلم ، وربما لكى يمنعنى أنا من أن أقول شيئاً :

ـ هذه السلالم وعرة •• وأنت فى الطـابق الثانى •• طيب •• كفى •• الآن أهتدى الى طريقى •• لا تقلق •• يا عزيزى •• لا تنزل معى أكثر مما نزلت • أخشى أن تصاب بزكام •

ولكننى لم أتركه • ونزلنا معاً الى الطابق الأول • فاذا أنا أقول له:

ـ انتظرتك ثلاثة أيام •

أفلتت منى هذه الجملة كأنما برغم ارادتى • وكنت أختنق مـن شدة الانفعال •

ـ شكراً يا عزيزى •

ـ كنت أعلم أنك آت الىّ حتماً •

ـ وأنا كنت أعلم أنك تعلم أننى آت اليك • شكراً يا عزيزى •

وصمت • صرنا أمام الباب • وما أزال أتبعه • وفتح الباب ، فاذا بالريح تندفع فجأة فتطفىء الشمعة • فأمسكت عندئذ ذراعـه • وكان الظلام حالكاً • فارتعش ولكنه لم ينطق بكلمة • وارتميت على يده ، وأخذت أقبلها بشراهة عدة مرات ، بل مراراً كثيرة •

قال :

ـ لماذا تحبنى هذا الحب كله يا بنى العزيز ؟

ان صوته الآن صوت آخر ، صوت مختلج ، له نبرة جديدة كل الجدة ، لكأن المتكلم شخص غيره •

وأردت أن أجيب ، لكننى عجزت عن ذلك ، ورجعت أصعد السلم مسرعاً . ونبث هو فى مكانه ينتظر . ولم أسمع الباب الخارجى يفتح ثم يغلق مقرقعاً الا حين صرت فى طابقى . وانسللت الى غرفتى متحاشياً المؤجر الذى رأيته فى طريقى مرة أخرى ، وشددت المزلاج لأحكم اغلاق الباب ؛ وبدون أن أشعل شمعة ، ارتميت فوق سريرى مكباً بوجهى على المخدة ، وبكيت ، وبكيت . تلك أول مرة أبكى فيها بعد مدرسة توشار ! وكان نشيجى يخرج من صدرى قوياً جداً ... وكنت أنا سعيداً جداً ... ولكن كيف أستطيع أن أصف ؟

خططت الآن هذه الأسطر دون أن يحمر وجهى ، لأن ذلك كله لعله كان حسناً رغم كل ما فيه من غرابة مستحيلة !

٣

ولكن ذلك كلف أبي ثمناً باهظاً • فلقد برهنت على انني انسان طاغية • لم يجر أي حديث بيننا عن ذلك المشهد الذي جرى في الظلام• التقينا مرة أخرى بعد ثلاثة أيام ، فجرى كل شيء وكأن ما حدث كان حلماً • حتى لقد كنت فظاً • وتم اللقاء الثاني في غرفتي كاللقاء الأول : ذلك أنني رغم رغبتي في رؤية أمي لم أرد له زيارته •

ظلت أحاديثنا طوال تلك المدة ، أي خلال هذين الشهرين ، تدور على نظريات عقيمة ومسائل مجردة : حرصنا حرصاً شديداً على تحاشيء الأمر الجوهري • وكان هذا الأمر الجوهري هو بعينه ما يتطلب ايضاحاً، بل يتطلب ايضاحاً سريعا • وعن هذا الأمر الجوهري انما كنا نتقي الكلام • لم أتكلم لا عن أمي ولا عن ليزا (كنت أزورهما كل أسبوع) ولا عن نفسي ، ولا عن قصتي كلها • أفكان هذا الصمت خجلاً ، أم كان نوعاً من حماقة الشباب ؟ أغلب الظن أنه كان نوعاً من حماقة الشباب ، لأن الخجل يستطيع المرء أن يتغلب عليه بطريقة من الطرق آخر الأمر • لقد سمت فرسيلوف سوء العذاب • حتى لقد كنت في معاملته وقحاً عدة مرات ، وكان ذلك على مضض مني أيضاً : كانت الوقاحة تنطلق من تلقاء ذاتها ، على نحو لا سبيل الى مغالبته ومقاومته ، فكنت لا أملك أن أنهى نفسي عنها • وكان في لهجته هو شيء من سخرية ، على عهدي به ، وان تكن هذه السخرية رقيقة في الواقع • ومما أدهشني أيضاً أنه كان يفضل أن يجيء الي ، حتى صرت في النهاية لا أذهب الى أمي الا قليلاً ، مرة واحدة في الأسبوع لا أكثر ، ولا سيما في الآونة الأخيرة ، حين طاش صوابي تماماً • وكان يأتي دائماً في المساء ، فنظل نثرثر ، وكان يحب أيضاً أن يثرثر مع مؤجري ، فكان يحنقني أن يصدر هذا عن رجل مثله•

وقد برق في ذهني خاطر : أتراه ليس له صديق يذهب اليه ؟ ولكنني كنت أعلم علم اليقين أن له معارف ، حتى انه في المدة الأخيرة قد جدد كثيراً من العلاقات القديمة بالمجتمع الراقي ، بعد أن أهمل تلك العلاقات في السنة الماضية . ولكن كان لا يبدو مفتوناً بهذه العلاقات كثيراً ، وكأنه لم يجدد عدداً كبيراً منها الا تجديداً رسمياً شكلياً ، وانما هو يؤثر أن يجيء الي . ومما يؤثر في قلبي أحياناً أنه حين يجيء في المساء ، يكاد يشعر كل مرة بشيء من الخجل لحظة يفتح الباب ، فينظر الي في البرهة الأولى بعينين تعبران عن قلق خاص كأنه يسأل : « ألا أضايقك ؟ اذا كنت أضايقك فقل لي ذلك فأنصرف ! » . بل كان يلقي السؤال أحياناً . ففي ذات مرة ، في الآونة الأخيرة ، دخل علي وكنت قد فرغت في تلك اللحظة نفسها من ارتداء بدلة جديدة جاءتني من عند الخياط منذ لحظة ، وكنت أتهيأ للخروج ذاهباً الى الأمير سرجي من أجل أن نمضي معاً الى مكان لي فيه عمل (أما ما هذا المكان ، فسوف أشرح ذلك فيما بعد) . دخل فرسيلوف وجلس ، ربما دون أن يلاحظ أنني أتهيأ للخروج . ان له ذهولاً عجيباً في بعض الأحيان . ربما يشبه المصادفة ، أدار الحديث عن المؤجر . فثارت ثائرتي ، وقلت :

ـ ليذهب المؤجر الى الشيطان !

فاذا هو ينهض فجأة ، ويقول :

ـ معذرة يا عزيزتي . أظن أنك تتهيأ للخروج ، وأنني أضايقك ، فسامحني ، أرجوك ...

وأسرع يخرج بمذلة . ان هذه المذلة يظهرها لي رجل مثله ، رجل يبلغ منزلته في المجتمع الراقي ، ويتصف بما يتصف به من روح الاستقلال ، ويملك ما يملكه من أصالة الشخصية ، ان هذه المذلة كانت لا تلبث أن تثير في قلبي على الفور كل ما يضمره له من محبة حنان ، وكل

ما يحمله له من ثقة به واطمئنان اليه • ولكن اذا كان يحبني هذا الحب كله • فلماذا لم ينهني ولم يزجرني حين أخذت أهوى الى الدرك الأسفل ؟ لعله كان يكفي أن يقول لي كلمة واحدة حتى أتوقف عن الانهيار • أو لعله كان لا يكفي ذلك • ولكنه كان يرى فرط تأنقي وتندري ، ويلاحظ تشدقي وتنفجي وتبجحي ، ويبصر سائق عربتي الحوذي ما تفيء (حتى لقد أردت مرة أن أوصله الى بيته بعربتي فرفض ، بل لقد تكرر هذا نفسه مراراً فكان في كل مرة يرفض) • وكان يرى أنني أتلف أموالاً طائلة ، ثم هو لا يقول كلمة واحدة ، ولا ينطق بحرف واحد ، ولا يبدي أي ميل الى الاستطلاع • ان هذا لا يزال يدهشني حتى اليوم • وكنت أنا لا أتحرج أمامه • بل كنت أعرض كل شيء ، دون أي شرح أو تعليق طبعاً • كان هو لا يسألني ، وكنت أنا لا أتكلم من تلقاء نفسي •

ومع ذلك أوشكنا مرتين أو ثلاث مرات أن نتكلم عن الأمر الجوهري، مرة في البداية بعد التنازل عن الميراث • فقد سألته حينذاك مم سيعيش الآن ، فأجابني قائلاً بصوت هادىء هدوءاً خارقاً :

ـ سأدبر أمري ياصديقي •

انني أعلم الآن أن المبلغ الصغير الذي تملكه تاتيانا بافلوفنا ، أن هذا المبلغ الصغير نفسه قد أُنفق نصفه على فرسيلوف في هاتين السنتين الأخيرتين •

ومرة تكلمنا عن أمي : قال فجأة بحزن :

ـ كثيراً ما قلت لصوفيا آندريفنا في مطلع حياتنا المشتركة ، بل في مطلعها ووسطها ونهايتها : « يا عزيزتي ، انني أعذبك وسأظل أعذبك عذاباً شديداً ؟ ولست آسف لذلك ما دمت أمامي • ولكنني أعلم أنني سأنتحر معاقبة لنفسي اذا أنت مت • » •

واني لأذكر من جهة أخرى أنه كان في ذلك المساء صريحاً صراحة خاصة ، قال :

ـ ليتني على الأقل كنت امرءاً تافهاً لا ارادة له ، متألماً من أنه كذلك! ولكن لا . فانا أعلم انني قوي قوة لا نهاية لها . ما مكمن قوتي في رأيك ؟ ان قوتي هي في هذه القدرة المباشرة على التلاؤم مع كل شيء ، وهي قدرة يتميز بها جميع الروس الأذكياء من أبناء جيلنا . لا شيء يستطيع أن يدمرني ، ولا شيء يستطيع أن يدهشني . انني قوي جم النشاط ككلب الراعي أستطيع أن أحس عاطفتين متعارضتين في لحظة واحدة معاً ،بسهولة لا تفوقها سهولة ، ودون أن تشارك في ارادتي . ولكنني أعرف مع ذلك أن هذا أمر فيه حطة ، لأن فيه فرط تعقل . لقد عشت حتى الآن قرابة خمسين عاماً ، وما أزال الى الآن أجهل أهو شر أم هو خير أن أبلغ هذه السن . لا شك في أنني أحب الحياة ، وهذا ما تشهد به الوقائع وتدل عليه. ولكن حب الحياة عند رجل مثلي ، شيء فيه جبن . هناك أمور جديدة في هذه الأزمنة الأخيرة : فأمثال كرافت لا يتلاءمون فينتحرون . واضح أن أمثال كرافت حمقى . ومعنى ذلك أننا نحن أذكياء . فليس هناك تواز يمكن أن نقيمه ، وتبقى المسألة مفتوحة . هل يعقل أن لا تكون الأرض قد وجدت الا لأناس مثلنا ؟ جائز ! ... ولكن هذه الفكرة تحزن النفس وتثبط العزيمة . الخلاصة .. الخلاصة .. المسألة تبقى مفتوحة .

كان يتكلم بحزن . ومع ذلك لا أدري أكان صادقاً أم لا . ان في نفسه على الدوام نوعاً من سر لا يريد أن يكشف عنه بحال من الأحوال .

٤

أغرقته عندئذ بالأسئلة • هجمت عليه هجوم الجائع على قطعة خبز • فكان يجيبني دائماً بمودة وبساطة ، ولكنه ينتهي في الختام الى حكم عامة وقوالى مأثورة ، فيستحيل عليّ أن استخرج من أقواله شيئاً • وكانت هذه الأسئلة جميعها قد أقلقتني طوال حياتي • واني لأعترف لكم صريحاً كل الصراحة بأنني كنت أرجيء الاجابة عنها دائماً الى حين لقائنا ببطرسبرج • حتى لقد أعلنت له ذلك ، فلم يسخر مني ، بل شد على يدي •

فيما يتعلق بالسياســة العامة والمسائل الاجتماعية لم أستطع أن انتزع منه شيئاً على وجه التقريب ؟ وكانت هذه المسائل مع ذلك هي التي تقلقني أكثر من كل ما عداها ، بحكم فكرتي • وفيما يتعلق بأناس مثل درجاتشيف استطعت أن أنتزع منه في ذات مرة هذه الملاحظة : « انهم أدنى من أي نقد » • ولكنه سرعان ما أردف يضيف أنه يحتفظ لنفسه بهذا الحق : وهو أن لا يخلع على رأيه هذا أي « قيمة ذات بال » • أما ما ألقيته عليه من أسئلة عن الدول المعاصرة ما مآلها ، وعن العالم ما مصيره ، وعن الســـلام الاجتماعي كيف يتحقق ، فانه أصم أذنيه عن ســـماعه زمناً طويلاً ، ثم استطعت في النهاية أن أنتزع منه هذه الأقوال :

ـ أظن أن هذا كله سيتم على نحو عادي جداً • ان جميع الدول ، رغم توازن الميزانيات ، و « عدم وجود عجز » ستفيق « ذات صباح » فاذا هي متورطة تورطاً حاسماً ، واذا هي جميعاً ترفض أن تـدفع ، واذا هي في افلاس شامل • ولكن جميع العناصر المحافظة في العالم بأسره ســـتناهض هذا ، لأن هذه العناصر ستكون هي مالكة الأسهم وستكون هي الدائنة ، فلا تريد أن تقبل الافلاس • وبطبيعة الحال ، ســـيحدث عندئذ نوع من

الأكسدة : يزداد عدد اليهود ، ويقوم حكمهم ، وبعد ذلك ، فان جميع الذين لم يملكوا أسهماً في يوم من الأيام ، ولا ملكوا شيئاً بعامة ، أي جميع الشحاذين ، سيرفضون المساهمة في الأكسدة طبعاً . فتقوم المعركة.. وبعد سبعين هزيمة يبيد الشحاذين مالكي الأسهم ، ويأخذون أسهمهم ، ويحلون محلهم ، كمساهمين أيضاً بطبيعة الحال . وقد يقولون شيئاً جديداً، وقد لا يقولون . وأغلب الظن أنهم سيفلسون هم أيضاً . أما فيما عدا هذا يا صديقي ، فانني لا أستطيع أن أوغل مزيداً من الايغال في قراءة المصائر التي سوف تغير وجه العالم . على كل حال ، اقرأ رؤيا يوحنا ...

ـ ولكن هل ستكون الأمور مادية الى هذا الحد ؟ هل شئون المال وحدها هي التي ستنهي العالم الحاضر ؟

ـ أنا لم أنظر الا الى زاوية من اللوحة طبعاً ، ولكن هذه الزاوية مرتبطة بسائرها ارتباطاً لا انفصام له .

ـ فما العمل اذن ؟

ـ أوه ! لا تسرف في التسرع يا عزيزي : هذا كله ليس وشيك الحدوث . أفضل شيء على كل حال ، هو أن لا يعمل المرء شيئاً البتة . فيكون ضميرك مرتاحاً على الأقل ، لأنك لا تكون شاركت أية مشاركة ...

ـ دعنا من هذا الكلام . لنتكلم جادين . أريد أن أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله ، وكيف ينبغي أن أعيش ؟

ـ ما الذي يجب عليك أن تفعله يا عزيزتي ؟ كن شريفاً ، لا تكذب أبداً ، لا تشته أن تملك منزل جارك ... الخلاصة : عليك بالوصايا العشر فأعد قراءتها ... ان كل شيء مدون فيها الى الأبد .

ـ كفى كفى ، هذا كله قديم جداً ، وما هو الا ألفاظ ، وانما المهم أن نعمل .

ـ طيب ، اذا كنت فريسة ضجر شديد ، فحاول أن تحب أحداً أو أن تحب شيئاً ، أو حتى أن تتعلق بشيء .

ـ انك لا تزال تسخر ! ثم ما عساي أفعل وحدي ، باتباع وصاياك العشر ؟

ـ تطبقها غير متشرد بين المشكلات والشكوك فتصبح انساناً عظيماً .

ـ مجهولاً من جميع الناس .

ـ لا سر يبقى خافياً .

ـ انك ما تزال تمزح !

ـ طيب ، اذا كنت تأخذ كل شيء مأخذ الجد الى هذه الدرجة ، فالأفضل أن تسارع الى التخصص : كن مهندساً أو محامياً . فيكون لك شاغل حقيقي جدي ، وتهدأ بالاً ، وتنسى جميع هذه الأمور الصبيانية !

سكت . ما عسى أستطيع أن أستخرج منه ؟ ولماذا كنت بعد كل حديث من هذه الأحاديث اضطرب مزيداً من الاضطراب ، ويربو قلقي عما كان عليه من قبل ؟

ثم انني كنت أرى رؤية واضحة أنه لا يزال في نفسه نوع من سر لا يكشف عنه . وكان هذا ما يجذبني اليه مزيداً من الجذب يوماً بعد يوم .

قاطعته يوماً أقول :

ـ اسمع ، لقد ساورني دائماً أنك لا تقول هذا الكلام الا عن غضب وألم ، أما في قرارة نفسك فانك شديد الحماسة لفكرة عليا تخفيها أو تخجل من الاعتراف بها .

ـ شكراً يا عزيزتي •

ـ اسمع ! لا شيء أسمى من أن يكون المرء نافعاً • فقل لى : فى أى شيء يمكنني فى لحظة معينة أن أكون نافعاً أكبر نفع ؟ أعرف أنك لن تحل المسألة • ولكنني في حاجة الى رأيك : قل لى رأيك ، فآخذ به ! عيّن لى فكرة عظيمة •

ـ تبديل الحجارة خبزاً ، هذه هى الفكرة العظيمة •

ـ أعظم فكرة ؟ الواقع أنك رسمت طريقاً يجب اتباعه • ولكن قل لى : أهذه أعظم فكرة ؟

ـ هى عظيمة جداً يا صديقى ، عظيمة جداً • ولكنها ليست العظمى• هى عظيمة ، ولكن عظمتها من مرتبة ثانية ، وهى عظيمة فى الوقت الراهن فحسب : فمتى شبع الانسان لم تبق عظيمة • بل ان الانسان سرعان ما سيقول : « طيب ، هأناذا شبعت ، فماذا أعمل الآن ؟ » • ويبقى السؤال قائماً الى الأبد •

ـ لقد تكلمت عن « آراء جنيف » • ولم أفهم أنا ما « آراء جنيف » هـــذه •

ـ « آراء جنيف » يا عزيزى ، هى الفضيلة بغير يســوع المسيح • تلك هى أفكار هذه الأيام ، بل قل هى فكرة الحضارة الحــديثة كلها • الخلاصة : هذه حكاية من تلك الحــكايات الطويلة التى تبعث على الضجر والسأم • فالأفضل أن نصمت •

ـ تود دائماً لو تصمت !

ـ تذكر يا صديقى أن الصمت لا خطر منه ، وأنه براءة وجمال •

ـ الصمت جميل ؟

ـ طبعاً • الصمت جميل دائماً ، والصامت أجمل من المتكلم دائما •

ـ ولكن الكلام على نحو ما تتكلم أنا وأنت أشبه باصمت على كل حال • تباً لهذا الجمال ، تباً لهذا الجمال ، بئست هذه الميزة !

قال لى فجأة وهو يغير لهجته قليلاً ، حتى لقد كان كلامه عاطفة وكان فيه شيء من الحاح خاص :

ـ يا عزيزتى ، لا أريد أبداً أن أغويك فأبدل مثلك العليا بفضيلة من الفضائل البورجوازية • لا أريد أن أقول لك ان « السعادة خير من البطولة » • بالعكس : البطولة أسمى من أى سعادة ، واستعداد المرء للبطولة هو فى ذاته سعادة • ذلك أمر لا جدال فيه بيننا • تلك مسألة محلولة • واذا كنت أحترمك فلأنك استطعت فى عصرنا هذا العفن أن تنشيء لك فى قرارة قلبك « فكرة » (اطمئن ، اننى أتذكر هذا الأمر) • ولكن يستحيل عليك أن لا تفكر أيضاً فى القصد والاعتدال • ذلك أنك تحلم الآن بحياة لها دوى ، تحلم أن تحرق لا أدرى ماذا ، وأن تمزق لا أدرى ماذا ، أن تسمو فوق روسيا كلها ، أن تمر مرور سحابة ساطعة ، أن تغرق العالم كله فى الرعب والاعجاب ، ثم تمضى تختفى فى الولايات المتحدة ! ان فى قلبك شيئاً كهذا حتماً ، لذلك أرى أن من المفيد أن أحذرك ، لأننى أحمل لك عاطفة صادقة •

ماذا كان فى وسعى أن استخرج من هذا أيضاً ؟ ان هذا الكلام لا يتضمن الا قلقاً علىّ بصدد حالتى المالية • هو الأب بعواطفه الخالية من كل روح شعرية ، وان تكن عواطف طيبة • ولكن أهذا ما كنت فى حاجة اليه ازاء أفكار ينبغى لكل أب صادق أمين أن يرسل ابنه الى الموت تضحية فى سبيلها ، كما فعل هوراس القديم بذويه فى الزمان الخالى من أجل الفكرة الرومانية ؟

وكنت أسأله كثيراً عن الدين ، ولكن الضباب فى هذا المجال كان أكثف من الضباب فى كل مجال آخر • فاذا سألته : ماذا يجب على أن

أعمله فى هذا المجال ؟ أجابنى أغبى اجابة ، كما يجاب طفل صغير ، فقال :
« يجب أن تؤمن بالله يا عزيزى ! » •

وقد اشتد حنقى مرة فهتفت أقول له :

ـ فاذا كنت لا أؤمن بهذا كله ؟

فاذا هو يقول لى :

ـ ذلك حسن جداً يا عزيزى !

ـ حسن جداً ؟ كيف ؟

ـ هذه علامة طيبة يا صديقى ، بل هى أضمن علامة ، لأن الملحد الروسى ـ هذا اذا كان ملحداً حقاً وكان على شىء ولو قليل من الذكاء ـ هو خير انسان فى هذا العالم ، فهو يعامل الله بالحسنى لأنه طيب ، وهو طيب لأنه مسرور بالحاده سروراً كبيراً • ان الملحدين فى بلادنا روسيا أناس جديرون بالاحترام ، أناس يوثق بهم ، وهم دعامات الوطن ان صح التعبير •••

هذا شىء طبعاً • لكنه ليس كل ما كنت أريده • مرة واحدة أفصح عن فكرته ، ولكن بطريقة تبلغ من الغرابة أن دهشتى ازدادت ، ولا سيما بعد الذى ترامى صداه الى سمعى عما يأخذ به نفسه من كفارات ومن عبادات كاثوليكية • قال لى يوماً ، لا فى البيت بل فى الشارع ، بعد حديث طويل ، وكنت أوصله الى منزله :

ـ يا عزيزى ، يا صديقى ، ان حب البشر على ما هم عليه أمر مستحيل • ومع ذلك يجب أن نحبهم • لذلك يجب أن تصنع لهم خيراً وأن تكظم عواطفك وتسد أنفك وتغمض عينك (هذا الشرط الأخير لا غنى عنه) • تحمل ما يفعلون من شر ولا تؤاخذهم ان استطعت ، « متذكراً أنك أنت أيضاً انسان » • هذا لا ينفى أن من حقك أن تقسو عليهم اذا وهب لك أن كان ذكاؤك أعلى من متوسط ذكائهم • البشر

منحطون بطبيعتهم ، وهم يحبون أن يحبوا عن خشية وخوف • فلا تستسلمن لهذا الحب ، ولا تكف عن احتقارهم • فى سورة من سور القرآن يأمر الله نبيه بأن ينظر الى الكفار نظرته الى فئران ، وأن يحسن اليهم ، ويمضى فى طريقه •

ان فى هذا شيئاً من تعال ، ولكنه صدق وحق • فاحتقر البشر ، حتى حين يكونون طيبين ، فحين ذلك انما هم أشد ما يكونون عفناً ونتناً • يا صديقى ، أنا لا أقول هذا الكلام الا لأننى أعرف نفسى معرفة جيدة ! لا يملك انسان غير غبى الا أن يحتقر نفسه ، شريفاً كان أو غير شريف • يستحيل على الانسان أن يحب أخاه الانسان ولا يحتقره • رأيى أن الانسان خُلق بتكوين جسمه عاجزاً عن حب أخيه الانسان • لقد وقع خطأ لغوى منذ البداية • ما ينبغى أن تفهم من « حب الانسانية » الا الانسانية التى خلقتها لنفسك فى قرارة قلبك (بتعبير آخر : أنا أخلق نفسى وأخلق لها الحب) ، أى الانسانية التى لن توجد حقيقةً واقعةً فى يوم من الأيام أبداً •

ـ لن توجد أبداً ؟

ـ أعترف يا صديقى بأن ذلك أمر سخيف ، ولكن ليس الذنب ذنبى أنا • وكما لم أُسأل رأيى حين خلق العالم ، فانى احتفظ لنفسى بالحق فى أن يكون لى رأى •

هتفت أقول :

ـ كيف يمكن بعد هذا أن يقال عنك انك مسيحى متحمس ومبشرٌ ، وأنك تأخذ نفسك بكفارات وعبادات ؟

ـ من ذا يقول عنى هذا ؟

فقصصت عليه ما سمعت . فاصغى الى كلامى بانتباه شديد ، ولكنه علق الحديث ...

لا أفلح في تذكر المناسبة التي جرتنا الى هذا الحديث الذى لا أنساه. ولكنني أذكر أنه زعل ، وذلك أمر كان لا يكاد يحدث له أبداً . كان يتكلم باندفاع ، وبغير سخرية ، كأنما هو يوجه كلامه الى شخص غيرى . ولكنني هنا أيضاً لم أصدقه : فما كان له ، مع غبى مثلى ، أن يعالج بالجد موضوعات كهذه .

الفصل الثاني

١

في ذلك الصباح من ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) رأيته عند الأمير سرجى . اننى أنا الذى وصلت بينهما ، ولكن كان بينهما نقاط التقاء كثيرة من قبل أن أصل أنا بينهما (أقصد تلك القصص التى وقعت بينهما فى الخارج ، الخ) . وعدا ذلك كان الأمير قد قطع له عهداً بأن يكون له ثلث الميراث على الأقل ، أى قرابة عشرين ألف روبل . وأذكر أننى قد دهشت من أن يخص فرسيلوف بثلث الميراث لا بنصفه . ولكننى لم أقل شيئاً . ولقد بذل الأمير هذا الوعد بمبادرة منه . أما فرسيلوف فلم ينطق بنصف كلمة ، ولا جازف بأية اشارة . ان الأمير هو الذى قدّم العرض ، فلم يقابله فرسيلوف الا بالصمت ، ولا ذكّر به فى يوم من الأيام ، ولا بدا عليه أن يتذكره البتة . يجب أن أشير عابراً الى أن الامير قد افتتن به فى أول الأمر افتتاناً كبيراً ، ولا سيما بأحاديثه ، حتى لقد تحمس له ، وأعرب لى عن ذلك مراراً . بل انه كان فى بعض الأحيان ، حين يخلو الى ، يهتف قائلاً عن نفسه بما يشبه اليأس « اننى انسان ضئيل الحظ من الثقافة ، واننى أسير فى طريق خطأ » ... ذلك أننا كنا حينئذ صديقين حميمين ! وقد حاولت من جهتى أن أوحى الى فرسيلوف برأى

حسن فى الأمير ، مدافعاً عن عيوبه ، مع أننى أراها • ولكن فرسيلوف كان يبقى صامتاً أو كان يبتسم •

وقد صحت ذات يوم أقول لفرسيلوف منفرداً به :

ــ اذا كانت له عيوب ، فان له مزايا تساويها •

فأجابنى فرسيلوف وهو يضحك ساخراً :

ــ انك تبالغ فى مدحه !

ــ أين المبالغة ؟ لست أفهم !

ــ المبالغة فى قولك ان مزاياه تساوى عيوبه • فلو كانت له مزايا بقدر عيوبه لصنع معجزات !

ولم يكن هذا رأياً بطبيعة الحال • المهم أنه كان يتحاشى الكلام عن الأمير كتحاشيه الكلام عن الأمور الجوهرية عامة ، بل كان تجنبه الكلام عن الأمير أشد من تجنبه الكلام عن تلك الأمور الجوهرية • وكنت أقدر أنه يزور الأمير فى غيابى ، وأن بينه وبينه علاقات خاصة • ولكننى كنت راضياً بالأمر • وكان لا يثير غيرتى أن يكون فى حديثه مع الأمير من الجد والدقة والوضوح ما ليس فى حديثه معى من مثل ذلك كله ، وأن يخلو حديثه اليه مما يمازج حديثه الىّ من سخرية • بل قد بلغت من فرط السعادة أن ذلك كان يرضينى ويعجبنى • وكان يشفع لفرسيلوف فى هذا عندى أن الامير رجل محدود الذكاء قليلاً ، فالتلميح لا يغنى معه عن التصريح حتى لقد يحتاج حتى يفهم الى الحاح ، والا فقد يفوته ادراك معنى بعض الأمازيح • ولكن ها هو ذا قد أخذ يتحرر فى الآونة الأخيرة • وبدا أن عواطفه نحو فرسيلوف قد تتغير • ولاحظ فرسيلوف ذلك بما أوتى من لطافة الحس • ولاحظت تغيراً كهذا فى علاقات الأمير بى • حتى لقد كان هذا التغير واضحاً كل الوضوح • فلم يبق من صداقتنا الأولى الحارة الا صور ميتة • ومع ذلك ظللت أذهب اليه • وهل كان يمكننى أن أفعل غير

هذا بعد أن أبحرت ؟ آه ٠٠٠ ما كان أشد سذاجتي ! هل يمكن لبساطة القلب أن تؤدي بانسان الى مثل هذه الدرجة من الخراقة والحطة ؟ كنت أقبـل منه مالاً ، وفي ظني أن ذلك ليست له عواقب ، وأنه من طبيعة الأمور • بل قل لم يكن الأمر كذلك : لقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذا ليس ما كان يجب علي أن أعمله ، ولكنني كنت لا أفكر في الامـر كثيراً ، ولا أتلبث عليه طويلاً • ولم أكن أذهب اليه من أجل المال ، رغم حاجتي الشديدة الرهيبة الى المال • وكنت أعلم أنني لا أذهب اليه من أجل المال ، ولكنني أدرك أنني أجيء كل يوم فآخذ مالاً • على أنني أدور في الزوبعة وكانت نفسي عدا ذلك مشغولة بشيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف • كانت نفسي كلها تغنيّ !

حين دخلت في نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح ، وجدت فرسيلوف عند الأمير مشارفاً على ختام حديث مسـتفيض • كان الأمير يصغي وهو يذرع الغرفة ذاهبـاً آيباً • وكان يبـدو على الأمير شيء من الاضطراب • ان فرسيلوف يبث في نفسه بعض الاضطراب دائماً • فالأمير شديد التأثر الى درجة السذاجة ، وكان هذا يجعلني أنظر اليه من عل • ولكنني أعود فأكرر أنه في هذه الأيام الأخيرة قد ظهر فيه شيء من خبث وشر • فلما رآني توقف ، وتقبض وجهه قليلاً • وكنت أعرف بيني وبين نفسي كيف أفسر هذا الظل يظهر على وجهه في ذلك الصباح ، ولكنني لم أتوقع أن تتبدل سحنته هذا التبدل • كنت أعلم أن هناك أنواعاً شتى من المنغصات قد تراكمت عليه ، ولكن المؤسف أنني كنت لا أعرف عشر معشارها ، وكان ما عدا ذلك سراً أجهله جهلاً تاماً • ومما يزيد الأمر مضايقة لي أنني كنت أتدخل في شئونه أحياناً كثيرة محاولاً أن أواسيه وأن أسدي اليه بالنصح ، دون أن يفوتني أن أسخر من ضعفه في استعلاء قائلاً له : ما هذا الاستسلام لمثل هذه « الترهات » ! وكان يلتزم الصمت• ولكن يستحيل أن لا يكرهني كرهاً رهيباً في تلك اللحظات : لقد كنت

في وضع زائف دون أن يخطر ببالى ذلك • آه ••• شهد الله أن الأمر الجوهرى ما كان يدور فى خلدى ، ولا كان يخطر على بال !

ومع ذلك مد الىّ يده بحركة مهذبة • وهز فرسيلوف رأسه محيياً دون أن يقطع حديثه • واستلقيت على الديوان •

ما أعجب تلك الأساليب التى كنت أصطنعها فى ذلك الوقت ! كنت أنظر اليه من عل ، وأعامل أصدقاءه معاملة أصدقائى • آه ••• لو كان يمكن أن أتقهقر الآن فى الزمان الى الوراء ، لسلكت سلوكاً آخر •••

كلمتان أخيرتان قبل أن أنسى : كان الأمير ما يزال يسكن تلك الشقة نفسها ، لكنه يشغلها الآن كلهـا تقريباً ، فان مالكتها ستولبيافا لم تقض فيها الا شهراً واحداً ثم سافرت •

٢

كانا يتكلمان عن طبقة النبلاء أو طبقة الأشراف • يجب أن أذكر أن هذه المسألة كانت تشغل بال الأمير كثيراً ، وتعـذبه كثيراً ، رغم ما يصطنعه من مظاهر التقدمية ؛ حتى لأعتقد أن كثيراً من الجوانب السيئة فى حياته قد نشـأت عن ذلك ، أو بدأت بذلك : انه من فرط ولوعه بلقب الأمير قد قضى حياته كلها يبذر المال ويغرق فى الديون مدفوعاً بزهو بطل وكبرياء كاذبة ، رغم أنه لا يملك ثروة • وقد أسمعه فرسيلوف مراراً أن النبالة ليست فى هذا ، وحاول أن يدخل فى قلبه تصوراً ارفع من هذا التصور • ولكن الأمير تأذى فى آخر الأمر ، وأهانه أن يلقنه أحـد دورساً • ولا شك أن مشهداً من هذا النوع هو ما كان يجرى فى ذلك الصباح ، ولكننى لم أحضر بدايته • وقد بدت لى أقوال فرسيلوف فى البداية رجعية ، ولكنه استدرك بعد ذلك •

كان يقول (وأنا أنقل المعنى وحده بقدر ما تسعفنى الذاكرة) :

ـ ان كلمة الشرف تعنى الواجب • فحين تسيطر فى دولة من الدول طبقة ذات امتيازات ، فان البلاد تكون قوية عزيزة الجانب • ولهذه الطبقة دائماً شرفها ولها دائماً ديانة شرف تعتنقها • وقد تكون هذه الديانة خطأ ولكنها رباط يحقق تلاحم الأمة ، فهى نافعة فى الأخلاق ، وهى نافعـة فى السياسة خاصـة • ولكن العبيد يتألمون وأعنى بالعبيد جميع اولئك الذين لا ينتمون الى تلك الطبقة ؛ فمن أجـل أن لا يتألموا توهب لهـم المساواة فى الحقوق • فهذا ما حدث عندنا ، وهو أمر حسن جداً • غير أن جميع التجارب التى تمت حتى الآن ، وفى كل مكان (أى فى أوروبا)، تدل على أن المساواة فى الحقوق تؤدى الى انخفاض فى مستوى الشرف ،

وفى مستوى الواجب تبعاً لذلك • فالأنانية حلت محل الفكرة القديمة التى كانت تشد البلاد برباط قوى ، وصار كل شيء الى حرية للأفراد • فلما تحرر البشر ، وخلوا من فكرة تشد بعضهم الى بعض ، بلغوا من فقدان كل رابطة عليا أنهم أصبحوا لا يدافعون عن حريتهم • ولكن النبالة الروسية لم تشبه نبالة الغرب فى يوم من الأيام • وحتى فى أيامنا هذه ، بعد أن فقدت حقوقها ، تظل نبالتها قادرة على أن تبقى نظاماً أعلى يحافظ على الشرف والأنوار والعلم والمعانى السامية والأفكار الرفيعة ، ولا سيما اذا هى كفت عن أن تكون طبقة مغلقة ، والا كان فى انغلاقها موت الفكرة• وقد ظلت أبواب النبالة فى بلادنا مشقوقة منذ مدة طويلة ، والآن حان الوقت الذى يجب ان تفتح فيه هذه الأبواب على مصاريعها • فاذا كل مأثره من مآثر الشرف أو العلم أو الشجاعة تهب لصاحبها حق الانتماء الى هذه الطبقة العليا • فبذلك تستحيل الطبقة من تلقاء نفسها الى جمع يضم خيار الناس بالمعنى الصادق الحق لهذه الكلمة ، لا بالمعنى القديم من حيث أنها طبقة مغلقة ذات امتيازات • ففى هذه الصورة الجديدة ، أو قل هذه الصورة المجددة يمكن أن تبقى هذه الطبقة وأن تستمر •

فكشف الأمير أسنانه قائلاً :

ـ وماذا يبقى عندئذ من النبالة ؟ ان ما تتصوره لهو محفل ما سونى لا طبقة نبلاء •

يجب أن أعود فأكرر أن الأمير رجل جاهل جهلاً رهيباً ، حتى لقد استدرت على ديوانى غضباً ، رغم أننى لم أوافق فرسيلوف على ماقاله موافقة تامة • وأدرك فرسيلوف أن الأمير حانق • فأجاب يقول له :

ـ لا أدرى ماذا تعنيه بالماسونية • ولكن اذا رفض أمير روسى هذه الفكرة ، كان معنى ذلك أن الوقت لم يحن بعد ، وأن الفكرة سابقة لأوانها • صحيح أن الفكرة القائلة بأن الشرف والثقافة والعلم شرط

الانتماء الى طبقة لا تغلق أبوابها ولا تجمد على حالها بل ما تنفك تتطور وتتجدد ، هي حلم يتوق اليه الانسان ، ولكن هل هي مستحيلة ؟ يكفي أن هذه الفكرة قائمة ولو في عدد قليل من الأذهان حتى نقول انها لم تضع ، فهي تسطع كسطوع نقطة مضيئة في ظلمات كثيفة .

قال الأمير :

ـ أراك تحب أن تستعمل هذه الألفاظ : « فكرة عليا » ، « فكرة كبيرة » ، « فكرة تربط الناس وتشدهم بعضهم الى البعض » ؟ فأريد أن أفهم ما الذى تعنيه على وجه الدقة من قولك : « فكرة كبيرة » ؟

فأجاب فرسيلوف بتهكم ناعم :

ـ لا أدرى بماذا أجيبك يا عزيزى الأمير . بل لعلنى أكون أقرب الى الصدق اذا قلت لك اننى عاجز عن الاجابة . ان الفكرة الكبيرة هي في العادة عاطفة تظل بدون تعريف خلال مدة طويلة أحياناً . ولكننى أعلم أن هذه العاطفة هي ما ولد الحياة الحية دائماً ، أقصد الحياة التى ليست حياة مصطنعة مستخرجة من الكتب وقائمة على الألفاظ ، بل حياة حقة ، حياة يتدفق فيها الفرح ولا يخالطها ضجر . فالفكرة العليا التى تنبع منها هذه الحياة هي اذن ضرورة لا غنى لها ، وان ساءت الناس طبعاً .

ـ ولماذا تسوء الناس ؟

ـ لأن الناس يسأمون أن يعيشوا بأفكار ، ويبهجهم أن تخلو معيشهم منها .

وبلغ الأمير هذه الغمزة . ثم قال يسأل وقد استعر غضبه استعاراً واضحاً :

ـ وما تلك الحياة الحية في رأيك ؟

ـ لا أدرى أيضاً يا أمير • ولكننى أعرف أنها شىء بسـيط غاية البساطة ، شىء عادى الى أبعد الحدود ، شىء ظاهر للعيان كل يوم فى كل دقيقة ، بل شىء يبلغ من البساطة أننا لا نكاد نصدق أنها تبلغ هذا المبلغ من البساطة ، وأننا نلقـاها فى طريقنا منذ ألوف السنين دون أن نلاحظها أو أن نتعرفها •

قال الأمير :

ـ لكننى أردت أن أقول ان فكرتك عن النبالة هى فى الوقت نفسه انكار للنبالة ونفى لها •

ـ فاعلم اذن ، ما دمت حريصاً على ذلك ، أن النبالة لعلها لم توجد عندنا فى يوم من الأيام •

ـ هذا الكلام كله غامض غموضاً رهيباً ، مبهم ابهاماً فظيعاً • حين يتكلم الانسان ، يجب عليه فى رأيى أن يشرح ويوضح •••

وتغضَّن جبين الأمير ، وألقى نظرة على سـاعة الجـدار • فتناول فرسيلوف قبعته ونهض وهو يقول :

ـ يشرح ويوضح ؟ لا بل الأفضل أن لا يشرح وأن لا يوضح • وهذه آفة من آفاتى على كل حال : فأنا لا أفيض فى الشرح والايضاح • نعم ، هو كذلك • وثمة سمة غريبة أخرى من سمات طبعى : اذا اتفق لى أن أخذت أشرح وأن أوضح فكرة أومن بها ، فاننى فى جميع الأحيان تقريباً أنتهى أنا نفسى الى الكف عن الايمان بها ، وانتهى الى جحودها • وأخش أن تجرى الأمور اليوم هذا المجرى • الى اللقاء يا عزيزى الأمير• اننى استرسل فى الحديث وأنقاد للثرثرة عندك ، وهذا أمر لا يغتفر •

وخرج • فشيعه الأمير بأدب ، ولكننى تأذيت وجرح شعورى •

وقال لى الأمير دون أن ينظر الىَّ وجهاً لوجه ، ودون أن يتوقف :

ـ ما بالك تقطب حاجبيك ، وما بال وجهك يتجهم ؟

فأجبته أقول متهدج الصوت :

ـ يتجهم وجهي لأنني أرى فيك تبدلاً تجاهي وحتى تجاه فرسيلوف ... تبدلاً يبلغ من الغرابة أن ... لا شك أن كلام فرسيلوف قد كان في البداية رجعياً ولكنه استدرك في النهاية ، و ... لعل أقواله كانت فكرة عميقة ، ولكنك لم تفهمها ، و ...

ـ لا أريد أن يلقنني أحد درساً ، وأن يعاملني معاملة صبي صغير .

كذلك قال الأمير بلهجة قاطعة غاضبة . فقلت له :

ـ يا أمير ، ان هذه الأقوال ...

ـ دعنا من الحركات المسرحية ، من فضلك ! انني أعلم أن ما أفعله فيه حطة ، فأنا مبذر ، وأنا مقامر ؛ وربما كنت لصاً ... نعم ؛ ربما كنت لصاً ؛ لانني أتلف مال أسرتي ، ولكنني لا أريد قضاة يحكمون عليّ من فوق . لا أريد ذلك ، ولا أطيقه ، ولن أقبله . أنا قاضي نفسي . وما معنى هذا الكلام الملتبس الذي يقوله ؟ اذا كان يريد أن يقول لي شيئاً ، فليعبر عنه بصراحة بدلاً من الايغال في هذه المتاهات المظلمة والنبوءات الغامضة . ومع ذلك ينبغي أن يكون قبل كل شيء أهلاً لأن يقول لي شيئاً ، يجب أن يكون له حق في هذا ، يجب أن يكون هو نفسه رجلاً شريفاً ...

ـ أولاً : أنا لم أحضر بداية الحديث ، وأجهل عمّ كنتما تتكلمان . ثم لماذا تقول ان فرسيلوف ليس شريفاً ؟ هلا أذنت لي بالقاء هذا السؤال !

ـ كفى كفى ، أرجوك . لقد طلبت مني بالأمس ثلاثمئة روبل . فاليك هي !

قال ذلك ووضع المال على الطاولة ، وجلس في مقعد ، وارتد مسنداً

ظهره اليه بحركة عصبية ، ووضع ساقا على ساق • فوقفت مضطرباً وتمتمت أقول :

ـ لا أدرى • لقد طلبت منك هذا المبلغ فعلاً ••• وأنا فى حاجة ماسة اليه حقاً ••• ولكن ازاء هذه اللهجة التى تخاطبنى بها ، فاننى •••

ـ دعك من اللهجة • وانى لأعتذر اليك اذا كنت قد نطقت بكلام يجرح شعورك فانى ما أردت أن أسىء اليك • وأؤكد لك أن هناك هموما أخرى تملأ نفسى ! اسمع ، لقد تلقيت رسالة من موسكو • انك تعلم أن أخى ساشا قد مات وهو صبى منذ ثلاثة أيام • وتعلم أن أبى مصاب بشلل منذ سنتين • وقد كتبوا الىّ أن حالته ساءت حتى أصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة ، ولا يقدر أن يتعرف أحداً • وهم هناك مبتهجون منذ الآن ، بسبب الميراث ؟ ويريدون أن يذهبوا به الى خارج البلاد • ولكن الطبيب كتب الىّ قائلاً ان أبى لن يبقى حياً أكثر من أسبوعين آخرين • وهكذا سنبقى انا وأمى وأختى ••• فكأننى سأكون وحيداً • بل هأناذا وحيد •• وذلك الميراث ، ذلك الميراث ، آه ••• ألا ليته لم يجىء أبداً ! ولكن اليك ما كنت أريد أن أبلغك اياه : لقد وعدت بطرس آندريفتش أن يناله من هذا الميراث ما لا يقل عن عشرين ألف روبل ••• ولكن هل تتصور أننا بسبب الاجراءات الرسمية لم نستطع بعد أن نحصل على هذا الميراث حتى الآن ؟ حتى اننى •• أقصد•• حتى اننا •• أقصد حتى ان أبى لم يصبح هذا الميراث فى حوزته • ومع ذلك ما أضخم المبالغ التى أنفقتها فى هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة ! ••• وما أشنع الربا الذى يأخذه هذا الوغد الدنىء ستيلكوف ••• اننى أعطيك الآن آخر ما معى •••

ـ لا يا أمير ، اذا كان الأمر كذلك •••

ـ ليست هذه هى المسألة • أبداً • ان ستيلكوف سيجيئنى اليوم

بمال قطعاً ، وسيكون ما يجيئني به كافياً الآن . ولكن ما احقر هـذا الرجل ! لقد توسلت اليه ضارعاً أن يجد لي عشرة آلاف روبل ،فأستطيع أن أعطي آندره بتروفتش عشرة آلاف على الأقل . ان الوعد الذي بذلته بأن أترك له ثلث الميراث يعذبني تعذيباً شديداً . لقد قطعت على نفسي عهداً ، فينبغي أن أفي به . وأحلف لك أنني احترق رغبة في تحقيق التزاماتي . انها ثقيلة على نفسي ؟ ثقيلة جداً . ان هذه العلاقة ترهقني... انني لا أستطيع أن أرى آندره بتروفتش ، لأنني لا أستطيع أن أنظر اليه وجهاً لوجه ... لماذا يستغل سوء حالتي هذه ؟

ـ كيف يستغل سوء حالتك يا أمير ؟

قلت له ذلك وأنا أقف أمامه مبهوتاً . وأضفت:

ـ هل ألمع أو غمز أو عرّض أحيانا ؟

ـ أبداً . انني لأقدر له هذا . لكنني أنا الذي أعرّض بنفسي . وما أبرح ازداد تورطاً وارتباطاً . ما أحقر ستيلكوف هذا !

ـ اسمع يا أمير ، هدىء نفسك ، أرجوك . أرى أنك كلما أمعنت في هذا السبيل اشتد اضطرابك ، وتفاقم عذابك . وقد لا يكون الأمر مع ذلك الا سراباً ... آه ... أنا أيضاً تورطت تورطاً دنيئاً لا يغتفر . لكنني أعرف أن هذا عارض طارىء ... سوف يكفيني أن أربح مبلغاً ثم ... قل لي : ان دينك عليّ يصبح ألفين وخمسمائة وربلاً اذا أنا أخذت هذه الثلاثمائة ، أليس كذلك ؟

ـ أظن أنني لا أطالبك بسداد هذا الدين .

قال الأمير ذلك وابتسم فجأة .

قلت :

ـ تقول انك ستعطي فرسيلوف عشرة آلاف روبل ، فاذا قبلت الآن ما أخذته منك فيجب أن يدخل في حساب العشرين ألفاً التي ستخص

بها فرسيلوف . ولن أقبل أن يكون الأمر غير ذلك . ولكن ... ولكننى سأرد اليك المبلغ بنفسى حتماً . هل تظن أن فرسيلوف يجىء الينا من أجل هذا المال ؟

قال الأمير بلهجة تحمل معنى اللغز :

ـ ليت مجيئه للمال .

ـ تكلمت عن « علاقة ترهقك » ... فاذا كنت تعنى فرسيلوف وتعنينى فهذا كلام جارح . وقلت أيضاً : لماذا لا يكون هو كما يريد من الناس أن يكونوا ؟ هذا هو منطقك ، فاسمح لى أن أقول لك ان هذا ليس بمنطق . هبه لا يلتزم بما يطلبه من غيره ، ان هذا لا يمنعه من الدعوة الى الحقيقة . ولماذا كلمة الدعوة أو التبشير هذه ؟ ثم انك تستعمل كلمة النبوءات ، فقل لى : هل أنت الذى وصفته فى ألمانيا بأنه « نبى للنساء » ؟

ـ لا ، لست أنا .

ـ ذكر لى ستيبلكوف أنك قائل هذه الجملة ؟

ـ كذب . لست قادراً على خلع ألقاب فكهة . ولكن اذا أراد أحد أن يدعو الى الفضيلة أو أن يبشر بها ، فليكن فاضلاً هو نفسه : ذلك منطقى ... ولا يهمنى كثيراً أن يكون هذا المنطق خطأ . أريد هذا ، وسيكون . فلا يجرؤن أحد بعد على أن يجىء الىّ ليحكم علىّ وليعاملنى معاملة صبى صغير .

وهتف أخيراً يقول وهو يحرك يده باشارة تهيب بى أن لا أعقب على كلامه :

ـ كفى ! آه ... أخيراً .

وفُتح الباب ودخل ستيبلكوف .

٣

لا يزال كما كان ، حسن الهندام ، ناهداً بصدره الى أمام ، محدقاً بنظره تحديقاً أبله ، ظاناً نفسه أمكر من غيره ، راضيـاً عن ذاته أعظم الرضى . ولكنه حين دخـل هذه المرة ألقى على الغرفة نظرة مستطلعة غريبة ، وكان في نظرته شيء من روية وتفرس ، فكأنه يحاول أن يحزر من رؤية وجهينا شيئاً من الأشياء . على أنه لم يلبث أن اطمأن بالاً ، وأضاءت شفتيه ابتسامة غرور وقحة كنت أتأذى منها كثيراً .

ولقد كنت أعلم منذ مدة طويلة أنه يزعج الأمير كثيراً . وسبق أن جاء الى الأمير ، وأنا عنده ، مرة أو مرتين . وأنا أيضاً .. كان لى معه شأن في الشهر الأخير ، ولكنني في هذه المرة استغربت زيارته بعض الاستغراب لسبب من الأسباب .

قال له الأمير حتى دون أن يحييه :

ــ حالاً .

وأدار لنا ظهره ، وأخرج من مكتبه أوراقاً وحسابات .

ولقد كنت من جهتي متأذياً من الكلمات الأخيرة التي قالها لى الأمير تأذياً شديداً . فان اشارته الى أن فرسيلوف رجل غير شريف، كانت تبلغ من شدة الوضوح (وشدة ما تبعثه في النفس من الدهشة أيضاً) أنه كان يستحيل أن أصرف النظر عنها ، وأن لا أطالب لها بايضاح . ولكن كان لا يمكن أن يخطر هذا بالبال أثناء وجود ستيبلكوف .

وعدت أتمدد على الديوان ، وفتحت كتاباً كان أمامي ، فرأيتني أقول للأمير بلهجة لعلها لا تخلو من سخرية :

ـ بيلنسكى ، الجزء الثانى ! ... هذا شيء جديد ! واضح أنك
حتى التفت الىّ وقال لى بخشونة :

وكان الأمير منهمكاً فى تقليب أوراقه ، ولكنه ما ان سمع كلماتى التفت الى وقال لى بخشونة :

ـ دع هذا الكتاب وشأنه ، من فضلك !

فكانت جملته هذه تتجاوز الحدود المألوفة ، ولا سيما أمام ستيبلكوف ! وبمصادفة تشبه العمد جعّد ستيبلكوف وجهه بحركة دنيئة ماكرة ، وغمزنى مشيراً الى الأمير خلسة . فاشحت وجهى عن هذا الرجل الغبى . وقلت أخاطب الأمير :

ـ لا تزعل يا أمير ، فهأناذا أدعك للرجل الرئيسى ، وأنسحب .

كنت قد قررت أن لا أتحرج فى كلامى . فقال ستيبلكوف جذلاً وهو يشير الى نفسه باصبعه :

ـ أأنا الرجل الرئيسى ؟

ـ نعم أنت . أنت الرجل الرئيسى ، وانك لتعرف ذلك حق معرفته !

ـ لا ، اسمح لى . ان فى كل مكان على هذه الأرض رجلاً ثانياً . فأنا الرجل الثانى . الرجل الأول يفعل ، والرجل الثانى يأخذ . فبذلك يصبح الثانى أول ويصبح الأول ثانياً . أصحيح أم لا ؟

ـ جائز ، ولكننى لا أفهم عنك ، على عادتى .

ـ اسمح لى . لقد قامت فى فرنسا ثورة . وأُعدم الناس بالمقصلة . ثم جاء نابوليون فأخذ كل شيء . فالثورة هى الأولى ، ونابليون هو الثانى .

ولكن نابليون أصبح هو الأول ، وأصبحت الثورة هي الثانية • أصحيح أم لا ؟

يجب أن أذكر عابراً أنني حين أخذ يتكلم عن الثورة الفرنسية رأيت في كلامه ذلك المكر نفسه الذي لاحظته في المرة الأولى فأضحكني كثيراً • انه ما يزال ينظر اليَّ نظرته الى رجل ثوري ، فكلما لقيني رأى من واجبه أن يقذف بعبارات من هذا النوع •

قال الأمير :

ـ هيا بنا !

وانسلاَّ كلاهما الى غرفة أخرى • حتى اذا خلوت الى نفسي اتخذت قراراً قاطعاً بأن أرد اليه الثلاثمائة روبل متى انصرف ستيبلكوف • لقد كنت في حاجة الى هذا المال ؛ ولكنني عزمت أمري واتخذت قراري •

لبثا عشر دقائق لا يُسمع لهما صوت ، ثم اذا هما يتكلمان بصوت عال على حين فجأة • أصبحا يتكلمان كلاهما في آن واحد ، ويقاطع أحدهما الآخر ، ولكن الأمير لم يلبث أن أخذ يصرخ ، فلو سمعته لقلت انه غاضب غضباً يبلغ درجة الحنق الشديد • وكان يندفع في بعض الأحيان اندفاعاً قوياً • لذلك غفرت له أشياء كثيرة • ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة نفسها ، فدللته على الغرفة التي فيها الأمير ، فما ان دخل عليهما حتى هدأ كل شيء في الغرفة دفعة واحدة • وسرعان ما خرج الأمير مهموم الهيئة ولكنه مبتسم • ورجع الخادم راكضاً ، فما انقضت دقيقتان حتى دخل زائر •

انه رجل مهيب الطلعة ، تزدان بزته بالأوسمة ، ويحمل صدره رقماً امبراطورياً ، ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً في أكثر تقدير ، وهو من أبناء المجتمع الراقي ، تعبر هيئته عن صرامة وقسوة • يجب أن أنبه القارىء الى أن سرجي بتروفتش كان لا ينتمي حقاً الى المجتمع

البطرسبرجي العالى ، رغم شوقه المحرق الى ذلك ، ورغبته المحمومة فيه (كنت أعرف فيه هذه الرغبة) ، فلابد أن يقدر مثل هذه الزيارة قدراً عظيماً وأن يعدها شرفاً كبيراً . ولقد تم التعارف بين الرجلين منذ مدة قصيرة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير ، (كنت أعرف ذلك) ، والزائر انما يردُّ الآن للأمير زيارة سابقة ، ولكن شاء سوء الحظ أن يجيئه مباغتاً . فرأيت ما زخرت به سحنة الأمير من ألم ، وما كان فى نظرته من زيغ حين التفت لحظة الى ستيبلكوف . ولكن ستيبلكوف احتمل هذه النظرة كأن شيئاً لم يكن ، ولم يخطر بباله أبداً أن ينصرف ، بل جلس على الديوان طلق الحركة منبسط الأسارير ، وأخذ ينكش شعره بيده اظهاراً لاستقلاله فى أغلب الظن . حتى لقد اصطنع الوقار والمهابة . الخلاصة أنه كان لا يطاق ! أما أنا فكنت فى ذلك الأوان قد تعلمت حسن التصرف وكياسة السلوك ، فما كان لأحد أن يحمر خجلاً من وجودى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين لمحت فى الأمير تلك النظرة نفسها ، النظرة الزائغة الغاضبة المسكينة الكارهة ، فأدركت أنه خجل من وجودنا كلينا ، وأنه لا يفرق بينى وبين ستيبلكوف من هذه الناحية ! فأحنقتنى هذه الفكرة . فرأيت نفسى استرخى على المقعد استرخاء أدعى الى الراحة ، وأخذت أقلب الكتاب غير مكترث ، كشخص لا يعنيه شىء البتة . ولا كذلك ستيبلكوف ، فقد حملق عينيه ، ومال الى أمام ، وأصاخ بسمعه الى الحديث ، ولعله كان يظن أن هذا من الأدب واللطف والكياسة والتودد . فألقى عليه الزائر نظرة أو نظرتين . وكذلك فعل لى على كل حال .

أخذ الأمير والزائر يتناقلان أنباء عائلية . كان الزائر قد عرف أم الأمير التى هى سليلة أسرة كريمة المحتد مشهورة . واذا صح ما أدركته فقد كان الزائر ، رغم ما فى سكونه من بساطة ولطافة ، كان يشعر باستعلاء ، ويحسُّ بأنه يبلغ من رفعة القدر أن زيارة منه لا بد أن تكون شرفاً عظيماً لمن يحظى بها . ويقينى أن الأمير ، لو خلا الرجلان أحدهما

الى الآخر ، لبدا عليه وقار أكبر وحذق أعظم ، غير أن شيئاً من الاختلاج في ابتسامته التي لعلها كانت مفرطة في التودد ، وشيئاً من الذهول الغريب ، كانا يفضحان ما هو فيه من حرج وضيق •

وما ان انقضت خمس دقائق حتى أُعلن عن وصول زائر آخر شاءت المصادفة التي تشبه العمد أن يكون حضوره محرجاً للأمير مسيئا الى سمعته • انني أعرف هذا الزائر : سمعت عنه كثيراً وان لم يعرفني هو يوما • انه شاب في غضارة الشباب ، وان يكن في الثالثة والعشرين من العمر ، يرتدي أجمل الثياب ، وينتمي الى أسرة كريمة ، ويتمتع بوسامة حلوة ، ولكن لا شك أنه لا يختلف الى المجتمع الراقي • ولقد كان في العام الماضي ما يزال يعمل في فوج من أشهر أفواج فرسان الحرس ، ولكنه أحيل على التقاعد ، وعلم جميع الناس بسبب احالته على التقاعد • حتى ان أهله أعلنوا في الصحف أنهم غير مسئولين عن ديونه• ولكن هذا لم يمنعه من الاستمرار في اللهو والقصف والمجون ، مقترضاً بفائدة تبلغ عشرة في المائة على الأقل ، مقامراً بمبالغ ضخمة في مجتمعات القمار ، مدمّراً نفسه في سبيل « فرنسية » شهيرة • ولقد ربح منذ أسبوع فقط ، في سهرة واحدة ، قرابة اثني عشر ألف روبل ؛ فحقق بذلك نصراً • وهو على علاقة طيبة بالأمير ، حتى لقد كانا يقامران بمبالغ مشتركة في كثير من الأحيان •

ارتعش الأمير حين رآه • لاحظت ذلك وأنا جالس في مكاني • وكان هذا الفتى يشعر أنه في بيته حيث كان ، ويتكلم بصوت عال دون أي تحرج أمام أي انسان ، ويقول كل ما يخطر بباله مرحاً فرحاً • وما كان له أن يلاحظ طبعا ان الأمير يرتجف خجلاً من صحبته أمام زائره العظيم •

وسرعان ما بادر يقاطعهما متحدثاً عن لعب الليلة البارحة حتى قبل أن يجلس • قال مخاطباً الضيف الكبير وهو يحسبه واحداً من الصحب :

ـ أظن أنك كنت حاضراً بالأمس •

ولكنه بعد أن أنعم النظر فيه استدرك يقول هاتفاً :

ـ آ •••• معذرة ••• ظننتك واحداً من العصبة !

فبادر الأمير يعرف الرجلين أحدهما بالآخر :

ـ ألكسى فلاديميروفتش دارزان ! هيوليت ألكسندروفتش ناشتشوكين !

وكان الفتى رغم كل شيء حسن الهيئة ، وكان اسمه طيباً ومعروفاً• غير أن الأمير لم يقدمه الينا ، أنا وستيبلكوف ، فلبثنا في ركنينا • وأبيت أنا اباء قاطعاً أن ألفت وجهي نحو الجمع • ولكن ستيبلكوف ابتسم ابتسامة صغيرة فرحة ، وهمّ أن يفتح فاه متكلما • وأخذ هذا كله يسليني •

قال دارزان :

ـ كنت في العام الماضي ألقاك كثيراً عند الأميرة فيريجينا • فأجاب ناشتشوكين بظرف :

ـ أذكر هذا • ولكنك كنت في ذلك الوقت ترتدي بزة عسكرية فيما أظن •

ـ نعم ، كنت أرتدي بزة عسكرية ، ولكن بسبب ••• هه ! هذا ستيبلكوف ! ما المصادفة التي جاءت بك الى هنا ؟ ••• نعم ••• بسبب أمثال هؤلاء السادة أصبحت لا أرتدي البزة العسكرية •

قال ذلك وهو يشير الى ستيبلكوف صراحة ، وانفجر ضاحكاً • وعد ستيبلكوف هذه العبارة تودداً لطيفاً ، ففرح بها وضحك هو أيضاً • واحمر الأمير خجلاً ؟ وأسرع يلقي على ناشتشوكين سؤالاً ما ؟ بينا اقترب دارزان من ستيبلكوف وانخرط معه في حديث حار ، ولكن بصوت خافت•

سأل الزائر الأمير :

ـ لابد أنك عرفت فى الخارج كاترين نيقولايفنا آخماكوفا ؟

ـ آ .. طبعاً .. كانت معرفتى بها حسنة جداً .

ـ أظن أن نبأً سيذاع هنا فى القريب . يقال انها ستتزوج البارون بيورنيج فصاح دارزان يقول :

ـ هذا صحيح !

فقال الأمير يسأل ناشتشوكين باضطراب واضح ونبرة خاصة :

ـ أأنت تعلم هذا ... علم اليقين ؟

ـ بل ذُكر لى . وأظن أن الناس قد بدت تتحدث فيه منذ الآن . لكننى لا أعلمه علم اليقين .

قال دارزان وهو يدنو منهما :

ـ النبأ صحيح ، أكده لى دوباسوف أمس ، و دوباسوف أول من يعلم أمثال هذ الأخبار . ولا بد أن الأمير يعرف على كل حال ...

انتظر ناشتشوكين أن يفرغ دارزان من كلامه ، ثم التفت الى الأمير من جديد يقول له :

ـ أصبحتْ لا تختلف الى المجتمع الا نادراً .

فقال الأمير بلهجة جافة :

ـ كان أبوها مريضاً فى الشهر الماضى .

واذا بدرارزان يقول فجأة :

ـ هذه آنسة لها مغامرات !

فرفعت رأسى ونصبت جذعى ، وقلت :

ـ يسرني أنني أعرف كاترين نيقولايفنا معرفة شخصية ، وأظن أن من واجبي أن أؤكد لكم أن تلك الشائعات جميعها ليست الا أكاذيب دنيئة ... اختلقها أولئك الذين حاموا حولها ثم لم يظفروا بطائل ...

وصمت بعد هذه المقاطعة الحمقاء ، وظللت أنظر الى الحضور ملتهب الوجه قائم الجذع . فالتفت الجميع الىّ ، ولكن ستيبلكوف لم يلبث أن ضحك ساخراً . ودهش دارزان فابتسم أيضاً .

وقال الأمير مشيراً الىّ ، معرفاً بي دارزان :

ـ آركادي ماكاروفتش دولجوروكي !

فقال دارزان وهو يلتفت الىّ صريح الهيئة باش الوجه :

ـ صدقني يا أمير : لست أنا من يتحدث في الأمر . ثمة شائعات ، ولست أنا من يذيعها وينشرها .

فأجبته قائلاً بسرعة :

ـ لست أتهمك .

ولكن ستيبلكوف كان قد انفجر يضحك كما لا يليق بأحد أن يضحك ، لأن دارزان ناداني بقوله « يا أمير » . هذا « مقلب » آخر يدبره لي هذا الاسم المشئوم ! ومازلت الى الآن أحمر خجلاً حين أتذكر أنني لم أستطع ـ بسبب ذلك الخجل الزائف طبعاً ـ أن أصحح ذلك الخطأ فوراً وأن أعلن أنني لست الأمير دولجوروكي ، بل دولجوروكي فحسب . تلك أول مرة يحدث لي فيها هذا . وكان دارزان ينقل بصره مدهوشاً بين ستيبلكوف ضاحكاً وبيني مبهوتاً .

ثم اتجه الى الأمير يسأله فجأة :

ـ ها ... نعم ... مَنْ تلك المرأة الجميلة التي رأيتها الآن على سلم بيتك لطيفة نضرة ؟

فأسرع الأمير يجيبه وقد احمر وجهه :

ـ لا أدرى !

فقال دارزان ضاحكاً :

ـ فمن يدرى اذن ؟

فتمتم الأمير يقول :

ـ مع ذلك •• من الجائز •• من الجائز أن ••

فقال ستيبلكوف وهو يشير الىّ :

ـ نعم نعم ••• هى اخته • أنا أيضاً رأيتها منذ مدة قصيرة •

فقال الأمير مؤيداً ، ولكن بهيئة وفورة جادة فى هذه المرة :

ـ ها ••• نعم ! لابد أنها اليزابت ماكاروفنا ، صديقة آنا تيودوروفنا ستولبايفا التى أسكن الآن فى بيتها • لابد أنها زارت اليوم داريا أو نيسيموفنا التى عهدت اليها آنا تيودوروفنا بالبيت حين سافرت •

وكان كلام الأمير صحيحاً • ان داريا أونيسيموفنا هى أم تلك الفتاة المسكينة التى سبق أن تكلمت عن انتحارها • لقد كفلتها تاتيانا بافلوفنا فى أول الأمر ثم جاءت بها الى ستولبايفا • وكنت أعلم أن ليزا تجىء الى ستولبايفا ، وأنها كانت ترى أحياناً داريا أونيسيموفنا التى أصبح جميع أهل بيتنا يعطفون عليها ويحبونها • ولكننى فى تلك اللحظة ، بعد ذلك الكلام الدقيق الذى قاله الأمير ، وبعد تلك الفورة السخيفة من ستيبلكوف ، وربما أيضاً لأننى سميت أميراً ، شعرت باضطراب قوى ، واحمر وجهى احمراراً شديداً • ومن حسن الحظ أن ناشتشوكين نهض فى تلك اللحظة نفسها مودعاً ، ومد يده الى دارزان أيضاً • فلما لم يبق معنا الا ستيبلكوف ، أومأ ستيبلكوف الى دارزان الذى كان فى العتبة مديراً لنا ظهره ، فلوّحت لستيبلكوف بقبضة يدى •

وما أن نقضت دقيقة حتى انصرف دارزان هو أيضـاً ، بعد أن أتفق على موعد مع الأمير غداة غد ، في بيت من بيوت القمـــار طبعاً . وأثناء خروجـه هتف يقول شيئاً لستيبلكوف ، وانحنى لى انحناء خفيفاً أيضاً . فما ان انصرف حتى وثب ستيبلكوف من مكانه ، وتسمر في وسط الغرفة رافعاً اصبعه فى الهواء ، وقال :

ـ ان هذا السيد الصغير قد اقترف فى الأسبوع الماضى ما يلى : وقّع على سند توقيعاً مزيفاً باسم آفريانوف . ورُفض السند ، فما يزال موجوداً : جريمة يلاحق مرتكبها من قبل الحق العام . ثمانية آلاف روبل !

فسألته وأنا أرشقه بنظرة كاسرة :

ـ وهل السند عندك أنت ؟

ـ أنا عندى مصرف ؟ عندى « بنك اقراض » ، لا سند . انك تعرف ما « بنك اقراض » بباريس ! هو خبز وسعادة للفقراء . فأنا عندى « بنك اقراض » خاص بى ...

فلما رجع الأمير ، أوقفه عن الكلام بقســوة ، وقال له بلهجـــة عنيفة :

ـ ما عملك هنا ؟ لماذا بقيت ؟

فقال له ستيبلكوف وهو يطرف عينيه :

ـ ماذا ؟ والمسألة ؟

فصرخ الأمير قائلاً وهو يضرب بقدميه الأرض :

ـ كلا ثم كلا ثم كلا ! قلت لك ...

ـ طيب ... اذا كان الأمر كذلك ، فليكن كذلك .. ولكن الأمر لن يكون كذلك ...

قال ستيبلكوف هذا ، ثم استـدار وخـرج بحركة عنيفة ، خافضـاً رأسه ، حانياً ظهره . وصرخ الأمير يقول له فى العتبة :

ـ واعلم أنني لست خائفاً منك يا سيد !

كان الأمير مستعر الغضب والحنق ، وأراد أن يجلس ، لكنه رآني فلم يفعل ، وكانت نظرته كأنها تقول : « وما بقاؤك أنت ؟ » ، فبدأت أتكلم فقلت له :

ـ يا أمير ...

لكنه قاطعني قائلاً :

ـ لا وقت عندي يا آركادي ماكاروفتش ! حقاً لا وقت عندي ! يجب عليّ أن أخرج .

ـ لحظة قصيرة يا أمير ، أمر هام جداً ، اليك أولاً الثلاثمائة روبل .

ـ ما معنى هذا ؟

لقد كان يمشي فتوقف ، قلت :

ـ بعد الذي حدث ... وبعد الذي قلته عن فرسيلوف من أنه رجل غير شريف ... ثم بعد لهجتك هذه في الكلام طول الوقت ... بعد هذا كله ، لا يمكنني أن أقبل أخذ هذا المال .

ـ ومع ذلك ظللت تقبل طوال شهر كامل .

وجلس فجأة ، وكنت واقفاً أمام الطاولة أفرك كتاب بيلنسكي باحدى يدي ، وأمسك قبعتي بالأخرى ، قلت :

ـ كانت العواطف غير العواطف يا أمير ... وما كان لي أن أصل الى ذلك المبلغ الضخم لولا القمار على كل حال ، المهم أنني لا أستطيع اليوم أن أقبل ...

ـ أنت غاضب لأنك لم تستطع أن تتجلّى في أي أمر من الأمور ، هلا أرحت هذا الكتاب ، من فضلك !

ـ ماذا تعنى بقولك اننى لم « أستطع أن أجلّى فى أى أمر من الأمور » ؟ ثم انك ، بحضور ضيوفك ، قد عاملتنى كمعاملتك ستيلكوف وجعلتنى فى مثل منزلته •

فقال وهو يضحك ضحكة لاسعة :

ـ ذلك هو السر • وعدا هذا فقد اضطربت حين سُميت أميراً •

كانت ضحكته شريرة • فانفجرت أقول :

ـ لست أفهم ••• ثق أن لقب الأمير هذا الذى تفخر به أنت ، لا أرضى أنا أن أشيله من الأرض •••

ـ أعرف طبعك • لشدما صحت صياحاً مضحكاً لتدافع عن آخماكوفا ••• اترك هذا الكتاب !

فهتفت أقول :

ـ ما معنى كلامك ؟

فاذا هو ينتصب على مقعده غاضباً كأنه يهم أن يثب ، ويزأر قائلاً :

ـ اترك الكتاب !

فقلت وأنا أسارع الى الخروج من الغرفة :

ـ ذلك ما يتجاوز أخيراً جميع الحدود •

ولكن ما كدت أتجاوز الصالون حتى سمعته ينادينى من مكتبه :

ـ ارجع يا أركادى ماكاروفتش ! تعال !تعال ! •• تعال •• حالا !

فلم استمع له ، وانصرفت • لكنه لحق بى راكضاً ، حتى اذا أدركنى أمسك ذراعى وجرّنى الى مكتبه ، فلم أقاوم •

قال لى وقد شحب لونه من شدة الانفعال ، ومدّ الى الثلاثمائة روبل التى تركتها:

ـ خذها ! خذها ! أصر على هذا .. والا فاننا .. خذها .. أصر على هذا !

ـ ولكن كيف يمكنني أن آخذ يا أمير ؟

ـ أنا مستعد لأن اعتذر اليك اذا شئت . هأناذا اعتذر :معذرة .

ـ يا أمير ، أنا قد أحببتك دائماً ، فاذا كنت ، أنت أيضاً ...

ـ أنا أيضاً ... خذها !

فأخذتها . وكانت شفتاه ترتجفان .

ـ انني أفهمك يا أمير . انك غاضب من ذلك الوغد ... ولكنني لن أقبل أن آخذ المال رغم كل شيء الا اذا تعانقنا ، كما كنا نفعل بعد مشاجراتنا السابقة .

وكنت ارتجف أيضاً وأنا أقول هذا الكلام .

فقال الأمير وهو يبتسم خجلاً :

ـ ياللعواطف الرقيقة !

لكنه مال عليّ وقبلني . فسرت رعدة في جسمي : ذلك انني حين قبلني رأيت في وجهه اشمئزازاً واضحاً .

ـ هل جاءك بالمال على الأقل ؟

ـ لا قيمة لهذا !

ـ من أجلك انما ...

ـ جاء بالمال ، جاء به ...

ـ يا أمير ، لقد كنا أصدقاء .. وأخيراً .. ان فرسيلوف ...

ـ طيب ••• طيب •••

ـ ما زلت لا أدرى حقاً هل هذه الثلاثمائة روبل ••• وكان المبلغ بيدى • فقال :

ـ خذها ! خذها !

وعاد يضحك من جديد ، لكن ضحكته كانت تشتمل على شر وسوء •

أخذت المال •

الفصل الثالث

١

أخذت المال منه لأنني كنت أحبه . ولمن لا يصدقني سأقول انني في اللحظة التي أخذت فيها المال كنت مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن في وسعي أن أحصل على المال من مصدر آخر لو شئت . ومعنى هذا أنني لم آخذه عن حاجة ، بل أخذته على سبيل الكياسة حتى لا أجرح شعور الأمير . كذلك كنت أفكر في ذلك الحين واأسفاه ! على انني حين تركت الأمير كنت أحس بضيق وانزعاج رغم كل شيء . لقد أحسست بتبدل ضخم في سلوكه معي ذلك الصباح . انه لم يسبق ان استعمل في مخاطبتي لهجة كتلك اللهجة يوماً . أما على فرسيلوف فقد كانت ثورته صريحة معلنة . لا شك أن ستيبلكوف كان قد عكر مزاجه . ولكن تبدل سلوكه قد بدأ قبل ذلك . أعود فأقول : ان هذا التبدل كان يلاحظ منذ الأيام السابقة ، ولكنه لم يكن قوياً هذه القوة ، لم يكن قد بلغ هذه الدرجة .

ولعل من العوامل التي كان لها تأثيرها أيضاً ، ذلك النبأ الأحمق

الذى يتعلق بالبارون بيورنج ، مرافق صاحب الجلالة . ولقـد انصرفت مضطرباً أنا أيضاً ... ولكن شعاعاً آخر كان يلوح أمام عينى حينذاك ، فكنت أفوّت كثيراً من الأمور لا أوليها انتباهاً ، وكنت أتعجل انقضاءها ، أطرد كل ما هو مظلم ، ولا ألتفت الا الى كل ما هو مضىء لامع ساطع ..

ان الساعة لم تبلغ الواحدة بعد . ومن عند الأمير ذهبت مع سائق عربتى ماتفئى رأساً الى عند ستيبلكوف ، سواء أصدقتمونى أم لم تصدقونى. لم تفاجئنى زيارته للأمير (وكان قد وعده بأن يجىء اليه) بقدر ما فاجأتنى غمزات أرسلها الىّ ، على عادته القبيحة ، ولم تتناول ما كنت أتوقع أن تتناوله . كان ستيبلكوف قد بعث الىّ بالبريد ، فى مساء أمس ، رسالة ملغزة يتوسل الىّ فيها أن أزوره اليوم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، قائلاً : « ان هناك أشياء غير متوقعة يريد أن يبلغنى اياها » . ولم يشر الى هذه الرسالة بكلمة واحدة حين كنا عند الأمير . ما عسى يكون بينى وبين ستيبلكوف من أسرار ؟ ان الفكرة وحدها سخيفة مضحكة . ومع ذلك فانى ، بعد كل ما جرى ، كنت أشعر بشىء من الارتجاف وأنا ذاهب اليه . صحيح أننى اتجهت اليه مرة ، منذ خمسة عشر يوماً ، لاقتراض بعض المال ، وقد عرض علىّ أن يقرضنى ، ولكننا لم نصل الى اتفاق ورفضت العرض : لقد جمجم عندئذ بكلمات غامضة على عادته ، وبدا لى أنه يريد أن يفرض علىّ شروطاً خاصة . واذ أننى أعامله باستعلاء كلما التقينا عند الأمير ، فقد رفضت فكرة فرض شروط خاصة ، رفضتها باباء وشمم ، وخرجت رغم أنه ركض ورائى الى البـاب يحاول صدى عن الخروج . واقترضت المال يومئذ من الأمير .

ان ستيبلكوف يسكن مستقلاً ، ويعيش حياة باذخة : منزل يتألف من اربع غرف واسعه ، جميلة الأثاث : مع خادمين ، رجل وامراة : ومع مديرة للبيت متقدمة فى السن .

دخلت غاضباً . وبدأت أتكلم منذ أن اجتزت الباب ، فقلت :

ـ اسمع يا عزيزى ، قل لى أولاً : ما هذه الرسالة التى بعثتها الى ؟ اننى أرفض أن يكون بيننا مكاتبة . ولماذا لم تقل ما تريد قوله ، حين كنا منذ قليل عند الأمير ؟ كنت بين يديك !

ـ وأنت ، لماذا لم تتكلم حينئذ أيضاً ؟ لماذا لم تسألنى عن شيء ؟

قال ذلك وفتح فاه بابتسامة تعبر عن رضاً كامل . فصرخت أقول غاضباً :

ـ الجواب بكل بساطة هو أن المحتاج منا الى الآخر هو أنت لا أنا .

ـ فلماذا تجيء الىّ اذن ؟

وكاد يقفز من شدة سروره . فسرعان ما استدرت أريد أن أنصرف ، ولكنه أمسك كتفى وقال :

ـ لا ، لا ، كنت أمزح . ان الأمر جد . سترى .

فجلست . أعترف بأن الفضول قد انتصر . جلسنا متقابلين عند طرف مكتب كبير . ورأيته يبتسم ابتسامة رقيقة ، ويرفع اصبعه ، فهتفت أقول له غاضباً من جديد :

ـ أرجوك ، لا رقة ولا اصبع ! ولا رموز بخاصة ! هلمّ الى الوقائع رأساً ، والا انصرفت فوراً .

فقال عاتباً عتباً غبياً وهو يترجج على كرسيه ويرفع جميع غضون جبينه :

ـ انك ... متكبر .

ـ بالتكبر تجب معاملتك !

ـ أخذتَ اليوم ... مالاً من الأمير : ثلاثمائة روبل . وأنا أملك مالاً . ومالى خير من ماله .

ـ من أين عرفت أننى قبلت ؟ أهو الذى قال لك ؟

وشدهت شدهاً قوياً .

ـ هو قال لى . ولكن هدىء نفسك . لم يقل لى ذلك الا عرضاً . لم يقله متعمداً . ولكنه قال لى . وكان فى امكانك مع ذلك أن لا تقبل . أهذا صحيح أم لا ؟

ـ ولكننى ، فيما سمعت عنك ، تسلخ جلود الناس سلخاً بما تأخذه من ربا ؟

ـ ان لى « بنك تسليف » . فلا أسلخ جلد أحد ، ولا أقرض الا الأصدقاء . أما غير الأصدقاء فيمكنهم أن يقترضوا من « بنك تسليف المحتاجين » .

ان « بنك التسليف » هذا الذى يشير اليه ستيبلكوف مصرف يقرض مبالغ من المال على رهون ، ومقره فى مسكن آخر ، وكانت أحواله مزدهرة .

وأردف ستيبلكوف يقول :

ـ وللأصدقاء أعطى مبالغ ضخمة .

ـ هل الأمير واحد من هؤلاء الأصدقاء ؟

ـ هو واحد منهم . لكنه يقول علينا سخافات . يجب أن ينتبه ويحاذر !

ـ أهو بين يديك الى هذه الدرجة ؟ هل ديونك عليه ضخمة ؟

ـ عليه ؟ ... ضخمة !

ـ سيدفع لك • ان له ميراثاً •••

ـ هذا الميراث ليس له • وهو مدين لى بمال ، وبغير المال أيضاً !•• الميراث لا يكفى • سأقرضك بغير فائدة •

قلت ضاحكاً :

ـ بصفتى صديقاً كذلك ؟ ما الذى جعلنى استحق هذه الصداقة ؟

ـ سوف تستحقها •

وتقدم نحوى بكل جسمه وهم أن يرفع اصبعه • فهتفت أقول له:

ـ ستيبلكوف ! لا اصبع ! والا انصرفت •

فقال وهو يغمز غمزة ماكرة :

ـ اسمع ••• قد يتزوج آنا آندرييفنا !

ـ اسمع يا ستيبلكوف ، ان حديثك يتخذ طابع الفضيحة ••• كيف تجرؤ أن تجىء على ذكر اسم آنا آندرييفنا ؟

ـ لا تغضب !

ـ اننى أجبر نفسى على الاستماع اليك ، لأننى أرى أن ثمة مكيدة تدبر ، فأريد أن أعرف كل شىء ••• ولكن نفد صبرى يا ستيبلكوف !

ـ لا تغضب • دعك من التكبر • دع التكبر لحظة قصيرة ثم تعود اليه متى شئت • أنت تعرف آنا آندرييفنا ؟ وتعرف أن الأمير قد يتزوجها؟

ـ سمعت عن مثل هذا المشروع طبعاً • أعرف كل شىء • ولكننى لم أكلم الأمير فى هذا الموضوع يوماً ، وان كنت أعرف أن الفكرة انما هى فكرة الأمير سوكولسكى العجوز الذى هو الآن مريض • وأنا لا يد لى فى هذه القصة كلها ، ولم أشارك فيها أية مشاركة • والآن أريد أن

ألقى عليك سؤالين : أولاً ـ لماذا تكلمنى فى هذا الموضـوع ؟ ثانيـاً ـ هل كاشفك به أنت ؟

ـ ليس هو الذى يكلمنى فى هذا الأمر • هو لا يريد أن يكلمنى فيه ، ولكننى أكلمه فيه أنا ، فلا يريد أن يصغى الى • وقد أخذ يصرخ صراخاً قوياً حين كنا عنده منذ قليل •

ـ اننى أفهمه ! واننى أؤيده !

ـ ان الأمير سوكولسكى ، العجوز ، سيعطى آنا آندريفنا مهراً كبيراً ، فهى تعجبه • فاذا خطبها الأمير سوكولسكى الشاب استطاع أن يرد الىّ مالى • وسوف يرد الىّ الدين الآخر أيضاً • سيرده الىّ حتماً ! أما الآن فلا يستطيع ذلك •

ـ ولكن قل لى : ما شأنى أنا فى الأمر ، وما النفع الذى ترجـوه منى ؟

ـ تستطيع أن تنفعنى فى أمر أساسى • انك على صلة بهم • وأنت معروف فى كل جهة • فتستطيع أن تطلع على كل شىء •

ـ وما الذى يجب أن أطلع عليه ؟

ـ يجب أن تعرف : هل الأمير يريد ؟ هل آنا آندريفنا تريد ؟ هل الأمير العجوز يريد ؟ تستطيع أن تعرف الحقيقة •

فانتفضت مستاءً وقلت له :

ـ كيف تجرؤ أن تعرض علىّ أن أكون لك جاسوساً ، وأن أكون لك جاسوساً فى سبيل مال أيضاً ؟

ـ لا تتكبر ! لا تتكبر ! دع التكبر مدة قصيرة أخرى ، خمس دقائق لا أكثر !

وأجلسني • وكان واضحاً أنه لا يهاب لا اشارات يدى ، ولا صيحات صوتى • وقررت أن أصغى اليه حتى النهاية •

ـ وانما يجب علىّ أن أعرف بسرعة ، أن أعرف بسرعة ، فقد يفوت الأوان بعد حين ! لقد لاحظتَ كيف بلع الأمير المسألة حين تكلم الضابط عن البارون والسيدة آخماكوفا ، أثناء وجودنا عنـدد منذ قليـــل ، ألم تلاحظ ؟

شعرت بخجل من نفسى لأننى أصغى الى كلامه ، وأحسست أننى أخفض قدرى بالحديث معه ، ولكن فضولى كان قد ثار فلا ســبيل الى مغالبته •

قلت بلهجة قاطعة :

ـ اسمع ! أنت ••• أنت وغد • واذا كنت أبقى هنا ، وأصغى الى كلامك ، وأسمح لك بأن تتكلم عن هؤلاء الأشخاص ••• وحتى اذا كنت أجيبك ، فليس معنى ذلك أبداً أننى أعترف لك بهذا الحق • كل ما هنالك أننى أرى أن ثمة مكيدة تدبر • ما عسى أن يكون أمل الأمل فيما يتعلق بكاترين نيقولايفنا ؟

ـ ليس له أى أمل • غير أنه ساخط •

ـ هذا خطأ •

ـ انه ساخط • فيما يتعلق بآخماكوفا ، انتهى الأمر • بقى مخرج واحد : آنا آندريفنا • سأعطيك ألفى روبل ، بلا فوائد ولا سند •

قال ذلك وارتد الى ظهر مقعده ، وحملق ناظراً الىّ • وحملقت أنا أيضاً •

ـ انك ترتدى بدلة مشتراة من شارع « ميلبونايا الكبير » • فأنت

في حاجة الى مال ، في حاجة الى مال • ومالى خير من ماله • سأدفع أكثر من ألفى روبل •••

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا؟ لست أفهم !

وضربت الأرض بقدمى غاضباً ، فمال علىّ وقال بلهجة معبرة :

ـ حتى لا تعرقل وتمنع !

فصرخت أقول :

ـ ولكننى أقول :

ـ ولكننى لا أتدخل !

ـ أعرف أنك تصمت • وهذا حسن •

ـ لست في حاجة الى استحسانك • وهبنى تمنيت لهذا الزواج أن يتم ، فسأظل لا أتدخل ، لأننى أرى أن لا شـأن لى فى الأمر وأن تدخلى لا يليق !

ـ صحيح ، صحيح ، لا يليق !

ورفع اصبعه • ثم أردف يقول :

ـ نعم ، لا يليق !

وانفجر ضاحكاً • ثم تابع كلامه فقال :

ـ أفهم ، أفهم ! لا يليق بك أن تتدخل ! ولكنك لن تصنع حواجز، أليس كذلك ؟

وغمز بعينه ، لكننى رأيت فى غمزته وقاحة فظيعة ، بل رأيت فيها سخرية واستهزاء ، وحطة وخسة • لقد افترض وجود دناءة فى نفسى ، وكان يعوّل على هذه الدناءة • ذلك واضح • لكننى لم أدرك بعد ما الذى كان يريد أن يصل اليه •

وهذا هو يقول :

ـ ان آنا آندريفنا هي أيضاً أختك ٠

ـ أمنعك من الكلام عنها ٠ وليس من حقك أن تتكلم عنها ٠

ـ لا تتكبر ٠ اصبر عليَّ دقيقة أخرى ٠ اسمعني : سوف يقبض مالا ٠ فيكفلنا « جميعاً » ٠ هل تتابع كلامي ؟

وقد شدد على قوله « جميعاً » ٠ قلت :

ـ أتظن اذن انني سأقبل ماله ؟

ـ ألست تقبله الآن ؟

ـ الآن آخذ النصيب الذي يخصني ٠

ـ النصيب الذي يخصك ؟

ـ النصيب الذي يخصني من مال فرسيلوف : انه مدين لفرسيلوف بعشرين ألف روبل ٠

ـ هو مدين لفرسيلوف ، لا لك أنت ٠

ـ فرسيلوف أبي ٠

ـ لا ٠ أنت اسمك دولجوروكي ، وليس فرسيلوف ٠ على أن النتيجة واحدة ٠ والحق أنني فكرت هذا التفكير ٠ كنت أعلم أن لهذا شأناً هاماً جداً ٠ فلم أكن غبياً الى ذلك الحد ٠ ولكنني أكرر لك أنني ما فكرت هذا التفكير الا « كياسة » ٠

صرخت أقول :

ـ كفى ٠ انني لا أفهم شيئاً البتة ٠ وكيف تجرؤ فتدعوني لمثل هذه السخافات ؟

ـ هل يعقل أنك لم تفهم حقاً ؟ أتراك تتعمد عدم الفهم تعمداً ؟

كذلك قال ستيبلكوف وهو يرشقنى بنظرة نافذة تصحبها ابتسامة شك • فقلت أجبه :

ـ أحلف لك اننى لا أفهم •

ـ أقول انه سيكفلنا جميعاً ، جميعاً ، جميعاً • وانما المهم أن لا تحول أنت دون اتمام الأمر •

ـ أرى أنك فقدت عقلك ! ما الذى تعنيه بقولك « جميعاً » • أتراه يكفل فرسيلوف مثلاً ؟

ـ لن يكفلك وحدك ، ولن يكفل فرسيلوف وحده ، بل سيكفل آخرين ••• ان آنا آندريفنا اختك ، مثل « اليزابث ماكاروفنا » سـواء بسواء •

نظرت اليه محملقاً • فاذا أنا أرى فى نظرته الدنيئة الىّ نوعاً من شفقة علىّ • وقال :

ـ لا تفهم ؟ طيب ! هذا أحسن ! انه لحسن جداً أن لا تفهم • هذا أمر محمود ••• اذا صح أنك لا تفهم حقاً !

فبلغ حنقى ذروته ، فصرخت أقول وأنا أتناول قبعتى :

ـ شيطان يأخذك أنت وسخافاتك ! انك رجل مختل العقل •

ـ ما هذه سخافات ! وسوف ترجع •

فأجبته قائلاً بلهجة قاطعة وقد صرت فى العتبة :

ـ لا •

ـ بل سوف ترجع ••• وسنقول عندئذ كلاماً آخر • سيدور بيننا حديث هام • ألفا روبل • تذكر هذا ولا تنسه !

٢

لقد أحدث فى نفسى أثراً يبلغ من الاضطراب والدناءة أننى حين خرجت من عنده حاولت أن لا أفكر فيه ، واقتصرت على أن بصقت ، اشمئزازاً • وكنت كلما تصورت أن الأمير كلمه عنى وعن هذا المال أحسست بما يشبه وخز الابر • وقلت أحدث نفسى : « سوف استرد خسارتى ، فارجع اليه أمواله فى هذا اليوم نفسه » •

وأصبحت أرى ستيبلكوف الوغد رجلاً متألقاً ، رغم أن كل غبائه وتعقده ، لا سيما وأننى قدرت أن ثمة مكيدة تحاك حتماً • غير أن وقتى كان لا يتسع للاهتمام بالكشف عن مكائد ، وذلك هو السبب الرئيسى فى عماوتى الطارئة العابرة !

نظرت فى ساعتى قلقاً ، فرأيت أنها لم تبلغ الثانية • أستطيع اذن أن أقوم بزيارة ، والا لهلكت من فرط الانفعال الى أن تحين الساعة الثالثة • فذهبت الى آنا آندريفنا فرسيلوف ، أختى • كانت قد انعقدت الصلة بينى وبينها منذ مدة غير قصيرة عند الأمير العجوز أثناء مرضه • وكان شعورى بأننى لم أرها منذ ثلاثة أيام أو أربعة يعذب ضميرى • ولكن آنا آندريفنا هى التى ساعدتنى : كان الأمير يحبها حباً عظيماً ، حتى لقد وصفها أمامى ذات يوم بأنها ملاكه الحارس • يجب أن أقول بالمناسبة : ان فكرة تزويجها الأمير سرجى بتروفتش انما نبتت فعلاً فى رأس صاحبى الأمير العجوز ، حتى لقد عبر لى عن هذا غير مرة ، فى السر طبعاً • وقد نقلت الخبر الى فرسيلوف لأننى كنت قد لاحظت أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالأنباء التى أنقلها اليه عن لقاءاتى بآنا آندريفنا ، رغم أنه

قليل الاكتراث بسائر الأخبار مهما تكن ذات شأن • وقد جمجم فرسيلوف عندئذ قائلاً ان آنا آندريفنا تملك من الذكاء ما يجعلها قادرة على الاستغناء عن نصائح الآخرين فى أمر يبلغ هذا المبلغ من الدقة والحرج • ولقد كان ستيلكوف على حق حين افترض أن العجوز سيخص آنا آندريفنا بمهر ضخم ، ولكن كيف اجترأ أن يعوّل على شيء له هو ؟ ان الأمير الشاب قد صرخ يقول له انه لا يخافه : ولكن ألم يكن مدار حديثهما فى مكتب الأمير على آنا آندريفنا فى الواقع ؟ آه ••• اننى أتصور الحنق الذى كان يمكن أن يستعر فى نفسى لو كنت فى مكانه •

ولقد كنت فى الآونة الأخيرة أذهب الى آنا آندريفنا أحياناً كثيرة • ولكن كان يحدث دائماً شيء غريب : انها هى التى كانت تحدد لى موعداً فى جميع المرات ، وكانت تنتظرنى حتماً ، ولكن ما ان أدخل حتى تشعرنى بأننى وصلت على غير توقع • لاحظت ذلك فيها ، ولكنه لم يضعف تعلقى بها • وكانت تقيم عند فاناريوتوفا ، جدتها ، كربيبة لها طبعاً (كان فرسيلوف لا يدفع شيئاً لعولها) ، ولكن دورها عندها يختلف كل الاختلاف عن الدور الذى يسند عادة الى ربيبات السيدات الكبيرات ، كما نلاحظ ذلك مثلاً فى قصة بوشكين « البنت البستونية » ، ربيبة الكونتيسة العجوز • لقد كانت آنا آندريفنا نوعاً من كونتيسة هى نفسها• كان لها فى المنزل مسكنها الخاص ، المستقل كل الاستقلال ، رغم أنه يقع فى نفس الطابق الذى تسكنه فاناريوتوفا ، وفى نفس الشقة ، ولكنه يتألف من غرفتين منفصلتين ، فلم أصادف أحداً من آل فاناريوتوفا فى يوم من الأيام ، لا حين كنت أدخل ، ولا حين كنت أخرج • وكان من حقها أن تستقبل من تشاء ، وأن توزع وقتها التوزيع الذى تحب • ولكن يجب أن نذكر أنها كانت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها • وقد انقطعت عن التردد الى المجتمع منذ السنة الماضية انقطاعاً يكاد أن يكون تاماً ، رغم أن فاناريوتوفا كانت لا تضن بأية نفقة على حفيدتها التى كانت

تحبها كثيراً فيما سمعت • وكان يعجبنى فى آنا آندريفنا أننى كنت ألقاها فى ثياب بسيطة دائماً ، وأراها عاكفة على شغل أو على كتاب فى جميع الأحيان • وكان فى هيئتها تقشف يشبه أن يكون تقشف سكان الأديرة، فكان هذا يعجبنى فيها أيضاً • وكانت قليلة الكلام ، وكانت تزن كلامها، وتعرف كيف تصغى الى كلام غيرها ، وذلك ما كنت أنا عاجزاً عنه • وكان وجهها يتخضب بالحمرة قليلاً اذا قلت لها انها تذكرنى كثيراً بفرسيلوف رغم أننى لا أرى بينهما أية سمة مشتركة • وكانت تحمر فى كثير من الأحيان ، وكانت تحمر احمراراً سريعاً ، ولكن الحمرة التى تخضب وجهها حمرة ضئيلة دائماً ، فكانت هذه الصفة من صفات وجهها تعجبنى كثيراً • وكنت عندها لا أسمى فرسيلوف باسمه أبداً ، وانما اسميه آندره بتروفتش ، وكان هذا يبدو طبيعياً فهو يتم من تلقاء نفسه بدون تكلف • حتى لقد لاحظت أن آل فاناريوتوف عامة يشعرون بخجل وعار من فرسيلوف • لاحظت هذا خاصة على آنا آندريفنا ، وان كنت لا أستطيع أن أقول هل كلمة « الخجل » أو « العار » هى الكلمة المناسبة • ولكن كان ثمة شىء من هذا القبيل •وكنت أكلمها أيضاً عن الأمير سرجى بتروفتش ، فكانت تصغى الى كلامى كثيراً ، وكان يبدو عليها الاهتمام بما أحمل اليها من مثل هذه الأنباء•ولكن كان يحدث دائماً أننى أنا الذى أنقل اليها هذه الأنباء ، أما هى فلم تسألنى عن شىء فى يوم من الأيام • ولم أجرؤ أبداً أن أكلمها عن امكان زواج بينهما ، رغم أننى رغبت أن أفعل ذلك مراراً كثيرة ، لأن هذه الفكرة كانت تعجبنى وتسرنى أنا أيضاً • ولكن ما أكثر الأشياء التى أصبحت لا أجرؤ أن أتعرض لها بحديث عندها ، ومع ذلك كنت أشعر فى غرفتها بارتياح كبير • ومما كنت أحبه كذلك حباً كبيراً أنها كانت واسعة الثقافة ، فهى تقرأ كثيراً ، بل تقرأ كتباً ليست سهلة ، وكانت أكثر منى اقبالاً على القراءة وانهماكاً فيها •

انها هي التي استدعتني اليها في المرة الأولى • وقد قدرت أنها ربما كانت تريد أن تعلم مني أمراً ما • آه ••• ما أكثر الأمور التي كان كثير من الناس في ذلك الأوان يستــطيعون أن يعلموها مني ! ••• وقلت لنفسي في تلك المرة الأولى : « لا ضــير ! انهــا لا تستقبلني لهذا السبب وحده » • الخلاصة انني قد أسعدني أن أكون قادراً على أن أفيدها في أمر من الأمور ، و ••• حين كنت أجلس بقربها ، كان يبدو لى دائماً أن أختي هي التي تجلس بجانبي ، رغم أننا لم نتكلم يوماً عن قرابتنــا لا تصريحاً ولا تلميحاً • فكأن هذه القرابة لم توجد في يوم من الأيام • كان يبدو لى حين أزورها انني يستــحيل عليّ استحالة تامة أن أتعرض لهذا الموضوع ، وكنت حين أنظر اليها تبرق في خاطري أحياناً فــكرة عجيبــة : أنهــا ربما كانت تجهــل هذه القرابة ما دامت تقف مني هذا الموقف وتعاملني هذه المعاملة •

٣

حين دخلت عليها وجدت عندها ليزا • فكدت أشده • كنت اعرف أنهما قد التقتا قبل الآن • حدث ذلك اللقاء عند « الطفل الرضيع » • قد أتكلم فيما بعد ، اذا عرضت لى فرصـــة ، عن تلك النزوة التى اعترت آنا آندريفنا ، ذات الكبرياء والخفر ، وهى أن تـرى ذلك الطفل ، وقد أتكلم أيضاً عن اللقاء الذى تم بينها وبين ليزا هناك • ولكن لم أكن أتوقع أبداً أن تقوم آنا آندريفنا بدعوة ليزا اليها • لذلك دهشت حين رأيتهما ، وكانت دهشـــة لذيذة • وبدون أن أظهر شيئاً من هذه الدهشة طبعاً ، حييت آنا آندريفنا ، وصافحت ليزا مصافحة حارة ، وجلست بقربها • وكانتا كلتاهما منكبتين على عمل « خطير الشـأن » : كان فسـتان السهرة التى تملكه آنا آندريفنا ، وهو فستان جميل لكنه قديم ، أى لبس قبل الآن ثلاث مرات ، كان ذلك الفستان ممدوداً على الطاولة وعلى ركبهما تفكران فى تغيير شكله • ان ليزا « فنانة » كبيرة فى هذا المجال ، وانها صاحبة ذوق مرهف • هذا اذن مجلس حرب تعقده « سيدات عاقلات » • وتذكرت فرسيلوف ، فضحكت ، وكنت مشرق المزاج على كل حال •

قالت آنا آندريفنا مبرزةً كل كلمة من كلماتها بوقار :

ـ أنت اليوم جذل جداً • هذا شىء ممتع !

ان لها صوتاً دافئاً مختلجاً ، ولكنها تنطق كلماتهـــا دائماً بهدوء ورفق ، خافضة أهدابها الطويلة قليلاً ، على ابتسامة خـــاطفة تطوف بوجهها الشاحب •

قلت مرحاً :

ـ تعرف ليزا كم أكون مزعجاً حين لا أكون جذلاً •

فقالت ليزا بمكر :

ـ وربما كانت آنا آندريفنا تعرف ذلك •

هذه وخزة من ليزا • آه لو عرفت ما كان يجثم على صدر ليزا العزيزة في ذلك الوقت ، وما ذا كان يفيض به قلبها من هموم !

وقالت آنا آندريفنا تسألني :

ـ ماذا تعمل الآن ؟

(لاحظوا أنها هي التي رجتني أن أجيء اليها !) • قلت أجيبها :

ـ أنا الآن هنا • واني لأتساءل لماذا يحلو لي دائماً أن أراك قارئة في كتاب أكثر مما يحلو لي أن أراك عاكفة على شغل من أشغال الخياطة والتطريز وما الى ذلك • لا ، لا ، حقاً ان أشغال السيدات لا تناسبك • أنا من هذه الناحية أشارك آندره بتروفتش رأيه •

ـ ألم تحزم أمرك على دخول الجامعة بعد ؟

ـ أشكرك شكراً لا حدود له على أنك ما نسيت أحاديثنا السابقة• هذا دليل على أنني أخطر ببالك أحياناً • ولكن ••• فيما يتعلق بالجامعة ، لم أثبت على أمر بعد • ثم ان لي أهدافي •

قالت ليزا :

ـ اي ان له سره •

قلت :

ـ دعي هذه الأمازيح يا ليزا ! ان رجلاً ذكياً قال في الأيام الأخيرة ان حركتنا التقدمية كلها خلال الخمسة والعشرين عاماً قد برهنت قبل كل شيء على مدى ايغالنا في الجهل ، ولم ينس أن ينسب هذا

الى جامعتنا طبعاً • من المسئول عن هذا الجهـل ان لم تـكن الجامعات هي المسئولة ؟

فقالت ليزا :

ـ لا بد أن بابا هو الذى قال هذا الكلام • فأنت فى أكثر الأحيان لا تزيد على أن تكرر أقواله •

ـ لكأنك تفترض يا ليزا أننى ليسِ شيء من فكر •

وقالت آنا آندريفنا مدافعة عني :

ـ ليس بالأمر الشائع كثيراً في هذا الزمان أن نرى أناساً يحسنون الاستماع الى أقوال أشخاص أذكياء ، ثم يحسنون حفظها وتذكرها في الوقت المناسب •

فاستأنفت كلامى قائلاً بحرارة :

ـ حقاً يا آنا آندريفنـا • ان من لا يفكر الآن في روسـيا ليس بمواطن ! ربما كنت أنظر الى روسيا من زاوية خاصة : لقد تحملنا الغزو التترى ، ثم تحملنا قرنين من العبودية ، ولعل تحملنا هذا أن يكون مرده الي أن الأمرين كليهما قد أرضيانا • والآن وهبت لنا الحرية ، ويجب أن نتحملها : فهل نحن على ذلك قادرون ؟ هـل الحرية ترضـينا وتتفق وذوقنا ؟ هذا هو السؤال •

ألقت ليزا نظرة سريعـة على آنا آندريفنـا • فسرعان ما غضّت آنا آندريفنا طرفها ، وتظـاهرت بأنها تبحث عن شيء ما • ورأيت ليزا تحاول أن تسيطر على نفسها بكل ما أوتيت من قوة • ولكن بصرينـا التقيا مصادفة على حين فجأة ، فاذا بليزا تضحك • فانفجرت قائلاً :

ـ ليزا ، ان المرء لا يفهمك حقاً •

فأسرعت تكف عن الضحك ، وتقول بلهجة يخالطها حزن :

ـ اغفر لى . لا أدرى ماذا فى رأسى .

واختلجت فى صوتها دموع على حين فجأة . فخجلت خجلاً شديداً ، وتناولت يدها قبلتها بشدة .

فقالت آنا آندريفنا برفق ووداعة . وهى ترانى اقبل يد ليزا :

ـ انك طيب القلب نبيل النفس .

ـ انى ليسعدنى يا ليزا أن أراك مرة تضحكين . هل تصدقين يا آنا آندريفنا اننى منذ بضعة أيام أرى فى وجهها كلما لقيتها نظرة غريبة، نظرة يتموج فيها قلق ، فكأنها تتساءل : « ترى هل علم شيئاً ؟ هل يجرى كل شىء مجرى حسناً ؟ » . حقاً ان فيها شيئاً من هذا النوع .

فألقت عليها آنا آندريفنا نظرة بطيئة ثابتة ، فخفضت ليزا عينيها . وقد أدركتُ على كل حال أن الصلة بينهما أوثق مما تصورتها حين دخلت . فسرتنى هذه الفكرة وأبهجتنى . قلت مخاطباً آنا آندريفنا بعاطفة :

ـ قلت منذ هنيهة اننى طيب القلب ، فلا تستطيعين أن تتصورى يا آنا آندريفنا مدى من أصيب من تحسن حين أكون عندك ، ومدى ما أشعر به من سعادة حين ألقاك !

فأجابتنى قائلة بوقار :

ـ وأنا يسرنى أن أسمعك تقول هذا الكلام فى هذه اللحظة .

يجب أن أذكر أنها لم تكلمنى فى يوم من الأيام عن حياة الفوضى التى أعيشها ، وعن الزوبعة التى كانت تجرفنى أعاصيرها ، رغم أنها كانت ـ فيما أعرف ـ على علم بكل شىء ، حتى انها سألت عنى بعض

الناس • فكان هذا أول الماع منها ، فما زادني ذلك الا ميلاً اليها •

وقلت أسألها :

ـ وكيف صحة مريضنا ؟

ـ تحسنت كثيراً • نهض عن فراشه • وقد خـــرج يتنزه أمس واليوم بالعربة • ولكن ألم تذهب اليه أنت اليوم ؟ انه ينتظرك •

ـ انني مذنب في حقه • ولكنك أنت التي تزورينه الآن ، فتحلين محلي تماماً • انه رجل لا وفاء له ، استغنى بك عني ، واستبدلك بي •

فانقلب وجهها قليلاً • لأن مزاحتي يمكن أن تبدو عامية مبتذلة •

قلت :

ـ أنا آت من عند الأمير سرجي بتروفتش ، و ••• بالمناسبة ياليزا: هل كنت منذ قليل عند داريا أونيسيموفنا ؟

فقالت ليزا مقتضبة ، دون أن ترفع رأسها :

ـ نعم •

ثم سألتني فجأة ، كأنما لتقول أي شيء :

ـ ولكن كنت أظن أنك تذهب الى الأمير المريض كل يوم ؟

فأجبت أقول ضاحكاً :

ـ أذهب • ولكنني لا أكمل الطريق اليه ، فما ان أدخل البيت حتى أمضي يسرة •

قالت آنا آندريفنا :

ـ حتى الأمير نفسه لاحظ أنك تزور كاترين نيقولايفنا كثيراً • تكلم عن هذا أمس وضحك كثيراً •

ـ مم ضحك ؟

فأجابت آنا آندريفنا ضاحكة :

ـ كان يمزح كما تعلم . قال : « والله ... يظهر أن المرأة الجميلة لا تنفّر دائماً قلب شاب فى غضارة الصبا ... » .

هتفت أقول :

ـ عبارة بارعة . لا شك أنها ليست منه ، بل منك أنت .

ـ لماذا ؟ بل هى منه .

فاذا أنا أنبرى فجأة فأسألهما بجرأة غبية :

ـ فما قولكما اذا كانت هذه المرأة الجميلة تنتبه الى الشاب رغم أنه لا قيمة له ولا شأن ، ورغم انه شديد الخجل والبساطة والسذاجة ، يقبع فى ركنه حانقاً من أنه « صغيرها » ، ثم اذا هى تفضله فجأة على جميع من يحومون حولها ويحيطون بها مولهين عابدين ؟

كان قلبى يخفق . فانفجرت ليزا تقول ضاحكة :

ـ اذن لقد ضعت !

فهتفت قائلاً :

ـ ضعت ؟ لا . لم أضع . وأظن اننى لن أضيع أبداً . اذا وقفت امرأة فى طريقى ، فسوف تكون مضطرة أن تتبعنى . لا يسد أحد طريقى الا ويناله عقاب .

لقد قالت ليزا فى ذات يوم ، عرضاً ، بعد ذلك بمدة طويلة ، اننى قد نطقت بهذه الجملة على نحو غريب ، بجد شديد ، كأننى أزن كل كلمة وأفكر فى كل لفظة . ولكن العبارات كانت عندئذ تبلغ من فرط السخف والاضحاك أنه لم يكن للمرء سبيل الى السيطرة على نفسه ، والامتناع عن الضحك .

وقد انفجرت آنا آندريفنا تضحك مرة أخرى بالفعل .

فصحت أقول منتشياً ، لأن هذا الحديث والمجرى الذى سار فيه قد طابا لى كثيراً :

ـ اضحكى يا آنا آندريفنا . اضحكى منى . ضحكك لذة لى . اننى أحب ضحكك يا آنا آندريفنا ان لك موهبة مميِّزة : تصمتين ساكنة وادعة ، ثم اذا أنت تنطلقين فى ضحك ما كان لشىء فى وجهك قبل ثانية واحدة أن ينذر به . عرفت سيدة بموسكو كنت أختلس النظر اليها أحياناً . انها تكاد أن تكون فى مثل جمالك ، ولكنها لا تحسن الضحك ، فكان وجهها ، الذى لا يقل فتنة وسحراً عن وجهك ، يفقد هذه الفتنة وهذا السحر متى ضحكت ، بينا هما يزددان توهجـاً فى وجهك حين تضحكين . اننى منذ مدة طويلة أريد أن أذكر لك هذا .

ولقد مكرت حين نطقت بتلك الجملة عن السيدة التى « تكاد تكون فى مثل جمال » آنا آندريفنا . تظاهرت بأن الجملة أفلتت منى بدون ارادة ، وحتى بدون أن ألاحظ ذلك . كنت أعرف أن مثل هذا المديح الذى يفلت من قائله « افلاتاً » يؤثر فى الممدوح أضعاف تأثير المديح المقصود . ولقد كنت واثقاً بأن آنا آندريفنا سرت رغم الحمرة التى تخضب بها وجهها . والسيدة التى زعمت أنها فى مثل جمال آنا آندريفنا انما كانت من تلفيق خيالى : فاننى ما عرفت فى يوم من الأيام سيدة كهذه السيدة بموسكو . وما كان ذلك منى الا بقصد ازجاء المديح لآنا آندريفنا ، وبعث المسرة فى قبلها .

قالت وهى تبتسم ابتسامة لطيفة :

ـ يتراءى للمرء أنك فى هذه الأيام خاضع لتأثير امرأة جميلة...

فأحسست أننى أطير ... وكدت أن أبوح لهما .. لكننى سيطرت على نفسى وأمسكت عن الكلام .

ـ بالمناسبة ، لقد قلت منذ قليل عبارة قاسية فى حق كاترين نيقولايفنا .

فقدحت عيناى شرراً ، وانبريت أجيب قائلاً :

ـ لقد أسأت التعبير ... وانما يرجع ذلك الى تلك النميمة الخبيثة التى تزعم أن كاترين نيقولايفنا تناصب آندرة بتروفتش العداء . وهم يتجنون عليه أيضاً ، ويقولون فيه النمائم اذ يزعمون أنه أحبها وعرض عليها عروضاً ويزعمون أموراً أخرى أيضاً . وليست هذه النميمة أخبث من تلك النميمة الثانية التى تزعم أنها عرضت على الأمير سرجى بتروفتش ، أثناء حياة زوجها ، أن تتزوجه متى ترملت ، ثم لم تف بوعودها . اننى أعلم علم اليقين أن هذا كذب وافتئات ، وأن الأمر كله لم يكن الا مزاحاً ؛ ففى ذات مرة ، قالت للأمير أثناء لحظة مرح فى الخارج : « ربما فى المستقبل » . ولكن كان هذا كلاماً فى الهواء ؟ وأنا أعلم حق العلم أن الأمير من جهته لا يمكن أن يصدق مثل هذا الوعد .

ثم استدركت أضيف :

ـ ولا هو اهتم بأن يصدقه .

وأضفت أدسّ بمكرٍ قولى :

ـ أظن أن فى ذهنه أفكاراً أخرى . صدقانى اذا قلت لكما انه ، حين حدثه ناشتشوكين فى بيته منذ قليل عن أن كاترين نيقولايفنا قد تتزوج البارون بيورنج ، استقبل النبأ أحسن استقبال .

هنا سألتْ آنا آندريفنا قائلة برصانة يخالطها نوع من الدهشة :

ـ ناشتشوكين ؟ ناشتشوكين كان عنده ؟

ـ نعم ، ناشتشوكين نفســه • انه واحد من أولئك الرجال الذين يوحون بالاحترام و •••

ـ وناشتشوكين هو الذى كلمها عن هذا الزواج من بيورنيج ؟

كذلك تابعت آنا آندريفنــا أسئلتهــا وقد استيقظ اهتمامها فجــأة فقلت :

ـ عن الزواج ، لا ؛ بل هو كلمها عن امكان الزواج ، عن شائعة قال انها تروج فى المجتمع • أما أنا فاننى مقتنع بأنها حكاية ملفقة !

ففكرت آنا آندريفنا ثم عكفت على شغلها •

وأضفت أقول بحماسة مباغتة :

ـ اننى أحب الأمير سرجى بتروفتش • صحيح أن له عيوبه ؛ فهذا أمر لا يمكن نكرانه وقد سبق أن كلمتك عنه ••• انه محدود الأفكار•• ولكن ألا تشهد له هذه العيوب نفسها بأنه امرؤ نبيل النفس ؟ فى هــذا اليوم مثلاً كدنا أن نتشاجر من أجل فكرة : هو مقتنع بأن على المرء اذا أراد الكلام عن النبل أن يكون هو نفسه نبيلاً ، والا فان كل ما يقوله كذب • فهل هذا الكلام منطقى ؟ لا ••• ولكنه يشهد لقائله بأنه شديد المطالب فيما يتعلق بالنبل والواجب والعدالة • ألست على حق ؟

وهتفت فجأة أقول وقد وقعت عينى مصادفة على الساعة الموضوعة فوق المدفأة :

ـ آ ••• كم الساعة ؟

فقالت آنا آندريفنا بهدوء بعد أن نظرت الى الساعة :

ـ الثالثة الا عشر دقائق •

وكانت طول مدة حديثي عن الأمير تصغي الى كلامي خافضة عينيها ، معبرة عن شيء من سخرية ماكرة لكنها لطيفة : لقد كانت تعرف لماذا أمدحه هذا المديح كله • وكانت ليزا تنصت مائلة على شغلها ، ولكنها أصبحت لا تشارك في الحديث منذ مدة طويلة •

انتفضت مودّعاً كمن أصابة حرق • فقالت آندره آندريفنا تسألني :

ـ أأنت مستعجل ؟

ـ نعم •• لا •• بل أنا مستعجل ، هذا صحيح • ولكن لحظة يا آنا آندريفنا •••

كذلك بدأت أقول منفعلاً انفعالاً شديداً وتابعت كلامي :

ـ كلمة واحدة يا آنا آندريفنا ••• لا أستطيع أن لا أقول لك اليوم ما أريد قوله ! أريد أن أعترف لك بأنني قد باركت مراراً ما أظهرته لي من طيبة ولطف اذ دعوتني الى زيارتك •• وقد أحسنت الىّ هذه العلاقات التي قامت بيننا احساناً كبيراً • انني هنا أتطهر من أدراني ، فأخرج من عندك وأنا خير ما كنت قبل أن أجيء • هذا صحيح • حين أكون الى جانبك لا أستطيع أن أقول سوءاً ، بل لا أستطيع حتى أن تراودني أفكار سيئة • فالأفكار السيئة تتلاشى من ذهني متى رأيتني معك • فاذا برقت في خيالي ذكرى سيئة وأنا بقربك ، احمر وجهي فوراً وخجلت من نفسي • ولقد سرني مسرة خاصة في هذا اليوم أن أجد أختي عندك • ان هذا يدل على كثير من النبل فيك ••• انه يدل على عاطفة جميلة ••• الخلاصة : لقد قلت أشياء « أخوية » جداً ، اذا سمحت لي أخيراً أن أحطم الجليد ، وأن ••

كانت آنا آندريفنا أثناء كلامي قد نهضت من مكانها ، وأخذ وجهها يحمر مزيداً من الاحمرار شيئاً بعد شيء • وها هي ذي ترتاع فجأة

كأن لكل شيء حدوداً ما ينبغي تجاوزها ، وتسرع الى مقاطعتي قائلة :

ـ ثق أنني سأقدر عواطفك بكل قلبي ••• ولقد كنت أفهم حتى قبل أن أسمع كلامك ••• منذ مدة طويلة •••

وقطعت كلامهـــا مضطـربة وهي تصـافحني مودعــة • وسرعان ما أدركتني ليزا في الغرفة الأخرى •

٤

قلت أسأل ليزا :

ـ ليزا ، لماذا شددتني من كمي ؟

ـ انها شريرة ، انها ماكرة ، انها لا تستحق • انها لا تحرص عليك الا لتستدرجك الى الكلام •

كذلك أسرت اليّ ليزا بهمس سريع مبغض حاقد • لم أرَ لليزا هيئة كهذه الهيئة في يوم من الأيام • قلت :

ـ ما هذا الذى تقولينه يا ليزا ؟ انها فتاة عذبة جداً !

ـ اذن أنا الشريرة •

ـ ماذا بك يا ليزا ؟

ـ أنا شريرة جداً • ربما كانت أعذب فتاة ، وكنت أنا السيئة الشريرة • هيا ، دعني • اسمع : ان ماما تطلب منك « مالا تستطيع أن تكلمك فيه » • هذه ألفاظها نفسها • يا عزيزي آركادى ، انقطع عن القمار ، اترك القمار يا عزيزى ، أرجوك ؛ أتوسل اليك ••• وماما أيضاً •••

ـ ليزا ، أعلم هذا بنفسى ، ولكن ••• أنا أعلم انني بما فعلته قد برهنت على ضعف في الادارة وخور فى العزيمة ••• ولكن ما هذه الا سخافات عابرة لا أكثر • اسمعى : لقد راكمت على نفسى ديوناً رهيبة كما لا يفعل ذلك الا رجل أحمق ، وانما أريد الآن أن استرد ما خسرته لأدفع تلك الديون • والربح ممكن • كنت حتى الآن أقامر على غير هدى ،

أقامر منقاداً للمصادفة ، أقامر بغباء • أما الآن فلسوف أرتعش خوفاً على كل روبل ألقيه على مائدة القمار ، ولن ألقيه عليها الا بروية وتفكير • لن أكون أنا اذا لم أربح ! ليس القمار عندى هو ملك علىَّ نفسى واستبد بى • ليس القمار بالشيء الأساسى • ما هو الا عرض طارىء • أؤكد لك ذلك ! أنا أقوى من أن لا أكف متى شئت ••• سأرد الديون أولاً ، ثم أكون لكم دون غيركم ، وقولى لماما اننى لن أترككم •••

ـ ما أبهظ الثمن الذى دفعتـه للحصـول على تلك الثلاثمائة روبل ! •••

قلت مرتعشاً :

ـ من أين عرفت هذا ؟

ـ سمعتْ داريا أونيسيموفنا كل شيء •

وفجأة رفعت ليزا ستارة ودفعتنى الى داخل « المصباح » وهو حجرة صغيرة مدورة كلها نوافذ ؛ فما ان أفقت من ذهولى حتى سمعت صـوتاً أعرفه ، وصليل مهماز ؛ ومشية عرفت صاحبها • فهمست أسأل ليزا :

ـ أهو الأمير سرجى ؟

فأجابتنى بهمس أيضاً :

ـ هو نفسه •

ـ لماذا أراك خائفة هذا الخوف كله ؟

ـ هكذا ! لا أريد بحال من الأحوال أن يرانى هنا •

ـ « غريب » ! أتراه يحاول مغازلتك مثلاً ؟ لسوف أريه ••

قلت هذا ضاحكاً ، ثم أردفت أسألها :

ـ الى أين تذهبين ؟

ـ لنخرج . أنا ذاهبة معك .

ـ هل ودعت هناك ؟

ـ نعم ، ومعطفى فى حجرة المدخل .

وخرجنا . وفيما كنا نهبط السلم ساورتنى فكرة ، فقلت :

ـ هل تعلمين يا ليزا ؟ لعله جاء يعرض عليها الزواج .

فأجابت ليزا قائلة بهدوء ولهجة قاطعة ، وصوت خافت :

ـ لا ... لن يعرض عليها .

ـ هل تعلمين يا ليزا ؟ اننى رغم المشاجرة التى وقعت بينى وبينه ـ ما دام قد روى لك كل شىء ـ أحبه حباً صادقاً وأتمنى له النجاح ، أحلف لك . لقد تصالحنا . حين نكون سعداء ، نكون أخياراً . ان فى نفسه أفكاراً نبيلة ، أو قولى على الأقل ان نفسه تربة صالحة لنمو أفكار نبيلة . فاذا أصبح بين يدى فتاة مثل آنا فرسيلوف ، التى تتمتع بقوة الارادة وثبات الجنان وحصافة الرأى ، أمكن أن يكون انساناً طيباً وسعيداً . يؤسفنى اننى مستعجل جداً . ولكننا سنسير بضع خطى معاً . أريد أن أحكى لك .

ـ بل اذهب وحدك . وسأسير أنا فى اتجاه آخر . هل تأتى للغداء ؟

ـ سآتى ، سآتى . هذا وعد . اسمعى يا ليزا . هناك شخص حقير ، بل شخص هو أدنأ المخلوقات طراً ، اسمه ستيبلكوف اذا كنت تعرفينه : ان لهذا الشخص تأثيراً رهيباً وسلطاناً كبيراً على شئون الأمير سرجى وأعماله ... ان لديه سندات مالية ... الخلاصة انه قابض عليه برجليه قبضاً شديداً ، وقد بلغ الأمير من فرط السقوط أن الاثنين كليهما أصبحا لا يريان مخرجاً من المصاعب المالية الا هذا الزواج من آنا آندريفنا .

فيجب تنبيهها تنبيهاً جدياً • هذه سخافات على كل حال • ستتولى ترتيب كل شيء بنفسها فيما بعد • ثم ما رأيك ؟ هل ترفضه ؟

فقاطعتني ليزا قائلة :

ـ الى اللقاء • ليس فى وقتى متسع •

ورأيت فجأة فى نظرتها السريعة الخاطفة كرهاً يبلغ من القوة أننى لم أملك الا أن أصيح مرتاعاً :

ـ ليزا ، عزيزتى ، لماذا ••• ؟

ـ ليس هذا الكره لك • ولكن انقطعْ عن القمار •••

ـ آه ••• أبسبب القمار ؟ فلن أقامر اذن ، انتهى !

ـ قلت منذ هنيهة : « حين نكون سعداء » • فهل أنت « سـعيد » جـداً ؟

ـ سعيد سعادة هائلة يا ليزا ! سعادة هائلة ! آه ••• رباه •• الساعة بلغت الثالثة ، بل تجاوزتها ! استودعك الله يا صـغيرتى العزيزة ليزا • قولى يا ليزا ، يا عزيزتى ، هل يسـتطيع المرء أن يدع امرأة تنتظره ؟ أيجوز هذا ؟

ـ أنت على موعد ؟

ألقت على هذا السؤال وهى تبتسم ابتسامة خفيفة ، ابتسامة وُلدت على شفتيها ميتة ، ابتسامة راعشة مختلجة • قلت لها :

ـ ناولينى يدك لتجلب لى الحظ !

ـ لتجلب لك الحظ ؟ يدى ؟ يستحيل أن أفعل بحال من الأحوال !

وابتعدت مسرعة • وقد أطلقت تلك الصرخة جادة كل الجـد ! وارتميت على عربتى فركبتها •

نعم ، نعم ، ان تلك « السعادة » هى التى جعلتنى ، كالخلد الأعمى، لا أدرك شيئاً ولا أرى الا نفسى !

الفصل الرابع

١

أشعر اليوم حتى بخوف من سرد القصة . كل ما سأرويه قد أصبح قديماً . ولكن ذلك كله ما يزال الى هذه الساعة يبدو لى أشبه بسراب . كيف أمكن أن تضرب امرأة مثلها « موعداً » لصبي تافه كالصبى الذى كنته فى ذلك الأوان ؟ ذلك ما يبدو فى الوهلة الأولى أنه حدث !

بعد أن تركت ليزا ، وابتعدت مسرعاً ، خفق قلبى ، وتصورت أننى فقدت عقلى حقاً : ان فكرة « موعد » تضربه لى هذه المرأة قد بدت لى مستحيلة استحالة صارخة على حين فجأة ، فلا سبيل الى تصديقها . ومع ذلك كان لا يساورنى أى شك فيها . أكثر من هذا أن تصديقى الفكرة كان على قدر قوة استحالتها ، فكلما بدت لى استحالتها أقوى ، كان تصديقى لها أكبر .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة قليلاً ، فكان هذا ما يقلقنى : «مادام هناك موعد ، فكيف يمكن أن أصل متأخراً ! » . وعرضت لذهنى أسئلة

غبية من نوع هذا السؤال : « أيهما أفضل : الجسارة أم الخجل ؟ » . ولكن ذلك كله كان يمضي عابراً . أما الشيء الأساسي فهو يمكث في قلبي ، وهو ما لم أستطع أن أحدده .

لقد قالت بالأمس : « غداً ، في الساعة الثالثة ، سأكون عند تاتيانا بافلوفنا » . ذلك كل شيء . فاليكم الأسئلة التي كانت تهمي على فكري . اولاً : لقد كانت تستقبلني في شقتها دائماً على انفراد ، وكانت تستطيع أن تقول لي كل ما تريد دون أن تنتقل الى بيت تاتيانا بافلوفنا . فلماذا تحدد في هذه المرة مكاناً آخر هو بيت تاتيانا بافلوفنا ؟ ثانياً : اذا كان الأمر أمر « موعد » ، فيجب أن لا تكون تاتيانا بافلوفنا في بيتها ، فكيف السبيل الى حملها على الغياب عن البيت بدون أن يشرح لها كل شيء سلفاً ؟ هل يكون معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا مطلعة على السر ؟ كان هذا يبدو لي أمراً لا يمكن تصوره ، كان يبدو لي مفتقراً الى الحياء بل خالياً من الحشمة .

ثالثاً وأخيراً : لعل الأمر كله لا يزيد على أنها تنتوي زيارة تاتيانا بافلوفنا ، فأبلغتني رغبتها أمس بدون أي هدف آخر ، فطفقت أنا أتصور وراء ذلك أشياء لا وجود لها . لقد قالت ما قالته عرضاً ، وقالته باهمال ، وقالته بهدوء ، وقالته بعد جلسة مملة جداً ، لأنني طوال الوقت الذي مكثته عندها كنت مضطرباً ، فأنا جامد في مكاني أجمجم بكلام مشوش ، ولا أعرف ماذا أقول ، وكانت هي ــ كما اتضح ذلك فيما بعد ــ تتهيأ للخروج ، فكان يسرها أن تراني أنصرف . تلك الأفكار كلها كانت تغلي وتفور في رأسي ! وعزمت أمري أخيراً ، قائلاً لنفسي : « سأذهب الى هناك ، وأقرع الجرس ، فتفتح لي الطباخة ، فأسأل هل تاتيانا بافلوفنا في البيت ؟ فان لم تكن تاتيانا بافلوفنا في البيت كان معنى ذلك أن الأمر أمر « موعد » حقاً . ولكن لم يكن يساورني أيسر شك ، لم يكن يساورني أي شك .

صعدت راكضاً • وهناك ، على فسحة السلم ، أمام الباب تبدَّد كل رعبي • قلت لنفسي : « هيا ، ليحدث أي شيء ، فانما المهم أن أعرف حقيقة الأمر بأقصى سرعة ! » • وفتحت الطباخة الباب • وبصوتها الأخن وبرودتها الكريهة قالت ان تاتيانا بافلوفنا ليست بالبيت • « وليس بالبيت أحد آخر ؟ ألا ينتظر أحد تاتيانا بافلوفنا ؟ » • لقد أردت أن ألقي عليها هذا السؤال ؛ ولكنني لم أفعل ؛ وانما قلت محدثاً نفسي : « سأرى بعيني»• وجمجمت أقول للطباخة انني سأنتظر تاتيانا بافلوفنا ، وخلعت معطفي ، وفتحت الباب •

كانت كاترين نيقولايفنا جالسة أمام النافذة « تنتظر تاتيانا بافلوفنا »• فما ان رأتني حتى بادرت تسألني مهمومة قلقة :

ـ أهي اذن غائبة ؟

وكان صوتها ووجهها لا يتفقان وما كنت أتوقع ، فجمدت في العتبة• وتمتمت أسألها :

ـ من هي ؟

ـ تاتيانا بافلوفنا ! لقد رجوتك أمس أن تبلغها أنني سأجيء اليها في الساعة الثالثة •

ـ أنا ••• ما رأيتها •

ـ هل نسيت ؟

جلست كمن حكم عليه بالاعدام هذا هو الأمر اذن : انه واضح وضوح النهار ! ومع ذلك لم أستسلم • قلت أقاطعها نافد الصبر :

ـ لا أذكر أنك رجوتني أن أبلغها شيئاً • انك لم تطلبي مني شيئاً: كل ما قلته لي هو أنك ستكونين ببيتها في الساعة الثالثة •

ولم أكن أنظر اليها وأنا أقول هذا الكلام •

فهتفت تقول فجأة :

ـ اذا كنت قد نسيت أن تبلغها ، واذا كنت تعرف أنني سأكون هنا فلماذا جئت اذن ؟

فرفعت رأسى ، ونظرت اليها ، فلم أر في وجههـا لا سـخرية ولا غضباً ، وانما رأيت ابتسامة مضيئة مرحة ، ورأيت ذلك المكر الذى يشبه أن يكون مكر طفل ، والذى يعبر عنه وجهها دائماً ، فكأن هيئتها كانت تقول : « ها قد غلبتك ، فما عساك قائلاً الآن » •

لم أشأ أن أجيب ، وخفضت عينى • ودام هـذا الصمت نصف دقيقة • ثم اذا هى تسألنى :

ـ أأنت قادم من عند بابا ؟

قلت :

ـ بل من عند آنا آندريفنا • لم أكن عند الأمير نيقولا ايفانوفتش••

ثم أضفت :

ـ ولقد كنت تعلمين هذا حق العلم !

ـ ألم يحدث لك شيء عند آنا آندريفنا ؟

ـ أتقصدين أن هيئتى هيئة مجنون ؟ لقد كانت هيئتى هيئة مجنون من قبل أن أذهب الى آنا آندريفنا •

ـ فهل استرددت عندها شيئاً من عقلك ؟

ـ لا • وانما علمت هناك أنك ستتزوجين البارون بيورنج •

فظهرت عليها علائم الاهتمام فجأة ، وسألتنى •

ـ أهى التى قالت لك هذا ؟

ـ بل أنا الذى أعلمتها به ، لأننى سمعت ناشتشوكين يقوله للأمير سرجى بتروفتش •

وما زلت خافضاً عينى لا أنظر اليها • لأن النظر اليها معناه أن أغرق فى الضياء والفرح والسعادة • وأنا لم أشأ أن أكون سعيداً • ثم وخزت الحسرة قلبى ، فاذا أنا أتخذ قراراً ضخماً فى لحظة واحدة • فطفقت أتكلم وأتكلم ، دون أن أعرف ماذا أقول • كنت أختنق ، وأتمتم ،وأتلعثم، ولكننى أصبحت أنظر اليها بجرأة • وكان قلبى يخفق • وقلت جملة لا أدرى ماذا كانت ، جملة لا شأن لها بما نحن فيه ، ولكنها جملة بارعة محكمة • فكانت فى البداية تصغى الى كلامى مبتسمة ابتسامتها الهادئة التى لا تبارح وجهها أبداً ، ولكن الدهشة ثم الارتياع لم يلبثا أن أخذا يبرقان فى نظرتها الساكنة • ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها ، غير أن هذه الابتسامة نفسها أخذت تختلج فى بعض الأحيان •

ورأيتها ترتعش كلها ، فسألتها فجأة :

ـ ماذا بك ؟

فأجابتنى كالمذعورة :

ـ أنا خائفة منك •

ـ فلماذا لا تنصرفين ؟ انك تعلمين أن تاتيانا بافلوفنا غائبة ، ولا شيء يدل على أنها آتية بعد قليل • فما عليك الا أن تنهضى وتنصرفى •

ـ كنت أريد أن أنتظرها ••• أما الآن فالأفضل فعلاً أن •••

قالت ذلك ونهضت نصف نهوض •

فقلت وأنا استوقفها :

ـ لا ، لا • ابقى جالسة • هأنت ذى ترتعشين من جديد • ولكنك ما تزالين فى ذعرك تبتسمين •• ابتسامتك هذه لا تفارقك أبداً ••• وهأنت ذى تبتسمين ابتسامة صريحة كاملة •••

ـ أأنت تهذى ؟

ـ نعم أهذى •

همست تقول مرة أخرى :

ـ أنا خائفة •••

ـ ممّ ؟

فقالت وهى تبتسم أيضاً ، ولكنها مذعورة مع ذلك :

ـ خائفة من أن تخترق الجدار •

قلت :

ـ لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك !

وطفقت أتكلم وأتكلم من جديد • كنت كمن يطير طيراناً • كان شيء ما يدفعنى • لم أكن قد كلمتها قبل الآن على هذا النحو فى يوم من الأيام أبداً ، لأننى كنت شديد الخجل دائماً • أذكر أننى حدثتها عندئذ عن وجهها ، فقلت لها هاتفاً على حين فجأة : «أصبحت لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك • ولقد كنت أتخيلك ، وأنا بموسكو ، رهيبة ، رائعة ، تطلقين الكلام زاخراً بالمكر على عادة أبناء المجتمع الراقى ! ••• نعم ، بموسكو• كنا منذ الحين نتكلم عنك هناك أنا وماريا ايفانوفنا ، ونحاول أن نراك كما لا بد أن تكونى ••• هل تتذكرين ماريا ايفانوفنا ؟ لقد ذهبت اليها مرة • وفى أثناء السفر حلمت بك طول الليل فى القطار • وهنا ، قبل وصولك، ظللت شهراً كاملاً أنظر الى صورتك فى مكتب أبيك ، فلم أستطع أن أحزر شيئاً • ان تعبير وجهك مزيج من مكر طفولى وبساطة لا نهاية لها : ذلك ما يشى به وجهك ! ما رأيت وجهك ! ما رأيت وجهك مرة الا أعجبت به • آه ••• أنت أيضاً تعرفين كيف تصطنعين هيئة التكبر والاستعلاء ، وكيف تجعلين نظرتك ساحقة : اننى أتذكر كيف نظرت الىّ عند أبيك حين وصلت من موسكو •• لقد رأيتك عندئذ ، ومع ذلك لو سألنى أحد عنك بعد ذلك فوراً ، لما استطعت أن أقول له شيئاً فى

وصفك ، بل لما استطعت أن أجيبه بشيء حتى عن قامتك ! ذلك انني ما ان رأيتك حتى صرت أعمى • ان صورتك لا تشبهك البتة : عيناك ليستا قاتمتين بل هما واضحتان ، غير أن أهدابك الطويلة هي التي تلقي عليهما ظلالاً فتبدوان قاتمتين • وانت بدينة الجسم ، ربعة القامة ، ولكن بداتك قوة وخفة ؛ هي بدانة قروية شـابة معافاة • ووجهك أيضاً قروي ؛ انه وجه قروية حسناء • لا تزعلي ، انه لوجه رائع ••• هذا الوجه المستدير المورد الواضح الجسور الضاحك و ••• الخجول ! نعم ، الخجول ! انه خجول يا كاترين نيقولايفنا آخماكوفا ! خجول وعف ، أحلف لك • بل هو أكثر من عف : هو وجه طفلة • ذلك هو وجهـك ! لطالما خطف بصري ، فتساءلت : أهذه هي تلك المرأة نفسها ؟ وأنا أعلم الآن أنك ذكية جداً ، أما في أول الأمر ، فكنت أظنك محدودة الفكر قليلاً • وان لك روحاً فرحة ، ولكن بدون تجمل مصطنع • وأحب فيك أيضـاً ابتسامتك هذه الأبدية : هي جنتي التي عرضها السماوات والأرض ! وأحب أيضاً هدوءك، وعذوبتك ، وحديثك الرصين الهادىء الذي يكاد يكون وانياً • انني أحب هذا الوني • يخيل الي أنك لو هوى تحت قدميك جسر لظللت تتكلمين بهذه اللهجة الرصـينة الموزونة ••• كنت أظنك ذروة التكبر والاهواء الجامحة ، ثم يمضي شهران فلا اسمع منك خلالهما الا حديثـاً كحديث طالب لطالب ••• ولم أتخيل في يوم من الأيام جبهة كهذه الجبهة : انها ضـيقة قليلاً كجباه التماثيل ، لكنها طـرية بيضـاء كالمرمر ، تحت شـعر غزير رائع • وان لك صدراً عالياً ، ومشية مرنة ، وجمالاً خارقاً ؛ لكنك لا تشعرين من ذلك بخيلاء • الآن انما أقتنع بهذا ، وكنت أرفض دائماً أن أصدقه ! » •

أنصتت الى كلامي المستفيض محملقة • وكانت ترى أنني ارتجف• وقد حاولتْ عدة مرات أن تقفني عن الاسترسال في هذا الحديث بحركة رشيقة من يدها الصغيرة المغمودة في قفازها ، ولكنها كانت لا تلبث في كل

مرة أن تسحب يدها مضطربة حائرة متهيبة • حتى لقد كانت تتراجع كلها بحركة سريعة في بعض الأحيان • ومرتين أو ثلاث مرات ، عادت الابتسامة تضيء وجهها • وفي لحظة من اللحظات تخضب خداها بحمرة شديدة ، ولكنها في النهاية خافت فعلاً وشحب لونها • فما كدت أتوقف عن الكلام حتى مدت الي يدها ، وقالت بصوت ضارع مبتهل ، ولكنه ما يزال رصيناً :

ـ ما ينبغي أن يقال هذا ••• لا يجوز للمرء أن يتكلم هكذا ! •••

ونهضت فجأة ، وتناولت شالها و فروتي يديها بغير تعجل • فهتفت أسألها :

ـ أتنصرفين ؟

فأجابت بلهجة فيها حسرة وعتاب :

ـ حتماً • أنا خائفة منك ••• انك تسرف •••

ـ اسمعي ! لن أخترق الأسوار ، أحلف لك •

ـ لكنك بدأت تخترقها •

ولم تستطع أن تكبح نفسها ، فابتسمت • وأضافت تقول :

ـ حتى انني لست واثقة بأنك ستدعني أنصرف •

أظن أنها كانت تخشى حقاً أن أسد عليها طريقها • قلت :

ـ بل سأفتح لك الباب بنفسي ، هيا اذهبي ••• ولكن ••• ألا فاعلمي أنني اتخذت قراراً ضخماً • فاذا كنت تريدين أن تهبي لنفسي ضياء ، فارجعي واجلسي واسمعي مني كلمتين أخريين • واذا لم تريدي ، فانصرفي ، وسأفتح لك الباب بنفسي •

فنظرت الي وعادت تجلس •

فهتفت أقول ثملاً :

ـ لو كنت امرأة أخـرى لخرجت مستاءة أشد الاستياء • ولكنك عدت تجلسين •

ـ انك لم تبح لنفسك أن تقول لى مثل هـذا الكلام فى يوم مـن الأيام •

ـ كنت خجولاً • ومازلت خجولاً • وحين وصلت الى هنا ، كنت لا أعرف ما عسانى أقول • أتظنين أننى أصبحت غير خجول ؟ لا • اننى ما أزال خجولاً • لكننى اتخذت قراراً ضخماً على حين فجأة ، وأحسست أننى سأنفذه • فلما اتخـذت ذلك القرار طاش صـوابى وطفقت أتكلم • اسمعى الكلمتين اللتين أريد أن أقولهما لك : أأنت تتخذيننى جاسـوساً أم لا ؟ أجيبينى ! هذا هو السؤال !

فاحمر وجهها بغتة • واستدركت أقول لها :

ـ لا تجيبى بعد يا كاترين نيقولايفنا • استمرى على الاصغاء ، ثم قولى لى الحقيقة كلها •

لقد قلبت جميـــع الحواجز دفعة واحـــدة ، وأصبحت أطير فى الفضاء •

٢

ـ منذ شهرين ، كنت واقفاً هناك وراء الستارة ، وكنت أنت تتحدثين مع تاتيانا بافلوفنا عن الرسالة • فظهرت لكما ، وأسرفت في الكلام خارجاً عن طوري بغير روية • فأدركت على الفور أنني على علم بشيء ما ••• ولم يكن في وسعك الا أن تدركي ••• كنت تبحثين عن وثيقة هامة ، وتخشين خطرها عليك خشية كبيرة • انتظري يا كاترين نيقولا يفنا ، لا تتكلمي بعد • انني أعلن لك بأن شبهاتك كانت في محلها : فالوثيقة موجودة ••• فقد رأيتها بعيني •• انها رسالتك الى آندرونيكوف، أليس كذلك ؟

فسألتني بسرعة وقد امتلأت نفسها اضطراباً وانفعالاً :

ـ رأيت تلك الرسالة ؟ أين رأيتها ؟

ـ رأيتها ••• رأيتها عند كرافت ••• كرافت الذي انتحر •

ـ حقاً ؟ رأيتها بعينيك ؟ وماذا صارت اليه ؟

ـ مزقها كرافت •

ـ مزقها أمامك ؟ رأيته يمزقها !

ـ مزقها أمامي ، ربما لأنه كان يتنبأ بموته • ولم أكن أعرف أنه سيقتل نفسه بمسدس ••

ـ اذن أتلفها • الحمد لله !

كذلك قالت ببطء ، بعد أن تنفست الصعداء • ثم رسمت اشارة الصليب •

لم أكذب عليها • بل لقد كذبت ، لأن الوثيقة كانت عندى ، ولم تكن عند كرافت فى يوم من الأيام • ولكن ذلك أمر لا قيمة له • وأنا لم أكذب فيما يتعلق بجوهر القضية ، لأننى فى اللحظة التى كذبت فيهـــا قطعت عهداً على نفسى لأحرقنّ تلك الرسالة فى هذا المساء نفسه • ويميناً لو كانت الرسالة فى جيبى حينذاك ، لأخرجتها وناولتها اياها• ولكننى لم أكن أحملها ، وانما كانت فى البيت • وقد لا أعطيها الرسالة مع ذلك لأن من الصعب علىّ أن أعترف لها بأن الرسالة كانت عندى طول هذه المدة فاحتفظت بها ولم أسلمها اليها • ولكن لا فرق : فلقد قررت أن أحرق الرسالة على كل حال ، وأنا اذن لم أكذب ! أقسم لقد كنت صادقاً فى تلك اللحظة •

وتابعت أقول خارجاً عن طورى :

ـ فاذا كان الأمر كذلك ، فأرجو أن تجيبنى عن هذا السـؤال : لماذا جذبتنى اليك ودللتنى واستقبلتنى فى بيتك ؟ أليس لأنك قدّرت اننى على علم بأمر الوثيقة المقلقة ؟ انتظرى يا كاترين نيقولايفنا ، انتظرى دقيقة أخـرى ، لا تتكلمى ؟ أتبيحى لى أن أنهى كلامى : اننى طـوال المدة التى ظللت أزورك فى أثنائها ، كنت أقـدر أنك لا تلاطفيننى ولا تدللينى الا لتستدرجينى الى الكلام عن تلك الرسالة ، ولتجبرينى على الاعتراف ••• انتظرى دقيقة أخرى • كنت أقدر وأشتبه ، ولكنى كنت أتألم وأتعذب • أصبحت لا احتمل منك هـــذا الرياء ••• ذلك أننى اكتشفت أنك بين سائر مخلوقات الله أنبلها نفساً ! أقول لك بصراحـــة ، نعم ، أقول لك بصراحة : اننى كنت عدوك ، ولكننى وجدت أنك أنبل مخلوقات الله ، فغلبتنى دفعة واحدة • ولكن الرياء ••• أقصـــد شـــبهة الرياء كانت ترهقنى ••• فيجب الآن أن يتقرر كل شىء ، أن يتوضح كل شىء • لقد حان الوقت • ولكن انتظرى قليلاً ، لا تتكلمى ، واعرفى كيف أنظر أنا الى هذا كله الآن ، فى اللحظة الراهنة : اذا كانت الأمور قد جرت على

هذا النحو فلن أغضب ، بل أقصد : لن أستاء ، لأن هذا طبيعي . انني ادرك ذلك حق الادراك . اى شيء في هذا يخالف الطبيعة أو يتصف بأنه شر ؟ الوثيقة تعذبك وتقلقك ، وأنت تقدرين أن فلاناً من الناس على علم بكل شيء ، فمن حقك أن تتمنى أن يتكلم فلان هذا ... ليس في هذا شر ؛ ليس فيه أي شر . انني أتكلم صادقاً كل الصدق . ومع ذلك يجب أن تقولي لي الآن شيئاً ... يجب أن تعترفي (اغفري لي استعمال هذه الكلمة) . انني في حاجة الى معرفة الحقيقة ، في حاجة ماسة الى معرفة الحقيقة ! فقولي لي : هل من أجل أن تستدرجيني الى الكلام عن تلك الوثيقة انما لاطفتني ودالمتني ... يا كاترين نيقولايفنا ؟

كنت أتكلم ولا أستطيع التوقف عن الكلام ، وكان جبيني يحترق احتراقاً . وكانت تصغي الىّ الآن بغير قلق ، حتى ان هيئتها كانت تنم عن عاطفة . ولكن نظرتها كانت تشتمل على خجل ، ربما من شعورها بشيء من العار .

ثم قالت بصوت بطيء خافت :

ـ نعم من أجل ذلك .

وأضافت تقول فجأة وهي ترفع الىّ يديها قليلاً .

ـ سامحني ، أخطأت .

لم أكن أتوقع هذا . توقعت كل شيء الا هاتين الكلمتين ، حتى منها هي التي كنت أعرفها الآن . صحت أقول :

ـ وتقولين « أخطأت » ؟ بكل هدوء تقولين « أخطأت » ؟

ـ اني لأشعر بأخطائي في حقك منذ مدة طويلة ... ويسعدني اليوم أن يكون كل شيء قد توضح ..

ـ منذ مدة طويلة ؟ فلماذا لم تقولي ذلك في حينه ؟

فابتسمت وقالت :

ـ ذلك أننى كنت لا أعرف كيف أقوله •

وابتسمت مرة أخرى وأضافت تقول مستدركة :

ـ أو قل كان فى امكانى أن أعرف ••• لكننى كنت أشعر بعذاب الضمير ••• لأننى ، كما تقول ، لم « أجذبك » فى أول الأمر الا من أجل ذلك الهـــدف ، ثم ألبث أن أحسست أنا باشمئزاز ••• وسئمت ذلك الزيف كله ••• أؤكد لك ! وسئمت تلك الارتباكات كلها •••

أضافت ذلك بلهجة تنم عن مرارة •

قلت :

ـ لماذا ، لماذا لم تسأليني صراحة ؟ كان فى وســعك أن تقولى لى : « أنت تعرف أمــر الرسالة ، فعــلام التظاهر ؟ » • فلو ألقيت علىّ ذلك السؤال لاعترفت لك فوراً بكل شىء !

ـ كنت ••• كنت خائفة منك بعض الخوف • بل يجب أن أعترف بأننى كنت أثق بك • ثم لقد مكرت أنا ومكرت أنت !

قالت هذه الجملة الأخيرة وهى تضحك • فهتفت أقول مصعوقاً :

ـ نعم نعم ، لقد كنت دنيئاً • آه ••• انك لا تعرفين عمق الهـــوة التى سقطت فيها !

ـ هأنت تعود الى الكلام عن الهـــوة التى سقطت فيها ، والدرك الأسفل الذى انحدرت اليه ••• اننى أعرف أسلوبك !

وابتسمت ابتسامة رقيقة ، ثم أضافت تقول بحزن :

ـ ان تلك الرسالة هى من حوادث حياتى أبعثها على الحزن ، وهى من أفعالى أكثرها خفة وطيشاً • لطالمــا أنبنى ضميرى على كتابتها • اننى

بتأثير الظروف وتأثير مخاوفي قد شككت في أبي العزيز الشهم • واذ قدرت أن هذه الرسالة يمكن أن تقع بين أيدي أناس أشرار ••• ومن حقي أن أقدر هذا (قالت ذلك بحرارة) ، فقد ارتعدت خـــوفاً من أن يستخدموها وأن يطلعوا عليها بابا ••• وكان يمكن أن يؤثر ذلك في صحته تأثيراً شديداً بسبب حالته التي هو فيها ، فاذا هو يكرهني •••

ثم أضافت تقول وقد حدقت في عيني فلاحظت في نظرتي بعض الالتماع في أغلب الظن :

ـ نعم ••• وخفت أيضاً على نفسي •• خفت أن يحمله مرضـــه على أن يحرمني من أرزاقه ••• كان هذا الشعور ماثلاً هو أيضاً • ولكن لا شك أنني كنت هنا مخطئة في حقه : فهو أطيب قلباً وأكرم نفساً من أن لا يغفر لي • ذلك كل ما حدث • أما عن سلوكي معك ، فما كان ينبغي لي أن أتصرف كما تصرفت ! انني أشعر الآن بخزي •

بذلك ختمت كلامها وقد اعتراها خجل مباغت • فهتفت أقول :

ـ لا ، ليس لك أن تشعري بخزي •

ـ لقد عوّلت فعلاً على حرارة اندفاعك ، أعترف بذلك •

قالت هذا وهي تخفض عينيها •

فهتفت أقول كالسكران :

ـ كاترين نيقولايفنا ، من ذا يجبرك على مثل هذه الاعترافات ؟ ماذا كان يكلفك من جهد أن تنهضي فتبرهني لي بألفاظ منتقاة أنه كان ثمة شيء ما فعلاً ، ولكن هذا الشيء لا قيمة له ••• كما يجيد أن يفعل ذلك أبناء مجتمعك الراقي في مواجهــة الحقيقة ؟ انني امرؤ غبي بليد ، فلو فعلت ذلك لصــدقتك على الفور ، ولصــدقت كل ما قد تقولينه لي ! ماذا كان يكلفك من جهد أن تفعلي هذا ؟ ولم تكوني خائفة مني مع ذلك ، فكيف ارتضيت أن تخفضي قيمتك أمام دساس حقير ، ومراهق تافه ؟

فقالت بوقار شديد ، لأنها لم تدرك تعجبى فى أغلب الظن :

ـ أنا لم أخفض قيمتى أمامك ، لأننى قلت الحقيقة على الأقل •

ـ بالعكس ، بالعكس • ان هذا بعينه هو ما أعترض عليه •

صاحت تقول وهى تحمل يدها الى وجهها كأنما لتخفيه بها :

ـ كان هذا منى شراً وا أسفاه ! كان طيشاً وقبحاً ! وأمس كنت أشعر بالخزى ؛ فلذلك كنت سيئة الحـــال شديدة الانزعاج حين جئت تزورنى •

ثم أضافت تقول :

ـ والواقع أن الظـروف توجب علىّ حتمـاً أن أعـرف الحقيقة كاملة عن مصـير تلك الرسـالة المشئومة ، ومع ذلك كنت قد أخـذت أنساها ••• فكنت استقبلك فى بيتى لا بسبب تلك الرسالة وحدها •••

أضافت هذه الجملة الأخيرة بغتة • فوجف قلبى • وتابعت كلامهـــا فقالت :

ـ نعم ، لم أكن أستقبلك بسبب تلك الرسالة وحدها •• لا •• حتماً •• اننى ••

وألمت بشفتيها ابتسامة رقيقة • وأردفت قائلة :

ـ اننى •• لقد عبرتَ أنت عن هـــذا منـــذ قليـــل يا آركادى ماكاروفتش •• فذكرتَ أننا كثيراً ما نتحدث كما يحدِّث طالب طالبة • أؤكد لك أننى فى كثير من الأحيان أشعر فى المجتمع بضجر وسأم ، ولا سيما بعد اقامتى فى الخارج ، وبعد تلك المصائب العائلية كلها ••• حتى لقد أصبحت لا أخرج كثيراً ، وليس هذا عن كسل منى • وكثيراً ما أتمنى أن أعتزل فى الريف ، فأعيد هناك قراءة كتبى المفضلة التى هجرتها منذ زمن طويل ، والتى لا أتمكن من اعادة قراءتها هنا • على أننى قد قلت

لك هـذا كه من قبـل • انك تتذكر ذلك • حتى ضـحكتَ لأننى أقرأ الجرائد الروسية ، بمعدل جريدتين فى اليوم ، أليس كذلك ؟

ـ لا ، لم أضحك •••

ـ ربما لأنك كنت أنت أيضاً تتأثر • لقد اعترفت لك منـذ مدة طويلة بأننى روسية ، وبأننى أحب روسيا • تتذكر أننا كنا نشترك دائماً فى قراءة « الوقائع » كما كنت تسميها (وابتسمت) • ورغم أنك كنت فى كثير من الأحيان ••• غريباً متفرداً بعض الشىء ، فقد كنت فى أحيان أخرى تتحمس فتعرف كيف تقول كلمة حق ، وكنت تهتم بنفس الأشياء التى كنت أهتم بها أنا • انك لطيف وأنيس وأصيل متى كنت «طالباً» • أما الأدوار الأخرى فلا تلائمك كما يلائمك دور الطالب •

أضافت هذه الجملة الأخيرة وهى تبتسم ابتسـامة حلوة فيها مكر محبب • واستطردت تقول :

ـ تتذكر أننا كنا فى بعض الأحيان نقضى ساعات كاملة فى الاهتمام بالأرقام فنحسب ونقيس ، نحصى عدد المدارس فى بلادنا ، ونتساءل عن تطور التعليم وما يقود اليه ؟ وننظر فى عدد جرائم القتل ، وجرائم السطو ، ونقارن ذلك كله بالأنباء السارة ••• كنا نحاول أن نعرف أين يتجه هذا كله ، وما الذى سنصير اليه آخر الأمر • ووجدت فيك الصدق • ان الرجال فى المجتمع الراقى لا يخاطبوننا بهذه اللغة نحن معشر النساء • كنت فى الأسـبوع الماضى أكلم الأمير « ••• سوف » عن بسـمارك ، لأننى شـديدة الاهتمام ببسـمارك ، وكنت لا أعرف ماذا يجب أن يكون رأيى فيه • فهل تتصـور ما فعله الأمير ؟ جلس الى جانبى ، وطفق يقص علىّ حكايات شتى مسرفاً فى ذكر التفاصيل ، وكان فى كلامه كله نوع من سخرية ، وكان فى كلامه ذلك النوع من التواضع والتنازل الذى يصطنعه « كبار الرجال » فى العادة حين يكلموننا نحن النساء اذا « تدخلنا

فيما لا يعنينا » • لقد أصبحت لا أطيق هذا التواضع المصطنع الزائف • هل تتذكر كم من مرة أوشكنا أن نتشاجر فى كلامنا عن بسمارك ؟ كنت تريد أن تبرهن لى على أن لك « فكرة أعلى كثيراً » من فكرة بسمارك •

قالت هذا وضحكت فجأة • واستطردت تقول :

ـ ما رأيت فى حياتى الا رجلين اثنين كلمانى جادين حقاً ؛ فأما الأول فهو المرحوم زوجى الذى كان رجلاً ذكياً ، ذكياً جداً ••• وكانت نفسه تزخر نبلاً (قالت هذا بلهجة مؤثرة) ، وأما الثانى فانك تعرف•••

فهتفت أقول لاهثاً :

ـ فرسيلوف ؟

ـ نعم • كنت أحب كثيراً أن أسمعه • وقد أصبحت فى النهاية••• صريحة معه كل الصراحة ، بل لعلنى أسرفت فى هذه الصراحة ، غير أنه أصبح عندئذ لا يصدقنى •

ـ لا يصدقك ؟

ـ وما صدقنى أحد فى يوم من الأيام على كل حال •

ـ ولكن فرسيلوف ! فرسيلوف !

قالت وهى تخفض عينيها وتبتسم ابتساماً غريباً :

ـ لم يقتصر على أن لا يصدقنى ، بل قرر جازماً أننى « أتصف بجميع العيوب » •

ـ ليس فيك عيب واحد •

ـ بل ان لى بعض العيوب ، أنا أيضاً •

هتفت أقول وقد سطعت عيناى :

ـ كان فرسيلوف لا يحبك ، فلذلك لم يفهمك •

فتغير شيء ما في وجهها وقالت بحرارة والحاح شديد :

ـ دع هذا الأمر ، ولا تكلمني أبداً عن هذا ••• عن هذا الرجل • ولكن كفى ، لقد حان الوقت •••

ونهضت لتنصرف قائلة لي وهي تحدق في تحديقاً صريحاً :

ـ فماذا ؟ أتغفر لي أم ؟

ـ أنا ؟ أغفر لك ؟ اسمعي يا كاترين نيقولايفنا ، ولا تغضبي : هل صحيح أنك ستتزوجين ؟

فقالت مضطربة ، كالمرتاعة :

ـ لم يتقرر الأمر بعد •

ـ أهو رجل طيب ؟ معذرة ، اغفري لي هذا السؤال •

ـ نعم ، هو طيب جداً •••

ـ لا تجيبي بعد الآن ، لا تنعمي عليّ بأن جواب • أنا أعلم أن هذه الأسئلة مستحيلة حين ألقيها أنا ! وقد أردت أن أعرف أهو جدير أم لا • ولكنني سأعرف منه بنفسي •

قالت مرتاعة :

ـ لا ••• اسمع !

ـ طيب ، طيب ••• سأمتنع ، سأمتنع ، سأصرف النظر عن هـذا الأمر • ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك : أسـأل الله أن يهيىء لك جميع أنواع السعادة ، جميع أنواع السعادة التي تمنيتها ••• جزاء ما وهبت لي من سعادة في هذه الساعة القصيرة ! ان ذكراك قد نقشت الآن في نفسي الى الأبد • لقد كسبت كنزاً عظيماً هو فكرة الكمال هذه التي تجسدينها • كنت أقدر فيك خداعاً وغنجاً زائفاً ، فكنت من ذلك شقياً ••• لأنني لم أستطع أن أوفق بين هذا الاشتباه وبين ما أراه فيك • وأصبحت في الأيام

الأخيرة أفكر في هذا الأمر ليلاً ونهاراً . أما الآن فقد وضح لي كل شيء وضوحاً تاماً ! حين كنت آتياً الى هنا كنت أتصور أن ألقى نفاقاً ومكراً ، وحية لائبة ، فاذا أنا أجد سعادة ، وعظمة ... اذا أنا ألقى طالبة ! ... أتضحكين ؟ اضحكي ! ولكنك قديسة ، فلا يمكنك أن تضحكي مما هو مقدس ...

ـ أنا لا أضحك الا لأنك تستعمل تعابير رهيبة . فما هي هذه «الحية اللائبة» التي ذكرتها ؟

وانفجرت تضحك . ولكنني تابعت كلامي متحمساً أقول :

ـ لقد أفلتت منك اليوم كلمة ثمينة . كيف أمكنك أن تقولي انك كنت تعوّلين على « حرارة اندفاعي » ؟ صحيح أنك قديسة ، وأنت نفسك تقرّين بهذا ما دمت تتخيلين أنك ارتكبت ذنوباً تريدين التكفير عنها ... مع أنه ليس ثمة ذنب في الواقع ، لأن كل ما يصدر عنك فهو مقدس ولأنه لا شيء يمكن أن يلطخك . ولكن كان في امكانك مع ذلك أن لا تنطقي بذلك التعبير .

واستطردت أقول صائحاً مشوشاً :

ـ ان هذه الصراحة التي ليست أمراً مألوفاً انما تدل على عفتك العظمى ، وعلى ما تضمرينه لي من احترام وعلى ما تحسينه من ثقة بي . لا تحمري لا تحمري ... من ذا الذي تقوّل عليك فزعم أنك امرأة جامحة الهوى ؟ آه ... اغفري لي ... انني أرى في وجهك تعبيراً عن ألم ! اغفري لمراهق مندفع عباراته الخرقاء ! ولكن هل الأمر اليوم أمر عبارات ، أمر تعابير ؟ ألست فوق كل التعابير ؟ قال فرسيلوف يوماً : لئن قتل عطيل ديمونة ثم قتل نفسه ، فانه لم يفعل ذلك عن غيرة ، وانما فعله لأنه سُلب مثله الأعلى . انني أفهم اليوم هذا الكلام ، بعد أن رُدّ الي مثلي الأعلى !

قالت بعاطفة :

ـ انك تسرف في مدحي : أنا لا أستحق هذا المدح !

ثم أضافت تقول مازحة :

ـ هل تذكر ما كنت أقوله عن عينيك ؟

ـ كنت تقولين عنهما انهما مجهران ، وانني أرى الذبابة جملاً ! لا ، لا ، انني لا أضخم الأمور الآن ... ماذا ؟ أتنصرفين ؟

كانت في وسط الغرفة تحمل شالها وفروتي يديها ، فأجابتني تقول :

ـ بل سأنتظر أن تنصرف أنت ، ثم أمضي بعدك . عليَّ أن أكتب كلمتين لتاتيانا بافلوفنا .

ـ أنا منصرف ، أنا منصرف ، ولكن اليك كلمتين أخريين : أرجو لك السعادة ، وحيدة أو مع من تختارين ! أما أنا فلست في حاجة الا الى مثلي الأعلى .

ـ عزيزي ، عزيزي الطيب آركادي ماكاروفتش ، صدق أنني سأفكر فيك . ان أبي يصفك دائماً « بالفتى اللطيف ، الطيب » . صدق أنني سأتذكر دائماً ما رويته لي عن الصبي الصغير المسكين الذي تُرك عند غرباء ، وما رويته لي عن أحلامه في عزلته . انني لأفهم كيف تكونت نفسك فهماً واضحاً كل الوضوح .

ثم أضافت تقول وهي تبتسم ابتسامة ضارعة زاخرة بالحياء والخفر ، وتشد على يدي مصافحة :

ـ ولكن لا يجوز لنا بعد اليوم أن نلتقي كما كنا نلتقي ، مهما نكن طالبين ... و ... هل تفهم ما ذا أريد أن أقول ؟

ـ لا يجوز ؟

ـ لا ، لا يجوز . وسيستمر ذلك مدة طويلة ... هذا ذنبي أنا . انني أرى أن اجتماعنا بعد الآن مستحيل استحالة مطلقة . على أننا سوف نلتقي أحياناً عند بابا ...

ـ أتخشين حرارة اندفاعي وحميا عواطفي ؟ ألا تثقين بي ؟

أردت أن أهتف ملقياً عليها هذا السؤال ، ولكنها بلغت من شدة الخجل أما في تلك اللحظة فان الألفاظ لم تخرج من حلقي .

وتوقفت فجأة بقرب الباب وقالت تسألني :

ـ قل لي : هل رأيت ... بعينيك ... أن تلك الرسالة قد تم تمزيقها ؟ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً ؟ وكيف عرفت أن الورقة التي تم تمزيقها هي نفسها رسالتي الى آندرونيكوف »

ـ حدثني كرافت عن مضمونها ، بل أطلعني عليها ... استودعك الله ! كنت اذا جئت اليك أفقد كل شجاعة ، فاذا خرجت لحظة هممت أن أقبل الموضع الذي وطأته بقدميك من الأرض .

قلت هذا الكلام الأخير لا أدري كيف ولا لماذا . ثم خرجت بسرعة دون أن أنظر اليها .

أسرعت الى بيتي . كانت نفسي مترعة بحماسة شديدة وافتتان قوي . وكان كل شيء يعصف في خاطري كزوبعة . وكان قلبي زاخراً مفعماً . فلما اقتربت من منزل أمي تذكرت فجأة ما رأيته في ليزا من التنكر لجميل آنا آندريفنا ، وتذكرت الكلمة القاسية الرهيبة التي قالتها في حقها منذ قليل ، فشعرت بقلبي ينسحق ألماً لهما كليتهما ! « ما أقسى قلوبهن جميعاً ! ولكن ليزا ما بالها ؟ » . كذلك تساءلت وأنا أضع قدمي على درج الباب .

وصرفت ماتفئي ، بعد أن أمرته بأن يعود الى في الساعة التاسعة .

الفصل الخامس

١

وصلت متأخراً عن موعد الغداء ، ولكنهم لم يكونوا قد جلسوا الى المائدة : كانوا ينتظرونني • وقد أعدوا للغداء ألواناً من الطعام اضافية ، ربما لأنني كنت لا آكل عندهم الا نادراً ، فكان على المائدة مشهيات وسردين وما الى ذلك • ولكن ما كان أشد دهشتي وما كان أكبر حزني حين رأيتهم جميعاً مهمومين مكفهرين : فأما ليزا فانها حين رأتني لم تكد ترتسم على شفتيها ابتسامة ، وأما ماما فكان واضحاً أنها قلقة، وأما فرسيلوف فقد تبسم ولكن بجهد • سألت نفسي : « أتراهم تشاجروا ؟ » وجرى كل شيء في البداية مجرى حسناً ، باستثناء أن فرسيلوف امتعض حين جيء بحساء الشعيرية ، ثم سخط حين جيء بالكفتة ، فقال غاضباً :

ـ يكفي أن أتنبأ أن صنفاً من أصناف الطعام لا تحتمله معدتي حين أراه في الغداة على المائدة !

فقالت أمي تجيبه خجلى :

ـ ماذا تريد يا آندره بتروفتش ؟ لا يستطيع المرء أن يخترع في كل يوم لوناً جديداً •

ـ ان أملك على نقيض بعض صحفنا التي ترى في كل جديد شيئاً حسناً •

لقد أراد فرسيلوف أن يمزح ، أن يقول شيئاً فيه مرح وصداقة ، ولكنه لم يفلح ، بل لم يزد على أن أرعب أمي مزيداً من الرعب ، وهي لم تفهم شيئاً من تلك المقارنة بينها وبين الصحف طبعاً ، ومضت ترسل نظرات زائغة هنا وهناك • وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا بافلوفنا ، فلما دُعيت الى المشاركة في الغداء أعلنت أنها تغدت ، وجلست على الديوان قريبةً من أمي •

لَم أكن قد أفلحت بعد في الحصول على حظوة هذه الانسانة • هي لقد كان تهجمها عليّ يزداد بمناسبة كل شيء ، وبغير أية مناسبة • وكان استياؤها قد اشتد في الآونة الأخيرة : فهي لا تستطيع أن ترى ثيابي الأنيقة ، وقد روت لي ليزا عنها أنها كادت تصاب بنوبة عصبية حين علمت بأن لي حوذياً تحت امرتي • وقد أصبحت في النهاية أتحاشاها ما استطعت الى ذلك سبيلا • أذكر أنني منذ شهرين ، حين رفض أبي الميراث هرعت الى بيتها أحدثها عن سلوك فرسيلوف ، ولكنني لم أحظ منها بأي عطف على هذا السلوك ، حتى لقد استاءت استياء رهيباً : لقد أسخطها أشد الاسخاط أن فرسيلوف رد الميراث كله بدلاً من أن يرد نصفه ، ووجهت اليّ أنا ملاحظة لاذعة فقالت :

ـ أراهن أنك على ثقة بأنه رد الميراث ودعا الآخر الى المبارزة لا لشيء الا أن يعلو قدره واعتباره في نظر آركادي ماكاروفتش •

كادت تحزر ! فلقد كنت أحس بشعور من هذا النوع حينذاك •

وما ان دخلتْ حتى أدركتُ فوراً أنها ستهجم عليّ ، بل كنت مقتنعاً أنها ما جاءت الا لهذا الغرض • لذلك بادرت الى اصطناع لهجة طلقة جداً ، ولم يكلفني هذا جهداً كبيراً ، لأنني كنت لا أزال مفعم النفس فرحاً • يجب أن أشير الى أن هذه اللهجة الطلقة كانت لا تناسبني أبداً ، ولا توافق سحنتي اطلاقاً ، وأنها كانت كثيراً ما تجللني بالخزى ، وذلك ما حدث ، فسرعان ما قبض عليّ متلبساً بجريمة الكذب ، ذلك أنني ـ بدون أية عاطفة سيئة ، بل بدافع الخفة وحدها ـ حين لاحظت أن ليزا حزينة حزناً شديداً ، أفلت من لساني على حين فجأة ، دون أن أفكر فيما أقوله ، أفلت من لساني قولى :

ـ منذ قرن من الزمان لم آكل هنا ، ثم هأنت ذى عابسة الوجه ، متجهمة الهيئة يا ليزا • فهل اخترت لحزنك وكآبتك هذا اليوم اختياراً ؟

فأجابتني ليزا تقول :

ـ أعاني من صداع •

ثم اذا بتاتيانا بافلوفنا تهجم هجمتها قائلة :

ـ ما قيمة أن تكوني مريضة ؟ لقد تفضل آركادى ماكاروفتش فجاء الى هنا : فيجب عليك أن ترقصي وأن تبتهجي !

فانبريت أقول :

ـ انك بلية حياتي حقاً يا تاتيانا بافلوفنا ! لن أجيء بعد اليوم أبداً متى كنت هنا !

قلت ذلك و خبطت المائدة بيدى في غضب صادق • فانتفضت أمي ، وألقى عليّ فرسيلوف نظرة خاصة غريبة • وانفجرت أنا أضحك واستغفر • قلت ملتفتاً الى تاتيانا بافلوفنا ، بلهجة ما تزال طلقة :

ـ انني أسحب كلمة « البلية » •

فأجابت تقول جازمة :

ـ لا ، لا ، ثق أنك تمدحني مدحاً عظيماً حين تصفني بأنني بلية حياتك ، ولا تصفني بنقيض ذلك !

وقال فرسيلوف مبتسماً :

ـ يا عزيزي ، يجب على الانسان أن يعرف كيف يتحمل البلايا الصغيرة في هذه الحياة . ولا جمال للحياة بغير بلايا !

فصحت أقول وأنا أضحك ضحكاً عصبياً :

ـ انك في بعض الأحيان رجعي رهيب !

ـ يا صديقي ، هذا لا يهمني !

ـ لا يهمك ؟ انك مسرف في الأدب والتهذيب . لماذا لا تنطلق على السجية فتقول لحمار انه حمار ؟

ـ أنفسك تعني ؟ أنا أولاً لا أريد ولا أستطيع أن أحكم على أحد !

ـ لماذا لا تريد ، لماذا لا تستطيع ؟

ـ كسلاً واشمئزازاً . قالت لي امرأة ذكية في يوم من الأيام : ليس من حقي أن أحكم على الآخرين ، « لأنني لا أجيد الألم » ، ومن أجل أن ينصب المرء نفسه حاكماً وقاضياً ، يجب عليه أن يكتسب حق الحكم بما يقاسي من آلام . صحيح أن هذا الرأي يشتمل على غلو وتفخيم ، ولكن لعله يصدق في تطبيقه عليّ ، وقد ارتضيت أن أصدقه وأن أتقيد به .

هتفت أسأله :

ـ هل يمكن أن تكون تاتيانا بافلوفنا هي التي قالت لك هذا الرأي ؟

فقال فرسيلوف وهو يرشقني بنظرة دهشة :

ـ كيف حزرت ؟

ـ من النظر فى وجهها ، فقد انمط فجأة ..

الحق أننى لم أحزر الا مصادفة . وقد علمت فيما بعد أن هذه الجملة انما قالتها تاتيانا بافلوفنا لفرسيلوف بالأمس أثناء مناقشة حامية . وأخذت أدرك بمزيد من القوة أننى جئت اليهم منطلق النفس مفعم القلم فرحاً فى غير الأوان المناسب : فقد كان لكل منهم هم ثقيل جاثم على صدره .

قلت :

ـ اننى لا أفهم شيئاً ، لأن هذا الكلام كله مجرد جداً . انك تحب الكلام فى أمور مجردة يا آندره بتروفتش . وهذه سمة من سمات الأنانية . فجميع الأنانيين يحبون أن يتكلموا فى الأمور المجردة !

قال :

ـ عبارة جميلة ! ولكن دعنى ولا تلح .

فتابعت كلامى منطلقاً أقول بحرارة :

ـ بل اسمع لى ! ما معنى قولك « أن يكتسب حق الحكم بما يقاسى من آلام » ؟ كل انسان شريف فهو قاض . ذلك رأيى أنا .

ـ لن تقع اذن على عدد كبير من القضاة .

ـ أعرف واحداً .

ـ من هو ؟

ـ انه هنا يتحدث معى !

فضحك فرسيلوف ضحكة غريبة ، ومال على أذنى بجسمه كله ، وأمسك كتفى ، وهمس يقول لى : « انه يكذب عليك » .

لم أستطع أن أفهمُ ماذا أراد أن يقول ، ولكن لاشك أنه كان فى تلك اللحظة مضطرباً اضطراباً شديداً (عقب علمه بنبأ من الأنباء كما عرفت

ذلك فيما بعد) ، ولـكن هذه الجملة « انه يكذب عليك » قد قيلت بلهجة تبلغ من الجد وهيئة تبلغ من الغرابة والبعد عن المزاح ، أننى رأيتنى أرتعش ارتعاشاً عصبياً ، حتى لكأننى مرتاع ، وألقيت عليه نظرة متوحشة • ولكن فرسيلوف أسرع يضحك •

قالت أمى بعد أن خافت حين رأته يهمس فى أذنى :

ـ الحمد لله ! لقد ظننت أن •• لا تزعل منا يا آركادى • الأذكياء فى هذا العالم كثير ، ولكن من عسى يحبك كما نحبك ، بعد أن نرحل نحن عن هذه الحياة ؟

ـ لهذا السبب أرى أن حب الأبوين منـاف للأخـلاق ، فهو حب لا يحظى به المرء عن جدارة واستحقاق • وانما ينبغى أن يـكون الحب مستحقاً •

ـ ستستحقه فيما بعد ، وبانتظـار ذلك نحبك لغير سبب يدعـو الى الحب •

أخذ الجميع يضحكون • فهتفت أقول ضاحكاً كذلك :

ـ لعلك يا ماما لم تقصدى أن تسددى الى هدف معين ، ولكن أصبت قلب هذا الهدف •

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تهجم على من جديد فقالت :

ـ أتراك كنت تظن أن هنـاك أسـباباً تدعو الى حبك ؟ نعم ، انهـم يحبونك لغـير سبب يدعو الى حبك ، بـل قل انهـم يحبونك من خـلال الاشمئزاز منك !

فهتفت أقول مرحاً :

ـ اه •• لا ! •• أتعرفين من قال لى اليوم انه يحبنى ؟

فأسرعت تاتيانا بافلوفنا تقول بمكر غير مألوف ، فكأنها قد توقعت مني تلك الجملة نفسها:

ـ اذا قال لك أحد انه يحبك ، فانما قال ذلك ليسخر منك . نعم ، لا بد لانسان مرهف الشعور ، ولا بد لامرأة بخاصة أن تشمئز من نفسك السوداء . ان لك فرقاً في شعر رأسك ، وانك تلبس قميصاً ناعماً ، وترتدي ثياباً يخيطها لك الخياط الفرنسي الشهير ، ولكن ذلك كله ليس الا وحلاً ! من ألبسك ؟ من يطعمك ؟ من يعطيك مالاً لتقامر في الروليت ؟ تذكّرْ مَنْ الذي لا تستحي أن تطلب منه هذا المال !

تخضبت أمي بحمرة شديد . لم أر في حياتي خجلاً كهذا الخجل يجلل وجهها . فثار حنقي وقلت محمر الوجه :

ـ اذا كنت أنفق فانما أنفق مالي ، وليس عليّ حساب أؤديه لأحد !

ـ مالك ؟ مالك أنت ؟ كيف ؟

ـ اذا لم يكن مالي فهو مال آندره بتروفتش الذي يمنعه عني . آخذه من الأمير سداداً لدين آندره بتروفتش عليه ...

فقال فرسيلوف بلهجة جازمة :

ـ ياصديقي ، ليس لي عليه كوبك واحد .

كانت الجملة ذات مغزى رهيب . فتسمرت في مكاني صامتاً . ولاشك أنني كان في وسعي أن أتذكر الحالة النفسية المشوشة العجيبة التي كنت عليها حينذاك ، فأخرج من الحرج باندفاعة « نبيلة » أو بكلمة ذات تأثير أو بأية حيلة أخرى . ولكنني لاحظت فجأة في وجه ليزا المكفهر تعبيراً شريراً فيه اتهام وظلم ويكاد يشتمل على سخرية ، فاذا بشيطان يدفعني فأقول لها وأنا التفت اليها :

ـ يبدو لي يا آنسة أنك تزورين كثيراً داريا أونيسيموفنا في بيت

الأمير . فهل أستطيع أن أطلب منك أن تعطى الأمير هذه الثلاثمائة روبل التى أنبتمونى عليها اليوم هذا التأنيب كله ؟

وسللت المال من جيبى ومددته اليها . هل يصدق أحد أن هــذه الكلمات الشريرة قد قيلت بغير أى قصد ، أعنى أنها كانت خالية من أى تلميح الى أى امر ؟ بل كان لا يمكن أن تشتمل على أى تلميح ، لأننى كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً البتة ؟ ولعل كل ما أردت أن أفعله هو أن أخزها وخزة بريشــة ، وكأن أقول مثلاً : « يا آنسةً تتدخل فيما لا يعنيها ، هلا رضيت ـ ما دمت تحرصين على أن تحشرى أنفك فى كل مكان ـ أن تذهبى الى هذا الأمير ، الى هذا الشاب ، الى هذا الضــابط البطرسبرجى ، فتنقلى اليه هذه الرسالة « ما دمت تحبين كثيراً أن تتدخلى فى شئون الشباب » . ولكن ما كان أشد انشداهى وما كان أعظم ذهولى حين رأيت أمى تنهض بحركة سريعة مفاجئة ، وترفع اصبعها مهــددة اياى ، وتصرخ قائلة لى :

ـ اخرس !

ما كان فى وسعى أن أتوقع منها شيئاً من هذا القبيل ، فاذا أنا أنتفض، لا من ذعر ، بل من ألم ، من جرح فى القلب نازف موجع ، لأننى أدركت فجأة أنه قد وقع شىء فظيع رهيب . ولكن ماما لم تصمد طويلاً ، فما هى الا برهة قصيرة حتى دفنت وجهها فى يديها وخرجت من الغرفة مسرعة، وتبعتها ليزا دون أن تنظر الى الجهة التى كنت فيها ؟ وتأملتنى تاتيانا بافلوفنا فى صمت نصف دقيقة ، ثم هتفت تقول ملغزة وهى تنظر الىَّ مدهوشة :

ـ هل يُعقل أنك أردت أن تقول كلاماً قذراً ؟

وبدون أن تنتظر منى جواباً ، خرجت هى أيضاً . ونهض فرسيلوف عن المائدة وفى وجهه تعبير عن عداوة تكاد تكون شريرة ، وتناول قبعته من ركن فى الغرفة ، وجمجم يقول مستهزئاً :

ـ كنت أقدّر أن لا تكون غبياً هذا الغباء كله ... وانما أن تكون بريئاً لا أكثر . اذا رجعن فقل لهن أن لا ينتظرنني لتناول الحلوى ، فسأقوم بجولة .

بقيت وحدى . ووجدت الأمر فى البداية غريباً ، ثم وجدته مهيناً جارحاً ، ورأيت فى النهاية أننى على خطأ . ولكننى لم أدرك ما خطئى ، وانما كنت أحس احساساً بأن خطأً قد صدر عنى . وجلست أمام النافذة أنتظر . وبعد عشر دقائق تناولت قبعتى أنا أيضاً ، وصعدت الى غرفتى القديمة التى تقع تحت السقف . كنت أعلم أنهما هناك ، أعنى أمى وليزا ، وأن تاتيانا بافلوفنا قد ذهبت الى بيتها . وقد وجدتهما فى غرفتى فعلاً ، جالستين على ديوانى تتهامسان . فما ان رأتانى حتى انقطع تهامسهما . وما كان أكبر دهشتى حين لم تظهرا لى غضباً ! ان ماما على الأقل قد طالعتنى بابتسامة .

أردت أن أتكلم فقلت :

ـ اغفرى لى يا ماما ...

ولكن ماما قاطعتنى قائلة :

ـ هيا هيا ! لا قيمة لهذا ... ولكن فليحب كل منكما الآخر ، ولا تتشاجرا أبداً . أسأل الله أن يمن عليكما بالسعادة .

فقالت ليزا بعاطفة واقتناع :

ـ هو يا ماما لن يسىء الىّ يوماً . ثقى بأنه لن يسىء الى أبداً .

وهتفت أقول :

ـ لولا تاتيانا بافلوفنا هذه لما حدث شىء من هذا كله . انسانة مسيئة .

قالت ليزا وهى تشير الىّ :

ـ أرأيت يا ماما ؟ أسمعت ؟

وصحت أقول :

ـ واليكما ما أحب أن أعلنه لكما كلتيكما : اذا كان أحد يفسد الحياة فهو أنا ، ولولاى لكان كل شيء بهيجاً !

ـ لا تزعل يا صغيرى آركادى ، يا بنى العزيز ، ولكن ليتك تكف عن ...

ـ عن القمار ؟ عن القمار ؟ سأكف يا ماما . سأقامر اليوم آخر مرة، ولا سيما بعد الذى أعلنه آندره بتروفتش صراحة منذ هنيهة اذ قال انه ليس له على أحد هناك كوبك واحد . لا تستطعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من عار ... ولكن علىّ أن أشرح ما بنفسى ... ماما العزيزة ، لقد قلت هنا فى آخر مرة كلمة خرقاء ... كذبت يا ماما : الحق أننى أريد صادقاً أن أؤمن . كان ذلك منى تبجحاً . فأنا أحب المسيح ...

كنا فى المرة السابقة قد جرى بيننا حديث من هذا النوع فعلاً .وقد تألمت أمى كثيراً وارتاعت كثيراً . فلما سمعت ما قلته الآن ابتسمت لى كما يبتسم المرء لطفل ، وقالت :

ـ ان المسيح يا صغيرى آركادى سيغفر كل شيء : سيغفر تجديفاتك وما هو أسوأ منها أيضاً . المسيح أب ، المسيح ليس فى حاجة الى شيء ، وسيظل يتلألأ حتى فى أعمق الظلمات ...

ودعتهما وخرجت مفكراً فى احتمالات لقائى فرسيلوف فى هذا اليوم نفسه . هناك أشياء كثيرة يجب أن أحادثه فيها ، وقد استحال ذلك منذ قليل . وقدّرت أنه لا بد أن يكون الآن فى بيتى ينتظرنى . فذهب الى بيتى ماشياً . ان المشى ليحلو فى مثل هذا الجو البارد .

٢

كنت أقيم بقرب جسر « الصعود » فى عمارة كبيرة ، وكان مسكنى يطل على فناء العمارة • فما ان دخلت بوابة العمارة حتى رأيتنى أصطدم بفرسيلوف الذى كان خارجاً من عندى • وقال :

ــ على عادتى ، كنت أتنزه ماشياً فوصلت الى مسكنك ، حتى لقد انتظرتك عند بطرس هيبوليتوفتش ، ولكننى ضجرت فى النهاية • انهم فى هذا البيت لا يكفون عن التشاجر • بل ان زوجته مستلقية الآن فى فراشها تبكى • ألقيت نظرة ثم انصرفت •

شعرت بشىء من الاستياء • وقلت :

ــ أظن اننى الشخص الوحيد الذى تزوره ، فكأنك لا تعرف أحداً فى بطرسبرج الا أنا وبطرس هيبوليتوفتش !

ــ أى بأس فى هذا يا صديقى ؟

ــ فأين تذهب الآن ؟

ــ لا ، لن أصعد اليك ثانية ، فاذا شئت تنزهنا ماشيين ، فالأمسية رائعة •

قلت فجأة :

ــ لو انك ، بدلاً من الاسترسال فى تأملات مجردة ، قد قلت لى شيئاً انسانياً ، لو انك ــ مثلاً ــ قلت كلمة عن حماقتى التى تدفعنى الى العمار ، فلعلنى ما كنت لأنجرف ذلك الانجراف كما يفعل أبله معتوه •

فقال وهو يزن كلماته :

ـ أأنت نادم ؟ هذا حسن • لقد قدرت دائماً أن انغماسك في القمار ليس أصلاً فيك ، وانما هو انحراف عابر •• ! انك على حق يا صديقى ، فالقمار من الموبقات ، ناهيك عن أن المرء قد يخسر •

ـ وقد يخسر مال غيره أيضاً •

ـ هل خسرت مال غيرك ؟

ـ خسرت مالك أنت • كنت اقترض من الأمير على حساب دينك عليه • ولاشك أنه سخف وحماقة منى أن أعد مالك مالى ، ولكننى كنت أريد دائماً أن ألعب لأسترد الخسارة •

ـ أنبهك مرة أخرى يا عزيزى الى أن الأمير ليس عليه لى دين • أنا أعرف أن هذا الشاب يعانى هو نفسه ضيقاً شديداً ، وأرى أنه ليس مديناً [illegible] •

ا كانت حالى سيئة سوءاً مضاعفاً ••• بل كانت تدعو
• فما صفتى الآن حتى يعطينى وآخذ منه ؟

شأنك أنت ••• ولكن قل لى بصراحة : أليس هناك أى سبب ••• خاص يبيح لك الاقتراض منه ، هه ؟

ـ لا شىء الا كوننا رفيقين •

ـ لا شىء الا كونكما رفيقين ؟ أليس هناك أى سبب آخر يسوّغ لك أن تقترض منه ؟ أليس هناك اعتبارات معينة مثلاً ؟ •••

ـ ما عسى يكون هنالك من اعتبارات ؟ لست أفهم !

ـ هذا أفضل • الأفضل أن لا تفهم ! أعترف لك يا صديقى بأننى كنت على يقين من هذا • « طيب ، لنقف عند هذا الحد يا عزيزى » ! وحاول أن نكف عن القمار مع ذلك •

ـ ليتك أسديت لى هذه النصيحة من قبل ! بل انك حتى فى هذه اللحظة تسديها الىّ بلهجة تخلو من كل حرارة •

ـ لو نصحتك قبل الآن لما زدنا على أن نختصم ، ولما سرّك كثيراً أن تستقبلنى فى بيتك مساء • اعلم يا صديقى أن جميع هـــذه النصائح التى تستهدف نفع الآخرين ليست الا تدخلاً فى شئونهم لا حق لأحد فيه • ولطالما تدخلت هذا التدخـل فما جنيت منه الا المنغصات والسخـريات • وهبنى لم أعبأ بالمنغصات والسخريات ، فان الشىء الهام هو أن هذا التدخل لا يثمر أبداً ، فما من أحد يستمع لك ، ويأخذ الناس يكرهونك •

ـ يسعدنى أنك بدأت تكلمنى فى غير الأمور المجردة • هذك شىء آخر أريد أن أسألك عنه منذ مدة طويلة ولكننى لم أســتطع ذلك حتى الآن • ان المشى فى الشارع يشجع على المسارة والنجوى • هل تتذكر ذلك المساء الذى كنا فيه عندى ، فى « تابوتى » ، منذ شهرين ، فسألتك عن ماما وعن ماكار ايفانوفتش ؟ هل تتذكر كيف استرسلت فى الكلام منطلقاً «بغير تحرج » ؟ فهل كان يجوز لابن أن يخوض فى الكلام عن أمه بهـــذه الألفاظ ؟ ولكنك لم تصدر عنك كلمة اعتراض واحدة ! حتى لقد «حللت أزرارك » أنت نفسك ، فشجعتنى على المزيد من خلع العذار •

ـ يا صديقى ، يسعدنى أن أسمعك تفصح عن ••• مثل هـــذه المشاعر ••• نعم ، أتذكر تذكراً واضحاً ••• لقد كنت أتوقع فى تلك اللحظة فعلاً أن أرى حمرة فى وجهك ، ولئن أرخيت لك العنان ، فلعلنى انما فعلت ذلك لأجعلك تبلغ آخر الحدود •••

ـ فلم تزد اذن على أن خدعتنى ، وعكرت النبع الصافى الذى كان فى نفسى مزيداً من التعكير ! نعم ، ما أنا الا مراهق شقى ، وانى لأجهل فى بعض الأحيان ما هو خير وما هو شر • فلو أريتنى الدرب ولو قليلاً لفهمت ولسرت فى الطريق القويمة فوراً • ولكنك لم تزد على أن أثرت حنقى •

ـ « ايها الابن العزيز » ، لقد أوجست دائماً أننا سنتفق في يوم من الأيام حتماً : فهذه « الحمرة » في وجهك قد ظهرت الآن من تلقاء نفسها بدون أن أدلك على شيء ، وأحلف أن هذا خير لك ... انني ألاحظ يا عزيزي أنك قد تحسنت كثيراً في هذه الآونة الأخيرة ... أيكون الفضل في هذا لصحبة ذلك الأمير الشاب ؟

ـ لا تمدحني ، فانني لا أحب هذا . لا تخلق في قلبي هذا الاشتباه الأليم وهو أنك انما تمدحني نفاقاً ورياءً على حساب الحقيقة حتى لا أكف عن الاعجاب بنفسي . هل تعلم أنني في هذه الآونة الأخيرة قد ترددت على نساء ؟ هل تعلم أن آنا آندريفنا مثلاً تحسن استقبالي في بيتها وتكرم وفادتي ؟

ـ أعرف ذلك منها نفسها يا صديقي . نعم ، انها لطيفة وذكية . ولكن « لنقف عند هذا الحد يا عزيزي » . شيء غريب . حالتي اليوم سيئة . لعله السأم . انني أنسب هذا الى البواسير . ما أخبار البيت ؟ لا شيء ؟ تصالحتم وتعانقتم طبعاً، هه ؟ هذا ما جرى قطعاً . انه أمر محزن أحياناً أن يضطر المرء الى العودة اليهما حتى بعد جولة مزعجة . ولكم يتفق لي أن أطيل الطريق تحت المطر المنهمر حتى أؤخر لحظة العودة ... ما أشده سأماً يارب ! ما أشده سأماً ! ...

ـ أمي ...

ـ أمك أكمل مخلوقات الله وأعذبها ، « ولكن » ... الخلاصة : يظهر انني لا أساويهما قيمة . بالمناسبة : ما بالهما اليوم ؟ ان هيئتهما تدل في هذه الأيام الأخيرة على ... ماذا أقول ؟ ذلك انني أحاول دائماً أن أجهل ،ولكن لا بد أنهما تدبران اليوم أمراً ... ألم تعلم شيئاً ؟

ـ لا أعلم شيئاً البتة ، بل ما كان لي أن ألاحظ شيئاً لولا هذه اللعينة تاتيانا بافلوفنا التي لا تستطيع أن تمتنع عن العض . انك على حق : لابد أن

هناك أمراً . لقد وجدت ليزا عند آنا آندريفنا ، وكانت ... حتى لقــد أدهشتني حالهما . أظن أنك تعلم أن آنا آندريفنا تستقبلها ؟

ــ أعلم يا صديقي . وأنت ... متى كنت عند آنا آندريفنا ؟ في أية ساعة على وجه الدقة ؟ انني في حاجة الى معرفة هذا بسبب واقعة ما .

ــ بين الساعة الثانية والساعة الثالثة . وتصور أنني حين خرجت رأيت الأمير داخلاً ...

وحكيت له زيارتي من أولها الى آخرها تفصيلاً . فأصغى الى كلامي دون أن يقول كلمة واحدة . ولم يعقب بشيء على احتمال زواج الأمير بآنا آندريفنا . وحين كلت المديح لآنا آندريفنا متحمساً تحمساً شديداً عاد يقول مرة أخرى أنها « لطيفة » . وقلت فجأة كأنما أفلتت مني الجملة افلاتاً :

ــ لقد أدهشتها اليوم ادهاشاً هائلاً حين نقلت اليها ذلك النبأ الجديد كل الجدة وهو أن كاترين نيقولايفنا ستتزوج البارون بيورنج .

ــ أدهشتها ؟ فما رأيك اذا قلت لك انها أبلغتني هذا النبأ هي نفسها في هذا الصــباح قبــل الظهر ، أي قبل أن تدهشها أنت ذلك الادهاش الهائل ؟

ــ ما هذا الذي تقول ؟

وتسمرت في مكاني ، واستطردت أتكلم فقلت :

ــ من أين أمكنها أن تعرفه ؟ ولكن ما هذا الذي أقوله أنا ؟ انه الأمر محقق أنها استطاعت أن تعرف النبأ قبلي ، ولكن هل تتصور أنها أصغت الى كلامي اصغاءها الى نبأ جديد يثير الدهشة ؟ الخلاصة ... عاشت رحابة الصدر ! يجب على المرء أن يقبل جميع الطباع بجميع خصائصها ، أليس كذلك ؟ فأنا مثلاً اذا علمت بنبأ من الأنباء طفقت أذيعه فوراً ، أما هي

فانها تحكم اغلاق علبة تبغها على كل ما تعرف ••• حسن ، حسن ! انها مع ذلك ألطف المخلوقات ، وان طبعها أروع الطباع !

ـ لكل انسان خلقه طبعاً ! ولكن الشيء الفريد العجيب هو أن هذه الطباع الرائعة تمتاز أحياناً بأنها تلقى عليك ألغازاً غريبة • تصور أن آنا آندريفنا قد رشقتني في هذا اليوم نفسه بهذا السؤال من غير لف ولا دوران : « أتحب كاترين نيقولايفنا آخماكوفا أم لا ؟ » •

هتفت أقول مشدوهاً مرة أخرى :

ـ يا للسؤال العجيب السخيف !

واضطرب فكري لحظة • انني لم أبحث معه هذا الأمر في يوم من الأيام ، وها هو ذا الآن ، من تلقاء نفسه •••

قلت :

ـ وكيف شرحت سؤالها ؟

ـ لم تشرحه يا صديقي ••• وانما عادت علبة التبغ تغلق باحكام أشد • يجب أن تلاحظ من جهة أخرى أنني لم أقبل في يوم من الأيام أن تجري بيننا أحاديث من هذا القبيل ••• ولا هي قبلت ذلك أبداً من قبل • ولكنك تقول انك تعرفها ، ففي وسعك اذن أن تتخيل أن مثل هذا السؤال يناسب جمالها كثيراً • أتراك تعرف شيئاً ؟

ـ ان صدور هذا السؤال عنها لغز في نظري كما هو لغز في نظرك • لعله فضول ، لعله مزاح ؟

ـ بالعكس • لقد كان في السؤال جد كثير • حتى انه لم يكن سؤالاً بل استجواباً ، ولا شك أنها ألقته مدفوعة بأسباب خارقة قاطعة • سوف

تراها ، أليس كذلك ؟ فهل تستطيع أن تعرف منها شيئاً ؟ بل انني أطلب منك هذا طلبا ، لأن الأمر ، كما ترى ...

ـ ولكن امكان افتراض أنك تحب كاترين نيقولايفنا يحيرني ويذهلني . معذرة : انني لا أعرف كيف أخرج من هذه الحيرة وهذا الذهول . أنا لم أبح لنفسي في يوم من الأيام أبداً أن أكلمك في هذا الموضوع ولا في أي موضوع من هذا النوع ..

ـ ولقد تصرفت تصرفاً حكيماً يا عزيزي !

ـ ان مغامراتك القديمة لا يليق أن تكون موضوع حديث بيننا طبعاً . ولو كلمتك عنها لكان ذلك مني حماقة . ولكنني لا أكتمك أنني في هذه الآونة الأخيرة ، في هذه الأيام الأخيرة ، قد هتفت متسائلاً بيني وبين نفسي : « لو أنه أحب هذه المرأة في يوم من الأيام ولو لحظة واحدة ، لما اقترف في حقها خطأ يبلغ ذلك المبلغ من الهول الذي بلغه خطؤك بعد ذلك . » انني أعرف ما وقع : أعرف عداوتكما المتبادلة وما يشعر به كل منكما نحو الآخر من نفوز وكره ان صح التعبير . لقد سمعت عن هذا ، سمعت عنه كثيراً منذ كنت بموسكو ؛ وما يبرز واضحاً للعيان هنا هو أن ثمة كرهاً شديداً وعداوة ضارية هما نقيض الحب . فكيف تسألك آنا آندريفنا فجأة هل أنت تحب كاترين نيقولايفنا ؟ أمر غريب جداً . لابد أنها أرادت أن تضحك !

قال فرسيلوف بصوت لاحظت فيه شيئاً من اضطراب عميق ينفذ الى القلب ، وهذا ما لا يحدث له الا نادراً :

ـ لكنني ألاحظ يا عزيزي أنك تتكلم أنت نفسك عن كاترين نيقولايفنا بحرارة شديدة . لقد قلت منذ لحظة انك تتردد الى نساء ... وانني لأشعر بحرج طبعاً اذا أنا سألتك عن أمر كهذه الأمر ... ولكن أليست « هذه المرأة » في عداد صديقاتك الجديدات ؟

اختلج صوتى فجأة وقلت :

ـ هذه المرأة ... اسمع يا آندره بتروفتش ، اسمع : ان هذه المرأ
هى ما وصفته منذ حين عند الأمير بأنه « الحيـاة الحية » ، هل تتذكر هذ
الذى قلته ؟ ولقد شرحت كلامك عندئذ بأن هذه الحياة الحية شىء يبلغ مز
الصراحة والوضوح والبساطة وينظر اليك نظرة تبلغ من الاستقامة أنك
بسبب هذه الاستقامة وبسبب هذا الوضوح وهذا الجلاء انما يستحيل عليك
أن تصدق أنه هو ما ظللنا نبحث عنه طوال حياتنا بكثير من المشقة والعناء..
فانظر اذن بأىّ عينٍ استقبلت أنت تلك المرأة المثالية ، وانظر كيف رأيت
فى الكمال وفى المثل الأعلى « جميع العيوب والرذائل » ! ذلك هو رأيى

يستطيع القارىء أن يتصور مدى الاضطراب الذى كنت فيه ، ومدى
ما وصلت اليه من خروجى عن طورى !

صاح فرسيلوف يقول :

ـ « جميع العيوب والرذائل ! » أوه ! هذه كلمة أعرفها . اذا كانت
العلاقة بينكما قد بلغت من العمق أنها ذكرت لك تلك العبارة ، فربما كان
يحسن أن أهنئك ! ان هذا يفترض أن بينكما صلة تبلغ من الصميمية أن
يجب على المرء أن يحمد لك تواضعك وتكتمك اللذين لا يقدر عليهما كثير
من الشبان ...

كان فى صـوته رنين من ضحك لطيف ، ضحك مـودة ، ضحك
ملاطفة ... وكان شىء من كياسـة ومن اغاظة فى أقواله وفى وجهه
المتألق ، اذا صـدق ما لمحته فى الظلام . كان فى حالة اهتياج شـديد ،
وأشرقت نفسى رغم ارادتى .

هتفت أقول محمر الوجه وأنا أشد فى الوقت نفسه على يده التى
كنت قد تناولتها ثم لم أتركها بدون أن أشعر :

ـ تواضع ! تكتم ! لا ، لا تواضع ولا تكتم . ولا محل لتهنئتي ، ولن يحدث شيء من هذا أبداً ، أبداً .

كنت اختنق اختناقاً ، وأطير طيرانا . كانت تملؤني رغبة قوية في أن أطير ، ان في الطيران فتنة عظيمة ! واستطردت أقول :

ـ وهب شيئاً من ذلك حدث في يوم من الأيام ، ولو مرةواحـدة ، فان رأيي يا بابا العزيز اللطيف ـ هل تسمح لي بأن أناديك بابا ؟ ـ رأيي أنه عار على أي انسان ، لا على ابن وأبيه فحسب ، أن يتحدث الى شخص آخر عن علاقاته بامرأة ، مهما تكن هذه العلاقات طاهرة نقية ! بل كلما كانت هذه العلاقات أطهر وأنقى كان كتمانها أوجب وألزم . ان الحديث في هذه الأمور عيب وليس في هذا المجال نجي يفضي اليه المرء بأسراره ! فكيف اذا لم يكن ثمة شيء البتة ؟ هل يجوز الكلام في هذه الحالة ؟ هل يجوز ؟

ـ الا اذا اشتهى المرء أن يتكلم ...

ـ سؤال محتشم ، محتشم جداً : انك قد عرفت في حياتك نساءً ، وكانت لك بهن علاقات ... أليس كذلك ؟ انني ألقي عليك هذا السؤال عاماً .. عاماً .. لا خاصاً !

احمر وجهي وكنت أختنق حماسة . قال :

ـ لنفرض انني عرفت نساء وكانت لي بهن علاقات ، فما هو السؤال الذي تريد أن تلقيه ؟

ـ اليك حالة أريد أن تفسرها لي ، ما دامت تجربتك أكبر : هـذه امرأة تقول لك وهي تودعك ، تقول لك فجأة ، بغير مقدمات ، وهي تنظر الى جانب : « سأكون في الساعة الثالثة من الغد في مكان كذا ... » عند تاتيانا بافلوفنا مثلاً ...

ها قد اندفعت ومضيت الى النهاية . كان قلبي يخفق ، بل لقد كف

قلبي عن الخفقان . أردت أن أمسك عن الكلام : ولكن استحال عليّ ذلك. وكان هو يصغي بانتباه شديد . استطردت أقول :

ـ وفي الساعة الثالثة من الغد ، كنت عند تاتيانا بافلوفنا . دخلت . وكنت أفكر على النحو التالي : « ستفتح لي الطباخة ـ هل تعرف طباختها؟ ـ فأسألها فوراً : هل تاتيانا بافلوفنا هنا ؟ فاذا أجابتني بأنها ليست هنا ، وبأن سيدة تنتظرها » فما الذي يجب أن أستخلصه من هذا ؟ قل لي اذا كنت... أقصد اذا كنت ...

ـ يجب أن تستخلص من هذا أن موعداً قد ضرب لك ولكن هل حدث هذا ؟ وهل حدث اليوم ؟ نعم ؟

ـ أوه ! لا ، لا ، لا ! أبداً ! أبداً ! لقد حدث ، ولكنه لم يحدث على هذه الصورة ! هو موعد ، ولكن لا لهذا الأمر . أعلن ذلك قبل كل شيء ، حتى لا أكون رجلا غير شريف . لقد حدث ، ولكن ...

ـ ياصديقي ، هـــذا كله قد بلغ من الغـرابة انني اقترح عليك أن ...

ـ كنت في الماضي أتصدق بذهب على كل ســائل ... مضى ذلك الزمان ! بضعة كوبكات فقط . ان ضابطاً برتبة ليوتنان هو الذي يستجديك بضعة كوبكات ، ضابط سابقاً .

ان قامة طويلة هي قامة شحاذ لعله ضابط محال على التقاعد فعلاً قد سدّت طريقنا فجأة . وكان أعجب ما في أمره أن هندامه أحسن كثيراً من أن يكون هندام شحاذ . ولكن ذلك لم يمنعه من مدّ يده مستعطياً .

٣

اذا كنت أذكر واقعة الليوتنان هذه الشقية فانني أفعل ذلك عامداً ، لأن فرسيلوف انما يعرض لذاكرتي دائماً محاطاً بجميع تفاصيل هذه الواقعة ، حتى التفاصيل الدقيقة منها ، وهي واقعة كانت لي حاسمة مشئومة، ولكنني لم أكن أعرف أنها كذلك .

رفع فرسيلوف صوته عالياً غير طبيعي على حين فجأة ، وقال يخاطب الليوتنان وهو يقف امامه :

ـ دعنا ، والا ناديت الشرطة فوراً !

ما كان لي أن أتوقع غضباً كهذا الغضب ، من فيلسوف كهذا الفيلسوف، لسبب تافه هذه التفاهة . ولاحظوا أننا قطعنا حديثنا عندئذ في نقطة هي أكثر النقاط اثارة لاهتمامه واجتذاباً لانتباهه ، كما قال ذلك هو نفسه منذ هنيهة .

فصرخ الليوتنان يقول بغتة وهو يحرك يده :

ـ أليس معك خمسة عشر كوبكاً ؟ أي وغد لا يملك خمسة عشر كوبكاً في هذه الأيام ؟ وغد ! سافل ! يرتدي فاخر الثياب ، ثم هو يجعل الخمسة عشر كوبكاً قضية كبيرة من قضايا الدولة !

فصاح فرسيلوف منادياً :

ـ يا شرطي !

وكان الشرطي هناك فعلاً ، في ناصية الشارع ، وكان قد سمع شتائم الليوتنان ، فقال له فرسيلوف :

ـ أرجو أن تكون شاهداً على الشتم ! أما أنت فتعال معنا الى المخفر !

فقال الشحاذ :

ـ هأ هأ ! يستوى عندى ••• لك ما تشاء ••• لن تستطيع أن تثبت شيئاً ! وخاصة لن تستطيع أن تثبت ذكاءك !

فقال فرسيلوف جازماً :

ـ أيها الشرطى ، لا تتركه ، وخذنا الى المخفر •

فهمست أسأل فرسيلوف :

ـ الى المخفر ؟ لماذا ؟

ـ حتما يا عزيزى • ان هذه الفوضى فى شوارعنا قد أخذت تضجرنى، فلو قام كل امرىء بواجبه ، لكان فى ذلك خير للجميع • « ذلك مضحك، ولكن هو ما سنفعله » •

مشينا مائة خطوة كان الليوتنان يصخب ويتعجرف ، مؤكداً أن هذه المعاملة شىء « غير معقول » ، وان خمسة عشر كوبكاً لا تستحق أن ••• الخ ؛ ثم مال على الشرطى يهمس فى أذنه • وكان يبدو على الشرطى ، وهو رجل عاقل يكره الفضائح فى الشوارع ، أنه يوافقه على رأيه ، ولكن بمعنى واحد ، فكان يجمجم قائلاً له بصوت خافت : « لاسبيل الآن » ، « لقد نشأت قضية » ، « لو تعتذر فيقبل السيد اعتذارك ، لكان يمكن أن ••• » •

فصرخ الليوتنان يقول :

ـ طيب • اسمع يا سيد • الى أين تذهب بنا ؟ اننى أسألك : الى أين نركض هذا الركض ؟ هل هذا من العقل فى شىء ؟ ما رأيك فى أن يعتذر لك هذا الانسان الشقى وهو يعانى ما يعانى من ألوان العذاب ••• ما رأيك فى أن تكتفى بما أوقعت فيه من اذلال حتى الآن ••• هوه ! لسنا فى صالون

على كل حال ... نحن فى الشارع ... وفى الشارع تكفى اعتذارات كهذه ...

فتوقف فرسيلوف وانفجر ضاحكاً . فكدت أتصور أنه لم يسترسل فى هذه القصة كلها الا على سبيل التسلية . ولكن الأمر لم يكن كذلك قال :

ـ اننى أعذرك كل العذر يا حضرة الضابط ، وأؤكد لك أنك لا تخلو من موهبة . ولك أن تتصرف هذا التصرف حتى فى الصالونات . قريباً سيكون هذا صالحاً كل الصلاح للصالونات أيضاً . وبانتظار ذلك ، اليك أربعين كوبكاً فاشرب بها وكلْ . وأعتذر اليك عن ازعاجك يا حضرة الشرطى ، وأهنئك على ما أظهرت من نبل .

ثم التفت فرسيلوف الىّ قائلاً :

ـ ويا عزيزتى .. ان هناك مشرباً ليس فى حقيقته الا مكاناً قذرا ، ولكننا نستطيع أن نشرب فيه شاياً ، فأنا أدعوك ... لسنا بعيدين عنه ، فهلم بنا اليه .

أعود فأقول مرة أخرى اننى ما رأيته مهتاجاً هذا الاهتياج فى يوم من الأيام . ومع ذلك كان وجهه مرحاً مشرقاً بالضياء . لكننى لاحظت أنه حين أخرج من محفظة نقوده قطعتين بأربعين كوبكا ، كانت يداه ترتعشان وكانت أصابعه لا تطاوعه ، حتى انه رجانى أخيراً أن أقوم عنه باخراج النقود واعطائها الليوتنان . لا أستطيع أن أنسى هذا .

وقادنى الى مشرب صغير تحت مستوى أرض الشارع . ولم يكن فى المشرب ناس كثير . وكان يُعزف فيه على أرغن من بربباريا مبحوح الأصوات متنافر الأنغام . وكانت تنتشر فى جوه روائح أشبه برائحة فوطة ملوثة بالدسم . وجلسنا فى ركن .

ـ لعلك لا تعرف أننى أحب أحياناً ، من فرط الضجر ، من فرط الضجر الرهيب الذى يرهق القلب ، أن أنزل الى هذه الأماكن . فهذه الموائد ، وهذا اللحن النشاز الذى يعزف « لوسيا » ، وهؤلاء الخدم الذين يرتدون ثياباً وطنية روسية تعوزها اللياقة والحشمة ، وهذا الدخان الذى يتصاعد من احتراق التبغ ، وهذه الصرخات يطلقها لاعبو البليارد و ، ذلك كله يبلغ من العامية والابتذال أنه يكاد يكون من صنع الخيال . طيب يا عزيزى ، ماذا كنا نقول ؟ ان ذلك الابن من أبناء اله الحرب مارس قد قطع علينا الحديث عند أهم نقطة فيما أظن ... ولكن اليك الشاى . اننى أحب الشاى حباً شديداً هنا ... تصور أن فيليب هيبوليتوفتش كان يؤكد منذ قليل لذلك المستأجر الآخر المجدور أن البرلمان الانجليزى قد شكل فى القرن الماضى لجنة من رجال القانون مهمتها أن تدرس جميع الجوانب من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلات ، لا لشىء الا أن يعرف كيف يمكن أن تجرى الأمور اذا طبقت قوانيننا ، وقد هيئت لهذه التمثيلية جميع أسباب الأبهة والجلال ، وحشد لها جهاز قضائى كبير ، فمن محلفين الى محامين الى سائر ما هنالك ... وأن المحلفين قد اضطروا بعد مداولات أجروها فى قاعتهم المغلقة أن يخرجوا بقرار ادانة ... شىء يثير الدهشة! وقد أخذ المستأجر الغبى يناقش ويجادل ، ثم غضب وسخط وأعلن أنه سيترك البيت منذ الغد ... وأخذت المؤجرة تذرف دموعاً غزيرة لأنها ستفقد بتركه البيت ايراداً ... « ولكن دعنا من هذا » . ان فى هذه المشارب عنادل أحياناً . هل تعرف تلك الحكاية الموسكوبية القديمة التى تروى على غرار حكايات بطرس هيبوليتوفتش ؟ يقال ان عندليباً كان يغرد فى مشرب بموسكو . فدخل المشرب واحد من أولئك التجار الذين لا يحبون هذا الغناء الذى يجرى على وتيرة واحدة . وقال يسأل : « كم ثمن العندليب ؟ » فقيل له « مائة روبل » فقال : « اقلوه وجيئونى به ! » ، ففعلوا ، فلما صار العندليب على مائدته قال : « اقطعوا لى منه شريحة

بفرشين ! » • لقد رويت هذه الحكاية يوماً لبطرس هيبوليتوفتش ، ولكنه لم يشأ أن يصدقها ، حتى لقد استاء •••

وتكلم فرسيلوف كثيراً أيضاً • انني لا أروى هذه الجمل التى قالها الا على سبيل المثال • وكان يقاطعنى كلما فتحت فمى لأشرع فى سرد قصتى ، فيمضى يقول ترهات لا يربط بينها رابط ولا علاقة لها بما نحن فيه • وكان يتكلم بحرارة ومرح كأنه ثمل • وكان يضحك لكل أمر من الأمور ، بل كان يقهقه هازئاً ، وذلك ما لم أعهده فيه من قبل قط • وقد شرب كأساً من الشاى دفعة واحدة ، وسكب لنفسه كأساً أخرى • انني أفهم الآن الحالة النفسية التى كان فيها : كان مثله كمثل رجل تلقى رسالة عزيزة غالية هامة طال انتظاره لها ، فلما وصلته وضعها أمامه وتعمد أن لا يفضها ، فهو يقلبها بين أصابعه مدة طويلة ، وينعم النظر فى غلافها ، ويتأمل خاتم البريد الذى عليها ، ويمضى الى غرفة أخرى يصدر أوامره الى الخدم ، أى هو يؤجل الدقيقة الهامة التى يعلم أنها لن تفلت منه ، وذلك ليزيد لذته ومتعته وبهجته •

قصصت عليه كل شيء طبعاً •• كل شيء •• من البداية •• ودام حديثى قرابة ساعة • وكيف لا أقص عليه كل شيء ؟ لقد كنت شديد الظمأ الى الكلام حتى قبل ذلك • بدأت بالحديث عن لقائنا الأول فى منزل الأمير العجوز عقب وصولها • ثم رويت له كيف تتابعت الأحداث شيئاً بعد شيء • لم أغفل شيئاً ، لم أسقط شيئاً ، ولا كان فى امكانى أن أسقط شيئاً : كان هو نفسه يضعنى فى الطريق ، ويحزر ، ويلقننى ، حتى خيل فى بعض اللحظات أننى أعيش حكاية خيالية ، وأنه كان دائماً هناك ، جالساً أو واقفاً فى مكان ما وراء الباب ، فى كل مرة ، طوال هذين الشهرين : كان يعرف سلفاً كل حركة من حركاتى وكل عاطفة من عواطفى • ووجدت فى هذا الاعتراف له لذة لا نهاية لها ، لأننى كنت أرى فيه كثيراً من اللطف والرقة والمودة ، وكثيراً من نفاذ

الصبر في النفس الانسانية ، ورأيت فيه قدرة مدهشة على أن يحزر كل شيء من نصف كلمة . وكان يصغي الي اصغاء فيه حب وحنان ، كما تصغي امرأة . وقد استطاع خاصة أن يحسن التصرف فما شعرت بأي خجل . وكان يستوقفني في بعض الأحيان بغتة ليسألني عن أمر تفصيلي ، وكثيراً ما كان يقاطعني ويردد بلهجة عصبية قائلاً : « لا تنس التفاصيل ، التفاصيل خاصة ، فكلما كانت واقعة من الوقائع أصغر شـــأناً في نظر المرء لأول وهلة ، كانت أعظم خطراً في حقيقة الأمر أحياناً . » وقد عاد الى هذه الفكرة مراراً . وطبيعي انني في بداية قصتي قد تعاليت قليلاً ، ولكن سرعان ما رجعت الى الحقيقة ، فرويت له صادقاً أنني كنت مستعداً لأن أقبّل المكان الذي تطؤها قدمها من أرض الغرفة . وكان أروع وأجمل ما في الأمر أنه فهم فهماً كاملاً أن في وسع امرأة أن « تتعذب خوفاً من وثيقة » ، وأن تبقى في الوقت نفسه طاهرة نقية لا مأخذ عليها ، كما ظهرت لي في هذا اليوم . وقد فهـم كذلك كلمتي الطالب والطالبة حق فهمها . ولكن حين شارفت على النهاية لاحظت أن ابتسامته الطيبة كان يلوح فيها من حين الى حين نوع من نفاد الصبر ، والقسوة ، والذهول . وكان هذا واضحاً وضوحاً شديداً وحين وصلت الى « الوثيقة » . تساءلت بيني وبين نفسي : « أأقول له الحقيقة أم لا ؟ » ، ثم لم أقلها له رغم حماستي كلها . أسجل هذا هنا لأذكره مدى الحياة . لقد شرحت له أمر الوثيقة على نحو ما شرحته لها هي ، أي أقحمت كرافت . فالتمعت عينـاه ، وارتسم على جبهته غضن غريب شديد القتامة ، وقال يسألني :

ـ أتتذكر تذكراً واضحاً أن تلك الرسالة قد أحرقها كرافت بلهب شمعته ؟ ألست متوهماً ؟

فأجبته مؤكداً :

ـ لا ، لست متوهماً

ــ ذلك أن لهذه الرسالة شأناً خطيراً عندها ، فاذا كانت بين يديك كان في وسعك منذ اليوم أن ...

ما الذى « فى وسعى أن .. » ؟ لم يذكر هذا . وانما تابع كلامه يسائلنى :

ــ هل صحيح حقاً أنَّ الرسالة زالت فليست الآن بين يديك ؟

فارتعشت ، ولكن فى داخل نفسى لا فى ظاهرها . أما فى الظاهر فاننى لم أفضح أمرى بشىء ، ولا طرفت لى عين . حتى اننى أردت أن لا أصدق سؤاله ، فقلت:

ــ ماذا ؟ بين يدى ، الرسـالة بين يدى ؟ كيف تـكون بين يدى وقد حرقها كرافت ؟

ــ حرقها ؟

وحدق الىَّ بنظرة من نار ، نظرة جامدة ما أزال أذكرها . وظل مع ذلك مبتسـماً ، غير أن كل ما كان فى وجهـه من طيبـة ، ومن رقة قد اختفى فجأة . وعبرت هيئته عن حيرة وابهام . وازداد ما كان يظهر عليه من ذهول . فلو كان أكثر سـيطرة على نفسـه ، لو أنه سيطر على نفسـه كما كان يسيطر عليها حتى الآن ، لما ألقى علىَّ ذلك السؤال عن الوثيقة . أما وأنه فعل ، فهذا دليل أكيد على أنه كان خارجاً عن طوره . ولكننى اليوم انما أقول هذا الكلام . أما فى ذلك الوقت فاننى لم أدرك التغير الذى أصابه ، بمثل هذه السرعة ، وظللت أطير ، وظلت نفسى زاخرة بتلك الموسيقى نفسها . ولكن قصتى انتهت . ونظرت اليه . فقال لى فجأة منذ فرغت من الحديث :

ــ شىء غريب ، غريب ياصديقى : تقول انك كنت هناك من الساعة

الثالثة الى الساعة الرابعة ، وان تاتيانا بافلوفنا لم تكن فى البيت ، أليس كذلك ؟

ـ من الساعة الثالثة الى الساعة الرابعة والنصف تماماً .

ـ تصور أنى ذهبت الى تاتيانا بافلوفنا فى الساعة الثالثة والنصف تماماً ، فاستقبلتنى فى المطبخ . اننى أصعد اليها على سلّم الخدمة فى كل مرة تقريباً فهتفت أقول وأنا أتقهقر الى وراء من شدة الدهشة :

ـ ماذا ؟ استقبلتك فى المطبخ ؟

ـ نعم ، وقالت لى انها لا تستطيع أن تستقبلنى ، فلم أمكث الا دقيقتين . وما كنت قد ذهبت اليها الا لأدعوها الى الغداء على كل حال .

ـ لعلها وصلت فى تلك اللحظة نفسها ؟

ـ لا أدرى . ولكن لا . مستحيل . لقد كانت لابسة قميصاً . كانت الساعة هى الثالثة والنصف تماماً .

ـ ولكن ... ألم تقل لك تاتيانا بافلوفنا اننى عندها ؟

ـ لا ... لم تقل لى انك هناك ... والا لكنت عرفت فما سألتك عن شىء ...

ـ اسمع ، هذا أمر خطير جداً ...

ـ خطير أو غير خطير ، ذلك يتوقف على الجهة التى تنظر اليه منها ... ولكننى أرى أن وجهك قد اصفر لونه ... فأين الخطورة فى الأمر ؟

ـ لقد ضُحك على كما يُضحك على طفل ...

ـ بل كل ما فى الأمر أنها « خافت من حرارة اندفاعك » ، كما قالت لك ، فاختبأت وراء تاتيانا بافلوفنا .

ـ ما هذه القصـة يارب ؟ اسـمع ، لقد أنطقتني ذلك الكلام كله بحضـور شـخص ثالث ، أمام تاتيانا بافلوفنا • معنى هذا أن تاتيانا بأفلوفنا سمعت ما قلته ! هذا ••• هذا رهيب ! بل رهيب تصوره !

ـ كل شيء نسبي يا عزيزي ! ثم انك قد ناديت برحابة الفكر ، للمرأة عامة ، وهتفت تقول : « عاشت رحابة الفكر » •

ـ لو كنت أنا عطيل ، وكنت أنت ياجو ، لما استطعت أن تقول خيراً من هذا •• ولكنني أفرح •• أضحك •• فلا يمكن أن يكون ههنا عطيل، اذ ليس ثمة علاقات من هذا النوع • وكيف لا أضحك ؟ ليكن ما كان ! انني أظل رغم كل شيء مؤمناً بما هو أسمى مني كثيراً ، ولا أفقد مثلي الأعلى ! ••• ان كان ذلك مزاحاً منها ، فانني أغفره لها • ماذا أن تمزح مع مراهق مسكين ؟ انني أقبل منها هذا المزاح واضحك •• أنا من جهتي لم ألبس أي قناع • والطالب ••• « الطالب » كان هناك رغم كل شيء••• كان •• كان في قلبها ، كان في نفسها •• كان وبقي وسيبقى • وكفى الآن ! اسـمع : ما رأيك ؟ أأمضي اليها فوراً فأعرف الحقيقة كلهـا ، أم لا ؟

قلت « أضحك » ، ولكن الدموع كانت تترقرق في عيني •

ـ افعل ما يحلو لك يا صديقي ، اذهب اليها اذا كنت ترغب في ذلك •

ـ أحس أنني لطخت نفسي اذ قصصت عليك هذا كله • لا تزعل ، ولكنني أرى أنه لا يجوز لرجل أن يتحدث عن امرأة الى شخص آخر • ذلك رأيي أكرره وأصر عليه • ان من تتخذه نجياً وتفضي اليه باسرارك لن يفهم أبداً • الملاك نفسه لن يفهم • حين تحترم امرأة فلا تتخذ لك

نجياً تبوح له بأمورك . واذا كنت تحترم نفسك فلا تفعل ذلك أيضاً . انني الآن لا أحترم نفسي . الى اللقاء . لن أغفر لنفسي ما فعلت ...

ـ دعك يا صديقي ، انك تبالغ ! أنت نفسك قلت « انه لم يحـدث شيء » .

وخرجنـا ، وودع كل منا الآخـر . وقال لي وفي صوته ارتعاش خاص :

ـ ولكن ألا تريد أن تقبلني يوماً من كل قلبك ، كما يقبل ابن اباه ؟

فقبلته بحرارة .

قال :

ـ عزيزي ... كن طاهراً نقياً على الدوام كما أنت طاهر نقي في هذه اللحظة .

لم أقبـله قبل هذه المرة في حياتي ، ولا كان يمكنني أن أتصور أن يطلب مني هو نفسه ذلك .

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يتشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف